الطفولة

تمهيد

«اسمي كويكوه وعمري تسع سنين اناس كثيرون ينادونني (ياولد) ولكنني اعيش وحدي ، انا ابيع (اللبان)في ميدان أوردور في ساعات السينما، كثير من الاولاد والبنات يشترون مني قبل الذهاب للسينما .. لا اذهب للمدرسة لان ليس معي نقود .. امي ماتت اثناء ولادتي ولا احد يعرف من هو ابي ... احدى النساء ارضعتني اللبن حين كنت طفلا صغيرا ولكنني كبرت الان واشتغل .. انام بعد ان يتقدم الليل .. الساعة الثانيه صباحا واحيانا الساعه الثالثة .. ليس عندي بيت انام فيه .. أنام في محطة البنزين ، واشترى الاشياء التي يبيعونها على الطريق . الدنيا مليئة بالناس المرضى .. اتمنى ان تكون سنة ١٩٧٩ بدون حرب وبدون اطفال يولدون مثلي ... انا اقاسي كثيرا .. ليس عندي صابون ولا سكر ولا اشياء اخرى كثيرة جدا .. اتمنى من سنة ١٩٧٩ ان تجلب لي بيتا وتجلب للناس في القرية الماء حتى يشربوا .. لاتاخذ صورتي الا لا احب ان يرى الرجل الابيض قذارتي » .

(كويكو ــ طفل من اكرا ــ غانا)

فى اوائل هذا القرن ، وبالذات في عام ١٩١٢ كتبت ماريا منتسورى Maria Montessori التى كانت تعتبر من اكبر علماء التربية ليس فى ايطاليا وحدها بل وفى العالم اجمع تقول ان حرية الطفل يجب أن يسمح بها فى حدود مصلحة الجماعة لان هذا الشكل للحرية هو الذى يعتبر بحق مثال التربية الطيبة ، ومن هنا كان ينبغى علينا ان نوقف فى الطفل كل ما من شانه ان يتسبب فى ايذاء الاخرين او ازعاجهم ، وكذلك كل ما قد عساه ان يدفعه الى العنف او السلوك غير المهذب . . » وتتضمن هذه العبارة القصيره مبدأ عاما وهاما يجد له صدى قويا لدى الجميع لانه يكفل للطفل التمتع بحريته وان كان فى الوقت ذاته يحدد هذه الحريه ويقيدها بمصلحة الجماعة التى ينتمى الطفل اليها كما انه يعترف للطفل بحق (العمل) والانطلاق لكى يحقق ذاته ويهيىء له الفرصة كاملة للخلق والابداع ، وهى كلها عناصر هامة في تكوين الشخصية المتكاملة التى تستطيع التكيف والتلاؤم مع المجتمع .

فالهدف الاساسى للتربية الصحيحه اذن ــ فى راى ماريا منتسورى ــ كان هو تحقيق ذلك التوازن الحيوى بين الحرية والمسئولية ، بين الابداع والانطلاق والابتكار من ناحية ، والنظام والالتزام من الناحية الاخرى حسب ماتقول بل موني Bel Mooney فى كتابها الذى صدر منذ اسابيع قليلة فقط (اوائل يوليو ١٩٧٩) والذى تقدم فيه ، بمناسبة العام الدولى للطفل ، دراسة طريفة لاثنى عشرة حالة لاطفال مختارين من انحاء مختلفة من بريطانيا ، وتكشف لنا فى هذه الدراسة عن العناصر السلوكية والتربوية والاجتماعية التى تتدخل فى تكوينهم وتنشئتهم ، والى اى حد افلحت هذه العناصر فى تحقيق التوازن المنشود (انظر :

Bel Mooney: The year of the Child: Portraits of Brritish Children; Hutchinson, London 1979)

الا ان ماريا منتسورى تذهب فى حقيقه الامر الى ابعد من هذا بكثير اذ تقول : « اننا لا ندرك تماما ما قد ينجم من آثار ونتائج وخيمه اذا نحن خنقنا منذ البداية كل عمل تلقائي يمكن ان يصدر من الطفل بمجرد ان يبدى الطفل رغبة او ميلا فى اداء ذلك العمل ، لاننا قد نخنق فيه بذلك الحياه ذاتها .. فالانسانية تكشف عن نفسها وعن كل مافيها من روعة ومن سمو عقلى فى تلك السن المبكرة ، تماما مثلما تكشف الشمس عن نفسها وقت الفجر ، ومثلما الزهرة عن وجودها حين تظهر (بتلاتها Petals) المبكره .. ومن هنا الحرية وتقيدها بمصلحة الجماعة التى ينتمى والاجلال هذه العلاقات الاولى للكيان الفردى » .

كانت هذه الاراء تردد اذن منذ سبعة وستين عاما وكانت تعتبر فى ذلك الحين آراء ثورية متمردة ، ولكننا اصبحنا نتقبلها الان ونسلم بها رغم ماقد يكون هناك من خلاف فى الراى حول افضل الطرق والاساليب التى يمكن بها التوفيق بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة او بين الحرية والمسئولية . . وعلى الرغم من ان التسليم بان التربية الصحيحة ــ ان كان هناك مثل هذه التربية ــ تتمثل فى التوفيق والملاءمة بين هذين العنصرين الاساسيين فثمة تفاوت كبير بين المجتمعات المختلفة و

توكيدها على احد الجانبين دون الاخر، بحيث نجد المجتمعات الحديثة في الغرب مثلا تتيح قدرا اكبر من الحريــة الشخصيــة بحيث اصبحت تعرف عموما باسم مجتمعات الإباحة والتحرر Permissive Societies بينما تؤكد مجتمعات اخرى ضرورة اعلاء سلطة المجتمع واشرافه وسيطرته على الفرد ، وتركز على ابراز مسئوليات الفرد نحو المجتمع ، وقد تبالغ في ذلك بحيث يكاد المجتمع يخنق فرديــة الانسان وكيانه المستقل وشخصيته الذاتية . فكان التوفيق بين هاتين الناحيتين كما ارادت ماريا منتسوري ــ مسالة صعبة الغاية وتكشف عن مدى صعوبة عمليــة التربية ، فليست تربية الطفل في آخر الامر سوى عملية تنشئة اجتماعيــة ، او تطبيع اجتماعي هدفها هو تحقيق ذلك التوازن بين الطفل وحاجات ورغبات ومصالح المجتمع الذى يعترف في الوقت ذاته بفردية الطفل واستقلال شخصيته وكيانه ووجوده .

والمعروف ان الكائن البشرى عاجز الى ابعد حدود العجز ، وانه يقطع خلال حياته طريقا طويلا شاقا ومليئا بالمواقف الجديدة والتغيرات المفاجئة التى يتعين عليه ان يكيف نفسه معهــا ويتعلم منها ويسخرها لصالحه الخاص . وليست التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي Social. Zalion في جوهرها الا عملية تكيف مستمر مع هذه الظروف والاوضاع والمواقف، ومن هنا فانها لا ترتبط في حقيقة الامر بسن معينة بالذات، ولا تقتصر على مرحلة عمرية معينة ، وانمــا تستمر طيلة حياة الانسان ، وان كانت تختلف عناصرها ومكوناتها باختلاف المراحل والتجارب التى يمر بها الفرد والمواقف التى يجد نفسه فيها والتى ينبغى عليه ان يعدل من سلوكه ليتلاءم معها او يستجيب لها او يستغلها لصالحه ، ومن هنا تعتبر التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي شيئــا اكبر واوسع واعمق واشمل من مجرد التعليم الرسمى او التربية الرسمية المنهجيــة المنظمه ، التى يتلقاها الطفل في المدرسة ، ثم بعد ذلك في معاهد التعليم المختلفة . انها عملية تبدا منذ اليوم الاول لولادة الطفل الذى يجد نفسه منذ البداية في مجتمع معين تميزه ثقافة معينة تتألف من عادات وتقاليد ونظم وعلاقات معينة ايضا ، فيخضع لتلك العادات والتقاليد ويدخل طرفا في كثير من هذه النظم والعلاقات ، وتتعقد علاقاته وتتشابك وتتشعب بمرور الزمن . وهذه نقطة هامة في عمليات التنشئة او التطبيع الاجتماعي انتبه اليها كل الذين درسوا الموضوع في مجالات علم النفس والاجتماع والانثربولوجيا والتربية ، وبخاصة حين كانوا يعرضون لدراســة الطابع القومى او الشخصية القومية ، **كما ابرزها ــ وان يكن بدرجات مختلفة ــ كل الاساتذة الذين اسهموا بدراساتهم في هذا العدد من المجلة ، والتى تناولوا فيها الطفولة ومقوماتها ومشكلاتها وتنشئتها ونموها .**

ولكن هــذا لايعنى بالضرورة ان الاطفال الذين يولدون في مجتمع معين وثقافــة معينة يصبون جميعــا في قالب واحد بحيث يصبحون نسخا متشابهــة من نفس الاصل . فالتجارب والخبرات والظروف الاجتماعية والاقتصاديــة والعائلية تختلف من فرد لآخر مما يسمح بقيام الفوارق الفرديــة داخل المجتمع الواحد ، على الرغم من وجود خلفية واحدة واساس واحد

يشترك فيه جميع اطفال ذلك المجتمع . وهذاالاساس هو الثقافة السائدة فى المجتمع ، بكل ماتعنيه كلمة (ثقافة) في الاستخدام الانثربولوجى. من الطبيعي ان يقوم الوالدان بالدور الاول فى عملية التنشئة الاجتماعية ، مادامت هذه العمليةتبدا بولاده الطفل ، ومادام الطفل يولد فى اسرة معينة تكون بمثابة المجتمع الاول ، او المجتمعالنواة ، الذى يتعين عليه ان يتكيف معه ويكتسب منه اولى المؤثرات التى تتدخل فى تشكيل حياتهوتطويع سلوكه الاجتماعى . فالوالدان يدفعان طفلهما ـ قصدا أو من غير قصد ـ فى طريقمرسوم ، ويخضعانه لاساليب تربوية محددة ، تتضمن اتجاهات وافكارا وآراء ومعتقدات وقيماوانماطا سلوكية متعارف عليها ، اى انهما يوجهان عن وعى أو من غير وعى منهما عملية التنشئةوجهات معينة منذ البداية، وان كان الفرد بطبيعة الحال يخضع فيما بعد لكثير من المؤثرات الاخرىالتى تأتى من الاشخاص الذين يحتك بهم (زملاء المدرسة وزملاء اللعب مثلا والمدرسين وزملاءالعمل وما الى ذلك)، او من البيئة الفيزيقية التى تحيط به سواء اكانت بيئة صحراوية او ريفية اوحضرية او صناعية ، او من وسائل الاعلام كالتليفزيون والسينما والراديو وما اليها . وكل هذه المؤثرات تشترك معا فى تشكيل شخصيته وتكوين عقليته ، وفى تحقيق ذلك التوازم مع الجماعة وقيمها واهدافها وتراثها ، اى تطويع الفرد داخل انماط صاغتها ثقافة ذلك المجتمع على مر العصور ، حسب مايقول تشايلد J. L. child

فى كتابه الطريف (ايطالى او امريكى Italian or American) الذى نشره عام ١٩٢٤ والذى حاول ان يبين لنا فيه الى اى حد يعكس سلوك اطفال المهاجرين الايطاليين انماط الحياة الايطالية التقليدية ، والى اى حد يتلائم هذا السلوك مع الحياة الامريكية ، وهل يعتبر هؤلاء الاطفال على هذا الاساس ايطاليين او امريكيين . وبقول آخر فان هذا الكتاب كان يحاول الوصول الى اجابة عن التساؤل من اين توجد ايطاليـ كثقافة داخل كل طفل منهم ، واين توجد امريكا!

وهذا كله يدل دلالة قاطعة على ان التنشئة الاجتماعية لاتسير فى اتجاه واحد فقط ، وان الطفل يخضع لمؤثرات كثيرة ومعقدة ومتشعبة . ولكنها تتضافر كلها فى اخر الامر فى اعداده لان يكون عضوا متكاملا مع غيره من اعضاء المجتمع ،وتحقيق ذلك التوازن الذى قالت به ماريا منتسوري بين حرية الفرد وانطلاقه وبين صالح الجماعة ، وانه مهما يكن من تاثير الوالدين المباشر على اولادهم فانه لايمكن الزعم بأن الطفل يمكن ان يكون نسخة مطابقة تماما لاحد الوالدين . فكان التنشئة الاجتماعية تتالف حقيقة الامر من عمليتين مختلفتين ولكنهمامتكاملتان : الاولى هى عملية نقل الثقافة التى تسود فى المجتمع الى الطفل ، **والثانية** هى عملية التكيف الذى يقوم به الطفل ليتلاءم مع البيئة والمجتمع والثقافة التي يعيش فيها. والعمليتان كلتاهما تستمران طيلة حياة الفرد ، وان كانت مكوناتها وعناصرها تختلف كماذكرنا بحسب الظروف وتبعا لتقدم الفرد فى السن ومايكتسبه من خبرات . فليس من شك فى ان الطفل يكون فى بداية الامر (سلبيا) ان صح هذا القول ، بحيث يستقبل كل التاثيرات الخارجية التى تعمل باستمرار وبغير انقطاع فى تشكيل شخصيته ، ثم لايلبث بمرور الزمن ان (يكون فكرة عن نفسه) او يكتشف ذاته وبذلك يصبح

اقدر على المقارنة وعلى الاختيار بين مختلف المواقف والامكانات .... وهذا عنصر آخر هام في تكوين الشخصيه وفي ابراز الاختلافات والفوارق بين اعضاء المجتمع الواحد . فقد تتضارب المعايير التي يتعرض لها الطفل كما هو الحال مثلا حين تختلف معايير البيت والمدرسة والقيم التي تسود في كل منهما ، وبذلك يواجه الطفل كثيرا من المشكلات الصعبة حول اي النمطين من انماط القيم والمعايير يقبل وايهما يرفض ... وهذا التضارب هو الذي يزيد تجارب الفرد منذ طفولته ويثريها ، وان كان يعطل في كثير من الاحيان سير عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

وربما كان هذا هو الموقف الذى يواجهه الطفل في المجتمعات التي تتعرض للكثير من عوامل التغير السريع المفاجيء كما هو الحال مثلا في المجتمعات العربية التي تمر في الوقت الحالي بمرحلة من اخطر مراحل تاريخها ، حيث تفرد كثير من الافكار والفلسفات والاتجاهات الحضاريه والثقافية الوافدة من الخارج ، في الوقت الذى لايزال تاثير الثقافة التقليدية المتوارثة قويا للغاية ، وبذلك يواجه الطفل منذ سن مبكرة اوضاعا اجتماعية متضاربة بل ومتناقضة . وكثيرا ماتكون هذه الاوضاع جديدة حتى على الوالدين نفسيهما اللذين يتوليان تنشئه الطفل وتوجيه حياته وسلوكه ، بحيث يجد الوالدان نفسيهما عاجزين عن التعرف على افضل الاساليب والطرق للتوفيق بين هذه الثقافة التقليدية الراسخة والثقافات والتيارات الفكرية والاتجاهات السلوكية الجديدة الطارئة التي لايفهمها الاباء والامهات تماما ولايقرونها لانها على اقل تقدير – لم تكن جزءا من تكوينهما النفسي والعقلي والاجتماعي ، كما لم تكن عنصرا من عناصر تنشئتهم وتربيتهم واعدادهم للحياة ... وربما كان هذا هو السبب في ان الكثيرين من علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا ممن يهتمون بدراسات الطفولة وعمليات التنشئة الاجتماعية يقفون في صف اساليب التعليم التقليدية في المدارس الابتدائية ، ويدافعون عنها على اساس ان تلك كانت هي الاساليب التي خضع لها الاباء والامهات حين كانوا اطفالا ؛ وبذلك فلن يكون ثمة تعارض بين تاثير البيت وتاثير المدرسة على الاطفال ، وهو الامر الذى لن يتحقق بسهولة في حالة اتباع المدرسة لاساليب التعليم الحديثة او غير التقليدية التي لم يالفها الاباء بعد ، او التي ليس لهم بها علم او دراية .... ويجب الا يؤخذ هذا الكلام على انه هجوم على اساليب التعليم الحديثة او محاولة للتهوين من شأنها وفاعليتها .

وهذه على اية حال مسألة خارجة عن نطاق هذا الحديث ، وكل مايهمنا هنا هو ان نؤكد ان افضل اساليب التنشئة الاجتماعية داخل نطاق الاسرة هي تلك التي لاتؤدى – مااكن ذلك – الى شعور الطفل باية ضغوط حين يواجه المواقف الاجتماعية المختلفة ، وهي الضغوط والتوترات التي كثيرا ماتدفع الى الانحراف والى الجنوح .

والشائع هو ان الام تلعب الدور الرئيسي في تنشئة الطفل وفي عملية التطبيع الاجتماعي كنتيجة طبيعية لارتباط الطفل بها في السنوات المبكرة من حياته ، اكثر من ارتباطه بالاب وتاثره به . ويتمثل

هذا بوجه خاص فى المجتمعات التقليدية التى تقف فيها المرأة حياتها وجهودها على شئون البيت والاسرة ورعاية الاطفال دون أن تمارس عملا فى الخارج . ولكن يبدو ان هذا الموقف اخذ فى التغير بسرعة نتيجة خروج الام للعمل خارج البيت وانتشار حركات « التحرر النسائي » فى الغرب على الخصوص ، حيث ترتفع الاصوات بضرورة اشراك الاب فى تربية الطفل ورعايته منذ الولادة ، على اعتبار ان التربية هى مسئوليا الوالدين معا وليست عملا متخصصا وقاصرا على الام . والواقع انه حتى بدون هذه الدعوة وبدون قيام هذه (الحركات التحررية) فان الاب يلعب وفى كل المجتمعات فى تنشئة الطفل منذ الصغر دورا اكبر مما يظن في العادة ، وان كانت الام تمضى بحكم طبيعة الاشياء وواقع الامور فترات من الوقت مع الطفل اطول من تلك التى يمضيها الاب ، ولذا كان تأثيرها اوضح واعمق فى السنوات المبكرة ، كما انه يترك بعض البصمات على شخصية الطفل خلال بقية حياته ... ومن هنا كان انفصال الطفل عن الام او ابعاده عنها ـ وبخاصة فى السنوات الخمس الاولى من حياته ، يعتبر فى نظر الكثير من اقسى الاجراءات التى يمكن ان يتعرض لها الفرد فى حياته . وربما كانت هذه هى الحكمة من وراء منح حق الحضانة للام فى السنوات الاولى للطفولة ، وحتى سن معينة ، لما لهذه العلاقة بين الام والطفل من اثر على التوازن النفسى والاجتماعى لدى الطفل ... وصحيح ان هناك مجتمعات تفصل الاطفال عن امهاتهم وهم لايزالون فى سن صغيرة نسبيا ويوكل امرهم الى اشخاص آخرين من اعضاء المجتمع الذكور لكى يتولوا تربيتهم والاشراف عليهم وتأهيلهم للحياة الاجتماعية ، كما هو الحال فى بعض المجتمعات القبلية في افريقيا وبخاصة تلك التى تعرف نظام طبقات العمر الذى يهيىء الافراد للقيام بادوار معينة يحددها لهم المجتمع . ولكن هذا يحدث عادة بعد ان يتخطى الطفل المراحل المبكرة من طفولته ، ويكون اقرب الى مرحلة البلوغ ، كما ان النظام كله يهدف فى آخر الامر الى ادماج الفرد فى المجتمع الكبير ككل ، وتحديد مركز اجتماعى له . اى ان للنظام وظيفة مكملة لوظيفة الاسرة والبيت فى التنشئة الاجتماعية ، وهى اشبه بوظيفة المدرسة او حتى مراكز التدريب والتأهيل فى المجتمعات الاكثر تقدما . وزيادة على ذلك فان هذا النظام يؤدى الى خلق علاقات اجتماعية واسعة بين الاطفال الذين يمرون بهذه الشعائر بحيث تقوم بينهم مايمكن تسميته بالقرابة الاجتماعية التى تفرض عليهم التزامات وواجبات تماثل تلك التى تقوم بين الاقارب الحقيقيين . وهذا نمط من التنشئة يتلاءم تماما مع الظروف البيئية والاجتماعية والاقتصادية التى تعيش فيها تلك الجماعات والقبائل فى الغابات ، والتى تحتاج الى درجة عالية من التكافل الاجتماعى . وهذا النظام يشبه ، الى حد ما على الاقل ، مايحدث فى كثير من المجتمعات التقليدية التى تسود فيها العائلات الكبيرة الحجم ، فهناك يخرج الطفل ليجد نفسه محاطا باعداد كبيرة من الاشخاص البالغين والذين يكبرونه سنا من كلا الجنسين ، والذين يسهمون جميعا بشكل او باخر فى تنشئته وتوجيهه واعداده للحياة ، وبذلك لاتكون التنشئة عملا قاصرا على الوالدين وحدهما . وهذا يساعد من ناحية على تحرر شخصية الطفل واستقلالها عن شخصية الابوين ، ولكن من الناحية الاخرى كثيرا ما ينشأ عن هذا الاسلوب من التنشئة بعض المشكلات اذا تعرض الطفل لتأثيرات

ولوجيهات عديدة متضاربة من اشخاص لهم قيم وانماط سلوكية وافكار واتجاهات متعارضة .. وهذا يذكرنا بما سبق ان قلناه عن تصارع القيم والانماط السلوكية بين البيت والمدرسة واثره في حياة الطفل .

وايا ما تكون العوامل التى تتدخل فى عملية تنشئة الطفل والصعوبات التى تتعرض لها هذه العملية وعدم اتفاق العلماء على خير الوسائل والاساليب التي يمكن اتباعها فى ذلك واختلاف المجتمعات بعضها عن بعض فى نظرتها الى الطفل واسلوب تربيته وتنشئته والتوقعات التى تنتظرها هذه المجتمعات من اطفالها حين يكبرون ، فالظاهر ان العملية اصبحت الان اكثر تعقيدا

ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل والاجهزة الرسمية وغير الرسمية التى تضطلع الان بجانب هام ومؤثر فى تنشئة الاطفال كانت تقوم به الاسرة والمدرسة قبل ذلك . وتقوم وسائل الاتصال والاعلام المختلفة بدور هام فى ذلك . ولم يعد التليفزيون بالذات مجرد وسيلة للتسلية ، وانما اصبح اداة هامة من ادوات التعليم والتربية والتوجيه ، وبالتالى اداة فعالة فى التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعى ، خاصة وان الاطفال فى كل المجتمعات يميلون الى الجلوس لاوقات طويلة امام اجهزة التليفزيون ، وبذلك فانهم يقلدون فى سلوكهم اليومى مايشاهدونه فى البرامج المختلفة . وكثير من الكتاب والمفكرين يعزون انتشار الجريمة والعنف والتحرر فى السلوك الجنسى الذى يسود فى المجتمعات الغربية وبخاصة امريكا الى البرامج التليفزيونية التى تميل الى ابراز هذه الجوانب وتدور حولها . انما الذى يهمنا فى الدرجة الاولى هو ان وسائل الاعلام الجماهيرى تحقق ذيوع وانتشار ورسوخ انماط سلوكية موحدة ، وتعمل على تقريب الاتجاهات والمواقف والقيم فى المجتمع ، وهذه مسألة لها اهميتها بغير شك لانها تقلل من التناقض والتضارب داخل المجتمع الواحد . وهنا ايضا يكون من الخطأ الاعتقاد ان دور الاطفال امام وسائل الاعلام بما فيها التليفزيون دور سلبى بحت ، وانهم يتقبلون كل مايشاهدونه امامهم بطريقة واحدة ، فالواقع ان استجابات الاطفال تتفاوت ، ولذا فان عملية تكيف الاطفال مع البرامج التى تقدم لهم تجد فى الوقت الحالى كثيرا من عنايه واهتمام علماء النفس والتربيه . وكما يقول جيمس هالوران مدير مركز بحوث الاتصالات الجماهيرية بجامعة ليستر بانجلترا : « ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل الاتصال ... ثم ان الاطفال بالاضافه الى الفروق الاساسية فى تكوينهم ينشأون فى ظروف مختلفة ، ويرون اشخاصا مختلفين ، ويكتسبون تجارب مختلفة ، تتاح لهم فرص متعددة ، ولذلك فانهم عندما يتشاهدون التليفزيون يحكمون عليه بالمعايير التى اكتسبوها من مجموعة التجارب الماضية والعلاقات الحاضرة والامال المستقبلة . ومن هنا لم تكن القضية هى مايفعله التليفزيون بالاطفال ولكن هى ماذا يفعل الاطفال بالمادة التي يعرضها التليفزيون عليهم » . (انظر مقال هالوران عن آثار التليفزيون على الاطفال ، الذى نشر فى مجلة **رسالة اليونسكو**

• • •

ولقد اعلنت الامم المتحدة عام ١٩٧٩ عاما دوليا للطفل ، وذلك بقصد تحسين ظروف الحياة لاطفال العالم . وكما جاء فى احد النداءات التى وجهتها الامم المتحدة حول هذا الموضوع فان هذا العام

سوف يشمل **جميع** الاطفال ولكن مع التوكيد بوجه خاص ــ وهو توكيد له ما يبرره ــ على الاطفال المحرومين من الحب ومن الطعام ومن الصحه والمأوى ، ومن التعليم نتيجه لظروف خاصة حرمتهم من اشباع هذه الاحتياجات ، او الاصح التمتع بهذه الحقوق الطبيعية للطفل . ولم يكن من مخططات هذا العام عقد اى مؤتمرات دولية او انشاء اية منظمات جديدة ، وانما هو عام يقوم ويرتكز فى المقام الاول على الجهود الذاتية التى تبذلها الحكومات والمؤسسات والافراد والهيئات العلمية فى مختلف الدول ، لدراسة مشكلات الاطفال بها ووضع خطط لمشروعات تتصل بتحقيق تلك المطالب وتمكين الطفل من التمتع بتلك الحقوق . ولقد حرصت الامم المتحدة فى الوقت ذاته على ان يؤخذ فى الاعتبار راى الاطفال انفسهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها وتصوراتهم ومطالبهم وحقوقهم . وهذا اتجاه جديد فى معالجة مشكلات الطفل والطفولة . فلقد درج الباحثون من قبل على الاكتفاء باستطلاع آراء الوالدين والكبار والبالغين بوجه عام باعتبارهم المسئولين عن تربية الاطفال وتعليمهم وتنشئتهم وتطبيعهم اجتماعيا ، دون ان يعطوا للطفل ذاته اية اهمية ، على الرغم من ان هذه الدراسات تدور حوله وسوف تؤثر نتائجها فى حياته ، وعلى الرغم من ان معرفة راى الطفل قد تكون مفتاحا لفهم كثير من المشكلات التى قد تدق على افهام الكبار .

ازاء ذلك ، وضعت منظمة اليونسكو قائمة قصيرة من الاسئلة الطريفة (عشرة اسئلة) اقترحت توجيهها الى اطفال العالم عسى ان تؤدى المعلومات التى تجمع عن طريقها الى الوصول الى فهم اعمق لمشكلات الطفل والطفولة . وسوف نرى كيف ان هذه الاسئلة تنمية استثارة تفكير الطفل فى نفسه ووالديه والاوضاع الاجتماعية السائدة فى مجتمعه وتتيح له فرصة التقويم هذا : ــ

١ ــ هل تعتقد انه ينبغى على الوالدين مناقشة المشكلات العائلية مع اطفالهما ؟

٢ ــ ماهى السن التى يجب ان يكون عليها الاطفال حتى يمكن للوالدين مناقشة المشكلات الجنسيه معهم ؟

٣ ــ هل يتحمل الاطفال مسئوليات كافية ؟

٤ ــ هل ستعامل اطفالك بطريقة تختلف عن الطريقة التى عوملت انت بها ؟

٥ ــ هل تعتقد انه يجب معاملة البنات بالطريقة نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟

٦ ــ هل تريد ان تحيا حياة تختلف عن حياة والديك ؟

٧ ــ هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة ؟

٨ هل يخيفك الكبار ؟

٩ ــ هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات ؟

١٠ ــ هل تعتقد ان الكبار يعرفون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟

ولقد حصلت اليونسكو على كثير من المعلومات الطريفة التى لايخلو بعضها من كثير من العمق والفهم والسخرية حين وجهت هذه الاسئلة الى (عينة) مختاره من اطفال العالم . **مثال ذلك** ان طفلا كنديا يبلغ من العمر احدى عشرة سنة يجيب على السؤال التاسع : هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات بقوله : نعم ، ان الكبار يعتقدون انهم الوحيدون الذين يستطيعون اتخاذ قرارات تتعلق بالاطفال حتى فى الحالات التى يجب أن يكون القرار هو قرار الطفل نفسه . فقد يقولون مثلا : **اننى اشعر بالبرد ولذا فمن الافضل ان ترتدى سترتك ،** دون ان يهتموا **بسؤال الطفل اذا كان** يشعر بالبرد أم لا، وانما هم يفترضون ان الطفل لا بد وان يشعر بالبرد لانهم هم انفسهم يشعرون به » . وقد اجاب على السؤال العاشر « **هل تعتقد ان الكبار يعرفون** كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟ بقوله : ـ « اننى لا احب ان ارى شخصا كبيرا ينحنى فوقى ويقرص خدى ويقول لى كيف سارت الامور فى المدرسة اليوم ؟ **هل تصرفت كولد طيب ؟ . . .** وكثير من الكبار لايحبون ان يجلسوا مع الصغار لانهم يعتقدون ان الصغار يثيرون كثيرا من الضجة والصخب ، ولكنهم كثيرا ما ينسون انهم هم انفسهم كانوا يفعلون الشيء نفسه حين كانوا صغارا . فالكبار يعتقدون ان ما يفعلونه هو اهم شيء فى الوجود . وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لهم . ولكن حين يثير الصغار الضجة وحين يلعبون فان هذا يعتبر ايضا امرا مهما بالنسبة لهم (اى الصغار ولا يقل اهمية عما يفعله الكبار . وكثير من الكبار لا يعرفون كيف يتكلمون مع الصغار ، ويعتقدون أن الصغار متشابهون سواء كان عمرهم احدى عشرة سنة او خمس سنوات . ان ذلك يشبه ان يتفرس الناس فى (الاقزام الصغيرة) ويتعجبون منها لا لشيء الا لانهم اعتادوا على رؤية الاجسام الطبيعية التى لها ذراعان وساقان ولها حجم طبيعى . فالصغار اشبه بهذه الاقزام الصغيرة فى نظر الكبار . انهم اقزام مضحكة لانهم صغار الجسم . والكبار لايعرفون كيف يتصلون بهم لانهم غرباء عنهم تماما . الطفل فى نظرهم شيء مختلف وغير مالوف . . شيء اشبه بالزنوج او الناس الفقراء جدا ـ .

وتجيب **فتاة سويدية** فى العاشرة من عمرها عن السؤال السابع ـ هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة ـ بقولها : « فى بعض الاحيان تثور امى علىّ حين تعود الى البيت من العمل ، واشعر انها ثائرة بسبب شيء ما فى العمل نفسه، ولكنها تغضب علىّ انا بدلا من ان تثور على العمل ـ ومن ناحية اخرى تجيب **فتاة بريطانية** فى العاشرة من عمرها ايضا على السؤال الخامس ـ هل تعتقد انه يجب معامله البنات بالطريقة نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟ » بقولها : نعم ، فانا مثلا لا احب اللعب بالرمى وحين احصل مثلا على جهاز لتجفيف شعر الدمية فان ما احب ان افعله هو ان انزع الغطاء عنه وانزع البطاريات وكل ماشابه ذلك . اننى اعتقد ان الاختلاف الحقيقى الوحيد بين البنات والصبيان هو ان الصبيان اقل ازانا »

وتكفى هذه الامثله التى اخترناها من مجموعة كبيرة من الاجابات على الاسئله العشرة السابقة لتبيين كيف يفكر الاطفال وكيف ينظرون الى مشاكلهم والى مكانتهم بالنسبة للكبار ،وكيف

يحكمون على سلوك هؤلاء الكبار وتصرفاتهم ويقومونها . والمفارقة الطريفة هنا هى ان التعرف على آراء الصغار قد يساعد الكبار الراشدين على فهم انفسهم ، على ان ينظروا الى انفسهم بعيون هؤلاء الصغار ، وقد يوحى اليهم ذلك بمراجعة تصرفاتهم وسلوكهم ازاء اطفالهم ، وان يوجهوا عملية التنشئة بالتالى وجهة تتفق مع الاحتياجات الحقيقية للاطفال كما يعبر عنها هؤلاء الاطفال انفسهم . لقد عبر كوبكو ـ وهو الطفل الغانى الصغير ابن التاسعة ـ عن هذه الامال والاحتياجات وعن رايه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وعن نظرته الى نفسه ، وبخاصة ازاء الرجل الابيض فى تلك العبارات العميقة المؤثرة التى استشهدنا بها فى مطلع هذا الحديث . . . وهذه الامال والتطلعات والاحتياجات ذاتها يعبر عنها ـ ولكن باسلوب اخر وطريقة اخرى وان كانت تؤدى الى الهدف ذاته ، ابن اخر من ابناء افريقيا وهو **احمد مختار امبو** المدير العام لليونسكو ، حيث يقول بمناسبة العام الدولى للطفل (١٩٧٩) : ـ

«من الحقائق التى تتردد على السنة الناس كثيرا ان الاطفال هم امل العالم ، فلنتاكد خلال العام الدولى للطفل ، وفى كل عام يليه ان اطفال العالم يعلمون اننا ، معشر الراشدين ، نهتم بسعادتهم ونعمل من اجلها . ولتكن جهود هذا العام عونا لنا على ان نفهم الاطفال بطريقة افضل ، وان نذكر حين نعاملهم اننا كنا اطفالا مثلهم ، وبهذا يمكننا ان نتجنب الالام التى يعانيها العديد من الاطفال فى العديد من الدول . واود لو استطعنا ـ عندما ينتهى العام الدولى للطفل ـ ان نعتقد ان روح الاخاء والوحدة فى العالم قد اصبحت اقوى وافضل بما احرزناه من فهم للاطفال ، وبفضل روح التسامح التى ارسيناها فى نفوسهم» .

احمد ابو زيد

اعلان حقوق الطفل

١ ـ يتمتع الطفل بكل الحقوق المذكورة فى هذا الاعلان . ويمنح هذه الحقوق كل الاطفال دون اى استثناء ، او تفرقة او تمييز بسبب الجنس او اللون او النوع او اللغة او الدين او الرأى السياسى او غيره ، او الاصل القومى او الاجتماعى او الملكية او المولد او اية حالة اخرى له او لأسرته .

٢ ـ يتمتع الطفل بحماية خاصة ، ويمنح عن طريق القانون وغيره من الوسائل الفرص والتسهيلات التى تتيح له ان ينمو جسميا وعقليا وخلقيا وروحيا واجتماعيا نموا صحيحا وسويا ، وفى ظل الحرية والكرامة . ويراعى عند سن القوانين اللازمة لهذا الغرض ان يكون لافضل مصالح الطفل اكبر اعتبار .

٣ ـ للطفل عند مولده الحق فى اسم وجنسية .

٤ ـ يتمتع الطفل بمزايا الامن الاجتماعى ، وله الحق فى ان ينمو ويشب فى صحة جيدة ، ويجب من اجل هذا ان يحاط هو وامه برعاية وحماية خاصتين ، بما فى ذلك الرعاية المناسبة قبل الولادة وبعدها . وللطفل الحق فيما يناسبه من غذاء ومسكن وتسلية وخدمات طبية .

٥ ـ يعطى الطفل المعوق جسميا او عقليا او اجتماعيا المعالجة والتربية والرعاية اللازمة تبعا لحالته الخاصة .

٦ ـ يحتاج الطفل من اجل نمو شخصيته ، نموا كاملا متناسقا ، الى التفهم ويجب ، كلما امكن ، ان ينمو فى رعاية وتحت مسئولية ابويه ، وعلى اية حال ، فى جو من العطف والأمن المعنوى والمادى . ولا يجوز ، فيما عدا الحالات الاستثنائية ان يفصل طفل صغير السن عن امه . ومن واجب المجتمع والسلطات العامة ان تشمل بالرعاية الخاصة الاطفال الذين لا اسرة لهم ، والاطفال الذين لا يملكون موارد كافية للمعيشة . ومن المرغوب فيه ان تنفق الدولة وتبذل المعونات اللازمة لاعالة الاطفال فى الأسر العديدة الافراد .

٧ ـ من حق الطفل ان يتلقى تعليما مجانيا واجباريا ، على الاقل فى المراحل الاولى . ويجب ان يعطى تعليما يرقى بثقافته العامة ، ويساعده على اساس من الفرص المتكافئة ان ينمى قدراته ومداركه واحساسه بالمسئولية الادبية والاجتماعية ، ويصبح عضوا نافعا فى المجتمع .

ويجب ان يستهدف المسئولون عن تعليم الطفل وارشاده تحقيق افضل مصالح الطفل وتقع هذه المسئولية اولا وقبل كل شيء على كاهل ابويه .

ويجب ان يتاح للطفل الفرصة الكاملة للعب والتسلية اللذين يجب ان يوجها الى نفس الاغراض التى يتبناها التعليم ، وعلى المجتمع والسلطات العامة ان تعمل جاهدة على تعزيز تمتع الطفل بهذا الحق .

٨ ـ يجب ان يكون الطفل فى جميع الظروف اول من يتلقى الحماية والمعونة .

٩ ـ يجب حماية الطفل من كل اشكال الاهمال والقسوة والاستغلال ، ولايجوز ان يكون موضوعا للمتاجرة باى شكل من اشكالها ، ولايجوز السماح بتشغيله قبل ان يبلغ حدا ادنى من العمر ، ولايجوز بأية حال حمله او السماح له بان يتولى عملا او وظيفة تضر بصحته او تعليمه ، او تعيق نموه الجسمى اوالعقلى او الخلقى .

١٠ ـ يجب حماية الطفل من ممارسة الاعمال التى من شانها ان تعزز التمييز العنصرى او الدينى او سائر انواع التمييز ، ويجب ان يربى بروح التفاهم والتسامح والصداقة بين الناس ، والسلام ، والاخوة الشاملة والادراك التام بان يكرس طاقته ومواهبه لخدمة اقرانه .

اقر الاعلان الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٢٠ من نوفمبر ١٩٥٩ ، واستنسخه لرسالة اليونسكو دافيد برابين ، الذى يبلغ من العمر سبع سنوات .

* * *

محمد الجوهري

الطفل في التراث الشعبي

يحتفل التراث الشعبي في كل مجتمعات العالم بالطفل احتفالا خاصا ، ولاعجب في هذا . فالطفل هو « بداية » الحياة ، وهو — في ميلاده وفطامه ونموه — رمز حي متجدد لتجدد هذه الحياة. وينسج التراث الشعبي حول حمله وميلاده وحمايته آلاف الممارسات والمعتقدات . وينعكس بعضها في كثير من العناصر الفنية الشعبية مادية وغير مادية ، مما سنلمس بعضه بوضوح أكثر فيما بعد . والطفل والألعاب الشعبية يمثلان رابطة بديهية قريبة لكل ذهن ، كذلك الطفل والغناء .. الخ . ولذلك لانبالغ اذا قلنا ان دراسة الطفل في التراث الشعبي لاى مجتمع انما تمثل عرضا لقطاع مستعرض في ثقافة هذا المجتمع ، وسنطوف الناء ذلك بكافة اقسام هذا التراث من حيث ان الطفل في كل قسم منها يشكل حجر زاوية ومصدر الهام وبؤرة اهتمام .

وقد سبق لنا ان طورنا تصنيفا رباعيا لعناصر التراث الشعبي ، رأينا وقتها انه يفي بالغرض من شمول الرؤية وتعميق النظرة الى التراث الشعبي .

وقد قسمنا التراث الشعبي الى اربعة اقسام رئيسية هي :—

١ — المعتقدات والمعارف الشعبية

٢ ـ العادات والتقاليد الشعبية

٣ ـ الادب الشعبي

٤ ـ الثقافة المادية والفنون الشعبية (١)

ولما كانت دراسة الطفل في التراث الشعبي هي تطويف عبر التراث كله ، فقد سنتخذ من هذا التصنيف مرشدا وموجها لنا في جولتنا آخذين في الاعتبار أن هذه التقسيمات انما هي حدود نظرية وهمية نفرضها على المادة الحية ، بغرض تيسير الدراسة وتجزيء المعالجة، وهو امر تحتمه طبيعة التناول العلمي . اما المادة الحية المحفوظة في صدور الناس وفي سلوكهم وفي اشيائهم المصنوعة فتتداخل فيها هذه الاقسام تداخلا طبيعيا .

وسيلاحظ القارىء ، فضلا عن هذا ، ان هناك بعض المراحل في حياة الطفل لا نستطيع ان نتناوله فيها بعيدا عن امه . فهو يظل مرتبطا بامه في مرحلة الحمل ، وفي الولادة والرضاع ... الخ . فالكلام عن كل تلك الموضوعات هو كلام عن الام والطفل معا او هو كلام عن الطفل من خلال الام . واقصد بذلك ان اجسد مدى تلاحم العلاقة وقوتها في تلك المرحلة (٢) .

وتدخل تلك العلاقة الوثيقة في مرحلة حاسمة ، كما انها تتعرض لاول تجربة قوية في عملية الفطام . فالفطام هو اولى خطوات الطفل على طريق الاستقلال بكيانه ووجوده الفيزيقي، كما انه في نفس الوقت بداية الاستقلال النفسي . فهو اذن مرحلة حاسمة وهامة في حياة الام والطفل معا ، ولكن اذا اردنا الدقة فهي اكثر اهمية وابعد دلالة بالنسبة للطفل منها بالنسبة للام . فهذه ليست في العادة اول تجربة للام في الانفصال الجسدي عن طفلها ، ربما تكون قد مرت مرارا بتلك التجربة ، وان لم تكن قد فعلت ، فالارجح انها ستمر بها مرارا بعد ذلك ، اما الطفل فهي تجربة يتيمة في حياته . ومن هنا قلنا ان تجربة الفطام بالنسبة له ابعد دلالة واخطر وزنا .

وتظل الام على اى حال مرتبطة بعلاقة خاصة مع اولادها ، ربما اكثر من اى مصدر اجتماعي اخر (وان كانت قوة هذه الرابطة تشتد بالنسبة للبنات عنها بالنسبة للاولاد) . فالام في مجتمعاتنا التقليدية كانت حتى عهد قريب لا تعمل ، ومازالت اغلب الامهات بعيدات عن سوق العمل خارج البيت . ولم تكن امام تلك الام وسائل اتصال او تسلية عامه ، ولم يكن التعليم منتشرا بقدر يذكر . ونتيجة كل هذا بقاء الام مع اولادها الفترة الاكبر من طفولتهم المبكرة ، وقبل خروج

---

(١) ـ ناقشنا كافة التقسيمات السابقة ـ العالمية والمحلية ـ وعرضنا لعناصر القوة والضعف في كل منها ، وانتهينا الى هذا التقسيم الذى ياخذ في اعتباره تطور البحث الفولكلورى على المستوى العالمي ومراعاة الواقع المحلي لبلادنا ، انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور . الجزء الاول ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، الفصل الثالث ، ص ص ٥٢ ـ ٥٨ .

(٢) يبلغ من عمق التصور الشعبي لقوة هذه العلاقة ان الام الحامل ـ كما ترى بعض المجتمعات ـ تربطها علاقة خاصة مع الجنين الذي في بطنها : تعرف ان تضايق وتعرف ازفرح ، وتحس به في كل حالاته . (مع خلاف هذا التصور اختلافا اساسيا بديهيا مع المعطيات العلمية الحديثة) . ومن هنا حرص المحيطون بالام الحامل على رعاية مزاجها وملاطفتها ومسايرتها طوال فترة الحمل . وللموضوع جوانب اخرى ستتضح في سياق الدراسة .

الذكور إلى العمل أو إلى مجالس الرجال، وبالنسبة للبنات حتى زواجهن. (٣) فالام هي التي تنقل لهم تراث المجتمع الذي يعيشون فيه، هي التي تطعمهم، وتربيهم في شئون الحياة اليومية، وتحكي لهم القصص، وتغني لهم، وتلاعبهم ... الخ.

ثم تمر علاقة الطفل بأمه (وبمجتمعه الكبير المحيط به)، كما يمر نموه الجسمي والاجتماعي ببعض المراحل الحاسمة، التي تمثل (محطات على رحلة حياته. ويحتفل المعتقد الشعبي، كما تهتم العادات الشعبية، بتلك المراحل احتفالا كبيرا: فتنسج حولها الافكار وترسم فيها أساليب السلوك، وتتحوط بكافة السبل ضد ما يتهدد الطفل فيها من اخطار.

ومن اهم تلك المراحل انقضاء الاسبوع الاول من عمر الطفل. (وفي بعض المجتمعات الاربعون يوما الاولى)، حيث يؤدي حفل السبوع دورا مناظرا لعملية « التعميد »، ولكن بالمفهوم الاجتماعي وليس الديني. فالسبوع هو قبول او « ادخال » الطفل للمجتمع المحيط به من خلال عملية « التسمية » من ناحية »، وتأكيد الوجود الاجتماعي للطفل من ناحية اخرى. وهذا الوجود الاجتماعي هو الامر الحاسم والهام، وليس مجرد الوجود الفيزيقي الذي تحقق فعلا من خلال عملية الولادة.

ومن المراحل الهامة في حياة الطفل ايضا انقضاء السنة الاولى من عمره، حيث يكون الاحتفال بعيد الميلاد الاول »، ثم يأتي بعد ذلك مشي الطفل لاول مرة، وكلامه لاول مرة ... الخ. تلك كلها « بدايات حاسمة وهامة لمراحل اساسية في حياة الطفل، يتصرف المعتقد الشعبي والعادات الشعبية حولها بكل دقة، وترسم استجابات المحيطين، وتفسر كل الظواهر المصاحبة لها.

بعد ان تتطور عمليات نمو الطفل نسبيا، تظهر العاب الاطفال واغاني الاطفال بشكل أولي بسيط، وعلى لسان الام اولا. فهي اول من يردد لوليدها الاغاني، ومعها تبدا اولى محاولات اللعب وبتطوره تتطور قدراته على الغناء واللعب، ويكتسب من خلالهما سبيله الى اطفال الاسرة الاخرين، ثم اطفال البيت، والشارع والمدرسة بعد ذلك. فالالعاب هي اول مدرسة اجتماعية يدخل اليها الطفل، ومن خلالها يجتاز اولى تجارب حياته.

وتمر حياة الطفل بعد ذلك بمراحل اخرى ذات اهمية ودلالة ايضا، حين يبدا اول « خروج » منتظم للطفل من البيت، سواء للعمل (كما في المجتمع البدوي للرعي مثلا، أو من المجتمع

---

(٣) ولذلك ليس من الغريب ان يشير العالم الفرنسي دي شابرول، في دراسته عن سكان مصر المحدثين، الى هذه الحقيقة قائلا: ـ « .. اذا كانت المرأة لا تحدث عند الشعوب الشرقية الا تأثيرا بالغ الضآلة على الرجل بالمقارنة بما يحدث في اوروبا، فان الاطفال في سني عمرهم الاولى يخضعون لتأثيرها هي أساسا ». انظر:

دي شابرول، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ترجمة زهير الشايب، ١٩٧٦، ص ٤٧، (حلقة من كتاب وصف مصر، الذي يخرج له زهير الشايب ترجمة كاملة، ظهر منها الآن اربع مجلدات، مكتبة الخانجي، القاهرة.)

الزراعي للمساعدة في اعمال الحقل البسيطة) اوحديثا للمدرسة . ولكن لا جدال في ان اهم تلك المراحل على الاطلاق مرحلة الختان ثم مرحلة البلوغ . وهي تعد ايذانا بدخول هذا « الطفل » الى مجتمع الرجال (ان كان ذكرا) ، او الى مجتمع الاناث (ان كان انثى) .

واشرنا الى ان كل تلك المراحل يحيطها المعتقد الشعبي ، كما تحيطها العادات الشعبية ، بالكثير من الاجراءات والممارسات الرمزية والسحرية التي تهدف الى حماية الطفل وتأمين انتقاله الى المراحل التالية ، او الحفاظ عليه من اخطار هذا الانتقال . كما يمثل الطفل خلال كل مرحلة حاسمة منها بؤرة احتفال اجتماعي يقوم به الكبار من حوله ، ويعبرون خلاله عادة بمختلف اساليب التعبير عن فرحهم وسعادتهم بوصول الطفل الى هذه المرحلة ، ونجاحه في اجتيازها بسلام .

حول مفهوم الطفولة :

لم تتعرض في هذه الدراسة بشكل مباشر لتحديد مفهوم الطفولة من وجهة نظر المعتقد الشعبي . فتلك النقطة على بساطتها الظاهرة من اعقد موضوعات الدراسة واكثرها اتساعا . اذ تختلف الشعوب فيما بينها اشد الاختلاف في تعيين البدايات والنهايات (الزمنية) لتلك المرحلة فبعضها يرى أن الحياة تبدأ منذ بداية الحمل (انقطاع الدورة عند المرأة) ، وبعضها يبدؤها بتحرك الجنين في بطن امه ، وطائفة اخرى تبدؤها بالميلاد ، ورابعة بالسبوع ، واخرى بالتسمية ، وسادسة بالختان ، وغيرها بجنبها طقوس العبور الشاقة ... الخ . هذه فكرة سريعة متعجلة عن الاختلاف حول بداية مرحلة الطفولة ، ويمكننا مما سبق ان نتصور مدى الخلافات حول تحديد نهايات هذه المرحلة .

فخروج الطفل الى مجتمع الكبار للمشاركة في اداء وظيفة اقتصادية ــ مهما كانت متواضعة ــ يمكن ان يبدأ في الرابعة او حول تلك السن . وقد يتأخر الى السابعة او العاشرة (٤) . على ان المشاركة في النشاط الاقتصادي للجماعة لا تعني اوتوماتيكيا اعترافا بانتهاء مرحلة الطفولة وبدء مرحلة الشباب فقد يتأخر الاعتراف بهذا « العبور » الى سن ابعد من ذلك ، الى حين تمام البلوغ (بلوغ الكفاءة الجنسية الكاملة للذكور والاناث) ، او الى حين اجتياز بعض اختبارات العبور الشاقة ، وربما الى ما بعد تكوين الفرد اسرة نووية جديدة ، واحيانا يمكن ان يؤجل هذا الاعتراف الى ما بعد انجاب اول طفل فالمسألة كما نرى معقدة ومتشابكة مع انساق اجتماعية ثقافية اخرى ، ولا يمكن ان نلقي فيها حكما عاما ببساطة .

• • •

(٤) نذكر هنا الحديث النبوي الشريف الذي ينصحنا بأن نأمر الطفل بالصلاة في السابعة ونضربه على تركها في العاشرة . فالسن العاشرة بداية لحمله نوع من المسئولية التي يجب ان يحاسب عليها .

اولا : المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل

هناك بعض التحفظات والملاحظات التى يجب ان نبدا بها حديثنا عن المعتقدات الشعبية . فصفة « الشعبية » تدل هنا على ماتدل عليه فى عبارة « الاغانى الشعبية » او « العادات الشعبية » .. الخ . اى اننا نقصد المعتقدات التى يؤمن بهـا الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي . وليس من الامور ذات الاهمية الرئيسيـة ـ مع اننا نوليها عنايتنا عند الدراسة وفى التحليل ـ ما اذا كانت هذه المعتقدات قد نبعت من نفوس ابناء الشعب عن طريق الكشف او الرؤية او الالهام ، او انها كانت اصـلا معتقدات دينيـة (اسلامية او مسيحية او غير ذلك) ثم تحولت في صدور الناس الى اشكال اخرى جديـدة بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال ، فلم تعد بذلك معتقدات دينية رسمية بالمعنى الصحيح ، اى انهـا لاتحظى بقول واقـرار رجال الديـن الرسميين . وقد كان الشائع ان يطلق عليهـا فى الماضى اسم ينطوى على حكم قيمى واضح ، اذا كانت تسمى خرافات أو خزعبلات . ومـن الواضح ان هذه التسمية كانت صادرة عن رجال الدين الرسميين ، سواء فى الخارج او عندنا . لان المعتقدات التى تدور حول هذه الموضوعات الغيبية ، ولا تتفق وتعاليم الديـن الرسمى ، لاتستحق من وجهة نظر أصحاب هذا الدين اسم « معتقدات » . فكانت تسمى بهذا الاسم الخاطئ الذى تخلينا عنه اليوم كلية . (٥)

الملاحظة الاخرى ان اغلب تلك المعتقدات ـ التى يدور عنها الحديث هنا ـ تفصح عن نفسها غالبا فى شكل عادات وممارسات شعبية . ومن هنا نؤكد من جديد أن الفصل بين المعتقد والعادة هو فصل نظرى بحت لاغراض الدراسة العلمية ، ولاوجود له فى الواقع الحى . فالمعتقد والعادة هما وجهان لعملة واحدة .

كما نلاحظ أن الغالبية العظمى من العادات التى تمارس ازاء الجنين والطفل الوليد ، لم يعد ذلك قبل قبوله فى المجتمع ، انما يمكن تفسيرها فى ضوء معتقـد شعبى اسـاسى . فهى جميعـا تستهدف حماية هذا الجنين ثم الوليد من الاخطار التى تتهدده سواءً مـن جانب قوى منظورة او خفية . واغلب تلك الممارسات (التى سنعرض لطرف منها في سياق حديثنا التالى) كانت فى الاصل ممارسات سحرية وطقوسا دينية تخدم نفس الغرض ، ثـم « سقطت » الى مستـوى العادات ، وتحولت الى الصورة التى نجدهـا عليها اليوم . فعادات وتقاليد رعاية الجنين والمراة الحامل ثم المراة الواضعة ووليدها انما هى بهذا المعنى « رواسـب » لممارسات قديمة كانت تمثل درجة اعلى من التقديس ، ولكنهـا تخدم نفس الوظيفة الثقافية .

الوظيفة الثانية لبعض العادات التى تمارسها الحامل ، أو تمارس عند الولادة او بعد ذلك هى الاعتقاد بان كل مايحدث للجنين او الوليد فى تلك الفترة سيؤثر على مستقبله ومصيره . فالقاء « الخلاص » فى مياه جارية يطيل عمر الوليد ، و « الوطواطة » للبنت هامة لجمالها لانها تمنع

---

(٥) انظر ، محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الاول ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

نمو الشعر في الاماكن الموطوطة . بل ان التسمية نفسها ليست عملية فردية عشوائية ، ولكن الاسم الذى سيطلق على هذا الوليد سيؤثر على خصائصه ، وعلى مستقبله . (٦)

اما الوظيفة الثالثة فجمالية بحتة ، حيث تستهدف هذه الممارسة او تلك : اطالة الشعر والتاثير على خصائصه ، او توسيع العينين ، او تقوية الذاكرة عند الطفل ، او التاثير على لون البشرة ... الخ مما سيتضح بعضه في سياق حديثنا .

وتبدأ جولتنا مع المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل بالاشارة الى تفسير أصل الطفل له ، او بيان الكبار المحيطين به المصدر الذى حصلوا منه عليه . فهناك طائر او حيوان او انسان او كائن ما « احضر » هذا الطفل الى البيت . فقد يكون الضفدعة ، او الغراب ، او الثعلب ، او « الداية » (او بابا نويل في بعض المجتمعات الاوربية) . (٧) ويعتقد احيانا ان كل الاطفال موجودون في مكان معين (في بئر معين ، او تحت شجرة معينة ، او في احد المناجم ، او في بحيرة معينة ، او فوق جبل بالذات او امام احد المساجد .. الخ) وان هناك شخصا معينا هو الذى يحضرهم للاسرة .

والطفل الذكر في كل المجتمعات العربية اكثر تفضيلا من الطفل الانثى . وقد عرضت الدراسات الفولكلورية القليلة المنشورة عن المجتمعات العربية لهذه الملاحظة بكل جلاء ودون اى لبس (٨) . ويعرف المعتقد الشعبى كثيرا من التفاصيل التى تجب مراعاتها والممارسات التى يجب اتباعها لانجاب طفل ذكر (٩) .

فاهم خبر يترقبه افراد الاسرة بمجرد ان تضع الوالدة طفلها هو جنس المولود من حيث كونه ذكرا او انثى . ويصل هذا التفضيل الى درجة ان « بعضهم يملؤه الحزن اذا ولدت له انثى . اما

---

(٦) انظر مزيدا من التفاصيل والامثلة ، عند ريتشارد فايس ، الفولكلور السويسري (بالالمانية) :
R. Weiss, Volksunde der Schweis, Zurich, 1946, P. 175.

(٧) انظر مزيدا من التفاصيل عند ريتشارد بايتل ، قاموس الفولكلور ، (بالالمانية) : ـ
R. Beitl, Worterbuch der Volkskunde, herausgegeben von O.A. Erich und R. Beitl, Z. Auflage, Alfred Kroner, Verlag, Stuttgart, 1955, P. 409.

(٨) انظر بيانات اثنوجرافية دقيقة ومفصلة اوردتها علياء شكري في دراستها لبعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية ، علياء شكري ، بعض ملامح التغيير الاجتماعي الثقافي في الوطن العربي . دراسات ميدانية لبعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .

وانظر كذلك مؤلفي احمد امين وفوزية دياب وغيرهما مما سيرد ذكره في حواشي هذه الفقرة فيما بعد .

(٩) وقد اورد احمد امين في « قاموسه » ان : الرجل اذا اراد ان تلد امرأته الذكور فليضع يده اليمنى على سرتها وهي نائمة ، ويمسح على السرة وهي في ابتداء حملها ويقول ثلاث مرات ، وهو يديم المسح بيديه : اللهم ان كنت خلقت خلقا في بطن زوجتي هذه فكونه ذكرا وانا اسميه محمدا . رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين . فبشرناه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ، وبشروه بغلام عليم »

انظر احمد امين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، القاهرة مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ ، ص ١٥ .

الصبي فالكل يفرح ويتهلل لمقدمه بدليل القول السائر لدى الفلاحين المصريين : « لما قالوا ده ولد اتشد ضهري واتسند ، ولما قالوا دي بنية انطبقت الدار علي » او القول : « لما قالوا ده غلام اتشد ضهري واستقام ، ولما قالوا دي بنية شمتت العدا فيه » . (١٠)

ومع ذلك فان دراسة اشمل لتراث الامثال والعبارات الشعبية المتداولة في مجتمع كالمجتمع المصري (يحبذ كما رأينا انجاب الذكور) توضح لنا ان هناك عديدا من الامثال التي تمتدح انجاب الاناث . (١١) والرأي عندنا ان مثل هذه الامثال التي تحبب في انجاب البنات انما هي دليل يؤكد القاعدة الاولى ولا ينفيها . فهي تؤكد تعاسة المرأة التي تلد بنتا ، وتنبهنا الى ان المجتمع انما ابتكر تلك العناصر الشعبية لكي يخفف من هذه المرأة ويواسيها .

ويعد ميلاد التوائم مثارا لاهتمام المعتقد الشعبي . ومع انه من المعروف ان التوائم ليست من الظواهر الشائعة احصائيا على مستوى العالم ، الا اننا نجد المعتقد الشعبي لدى كل الشعوب وعلى مدى كل العصور يحفل بكثير من الافكار والعناصر الدائرة حول التوائم .

وتتراوح المواقف من التوائم في المعتقد الشعبي بين التشاؤم الشديد منها (وما يتبع ذلك من ممارسات) ، والتفاؤل او التقدير الكبير . وان شئنا المفاضلة بين الاتجاهين او وزنهما من حيث سعة الانتشار وجدنا اتجاه النفور منهما والتشاؤم هو الاوسع انتشارا والاكثر تواترا بين الناس

وقد عرفنا عن بعض المجتمعات ان احد التوامين ينسب عادة الى الآلهة ، اما الآخر فينسب الى اب من البشر (قارن في هذا حكاية هرقل في الاسطورة الاغريقية) . بينما تعتقد شعوب اخرى ان التوامين يكونان دائما لرجلين شاركا في اخصاب الام ، كل منهما اب لواحد من التوامين .

وكثيرا ما يعتقد ان انجاب التوائم هو ثمرة علاقة زنى ودليل عليه .

---

(١٠) انظر مزيدا من التفاصيل عند فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية . مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ، ص ص ٣١٤ وما بعدها .

(١١) من الامثال والعبارات التي تحبب في انجاب الاناث : ـ

ـ « اخير الناس اللي تبكر بالبنت »

ـ « اللي يسعدها زمانها تجيب بناتها قبل صبيانها » .

ـ « اللي مالهاش بنية تصبغ اياديها ، تعيط بحرقة والناس تعزيها » .

« اكيري بابنتي والنصيب كتير » .

ـ « ام واحدة ربنا مجبرها ، وام عشرة ربنا مدبرها » .

ـ « ابو البنات مرزوق »

ـ « اللي ما عندوش بنات ما يعرفوش الناس امتى مات »

انظر مزيدا من التفاصيل عند ، ابراهيم احمد شعلان ، الشعب المصري في امثاله العامية » ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، و ص ١٢٥ .

اما المجتمعات الاحدث والاقرب الينا والاكثر تقدما فتعتقد ان انجاب التوائم هو دليل على زيادة في رجولة الاب . بينما تعتقد كثير من الشعوب البدائية ان التوائم يجب التخلص منها ، وان على المرأة ان تتطهر لفترة من الوقت بعد ان تضعهما .

ولهذا السبب تحرص تلك المجتمعات على تجنب اكل المرأة للثمار المزدوجة كلوزتين ملتصقتين ببعضهما ، او موزتين ملتصقتين . . الخ حيث يعتقد ان اكل تلك الاشياء يؤدي الى انجاب التوائم . ويورد قاموس فونك للفولكلور تفصيلا لبعض الممارسات ـ مشفوعة بالنصوص المستخدمة ـ التي يتحتم اللجوء اليها في حالة اذا ما اضطرت الفتاة او المرأة الى اكل مثل هذه الثمار المزدوجة . والهدف من كل تلك الممارسات والصيغ تجنب انجاب التوائم . (١٢)

ثم هناك على الطرف الآخر الموقف الذي يحبذ انجاب التوائم ويسعد بها ويعتبرها فالا حسنا . فيعتقد ابناء تلك الثقافات ان التوائم تتمتع ببصيرة نافذة ، او هم يتمتعون بقوة خارقة ناتجة من جمعهم بين شخصيتين في نفس الوقت . كما ترى احدى قبائل الهنود الحمر ان التوائم تستطيع رؤية الارواح وغيرها من الكائنات فوق الطبيعية . وهو الامر الذي لا يستطيعه الناس العاديون كما نعرف . ولكن التوائم يمكن ان تفقد هذه القدرة اذا ما تناولت طعاما من اعداد امرأة حائض .

ونستطيع ان نجد نفس هذين الموقفين العامين من التوائم في الثقافة الافريقية جنوب الصحراء ايضا ، خاصة غرب افريقيا ، ومنها انتقلت تلك المعتقدات الى زنوج العالم الجديد . ويفسر البعض هذه المواقف المتطرفة من التوائم في ضوء انهم يمثلون نوعا من الولادة الشاذة او التي تلابسها ظروف غير طبيعية . ويرسم هيرسكوفيتس في مقالته عن التوائم في غرب افريقيا معالم الخط الفاصل بين منطقتي تقديس التوائم والنفور منهم باعتباره يمتد عبر وسط نيجيريا . حيث نجد ان اليوروبا وقبائل الساحل الغيني قريبا من الفريق الذي يحب التوائم . اما الايبو وزنوج منطقة الدلتا والكاميرون فيتخذون الموقف المعاكس .

ويشير فضلا من هذا الى ان هناك طائفة من المعتقدات الدائرة حول الطفل التالي في الولادة على التوائم . اذ ترى تلك الثقافات الزنجية ان هذا الطفل يتميز بقوة جسمانية فائقة ، وانه يجب ان يلقى معاملة خاصة . . الخ . ويفسر انتشار الممارسات والعبارات المتعلقة بالطفل التالي على التوائم (والمعروف باسم "the dosu" في مجتمعات البرازيل ، وكوبا ، وجيانا ، وهايتي وغيرها من شعوب البحر الكاريبي بانه يكاد يكون احتفاظا طبق الاصل لنظائرها الاصلية ، والتي انتشرت الى تلك المنطقة ، وتركت بصماتها واضحة عليها دون اعادة تفسير .

---

(١٢) Funk & Wagnalls Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend, ed. by Maria Leach, Funk and Wagnalls Publishing House, N. Y., 3rd ed. 1972. Art., „Twins", PP. 1134-6.

وانظر ، كذلك محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني : (دراسة المعتقدات الشعبية) ، دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ . الفصل الخاص بالمعتقدات الدائرة حول الانسان .

الاخطار المحيطة بالطفل جنينا ورضيعا وطفلا :

يرى المعتقد الشعبي ان الام وجنينها يتعرضان طوال فترة الحمل وعند الولادة وبعدها الى عدد من الاخطار المتنوعة التي تأتي من مصادر مختلفة ولاعتبارات شتى . وسوف نحاول الالمام بتلك العناصر بشكل موجز ، ثم نركز كلامنا على نقطة واحدة على سبيل التوضيح .

تتعرض الام وهي حامل لخطر المشاهرة (او الكبس) : ومعنى ذلك الوقوع تحت تأثير الحسد وتأثير ارواح شريرة . وهناك عدة اساليب وسبل تؤدي الى مشاهرة الحامل ، فدخول رجل اجرودي عليها ، او امراة عاقر ، او امراة حائض . . . الخ كل ذلك من عوامل مشاهرة تلك الحامل .

ومن المستحب فوق ذلك ان تتغنى الحامل ويغني لها الاخرون اغان معينة تتفق والمناسبة السعيدة المقبلة عليها . ويجب على المحيطين بها على وجه العموم الحرص على عدم ذكر اي حكايات مخيفة او اخبار سيئة او حكايات ولادات عسرة امامها . ولابد من الحرص على اعتدال مزاجها وسرورها بقص الحكايات ورواية الاخبار الطريفة المبهجة الباعثة على التفاؤل . (١٣) ولا يصح لها ان تشارك في مناسبات العزاء ، ولا ان تقوم بزيارة المقابر طوال فترة الحمل . ويستحب لها ارتداء الالوان المبهجة الجميلة وترك الملابس ذات الالوان القاتمة ، فلا يصح ان ترتدي ملابس الحداد اطلاقا واذا حدث فلمدة قصيرة جدا وبشكل رمزي .

وعلاوة على هذه الرعاية النفسية هناك رعاية جسمانية الحامل ، حيث يخشى عليها من حمل الاحمال الثقيلة او اداء الاعمال الشاقة (تجنبا لحدوث الاجهاض) .

ومن المكن القول بصفة عامة بان الاسرة تحرص ، خاصة بالنسبة للام « البكرية » على الاستجابة لكل طلباتها والترفيه عنها ، وتخفيف آلام الحمل التي تشعر بها . واهم احداث تلك الفترة « الوحم » . والوحم ظاهرة تحدث في الشهر الثالث والرابع في اشهر الحمل . وكثيرا ما تتوحم الحبلى فتشعر برغبة ملحة في نوع او انواع خاصة من الماكولات . وفي بعض الاحيان تكون هذه الماكولات نادرة ، او غير موجودة في فترة وحم الزوجة ، لان لها اوانا واوقاتا او مواسم معينة . وهناك اعتقاد شائع ان الحامل التي تتوحم اذا اشتهت شيئا من الماكولات ولم يحضر لها ، فان هذا النوع من الطعام سيظهر على بشرة الوليد على هيئة بقعة تسمى « وحمة » كبيرة او

(١٣) واتساقا مع هذا حرص الحامل طوال ايام الحمل والوحم على الابتعاد عن كل المناظر القبيحة ، كمنظر الحمير او القرود مثلا ، او منظر الاشخاص المشوهين . لان الاعتقاد الشائع انه اذا وقع نظر السيدة الحامل على منظر شخص او حيوان قبيح ، فان وليدها سيكون قريب الشبه منه ، لان العين « لقاطة » كما يقولون . ولذلك تتعمد الحامل ان تنظر الى الاطفال والاشخاص ذوي الخلقة الجميلة والوجه الحسن ، لكي تلتقط عيناها مناظرهم فياتي الجنين على هذه الصورة الجميلة .

كذلك تحذر الحامل كل التحذير من « الخايلة » على اي شخص ، اي السخرية والتهكم على من كان اسمر مثلا او قزما او معتوها او به اي صفة معينة بشكل عام . فان سخريتها من مثل هؤلاء ، وتهكمها عليهم ، يجعل وليدها ياتي متصفا بصفاتهم . انظر فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

صغيرة. وقد تظهر في وجه الوليد فتشوه منظره. ولذا يحرص الزوج واهله على السعي لاحضار ما تشتهي الزوجة الحامل ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ومشقة . (١٤)

وتتعرض الام الحامل ، ثم هي ووليدها بعد ذلك لاخطار الحسد . وكتب الدراسات الشعبية تزخر بعشرات ، بل مئات ، الشواهد والنماذج على ذلك . (١٥) فالطفل الجميل اكثر تعرضا للحسد من العادي والقبيح ، والوحيد اكثر تعرضا ممن له اخوة ، والذكر اكثر تعرضا للحسد من الانثى ، وهكذا . وتلجأ الامهات الى اساليب شتى لدرء خطر الحسد ، فالبعض يلبسن اولادهن الذكور لباب الاناث في الايام الاولى عقب الميلاد ، بل بعضهن يطلق على الذكر اسم انثى . وكانت الامهات المصريات الموسرات على ما يحكى وليم لين يتركن اطفالهن في ثياب قذرة ومظهر رث خوفا من الحسد وقد تعلق بعض الاسر على اطفالها الاحجبة المختلفة لحمايتهم من الحسد .. الخ .

وتتخذ اعظم الاحتياطات واكثرها جدية ساعة مولد الطفل ، بهدف حماية الام وحمايته هو . فتتلو الحاضرات الادعية والايات والصيغ والعبارات التي تستهدف تخفيف آلام الولادة والتعجيل بها ونهايتها نهاية حسنة سليمة . ويمثل انفتاح رحم الام في تلك اللحظة مصدر خطر ـ حسبما يرى المعتقد الشعبي في كثير من الثقافات ـ يجب التحرز من اخطاره وتجنب دخول ارواح شريرة من حيث يتدفق الدم . ثم ان هذا الدم نفسه موضع احساس مزدوج : فهو رمز للخير والنماء والتجدد والحياة الجديدة ، وهو في نفس الوقت عنصر نجس ينطوي على خطورة غير معلومة وعلى تهديد للام والطفل والمحيطين . (١٦) ويحتم كل ذلك التصرف بحذر في الخلاص وبقايا الحبل السري ، ومعالجة الوليد بحكمة ودراية .. الخ على اساس ان كل سلوك في تلك اللحظة ستكون له آثار بعيدة المدى على حياة الام والطفل ، وعلى الطفل بوجه خاص . وترتفع درجة الاستعداد وتتخذ ابعادا مختلفة في حالات الولادات العسرة ، حيث انه من المنطقي ان تزداد احتمالات الخطر التي يتعرض لها الام والطفل معا .

وبعد نزول الجنين من بطن امه وليدا ، تجرى له بعض الاستعدادات وتقدم له بعض الوان الرعاية ، كقطع الحبل السري ، ودهان جسمه ببعض المواد ، وتكحيله .. الخ ومن هذا ايضا عصر ثدييه (ساعة الميلاد ويوميا لمدة سبعة ايام ، اعتقادا بان هذه الممارسة تقي الطفل رائحة

---

(١٤) فوزية دياب ، المرجع السابق ، الموضع ، وتبدي الدكتورة فوزية دياب بهذه المناسبة ملاحظة طريفة ، حيث تقول : « والواقع ان رغبات الحامل في فترة الوحم تعد فرصة امامها وامام اهلها لاختبار شعور زوجها واهل زوجها نحوها ، وما يحملونه لها من محبة وعطف واهتمام وتسامح . ولذلك كثيرا ما تنتهز الزوجة هذه الفترة وتتدلل على زوجها واهله بطلب الماكولات والملبوسات المختلفة التي كانت تشتهيها قبل الحمل » .

(١٥) انظر على سبيل المثال وليم لين ، المصريون المحدثون . شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلي طاهر نور الطبعة الثانية ، الناشر عز مين ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، وكذلك احمد امين ، مرجع سابق وغيرهما كثير .

(١٦) انظر مادة « ميلاد الطفل child birth » في قاموس فرنك للفولكلور ، التي سبقت الاشارة اليه ، ص ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

العرق الكريهة عندما يكبر) . و « الوطوطة » بالنسبة للبنات ، بدهن ابطاها وعانتها بدم خفاش أو وطواط كما يسميه الفلاحون المصريون ، لكى لا ينمو الشعر في هذه الاجزاء عندما تكبر) . وفي تلك اللحظة ايضا تقدم لـلام بعض صـور الرعاية ، كتدليك جسدها ، وتغذيتها .. الخ .

ولكن من اهم ملامح تلك الفترة واكثرها خطورة وابعدها تأثيرا على حياة الطفل فيما بعد كيفية التصرف في الخلاص وبقايا الحبل السرى . وسوف نركز دراستنا الباقية في تلك الفقرة على هذا العنصر كنموذج للاهتمام الذى يمكن توجيهه الى سائر الموضوعات والعناصر التى اشرنا اليها على سبيل الايجاز (١٧) .

الخلاص في المعتقد الشعبي :

من الملاحظ ان الخلاص يرتبط عند كافة شعوب الارض تقريبا ـ المتخلف والمتحضر على السواء ـ ارتباطا وثيقا بروح وحياة ، وموت ، وصحة ، وطباع ، ونجاح او فشل الشخص الذى يولد فيه . ولذلك نجده يرتبط بالاعتقاد الانساني الراسخ الجذور في الروح الخارجية او الروح التى لا تنفصل من الجسد . ومن هنا اصبح ما يحدث للخلاص (وكذلك الحبل السرى وبرقع الجنين ـ وهو غشاء رقيق يغطى رأس المولود احيانا) يؤثر في حياة الطفل كلها ، بل يحدد مصيره حيث يعتقد انه يحوى روح الطفل الوليد او يضم روحه الحارس ، او هو اخوه او توامه او نظيره الحقيقى ، او انه مرتبط به ارتباطا غامضا ووثيقا . فالتصرف فيه او مصيره سوف يحددان مهارات الطفل وخلقه ومصيره في الحياة .

وتنتشر تلك المعتقدات لدى كافة شعوب الارض وكل الثقافات من كولومبيا البريطانية ، الى تيراديل فويجو ، ومن ايسلنده حتى سيبيريا ، ومن أوربا حتى جنوب افريقيا ، وعند شعوب الصين وأندونيسيا وجنوب المحيط الهادى . بل وحتى عند شعوب الهنود الحمر الامريكيين . فكل تلك الشعوب تنظر الى الخلاص بتقديـر وحرص شديدين ، وتعمل على المحافظة عليه او التصرف فيه طبقا للمعتقدات الشائعة عنه لدى الجماعة .

وهناك شواهد لا حصر لها على هذا الاعتقاد عند الشعوب المختلفة (١٨) . من هذا مثلا مـا يقوم به هنود كواكيوتـل الحمـر في كولومبيـا البريطانية حيث يقدمون خلاص الوليد الذكر الى الغربان السوداء ، معتقدين ان ذلك سوف يمنح هذا الطفل القدرة على التنبؤ بالمستقبل . اما خلاص البنت فيدفن في احد الاماكن المرتفعة التى تغطيها مياه الجزر لتكون امراة ولودا .

---

(١٧) انظر حصرا شاملا بالعناصر والموضوعات التى يجب دراستها حول هذا الموضوع في الدليل الذى قمنا باعداده مع بعض الزملاء لدراسة عادات دورة الحياة : انظر محمد الجوهري وعلياء شكري وعبد الحميد حواس ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ ، خاصة الاسئلة من ١١ حتى ٩٢ . وانظر كذلك وليم لين ، المرجع السابق ، واحمد امين ، المرجع السابق ، وفوزية دياب ، المرجع السابق ، وغيرها من المراجع .

(١٨) النماذج التى سنستعرضها فيما يلي نقلا عن مقال عن « الخلاص » بقاموس فونك للفولكلور ، مرجـع سابق ، ص ص ٢٤ ـ ٢٥ حيث يقدم مادة انثوجرافية وفيرة عن الموضوع .

وتجد نفس هذا النوع من السحر التعاطفي عند شعب اليوكاغير "Yukaghir" في شمال شرقي سيبيريا . اذ كانوا يلفون خلاص الوليد في جلد الرنة ويلفون معه نموذجا مصغرا لقوس وسهم ، وسكينا خشبيا صغيرا وقطعا صغيرة من الفراء . وذلك بهدف أن يصبح هذا الوليد صائدا ماهرا . اما خلاص البنات فتوضع معه سكين صغيرة مما يستعمله النساء ، وكستبان (مما تضعه النساء في اصبعها عند الخياطة) وابرة . ويلف كل هذا مع الخلاص في لفة . والهدف من ذلك ان تصبح المرأة ماهرة في بيتها .

وهنالك شعب بعيد عن هاتين المجموعتين بمسافة كبيرة هو شعب الايمارا "Aymara" ، في بوليفيا بامريكا الجنوبية نجده يهتم بالخلاص اهتماما كبيرا . فيغطون هناك الخلاص بالزهور ثم يدفن بالنسبة للولد ومعه نماذج مصغرة جدا من ادوات العمل الزراعي أما بالنسبة للبنت فيدفن ومعه وعاء طهي صغير .

كذلك نجد في جميع انحاء اوربا ان المعتقد الشعبي السائد يرى ان مصير الشخص متوقف على خلاصه ومرتبط به . ولذلك يحرصون اكبر الحرص على الا يعثر عليه حيوان ويأكله ، او يتعرض للارواح الشريرة . لانه لو حدث وعثر عليه احد الحيوانات واكله ، فان الطفل عندما يكبر سوف يكتسب كل الخصائص الذميمة (الجسمية او النفسية) لذلك الحيوان .

اما الاعتقاد بان خلاص الوليد يحوي جزءا من روح ذلك الطفل فشائع في اطراف الارض جميعا من ايسلنده حتى زنجبار ، ومن استراليا حتى سومطرة . من هذا ما يعتقده شعب الباجندا في وسط افريقيا ، اذ يرى هذا الشعب ان الخلاص هو التوأم الحقيقي او هو « قرين » الطفل المولود ، ولذلك فانهم يعمدون الى وضعه في وعاء ويدفنونه تحت شجرة موز الجنة او لسان الحمل . بعدها يتحول الخلاص الى شبح يحل في الشجرة المدفون تحتها . وتقوم القبيلة بحراسة تلك الشجرة بحرص خوفا من ان يقوم شخص من غير اقارب الطفل بالاكل من الشجرة او الشرب منها . لانه اذا حدث ذلك فان التوأم الشبح سوف يذهب بعيدا ويختفي . وبعدها سوف يلحق به الطفل الموجود في البيت ثم يموت .

اما توأم (اي خلاص) الملك عند الباجندا فيحفظ في معبد صغير ويعين له حارس خاص للسهر عليه . ويقوم هذا الحارس باخراج الخلاص من لفافته مرة كل شهر ، ويضعه من ضوء القمر ليسطع عليه بنوره ، ثم يمسحه بالزبد ، ويعرضه على الملك ليؤكد له سلامة قرينه . ثم يعيده في النهاية الى مكانه الامين داخل المعبد .

كذلك تعتقد قبائل جنوب اوغندا ان الخلاص عبارة عن كائن بشري . ويحكي ايضا بعض قبائل الهنود الحمر في امريكا الشمالية قصصا تكشف بوضوح عن الاعتقاد في الخلاص كتوأم للطفل . ومن هذه القصص تلك التي تحكي ان طفلا طلب من ابيه قوسين ورمحين صغيرين ليلعب بهما (وحده) في الغابة . فقرر الاب ان يختبىء ليشاهد رفيق ابنه الغامض الذي يلعب معه . وقد رأى الاب من مخبئه ولدا آخر قادما من مكان دفن خلاص ذلك الطفل في الاحراش ليلعب مع ابنه فادرك انه هو توأم ابنه .

وهناك حكايات عديدة جمعت من مناطق متعددة تكشف بوضوح عن ظهور التوام من خلاص الطفل . وان كانت هناك بعض الحكايات التي تروى ظهور ذلك التوام من الحبل السرى الذى قد يلقيه الاهل باهمال ولا يعتنون بدفنه .

والملاحظ ان الاعتقاد بذلك الشبح الصغير الذى يحل في الشجرة المدفون تحتها الخلاص يربط المعتقدات الدائرة حول هذا الموضوع بتلك المتعلقة بشجرة الحياة ، والايمان بوحدة الهوية بينها وبين الطفل الذى تزرع من اجله . ففي « كالابار » في غرب افريقيا تزرع شجرة نخيل صغيرة عند ميلاد طفل جديد ، ثم يدفن تحتها خلاص ذلك الطفل . ويعتقد ان الخلاص يضمن نمو تلك الشجرة ، كما ان نمو الشجرة يضمن هو الآخر نمو الطفل . واللافت للنظر حقا هو ان ذلك المعتقد وتلك الممارسة تنتشر في نيوزيلندا وجزر ملقا ، كما كان معروفا في منطقة « بومرن » بشمالي المانيا وفي بعض المناطق الاوروبية الاخرى .

وقد حفل التراث العبرى القديم بعديد من الممارسات الطبية والمواد السحرية التي كانت امنع من الرماد المتخلف عن طريق الخلاص . فكانوا اذا خلطوه باللبن يعتقدون انه يفيد في علاج امراض هزال الاطفال الصغار . اما اذا خلط مع نبات انف العجل (١٩) ووضع في وعاء صغير علق حول رقبة الطفل ، فانه يكون بمثابة حجاب قوى يقيه شر الحسد المؤذى . اما في الصين القديمة فكثيرا ما كانت تصنع من الخلاص اقراص طبية . كذلك يستخدم هنود الايمارا (في بوليفيا بامريكا الجنوبية) الرماد المتخلف عن حرق الخلاص كعلاج لبعض الامراض .

اما العادات الشائعة في جاوة حول هذا الموضوع فتختلف عن كل ما ذكرناه . اذ تعمد نساء جاوة الى وضع خلاص الوليد في وعاء صغير ثم تغطيه بالفواكه والزهور والشموع المضيئة وتترك ذلك الوعاء يطفو على سطح النهر ليلا لارضاء التماسيح . وربما كانت تلك الممارسة وما وراءها من معتقد راجع الى ان جميع الخلاص ليست سوى تماسيح (بمثابة اخوة او اخوات لاقرانها البشر) ، او لان التماسيح هي مثوى ارواح اسلاف اولئك الناس . وان تلك الممارسة تتم لكى تكون بمثابة عودة دينية لذلك التوام اليهم .

اما بالنسبة للتصرف في الخلاص في المجتمع الريفى المصرى المعاصر فيراعى قبل التخلص منه استبقاؤه في حجرة الوالدة حتى تمر عليه ثلاثة « اذانات » . حيث تعتقد النساء ان ذلك يحفظ الطفل من الشر والحسد . فاذا فرض ان الولادة تمت في الفجر او في الصباح مثلا ، فلا بد ان يبقى الخلاص حتى يمر اذان الظهر واذان العصر واذان المغرب .

ثم تحكى فوزية دياب بعد ذلك عن كيفية التخلص من الخلاص . « ومن العادات المتبعة في التخلص من الخلاص ، ان يرمى في الساقية اعتقادا بان هذا يجعل الطفل ثريا في المستقبل ، او يرمى في ماء البحر او النهر او الترع اعتقادا ان هذا يجعل جروح الطفل في المستقبل سريعة الالتئام

---

(١٩) انف العجل او السمكة snap dragons نبات ذو زهر ابيض او قرمزي او اصفر .

بغسلها بالماء (٢٠) . ويفضل البعض رميه للكلاب لتأكله أملا في ان تكون الزوجة ولودا مثل انثى الكلب المعروفة بكثرة خلفها . وكثيرا ما تلجأ السيدات اللائي يموت أطفالهن في سن معينة الى وضع الخلاص في قدر صغير ، ومعه كمية من الملح ورغيف من الخبز الساخن . ويقفل القدر قفلا محكما ، ويحفظ في مكان أمين . والمعتقد ان هذا الاجراء يحفظ الطفل من الموت .

هذا ويراعى فيمن يرمي الخلاص ان يكون ضاحكا في اثناء رميه حتى ينشأ الطفل ضاحكا باستمرار ... ومن المحرمات الواجب مراعاتها بهذا الصدد ان الخلاص اذا خرج من الحجرة التى بها السيدة الوالدة ، فلا يدخل عليها مرة اخرى لأى سبب من الاسباب خوفا من مشاهرتها ، اى انقطاع حملها بعد ذلك » (٢١) .

الطفل والطب الشعبي :

اوضحنا في دراسة سابقة لنا عن الطب الشعبي ان فلسفة العلاج في الطب الشعبي تقوم على الاعتقاد بان لكل داء دواء ، ومن ثم فان كل مرض من الممكن شفاؤه ، ما لم تكن نهاية المريض مقدرة في تلك اللحظة . وهنا يستحيل على اى طبيب ان يغير مشيئة الله . ولكننا نجد داخل هذا المفهوم ان المعتقد الشعبي يفسح مكانا كبيرا للعوامل المرض الراجعة الى عوامل « نفسية » او قل سحرية ، او بمعنى آخر تلك التي لا ترجع الى اسباب مادية معروفة ملموسة . فكثير من الامراض (يستوى في ذلك الحمى ـ ارتفاع درجة حرارة الجسم ـ او الصرع او حتى العمى) . يمكن ان تعلل بالعين او الحسد (٢٢) .

ويندرج تحت هذا البند ايضا تأثير الكائنات فوق الطبيعية وابرزها القرينة (او ام الصبيان) والجن بصفة عامة ، فهي قد تعمل على الحاق الضرر بالطفل . وابرز خطر تمثله القرينة هو الاعتداء على حياة الطفل نفسه ، او اخذ الطفل الانسي واعطاء الام احد اولاد الجن ، فيسمى هذا الجديد « مبدولا » (اى ان الجن ابدلوه) ، ويطلق ذلك بالذات على الطفل الدائم الصراخ ، والذى يتألم دائما لاسباب غير مفهومة (٢٣) .

ولما كان المرض يمكن ان يرجع الى عوامل نفسية او روحية واخرى مادية ، فان العلاج يمكن ـ او يتحتم احيانا ـ ان يتم بوسائل سحرية من نفس الطبيعة : كالرقى والتمائم وما الى ذلك . كما قد يتم بالاساليب الطبية التقليدية او باستخدام مشرط الجراح ايضا . ولكن الملاحظ

---

(٢٠) هناك تفسيرات اخرى اقرب الى حقائق التاريخ الثقافي ، انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري وزملائه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مرجع سابق ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٢١) انظر فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٢٢) انظر احمد امين ، المرجع السابق ، ص ١٥ ، وكذلك ص ٢٢٤ .

(٢٣) بالنسبة للقرينة ، انظر محمد الجوهري ، الجزء المعتقد الشعبي المصري ، مقال في المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧٢ ، ص ص ٩٥ ـ ١٣١ ، حيث تجد معالجة لموضوع القرينة وتأثيرها على البشر وصور تدخلها في حياتهم بالضرر ، خاصة الامهات الوالدات حديثا والاطفال الحديثي الولادة .

على اى حال أن الفئة الاولى من الوصفات تحتل المكانة الابرز والاسبق . حتى بعض الوصفات الطبية العادية تفرض عليها بعض الشروط والتحفظات والقواعد ذات الطبيعة السحرية الخالصة (٢٤) .

اذا انتقلنا الى التساؤل عن مضمون الوصفات العلاجية بنوعيها ، فسوف نجد ان الفئة الاولى ـ ذات الطبيعة السحرية ـ تضم كل العناصر المستخدمة في « الاعمال » السحرية العادية : كالاسماء ، والآيات القرآنية (مجافاة للروح الاسلامية الصحيحة) ، (او طاسة الرجفة) ، والاحجبة . . . الخ .

اما عن المواد والعناصر المستخدمة في النوع الثاني من الوصفات العلاجية ، وهي الوصفات الطبية بمفهومها التقليدى ، فهي كل العناصر التي تتيحها البيئة الطبيعية من نباتات وحيوانات . وكلها اشياء عادية قد تستخدم كما هي ، وقد تعالج على نحو معين ، قد يكون شديد التعقيد احيانا . وليس من الضروري ان يستخدم العنصر النباتي او الحيواني كله ، بل ان الامر قد يقتصر ، كما هو الحال عند استخدام عنصر حيواني ، على عضو منه ، او على افرازات ذلك الحيوان . ولكن القاعدة العامة ان تكون موادا عادية مألوفة كالعسل او الزيت . . . الخ (٢٥) .

الا ان هذه العناصر النباتية او الحيوانية لا تستخدم في الغالب كما هي بحالتها الطبيعية . وانما يتطلب الامر تقييدها بعدد من الشروط والقواعد والاجراءات « الفنية » . اول هذه القيود وابسطها قصر استخدام العنصر على واحد معين (٢٦) . ومن القيود الاخرى تعقيد الوصفة الطبية بكثير من التفاصيل . ومن الوان هذا التعقيد ان تضم الوصفة عددا من العناصر ، وان ينص على كميات متفاوتة من هذه المواد . . . الخ .

تلك فكرة سريعة عن طبيعة الوصفات الطبية التي تستخدم في ميدان الطب الشعبي لعلاج الطفل . ولكن ما هي أبرز الامراض ، التي تتصدى لعلاجها تلك الوصفات ؟ هناك قائمة طويلة تتصل في اول الامر بكون الطفل طفلا . فتاخر نمو الطفل عن اقرانه في اى مجال من المجالات ، خاصة التاخر في المشى او التاخر في الكلام يجعله هدفا ضروريا لممارسة الوصفات الطبية الشعبية (٢٧) . وامراض الاطفال هي الاخرى : كالسعال ، والحصبة ، والقراع ،

---

(٢٤) انظر بعض الملاحظات حول ذلك عند الكسندركراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٢٠٧ .

(٢٥) انظر شواهد على ذلك في مصر الفرعونية عند رانكه ، مصر والحياة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٩٤ . اما بالنسبة للمجتمع المصري المعاصر فتؤكد ذلك الخبرة العامة ، بصرف النظر عن التفصيلات والتحفظات التي ترد عند ذكر كل وصفة . وانظر كذلك وليم لين المصريون المحدثون ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(٢٦) لعل هذا القيد يمكن ان يفهم بشكل افضل في ضوء معرفتنا بالخصائص المميزة للاوقات كما يستخدمها المشتغل بالسحر . فلكل ساعة من ساعات اليوم ملك خاص موكول بها .. الخ . وهي تفاصيل يمكن استيعابها بشكل افضل بالرجوع الى محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني عن المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالسحر .

(٢٧) انظر عند وليم لين المرجع السابق ، وصفة لعلاج الطفل الذي تاخر في المشي ، ص ٢٢٨ .

والبكاء المستمر .. الخ . وهناك قائمة اخرى من الامراض التي يعانى منها الطفل لانه يعيش فى هذا المجتمع ، وليس لمجرد كونه طفلا ، اذكر منها على سبيل المثال امراض العيون ، والصرع ، والحمى، والهزال (الضعف الشديد) ، والجرب الخ (٢٨) .

الطفل والممارسات السحرية الاحترافية :

قد يبدو هذا العنوان غريبا بسبب صعوبة تصور اشتراك الطفل فى عملية سحرية احترافية، فهو لا يمكن ان يكون ساحرا محترفا ، ولا يمكن ان يكون عميلا يلتمس وصفة سحرية عند احد من السحرة . انما الذى يحدث ان هناك بعض العمليات السحرية ـ التي تتم على يد سحرة محترفين ـ يدخل فيها الطفل كأداة او عامل مساعد فى اتمام العملية .

والسبب فى ذلك ان الطفل كائن نقى لم تعرف الشرور طريقها اليه ، وطبيعته خيرة مطلقة، ولا يعرف الكذب ولا المداراة ، كما انه امين على ما يرى وما يسمع . فلن يحدث احدا بحقيقة ما رأى ، ربما لانه لن يفهم تماما دقائق ما يدور امامه .

ولا بد ان تتوفر فى الطفل الذى يستخدم فى مثل هذه الاعمال عدة شروط ، اولها واهمها ان يكون دون سن البلوغ ، ويفضل السنة السابعة او الثامنة ، لكى يستطيع ان يتحدث بوضوح ويصف ما يراه بدقة (٢٩) . والشرط الثانى ان يكون ذكرا ، فاستخدام البنات فى مثل هذه الاعمال خطأ فادح . ثم قد يضاف الى هذين الشرطين شروط اخرى ، منها ان تكون علامات كفه ذات شكل معين ، او يكون ذا ملامح فيزيقية معينة ، او من اسرة معينة ... الخ(٣٠).

ومع ذلك فقد تصادف من السحرة من لا يتطلب فى الطفل الذى يستخدم فى « ضرب المندل » او « فتح المندل » اى صفة خاصة سوى ان يكون دون البلوغ ، فهذا الشرط لا استثناء فيه. وقد لجأ الى هذا الاسلوب الساحر الذى حكى عنه وليم لين فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه (صفحة ٢٣٥) . ولكنه فى تجربة اخرى اجرى التجربة على ثلاثة صبيان على

---

(٢٨) انظر دراسة مفصلة عن الطب الشعبي ، محمد الجوهري ، مقدمة فى دراسة الطب الشعبي ، مقال بمجلة الحكمة ، طرابلس ، عدد خريف ١٩٧٩ ، وهي تضم عددا من الشواهد الوثقة لكل غرض من اغراض العلاج الطبى الشعبي .

(٢٩) انظر تحديد السن عند وليم لين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٣٥ وما بعدها ، ونموذج مفصل عند احمد امين ، المرجع السابق ، ص ص ٢٨١ وما بعدها .

(٣٠) من هذا مثلا ان يكون رسم كفه بقرأ ٧١ ، و ١٧، لكي يضمن ذلك نجاح العمل . احمد امين ، المرجع السابق ، نفس الصفحة . ومع ذلك فليس من الحتم ان كل طفل يصلح لذلك . فمن الممكن ان يحدث كما يحكي لين ، وكما تدل خبرتنا الشخصية فى دراستنا لبعض السحرة المحترفين بمصر ، ان الساحر قد يجرب مع طفل او اكثر ، ولكن ايا منهم لا يستطيع مع ذلك ان يرى شيئا فى كفه . فاما ان يؤجل العملية ، او يبحث عن طفل اخر . ولما سألت احد السحرة المحترفين عن تفسير عدم صلاحية هذا الطفل او ذاك ، اجابني بان هناك عدة اسباب محتملة لذلك . اقربها ان يكون الطفل قد بلغ الحلم مبكرا ، ومن الاسباب الاخرى ان يكون واقعا تحت تأثير بعض الارواح او « الاسياد » الذين يعارضون فى اتمام ذلك العمل . انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري ، استخدام اسماء الله فى السحر ، (بالالمانية)، رسالة دكتوراة منشورة ، بون ، ١٩٦٦ . انظر عرضا مفصلا لهذا العمل عند : علياء شكري ، التراث الشعبي المصري فى المكتبة الاوروبية ، الفصل الثامن ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ .

التوالى ، « ولكنها لم تنجح تماما مع أولهم ،وفشلت مع الآخرين » . وبناء على ذلك أجل الساحر التجربة الى يوم آخر (صفحة ٢٣٦) .

فالطفل بهذا المعنى وسيط روحى غير متخصص ، سبق وما زال (فى ثقافتنا) الوسطاء الروحيين المعروفين الذين تستخدمهم اليوم جمعيات وهيئات تحضير الارواح للاتصال بهذا العالم فوق الطبيعى .

• • •

ثانيا : العادات والتقاليد الشعبية المتعلقة بالطفل :

لن نحتاج الى ان نكرر هنا بعض ما قلناه فى موضع سابق من هذا المقال ، من أن حديثنا الذى سبق عن المعتقدات قد تضمن بالضرورة اشارة الى طائفة من العادات والتقاليد . وبالمثل لن تقدم فى هذه الفقرة عن العادات اشارات الى المعتقدات الكامنة وراءها والدافعة اليها .

ونلاحظ بعد هذا ان العادات والتقاليد المتعلقة بالطفل تصاحبه فى مرحلة حياته منذ لحظة مولده ، وحتى اكتمال التربية ودخول الحياة العملية او البلوغ ، او حتى الزواج . وسنقتصر فى عرضنا على التوقف عند بعض « المحطات » الهامة على طريق هذه الرحلة الطويلة .

١ ـ السبوع :

السبوع هو اليوم السابع لولادة الطفل . ويقام له احتفال خاص ، يكون أكثر بهاء وكلفة فى حالة المولود الذكر . وتحت أيدينا عدة أوصاف مختلفة لهذا الحفل ، نذكر على رأسها وصف شابرول ، ووليم لين ، واحمد أمين ، ورشدى صالح ، وفوزية دياب .

ونقدم فيما يلى وصفا مختصرا لهذا الحفل، نعلق بعده على التفسيرات المطروحة لبعض الممارسات التي تتم اثناءه ، وسوف نستعين بالوصف الوارد عند فوزية دياب مع اسقاط التفسيرات التى قدمتها . ذلك أنها خلطت فيما بين تفسيرات الاخباريين لما يمارسونه من سلوك، والتفسيرات العلمية التي يجب ابرازها فى مثل هذا العرض . ولذلك لا نعرف بالتحديد هل التفسيرات الواردة تمثل خلاصة بحثها ودراستها أم أنها مستقاة من الاخباريين لما فيها من اخطاء تجانب حقائق التاريخ الثقافى المعروفة (٣١) .

« يبدأ الاستعداد للاحتفال منذ الليلة السابقة على السبوع ، بما يسمى « تبييتة السبوع » التى تشمل استحمام المولود وإلباسه ملابس نظيفة . ثم يؤتى بصينية كبيرة يوضع فيها ماء استحمام الطفل الذى يسمى « ماء الملوك » ،ويوضع فيه مقدار من حب الفول . ثم يوضع وسط الصينية قلة مملوءة بالماء اذا كان المولود انثى . أما اذا كان المولود ذكرا فيوضع ابريق بدلا من القلة . ويزين الابريق او القلة بشمعة كبيرة تظل مضيئة الى ان تنطفىء من تلقاء

---

(٣١) انظر فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣ .

نفسها ... ويوضع تحت رأس المولود بعض الخضروات ... كما يوضع بجواره أيضا اناء به سبعة أصناف من الحب مثل القمح والشعير والذرة والفول والارز والحلبة والبرسيم .

وفي صباح اليوم السابع تأتي المدعوات من النساء ومعهن اطفالهن للاحتفال بالمولود . وتأتي القابلة فتكحل عيني الطفل بالكحل الازرق . ثم تضعه في غربال ، وتضع معه الحبوب السبع المذكورة آنفا . وبعد أن تطلق البخور المضاف اليه الملح ، تغربل الطفل قليلا ، وهي تغني أغنية خاصة بالسبوع (تختلف من منطقة لاخرى) ... (٣٢) وبانتهاء الاغنية يوضع الغربال على الارض لتخطو الام فوقه سبع مرات ... وعلى مقربة من الغربال تدق احدى السيدات « الهون » أو ما يشبهه لاحداث صوت عال .. ومع هذا الدق تقول القابلة « اسمع كلام امك ، اسمع كلام ابوك ، شرق شرق ، غرب غرب » ...

وبانتهاء هذا الاجراء يؤخذ الطفل والحبوب من الغربال الذي يتدحرج على الارض اطول مسافة ممكنة .. ثم تحمل القابلة الطفل وتدور به في ارجاء المنزل لتزفه ... ويمشي وراءها الاطفال الصغار ممسكين بالشموع المضاءة وهم يرددون وراءها اغنية برجالاتك .

وهنا تزغرد النساء ويتهلل الجميع وتنثر القابلة الملح ... بينما تردد بعض الادعية والدعوات ... ثم يوزع على الموجودين الحلوى والحمص والفول السوداني مع شراب المغات . اما الفول المستنبت في ماء السبوع (وهو ماء استحمام الطفل) فتنظمه السيدات الموجودات في شكل عقود صغيرة (وذلك بعد ثقب كل حبة بالابرة) ، وتوزع على الاطفال . وفي اثناء ذلك تعمل القابلة حجابا للوليد يحتوي على الحبات السبع المذكورة سابقا ، مع قليل من الملح وبعض قطع النقود الصغيرة . وتعلق هذا الحجاب في خيط حول عنق الطفل وهي تردد اثناء ذلك بعض الدعوات والصيغ الوقائية المسجوعة ... اما ماء الابريق او القلة ، فيسكب بجوار شجرة مخضرة مترعرعة ... » (٣٣) . وعلاوة على هذا يعد السبوع مناسبة هامة لتقديم النقوط سواء بمبادرة من المدعوات او ردا لنقوط سبق ان قدمته اسرة المولود في مناسبة سابقة .

ونتناول فيما يلي بالمناقشة السريعة اهم التحليلات والتفسيرات التي صاحبت هذا الوصف ، والتي لم تحدد المؤلفة كما قلنا مصدرها بوضوح ، هل هي بيانات الاخباريين ام تفسيرات علمية مستمدة من دراسة تاريخ الثقافة .

١ ـ فبالنسبة لتسمية هذا الاحتفال بالسبوع ، فمن غير المعروف في أي من كتب الفولكلور او التفسيرات العلمية انه في هذا اليوم « تفارق الملائكة السبعة الطفل ، بعد ان كانت تحرسه طيلة

---

(٣٢) انظر عند فوزية دياب نص الاغنية ، وانظر نصوصا اخرى عند رشدي صالح ، الادب الشعبي ، مرجع سابق ، وكذلك عند وليم لين ، المرجع السابق ، وتحت أيدينا بضع مئات من النصوص المسجلة من مختلف انحاء مصر بنصوص وعبارات مختلفة .

(٣٣) نقلا عن فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢ . يلاحظ القارىء ان النقط الفاصلة بين بعض الجمل قد وضعناها لتحل محل تفسيرات المؤلفة التي اسقطناها .

هذه المدة من الجن والعفاريت » (كما تشير المؤلفة على صفحة ٣٢) . وانما السر فى تحديد اليوم هو دلالة الرقم ٧ ، الذى يمثل عددا مكتملا فى نظر المعتقد الشعبى ، شأنه فى ذلك شأن العدد اربعين والعدد مائة . ولذلك نجد بعض المجتمعات تحتفل بهذه المناسبة فى اليوم الاربعين لمولده وليس فى اليوم السابع . ومن هنا فان البحث عن دلالة اختيار اليوم يجب التماسها فى المعتقدات الشعبية المتعلقة بالارقام والاعداد ، وليس فى مجال آخر (٣٤) .

ب ـ بالنسبة للشمعة التى تضاء ليلة الاحتفال فى القلة أو الابريق ، فهى لا تضاء « اكراما للملائكة واعترافا بفضلهم فى حراسة الطفل من الجان والعفاريت والاشرار » ، (كما قالت المؤلفة فى الموضع السابق) ، وانما لأن النار ـ أيا كان مصدرها ـ هى قوة حامية وحافظة من الارواح الشريرة ، والمقصود هنا « أم الصبيان » (او القرينة) بالذات . كما ان النور فى ذاته عامل وقاية من تلك الارواح الشريرة ، حيث انها ترتاح وتعيث فسادا فى الظلام . فقوة النار وتأثير النور هما التفسيران المحتملان لاضاءة الشموع فى تلك الليلة .

جـ ـ أما وضع بعض الخضروات تحت رأس الطفل ليلة الاحتفال بالسبوع ، فهى من الممارسات التى تهدف الى الانماء والخير والبركة بصفة عامة ، كما ذكرت المؤلفة ، رغم أنها وضعت هذا التفسير بين قوسين مما يرجح معه انه تفسير الاخباريين ، على خلاف التفسيرات السابقة التى اطلقتها بين الكلام دون تمييز خاص مما يؤكد انه تفسير من وضعها هى .

د ـ أما بالنسبة لوضع سبعة حبوب فى الاناء الموضوع بجوار المولود ليلة السبوع ، فليس الهدف منه كما جاء فى الموضع السابق « ويرمز هذا الاجراء الى أمل اهل الطفل فى ان يكون فلاحا يزرع هذه الانواع كلها » . انما تفسير ذلك يجب أن يلتمس فى عنصرين :

الاول : هو الرقم سبعة الذى يدل على الكثرة او الاكتمال ، **والثانى** : هو الحبوب التى ترمز الى النماء والخصوبة .

هـ ـ وبالنسبة لخطو الام سبع مرات فوق وليدها الموضوع فى غربال على الارض ، فهى لا تفعل ذلك « اعتقادا بأن هذا الاجراء يقى الطفل الاصابة بداء القراع اذا خطا فوقه احد فى المستقبل » . ذلك ان الخطو او التخطية فوق شيء او كائن لما هو توحيد بين كيانى القائم بالتخطية والمخطو عليه ، أو هو اكتساب كل منهما لقوى وعناصر الكائن الآخر ، كما تفعل المرأة العاقر فى تخطية احجار مقدسة أو بخور او عمل سحرى معين ، وتخطية الشيخ الساحر للمريض ... الخ . فالتخطية فى المعتقد الشعبى لها مدلول عام موسع ينطبق فى هذا الموقف متخذا مدلولا متميزا معينا ، ولكنه مشتق من ذلك المدلول العام . فالام ـ بما يسكن جسدها من قوى روحية ـ تحمى وليدها ، وهى تحقق نوعا من الالتحام والتكامل بين كيانها وكيانه .

---

(٣٤) انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الثانى ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالاعداد .

و ـ اما الاصوات التي يحدثها المحتفلون بالسبوع بالدق في الهون (الهون وعاء نحاسي له يد من نفس معدنه يستخدم أصلا لطحن الحبوب الدقيقة بكميات قليلة) او ما يشابهه . فنجد ان التفسير الشائع والذي صادفناه لدى عشرات الاخباريين فيما قمنا به من تسجيلات ميدانية هو الرغبة في تعويد الطفل على ضوضاء الحياة وعلى الاصوات ، لكي لا يفزع كلما سمع صوتا . اما المؤلفة فلم تثبت هذا التفسير ـ الحديث في نظرنا ـ ولكنها قالت ان ذلك يتم لجلب سمع الطفل . والواقع ان احداث الاصوات العالية له هدف معلوم من دراسة تاريخ الثقافة هو طرد القوى الشريرة وابعادها . فالصوت يؤدي هنا نفس الدور الذي تؤديه النار ، او يؤديه الملح في دفع الارواح الشريرة واتقاء خطرها . وهو معروف في ثقافات عديدة .

ز ـ ويصدق تفسير المؤلفة عن مغزى الزفة او الجولة التي تقام للمولود المحتفى به داخل ارجاء المنزل وفي كل غرفة من غرفه ، فهي تستهدف « تقديمه » الى سكانه غير الظاهرين ، واسمهم في المعتقد السحري الرسمي (الاحتراق) « العمار » (٢٥) .

ح ـ كما يصدق تفسير استخدام الملح لدرء الحسد ، وهو يستخدم على العموم كالشبة لمقاومة الارواح والقوى الشريرة ودرئها عن الانسان . ويدخل في عدد من العمليات السحرية لاداء نفس الوظيفة .

٢ ـ التسمية :

تمنى اللغة الشعبية بصفة عامة واسماء الاعلام بالذات محاولة لفهم العالم المحيط وترتيبه وفق نظام خاص . وتخلق الاسماء بين الذوات الفردية التي لهم الشخص نوعا من العلاقة الخاصة التي تحقق التفاعل وتيسير التكامل . ويدلنا تاريخ الثقافة العام ان معرفة اسم الشخص او الشيء تعطيك سطوة على هذا الشخص او الشيء . وهذا معتقد شعبي قديم جديد في نفس الوقت . فالاسم قوة ، والاسم والمسمى كيان واحد اوشيء له وحدة واحدة ، من عرف الاسم استطاع من خلاله أن يؤثر على صاحبه . فالاسم على هذا النحو ليس مجرد وسيلة للتعريف والتحديد وتصنيف الاشياء والاشخاص ، ولكنه جزء من وجود المسمى به .

وفي بعض الثقافات كان يعتقد ان الطفل الوليد لا تدب فيه الروح الا بعد ان يتسمى باسم معين ، فالاسم والوجود الروحي شيء واحد . ومن هنا يمكن ان نفهم سر الرابطة التي يقيمها المعتقد الشعبي بين الاسم والمسمى ، فالاسم ينبيء عن مستقبل صاحبه ومصيره . ولذلك يحرص الاهل في العادة على اختيار اسم لوليدهم كشخص عرف عنه التقوى او الصلاح او النجاح او العمر المديد ... الخ تلك الصفات المرغوبة .

---

(٢٥) بالنسبة لهذا المفهوم ارجع الى مؤلفنا « استخدام اسماء الله في السحر » ، مرجع سابق ، الملحق رقم (١) .

ولهذا يطلق على الاطفال الذكور المسلمين أسماء الرسول واهل بيته وصحابته وخلفائه الراشدين ... وغيرهم من الصالحين . وفي مناطق اخرى يسمى الولد الاول على اسم جديه لابيه ، ثم يسمى الثاني على اسم جده لامه ، ثم على اسم ابيه واعمامه وهكذا . اما البنات فتطلق عليهن اسماء بنات النبي وزوجاته وغيرهن من الصالحات . كما تطلق عليهن اسماء الزهور .. الخ (٣٦) .

ولكن مع ذلك فان أسماء الاشخاص تختلف من اقليم لآخر داخل المجتمع الواحد ، تماما كما تختلف من مجتمع لآخر . ومن عوامل ذلك اختلاف نسبة التركيب الديني من مجتمع لآخر ، واختلاف أسماء الاولياء المحليين من منطقة لاخرى (على اعتبار ان نسبة كبيرة من الاطفال يسمون بأسماء الاولياء المحليين) ، وتباين المناطق في قربها لتيارات « الموضة » في الاسماء ... الخ ذلك من العوامل التي يمكن الكشف عنها وتحديدها في كل حالة .

وقد لفت نظر كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن اسماء المصريين طائفة من الاسماء الغريبة والمضحكة (مثل : الاعور ـ الحيوان ـ بلاص ـ حلوف ـ ابو طبيخ ـ خيشة ـ جحش ـ غراب ـ عجل ـ فار ـ قط ـ وزة ـ الاعمش ـ الاخيش .. الخ) . ولكن العجيب ان تلفت تلك الاسماء نظر باحث مصري الى ان يقف منها موقف السخرية (مثلا : الدكتور احمد امين في قاموسه ، ص ٤٤) . والحقيقة في تلك الاسماء انها اطلقت على اصحابها انطلاقا من معتقدات شعبية ، وليست مجرد سدى او تعبير عن « ذوق » اصحابها . فالام التي يموت لها ولد او اكثر تطلق عليه اسما قبيحا في الغالب لكي يعيش ، (٣٧) والام التي يتعثر حملها فترة من الزمن ، تطلق على وليدها الجديد اسما قبيحا ايضا لكي يعيش . كذلك الحال بالنسبة للام التي تنجب ولدا ذكرا بعد عدد من الاناث ، فانها تخشى على حياته اشد الخشية . ومن وسائل الحفاظ عليه ان تطلق عليه اسما قبيحا ... وهكذا .

لهذه الاسباب جميعا كان حرص الناس كبيرا على اختيار اسم لوليدهم . ونعرف انه كانت تتم في الماضي عمليات استطلاع للنجوم والكواكب لمعرفة طالع المولود والكوكب الذي يناسبه ، فيختار له المنجم الاسم المناسب . ومع ثبوت الشواهد التاريخية التي تحدثنا عن ذلك اننا لا يمكن أن نتصور أن هذا الاسلوب كان يتبع في تسمية أبناء الشعب العاديين .

---

(٣٦) انظر احمد امين ، المرجع السابق ، ص ص ٤٤ ـ ٤٥ ، وليم لين ، المرجع السابق ، ص ص ٤٩ ـ ٥٠ ، وكذلك ريشارد فايس ، مرجع سابق ، ص ص ٢٦١ وما بعدها .

(٣٧) ذلك ان الارواح الشريرة تتربص لكل ما هو جميل ، فتصيب الوجه الجميل ، والحيوان الجميل ، وكذلك بالطبع الاسم الجميل ، فتقبيح الاسم وسيلة لرد تلك القوى والارواح الشريرة عن هذا الطفل ، بهدف انقاذه من الامراض او الموت . هذا وقد تعرضنا لموضوع الاسماء بتفصيل كبير في دراستنا من استخدام اسماء الله في السحر (بالالمانية) ، انظر عرضا وافيا لها عند علياء شكري ، التراث الشعبي المصري في المكتبة الاوروبية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

وتحدثنا كتب التراث (وكذلك بعض الاخباريين المتقدمين في السن) عن طريقة أخرى أكثر يسرا ويمكن أن تكون في متناول عامة الناس . حيث يقع اختيار الاسرة على عدد من الاسماء ، ولكنهم لا يستطيعون ــ أولا يريدون ــ اختيار احدها بالذات . فيحضرون عددا من الشموع يماثل عدد الاسماء التي وقع عليها الاختيار المبدئي . ويطلقون على كل شمعة اسما منها ، ثم يشعلونها ويتركونها مشتعلة الى ان تنتهي . ولا بد أن احداها ستظل مشتعلة ولو لفترة بعد نفاذ كل الشموع ، عندئذ يطلق على الوليد الاسم الذى سميت به تلك الشمعة (لانها اطولهم عمرا ولاعتبارات أخرى) .

ومع أن استخدام هذا الاسلوب في التسمية قد انحسر ، الا أنه يدلنا بشكل واضح على اهمية اختيار الاسم الذى ما زالت الاسرتوليه اهتمامها ، وفقا لطرق الاختيار التي ألمحنا اليها آنفا .

٢ ــ الختان :

الشائع أن يتم الختان للذكور (خاصة في المجتمعات العربية الاسلامية) أما ختان البنات ، فهو أقل انتشارا . والنظرة الدينية للكيفية مختلفة ، ذلك أن ختان الولد أوجب ، والاتفاق عليه اكبر بين الفقهاء . وسأقتصر فيما يلى على الكلام عن ختان الولد .

وليس للختان سن معينة يتم فيها ، وتحدثنا شواهد عن اتمامه في سن مبكرة نسبيا ، وشواهد عن اتمامه في سن السادسة أو السابعة ، وأخرى عن اتمامه قبل البلوغ على أى حال ، وأخرى عن ضرورة اتمامه قبل الزواج (٣٨) . وهذا الاختلاف الشائع في تحديد مواعيد الختان ، يدلنا على انه قد وعى ممارسوه كثيرا من دلالته الطقسية التقليدية باعتباره احد « المحطات » الرئيسية في رحلة الانسان عبر الحياة ، والتي تدل على تجاوزه مرحلة الاولاد ودخوله مرحلة الرجولة ، أو الشباب (٣٩) . حيث تدلنا المواعيد السابقة احيانا على ربط الناس بينه وبين قدرة الولد على أداء الفروض الدينية (لان وجود القلفة يمنع الطهارة ، والطهارة شرط لاداء الصلاة) . واحيانا بينه وبين القدرة على ممارسة الجنس مع الزوجة ... الخ . بل اننا نجد هذه المرونة تبلغ مداها عندما تنتهز أسرة الولد مناسبة احد أفراح الاقارب او الجيران لاجراء عملية الختان لأولادها . فهنا يكتفى بتحديد مجال زمنى معين يعد الولد فيه صالحا لاجراء هذه العملية ، ولكنه لا يتحدد لذلك سن معينة تحديدا دقيقا .

---

(٣٨) انظر حول هذا الموضوع : علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى في الوطن العربى ، مرجع سابق ، وكذلك وليم لين ، مرجع سابق ، ص ٥٢ وما بعدها ، وشابرول ، مرجع سابق ، ص ص ٥٧ ــ ٥٩ ، واحمد امين ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٣٩) انظر مثلا تعبير شابرول عن شىء قريب من هذا : « ... ويعتبر الختان عند المسلمين (حديثه عن مصر أوائل القرن التاسع عشر) بمثابة الخطوة الاولى في الحياة . اذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الاخلاقية والروحية . اذ يؤمر منذئذ بأداء الصلاة ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان اذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى بنزقها وطيشها . ويمكن القول انه بهذه العملية يولد مرة أخرى ، لكنه في هذه المرة يولد رجلا » ، شابرول . المرجع السابق ، ص ٥٩ .

ونقدم لنا المراجع المذكورة آنفا عدة اوصاف لموكب ختان ولد ، كلها مستمدة من المجتمع المصرى فى فترات تاريخية مختلفة . واللافت للنظر فى هذه الاوصاف جميعا أنها تبرز هيبة الزفة ، فموكب الختان كموكب العرس ، ولكن بشكل مصغر ، والطفل المختون « عريس » ، كما يسميه اهله والمحتفلون به . والزفة تعنى - علاوة على اظهار الفرحة - الاشهار ، فهذا الطفل قد بلغ اليوم مبلغ الرجال . وتتفاوت عناصر الاحتفال من زينة الطفل ، وهيئة ركوبه ، والماكولات والمشروبات التى توزع ، وعدد المشتركين ، والعناصر الموسيقية او الغنائية . . . الخ تتفاوت كل تلك العناصر الاحتفالية حسب مكانة الطفل المحتفى به داخل أسرته حسب مكانة تلك الاسرة داخل المجتمع المحلى .

ولكننا نلمس لحفل ختان الطفل ملمحا آخر اشد تمايزا وأكثر اثارة وادعى الى الاهتمام من كل ما سبق ، وحيث تعد تلك المناسبة « امتحانا » لرجولة الولد المختون ، بكل معنى الامتحان . فعملية ازالة القلفة تتم على مرأى من افراد المجتمع المحلى جميعا ، ذكورا واناثا ، ولا تستخدم فيها بالطبع اى مخدرات او مهدئات طبية لتخفيف الالم ، وعار على الولد المختون ان يصدر أى تعبير عن الالم ، والا فقد ماء وجهه فى المجتمع الى الابد ، واثر ذلك على سمعة رجولته بين ذويه . وهذا البعد هو الذى يحملنا على ان نقدم فيما يلى وصفا لاحد حفلات الختان من المجتمع العربى السعودى ، كتبه الباحث علياء شكرى عن بعض الاخباريين . وهى صورة لم تكن معروفة من قبل فى أى من كتب التراث الشعبى عربية او اجنبية عن هذا المجتمع .

« . . . تجرى عملية الختان للذكور فقط . وكان الصبى يترك حتى يبلغ السادسة عشرة او السابعة عشرة من عمره وربما اكثر . ثم يجمع الاقران من صبيان القرية (٤٠) فى احدى ساحاتها فى مظهر ينم عن بوادر الرجولة كحمل السلاح من بنادق او سيوف وغيرها ، وعدم الاكتراث او الخوف من هذه العملية التي يفوق تعذيبها والمها كل تصور . ويبدأ القائم بعملية الطهارة باستقبال الصبيان واحدا تلو الآخر لاتمامها ، وهم يرددون بعض اشعار الحماسة وعبارات لفخر الصبى بأسرته وأسرة اخواله واجداده ، كان يقول انا فلان من فلان واخوالى فلان وفلان من أسرة كذا . . وهكذا .

وبعد ان ينتهى الجميع من عملية الطهارة يقوم كل واحد بربط القضيب بخيط يسمى « حتيلة » وربطه بحزام فى أسفل البطن يسمى « حتيله » ليمنع القضيب من الالتصاق فى الارجل بواسطة الدم الذى ينزف من القضيب بكميات كبيرة حيث يلطخ ارجل الصبى المختون ، والذى لا يرتدى سوى ثوب يحرص على سلامته من الدم برفع يديه .

(٤٠) القرية هى « سبت العلاية » احدى قرى قبيلة بلقرن التى تقطن جبال السروات جهة الجنوب ، والتى يبلغ عدد قراها حوالى ١٤٥ قرية . وتقع سبت العلاية على الطريق بين الطائف وابها ، حيث تبعد عن الطائف بمسافة ٤٠٠ كيلو متر وعن ابها بمسافة ٢٢٠ كم . انظر علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥ وما بعدها ، حيث تجد معلومات مفصلة عن القرية .

بعد هذا يجوب الصبية المختونون شوارع القرية في شكل عرضه شعبية (رقصة شعبية ذات شكل خاص) وكل واحد منهم يمسك بثوبه، حيث يرددون قصائد البطولة والشجاعة لم يغادروها الى القرى الاخرى بنفس المظهر .

وبعد ان يشعروا اهل القرية التي وصلوها بانهم اجروا عملية الختان يقومون باداء العرضة الشعبية ، ثم يقوم اهل القرية باستقبالهم واستضافتهم حسب امكانياتهم وظروفهم . فتارة يتناولون في احدى القرى وجبة وفي اخرى ربما يقضون نهارا كاملا . وهكذا تستمر زيارة القرى من قرية الى اخرى حيث يستقبلون ويضيفون في كل قرية يزورونها . وليس هناك عدد محدد لايام الزيارة التي كانت تتم مشيا على الاقدام .

وفي اليوم الثاني لعملية الختان يحفر في الارض حفرة ضيقة يبلغ عمقها حوالي ٣٠ سم يوضع بداخلها كمية بسيطة من الجمر حيث يستلقي الصبي المختون على بطنه في وضع يسهل تعرض القضيب لحرارة النار . وعندما يحاول الهرب من شدة الالم يكون هناك احد اقرانه يعمل على ارغامه على الصبر وتحمل حرارة النار ، وذلك بان يدوس على ظهره باحد قدميه . وبعد هذه العملية التي تستمر لوقت يسير ينظف من الصديد الذي قد تكون عليه ويوضع عليه كمية من قشرة الجير بعد سحقه سحقا جيدا .

وتستمر هذه الطريقة وهي التسخين على النار ثم التنظيف المجدد ووضع طبقة من مسحوق قشرة نبات الجير لعدة ايام وربما يندمل الجرح . ولا يخفى ما لهذه العملية من الـم وتعذيب (٤١) .

٤ ـ اعياد الميلاد :

وربما يبدو للبعض ان موضوع الاحتفال باعياد الميلاد من « الموضوعات » الجديدة التي لا يصح ان يلتفت اليها دارس التراث الشعبي ، لانها لا تدخل في اختصاصه ، فاذا كان يهتم بالممارسات والمعتقدات التقليدية المتوارثة ، اي القديمة المستمرة ، فلا يصح ان يهتم بهذه الموضة . والحقيقة ان دارسي التراث الشعبي لا يغفلون ولا يستطيعون ان يتجاهلوا التجديدات التي تطرا على السلوك التقليدي للشعب . فهذا الموضوع فوق انه يرصد عناصر جديدة من التراث ، فان الدراسة المتعمقة قد تكشف ان هذا الذي نظنه شيئا جديدا ، ليس في الحقيقة سوى احياء لممارسات قديمة ، ربما بنفس شكلها القديم المندثر، وربما في ثوب جديد يلائم ظروف العصر . كما ان هذا التجديد قد يحدث نتيجة الاتصال لتقاق بمجتمعات جديدة ، نقلت الينا او نقلنا عنها بعض العناصر السلوكية والاعتقادية الشائعة عندها . ولكن يجب ان ندرك بوضوح ان سلوكا

---

(٤١) انظر علياء شكري ، المرجع السابق ، ص ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

وبعد ان فرغت من وصف عملية الختان كما كانت تحدث في الماضي القريب ، وهو ما اوردناه بنصه ، بدات تستعرض الوضع الراهن لهذه المناسبة وكيفية اجرائها والاحتفال بها ، انظر ص ١٢٧ وما بعدها . وقد درست المؤلفة في هذا الكتاب ثلاثة مجتمعات محلية في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية ، وقد تناولت الموضوع في كل قرية من القرى الثلاث .

جديدا مثل الاحتفال بأعياد لا يمكن ان يلقى قبولا وينتشر الا اذا كان يستجيب لشروط وأوضاع جديدة طرأت على المجتمع المستقبل الذي تقبل هذا السلوك الجديد وأقامه بين أبنائه . ولعلنا نلمس ان هذا الانتشار الواسع الذي ـ في المناطق الحضرية من بلادنا أساسا ـ لعادة الاحتفال بأعياد الميلاد انما هو تعبير عن المكانة التي أصبح يحتلها الطفل في الاسرة في عالم اليوم (٤٢) .

لكل هذه الاسباب لا نعجب عندما نتصدى لدراسة كهذه لموضوع الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال في الاسرة العربية المعاصرة .

واشارتنا المحددة الى « أعياد ميلاد الاطفال » تعنى ان أغلب الكبار ما زالوا يستنكفون او ينفرون من الاحتفال بمناسبة ذكرى مولدهم ، هذا اذا طرحت الفكرة أصلا . فالشائع في المناطق الحضرية ، وفي الطبقات الاجتماعية الوسطى والعليا ان يتم الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال فقط .

واذا أردنا ان نعود الى الوراء لنتبين أصل عادة الاحتفال بعيد الميلاد ، فسوف نجد ان الفرس والاغريق كانوا يحتفلون بعيد ميلاد الشخص كمناسبة لاحياء ذكرى الاجداد ودعم صلة المرء بأسلافه . كما ان الاحتفال بعيد الميلاد لم يكن احتفالا بالشخص المحتفى به نفسه بقدر ما كان احتفالا بالقدس او الاله (المحلى) الذي يحمى ذلك الشخص .

ولذلك حدث في فجر المسيحية ان رفضت الكنيسة بشدة عادة الاحتفال بعيد الميلاد لكونها « ممارسة وثنية » . ولم يبدأ الاحتفال بعيد المسيح نفسه الا في القرن الرابع الميلادي (وقد كان ذلك يوم الخامس والعشرين من ديسمبر من كل عام) .

والملاحظ بصفة عامة ان الاحتفال بعيد الميلاد في المجتمعات الغربية ليس على تلك الدرجة من العمومية والانتشار التي نظنها ، او حتى يظنها أبناء الاوروبيين (٤٣) . فالاحتفال بعيد ميلاد الشخص هو أصلا أكثر شيوعا في الطبقات والقطاعات الميسورة من المجتمع . ويكثر الالتزام به في بعض البلاد اذا صادف فترة الشتاء (باعتبارها وقت راحة من العمل الزراعي ، او من العمل بصفة عامة) ، وهو أكثر انتشارا في الاجواء المناسبة منه في اليوم القاير السيء الطقس ، وهو كذلك يقام بمعدل أكبر في أيام الآحاد أكثر منه في أيام الاسبوع العادية .

وهناك بعض المناطق الاوربية التي تقتصر على الاحتفال بعيد الميلاد الاول ، أو أعياد الميلاد عند بلوغ رقم مكتمل . (الخمسين ، والستين ، والسبعين ، او الخامسة والسبعين) .

ولكن الملاحظ ان الاحتفال بأعياد الميلاد بات موضة عامة شديدة الانتشار في كل أنحاء أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بحيث سقطت كثير من التحفظات والتحديدات التي كانت تراعى من قبل ، والتي ذكرناها آنفا . كما يلاحظ أيضا ان الاجيال الشابة والصغار أكثر

---

(٤٢) انظر مزيدا من التفاصيل عند علياء شكرى «الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة» ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٤٣) انظر ريشــارد بايل ، قاموس الفولكلور (بالالمانية) مرجع سابق ، مادة « عيد الميلاد » ، ص ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .

ارتباطا اليوم بالاحتفال بهذه المناسبة واكثر حرصا على استمرارها والالتزام بها . ومن ذلك الوضع نقلت كثير من الطبقات الميسورة والوسطى في مجتمعاتنا العربية عادة الاحتفال بعيد ميلاد الطفل .

٥ ـ الاحتفال بالبدايات الاولى لما يفعله الطفل

القاعدة العامة ان الاشياء التي يأتيها الطفل لاول مرة ، او تؤدى له لاول مرة ، تكون موضع اهتمام المحيطين به ويسجلونها بعناية ويتذكرونها ، وربما يحتفلون بها على نحو او آخر ، كما سيتضح فيما بعد . ونفس الاهتمام يوجه بالطبع للاقوال او العبارات ، بل والاصوات ، التي تصدر عنه لاول مرة . واذا تجاوزنا هذا المستوى الاولى ، نجد اهتمام الاسرة ، وخاصة الام ، بكل شيء يفعله الطفل لاول مرة ، كخروجه من البيت لاول مرة ، وذهابه الى « الكتاب » او المدرسة لاول مرة ، وقص شعره لاول مرة (قص شعر البطن) ، واستحمامه لاول مرة ، وفطامه عن لبن امه ..... الخ .

والملاحظ بصفة عامة ان ذلك الاهتمام قد يكون من جانب الاسرة كلها ، وقد يكون مقتصرا على الام وحدها . وانه قد يتخذ حجما خاصا بالنسبة للطفل الاول « البكرى » وقد ينعدم تماما بالنسبة للاولاد غير الاول . وهذا شيء منطقي ، ولكنه قاصر على الامور التي تثير الدهشة والفرحة . ولكن هناك بعض تلك البدايات التي تكون لها اهمية طقسية او اعتقادية خاصة ، فتلقى قدرا اكبر من الاهتمام وتقوم الاسرة او الام بمراعاتها بالنسبة لكل الاولاد دون تمييز بين الاول ومن عداه .

ومن ابرز تلك البدايات ذات الاهمية الطقسية : قص « شعر البطن » ، وقص الاظافر لاول مرة ، وفي احيان اخرى مياه اول حمام الطفل . فشعر البطن يجب العناية بالتصرف فيه اذ لا يصح اطلاقا القاؤه هكذا . لان له صلة وثيقة بشخصية صاحبه ، وقد يتخذ « اثرا » له تمارس عليه بعض العمليات السحرية « الاعمال » التي تنعكس على الطفل مباشرة . ونفس الشيء بالنسبة لبقايا اول اظافره فهي ايضا جزء من كيان الطفل يجب التصرف فيها بحذر ، وعلى نحو لا يؤدي الى وقوعها في ايدي الغرباء او اعداء يمكن ان يستغلوها على النحو المذكور لايقاع الضرر الجسيم بالطفل . وبالنسبة لماء اول حمام للطفل رأينا في حديثنا عن السبوع ، كيف تستنبت فيه بعض الحبوب التي تلعب دورا في حفل السبوع ، وتؤدي وظيفة المالية حافظة بالنسبة لحياة الوليد الجديد .

ولكن تتركز حول شعر البطن اكبر عدد من الممارسات والمعتقدات . فالاساس في بعض مناطق الريف المصري ـ الا يقص هذا الشعر عند قبر احد الاولياء في مناسبة الاحتفال بمولده . ولذلك ينتشر في احتفالات الموالد (خاصة المشاهير منهم) عدد كبير من الحلاقين الذين يقومون بقص شعر البطن للاطفال الصغار . حيث يوهب ذلك الشعر للولي . وبعضهم يتصدق بوزنه مالا (فضة او ذهبا حسب الاحوال) . واذا اضطرت الاسرة الى قص شعر الطفل ولم

يتيسر لها لسبب او لآخر زيارة ضريح الولي الذي وهب له الشعر (٤٤) ، فاننا نجد الاسرة تقص شعر الطفل كالمعتاد ، ولكنها تترك وسط الرأس خصلة . وتظل تلك الخصلة ذات شكل متميز (في حليقة) وسط رأس الصبي الى ان يتيسر للاسرة زيارة الولي ، حيث تقص هناك .

٦ ـ الاطفال في الاعياد والمواسم :

المقصود هنا الاعياد والمناسبات الدورية التي تتتابع على مدى العام ، وترتبط بتعاقب الشهور (العربية اساسا) وتتابع المواسم . من اهم الاعياد والمواسم : الاعياد الدينية ، والمواسم الدينية الشعبية : كبداية رجب ، ونصف شعبان ، وبداية رمضان ، وموالد الاولياء (المحليين او الاقليميين) .. الخ .

وفي كثير من تلك المناسبات يكون الاطفال هم اصحاب الاحتفال الرئيسيين ، او هم الذين من اجلهم وبهم تتم اغلب الممارسات الاحتفالية . فالمصري ـ على سبيل المثال ـ يحتفل بالعيدين بالتوسعة في الطعام ، ليس على نفسه وزوجته ، وانما على اطفال الاسرة اساسا . ويحتفل كذلك بلبس الجديد ، وان ضاقت امكانياته ، عن تدبير ملبس جديد له ، ولكن لابد من تدبير ملابس جديدة للاطفال . ويوسع الاب في المصروف على اطفاله في الاعياد .

ففي ليلة النصف من شعبان يحرص كل اب ريفي على اصطحاب اولاده معه الى المسجد ، والاشتراك في الدعاء ، ثم يسلكون سبيلهم بعد ذلك الى البيت للاشتراك في وليمة « ليلة النصف » . فركنا الاطفال في هذه المناسبة هي الدعاء في المسجد ، والوليمة . والاطفال في كليهما محور اساسي .

وطوال ليالي رمضان يصحب كل طفل فانوسه ويتجولون في مجموعات على بيوت الحي يغنون لاصحابه و « يشحتون » منهم الهدايا ، ولا يمكن ردهم بسهولة دون هدية . والاغنية « وحوي ياوحوي » المشهورة بهذه المناسبة (٤٥) .

ومواكب الاطفال الذين يقومون بالاستجداء معروفة في اغلب ثقافات العالم ، خاصة عند الشعوب ذات التاريخ الحضاري . واغلب المجتمعات كالاوروبية تعرف تلك المواكب في مناسبات مختلفة . ولكل مناسبة اناشيد واغان وعبارات محفوظة يتم ترديدها لهذا الغرض (٤٦) .

---

(٤٤) من اهم اسباب اضطرار الاسرة الى قص شعر الطفل مقاومة ما قد يكون تجمع فيه من حشرات ، اى لاغراض النظافة .

(٤٥) « وحوى يا وحوى » اغنية منتشرة في ضواحي الصبيان حيث يجتمع الاطفال بعد الفطور وبأيديهم فوانيس صغيرة مضاءة بالشمع ، زجاجها ملون بالوان مختلفة ، من احمر ، واخضر وازرق واصفر . وينشد منشدهم : وحوى يا وحوى . فيجيب الآخرون : اياحه . ثم يستمر المنشد : « بنت السلطان لابسة قفطان بالاحمر ، بالاخضر ، بالاصفر » . وينشد الاطفال وراء كل كلمة : « اياحة » . ويظل الاطفال يمتدحون صاحب البيت واسرته ، ولا ينصرفون الا بعد ان يقدم لهم شيئا من الحلوى او المكسرات او النقود . راجع كذلك احمد امين ، المرجع السابق ، ص ص ٤١٤ ـ ٤١٥ وكذلك رشدي صالح ، الادب الشعبي ، ١٩٥٦ ، مواضع متفرقة .

(٤٦) انظر دراسة قيمة في التاريخ الثقافي لهذه الممارسة عند ريشارد فايس ، الفولكلور السويسري ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٥ وما بعدها .

كما يشارك الاطفال بدور حيوي في مجالس السمر التي كانت تشهدها ليالي رمضان حتى عهد قريب . وبعد انقضاء رمضان وحلول العيد تحرص الاسرة على التفنن في عمل كعك للاطفال على هيئة عرائس آدمية لادخال السرور الى نفوسهم . وهي ظاهرة ما زالت معروفة في بعض انحاء الريف المصري وقليل من احياء المدن المصرية حتى اليوم . (٤٧)

٧ ــ تربية الاطفال :

من الطبيعي ان حديثنا عن التربية لا يمكن ان يكون شاملا ولا وافيا ، فنحن اولا لا نعد بحثا عن التربية ، ثم اننا لا نستطيع ان نستغرق في هذا الحيز المحدود كافة الوسائل والاساليب التقليدية في التربية . وانما سنقتصر على عرض بعض الخطوط الرئيسية .

الملاحظ اولا ان الاسرة هي اهم عامل في نقل التراث الشعبي الى الطفل ، وهي تتفوق في ذلك على كافة وسائل ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الاخرى ، خاصة في المجتمعات التقليدية . ومن بين افراد الاسرة تعد الام الشخصية الاولى صاحبة الدور الجوهري في توصيل التراث الى الطفل .

وقد اشرنا في صدر هذه الدراسة الى قوة العلاقة بين الطفل وامه . ولكننا نؤكد هنا ان الطفل هو كل شيء في حياة والديه . وقد عبر شابرول عن ذلك بصورة بليغة في دراسته المتضمنة في كتاب وصف مصر (٤٨) ، حيث يقول : « وهكذا يبدو ان العناية الالهية تقيم نوعا من التعويض بين المزايا التي توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصري الذي ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا او نفس ميزاتنا الجسدية او الروحية التي تبعده عن اسرته يعرف اكثر منا معنى العواطف الطبيعية . فاطفاله هم كل شيء في حياته، وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله. ولربما كانت احاسيسه اكثر واقل تنوعا لكنها اكثر نفاذا واكثر حقيقة . وهو يدين بذلك الى براءة عاداته وكذا الى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنة في نفسه وفي ثنايا اسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العالمي ما يسمم مباهجه . »

الملاحظة الثانية ان عملية التربية واعتبرها توصيل التراث الثقافي الى الطفل لاتتحدد بحدود زمنية معينة ، وانما هي تتم بشكل مكثف في سنوات العمر الاولى . ولكنها تظل مع ذلك مستمرة طوال العمر ، بحيث يتم امتصاص (او استدماج) القيم والمعايير ونماذج السلوك الاجتماعية امتصاصا كاملا .

والتربية لا تتم على نحو واحد او بوسيلة واحدة او وسائل بعينها ، ولكن الأسرة والمجتمع المحلى بوجه عام يسخر كل ما لديه من ذخيرة لتحقيق هذا الهدف العزيز . فتتوسل الأسرة

---

(٤٧) يروى وليم نظير في : العادات المصرية بين الامس واليوم ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨ ، يروى انه عثر في دير المدينة بطيبة من عصر الدولة الحديثة على انواع من الخبز على هيئة اشكال ادمية كانت تقدم للاطفال في الاعياد . وهي محفوظة بقسم الزراعة المصرية القديمة بالمتحف الزراعي بالقاهرة (قطعة رقم ١٤٤٧ ، أ ب ، جـ) .

(٤٨) دى شابرول ، سكان مصر المحدثون ، مرجع سابق ، صفحة ٥٤ .

الى ذلك بالقدوة اولا ، وبالتعويد والتدريب المتكرر ، وبالاوامر والنواهي المباشرة والمتفاوتة القوة ، بقص وانشاد الاغاني ، والقاء الامثال والحكم ، والاشتراك في المناسبات والطقوس الاجتماعية (عامة وخاصة على السواء) .

والقيمة الاسياسية التي تحرص الاسرة على غرسها في نفس الطفل هي قيمة احترام الوالدين ، والكبار بصفة عامة . وبديهي ان استقرار هذه القيمة في نفوس الاطفال تسهل مايلي ذلك من وصول تأثير سبل التنشئة السالف ذكرها الى اعماقهم . ولشابرول عبارة جامعة عن قيمة الاحترام في نفس الطفل المصري ، يقول فيها : « ان احترام الابناء لآبائهم وامهاتهم يذهب الى حد بعيد ، فهم لايخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ . ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة . ومع ذلك فهم لايسكنون نفس الحجرة التي تقيم فيها الأم — ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ويظلون للحظات واقفين امامها واذرعهم معقودة على صدورهم . ثم ينزلون بعد ذلك الى والدهم ويقدمون له نفس امارات الاحترام . ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته الا اذا كان ذلك في يوم يعد من اعياد الأسرة . (٤٩) وهو — كذلك — لايسرف في تدليلهم ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة . وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . ولستطيع الطبقة الدنيا وحدها ان تخرق هذه القاعدة . » (٥٠)

على ان هذا الحرص الكبير على تربية الطفل يمكن ان يتعرض — كما هو متوقع — لبعض الصور غير السوية ، او مظاهر التطرف من تدليل او قسوة . وتحت ايدينا شواهد من مظاهر هذا التدليل كما سجلها بعض المؤلفين . واما اذا اردنا شواهد من القسوة فيكفي ان نرجع الى اى وصف للكتاب في القرية المصرية ، لنرى الى اى مدى يسيء العريف استغلال السلطة التربوية الممنوحة له (٥١) .

اما عن التربية الرسمية فكانت تتم اساساً في الكتاتيب ، ثم تراجعت جميعاً ، أو كادت متخلية عن وظيفتها للمدارس بمراحلها المختلفة والتي عمت مختلف انحاء البلاد .

ومن الموضوعات التربوية ذات الاهمية الفولكلورية الواضحة الشخوص التي تستخدم لتخويف الاطفال . اذ تعرف كل الثقافات الشعبية عدداً من الشخوص والهيئات التي تخيف بها الأطفال فترتعد فرائصهم لمجرد ذكرها ، او تمثيل هيئتها ، او مجرد التهديد بجلبها .

---

(٤٩) لفتت هذه الظاهرة نظر وليم لين الذى دعى مرة على مائدة الفطار ، وظل اولاد المضيف الذكور (وبعضهم فوق الاربعين) يخدم على المائدة دون ان يشاركوهم في الطعام .

(٥٠) يشير شابرول بوجه خاص الى الاسراف في تغذية الطفل الى حد اصابته بالتخمة وامراض اضطراب التغذية ، وكثرة الاغطية التي لاحظها على اطفال بعض الطبقات والتي لا تتفق وطبيعة جو مصر ، كما لا تتفق ومتطلبات الحركة الصحية للطفل ، انظر شابرول ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(٥١) بالنسبة للكتاب انظر الاوصاف التي وردت لدى احمد امين ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢٤ — ٢٢٥ . ووليم لين ، مرجع سابق ، ص ص ٥٤ — ٥٥ . وقبل هذا وبعد هذا الوصف الرائع الذى قدمه لنا الدكتور طه حسين في كتابه الايام .

وهى تستعمل للاغراض التربوية عامة : لابعاد الطفل من اماكن معينة ، او تخويفه من ممارسة فعل او سلوك معين او اصدار قول معين ... الخ .

واذا اردنا القاء نظرة شاملة على تلك الشخوص التى تستخدم للتخويف من الثقافة الشعبية المصرية وجدنا انها تنقسم الى : ـ

أ ـ كائنات خرافية ، كالعفريت ، وابورجل مسلوخة (٥٢) ، والسلعوة ، والبعبع (٥٣) ، و « الاخت اللى تحت الارض » ... الخ

ب ـ حيوانات : اغلبها مألوف فى البيئة ، ولكن تتردد بين الحين والاخر حكايات عن اذاه لبعض الأفراد ، ومنها : الكلب ، والذئب والثعلب ... الخ .

جـ ـ اشخاص ووظائف معينة فى المجتمع : وهى تستدعى للتخويف اما لأنها رمز للسلطة والبطش كالعسكرى (الشرطى طبعا) ، او لما تحدثه من الم شديد يفزع منه الطفل كالدكتور (الطبيب) واعطائه الحقنة ... الخ . (مع مراعاة ما لذلك العنصر الاخير من آثار تربوية سليمة) .

ثانيا : الادب الشعبي والطفل

ا ـ اغاني الطفل :

الاغانى الشعبية عموما هى اكثر عناصر التراث الشعبى التى ابنت بشكل واضح العلاقة بين الثقافة الراقية (او الرسمية) والثقافة الشعبية . وتحتل اغانى الاطفال مكانا متميزا داخل تراث الاغانى الشعبية . فهى اقدم انواع الاغاني الشعبية على الاطلاق واوسعها انتشارا . كما تجدها تتشابه فيما بينها الى حد بعيد من حيث النغم ومن حيث المضمون بين الثقافات على امتداد العالم . وهى من اغنى المصادر التى تحفظ لنا بقايا معتقدات وممارسات ومناسبات درست ولم يعد لها وجود فى عالمنا المعاصر . (٥٤) .

---

(٥٢) « ابو رجل مسلوخة » اسم للعفريت يخوف به الاطفال ويصفونه بانه مخلوق نصفه الأعلى كالانسان ونصفه الاسفل كالحمار ، وله ذنب وبفخذيه سلوخ فى الجلد يظهر منها لحمه الاحمر . وهذا الوصف نقلا عن احمد امين ، القاموس ١٧ . مع مراعاة أن تلك الاوصاف تختلف اختلافا شاسعا من حالة لاخرى ، لانها تصف كائنا خرافيا لا وجود له ، ويحتفظ كل انسان لنفسه بصورة خاصة منه تشترك فى الملامح العامة ولكنها تختلف فى بعض التفاصيل .

(٥٣) « البعبع » ـ حسب وصف احمد امين ايضا ـ المرجع السابق ، ص ٩١ مخلوق غريب مخيف ، يخوف به الاطفال ... « وهو من الاشياء التى تخلع قلوب الاطفال من الصغر ، وتشلهم جبناء » . لمزيد من المعلومات حول هذه الشخصيات الخرافية ارجع الى مقالنا عن الجن ، المعتقد الشعبى المصرى ، الذى سبقت الاشارة اليه .

(٥٤) سوف نقتصر فى هذا القسم من الدراسة على تناول موضوعى اغانى الاطفال والالغاز ، مع علمنا بان هناك بعض الانواع الادبية الشعبية الاخرى الوثيقة الاتصال بالطفل ، ولكنها تحتاج الى دراسات مستقلة ، وعلى رأسها الحكايات الخرافية . كما ان معالجتنا للموضوعات الشعبية ستأتى بالضرورة موجزة أشد الايجاز لأنها قد درست بتفصيل اكبر فى المؤلفات الخاصة بالأدب الشعبى . انظر حول موضوعنا مزيدا من التفاصيل عند ، رشدى صالح ، الادب الشعبى ، مواضع متفرقة ، نبيلة ابراهيم ، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق ، واشكال التعبير فى الادب الشعبى ، « الحكاية الخرافية ، وانظر ملاح عند احمد امين ، مرجع سابق ، وكذلك قاموس فونك للفولكلور . ص ٢١٩ ، وقاموس بانيل للفولكلور ص ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

ومن أوجه الأهمية الكبيرة التى تحفزنا الى ضرورة الاهتمام بتسجيل اغاني الاطفال ودراستها وتحليلها :

ا ـ تتميز اغانى الاطفال الشعبية بوضوح ارتباطها الاجتماعي ، فهى تعبير حي واضح عن المجتمع ، وهى ما يمكن أن نسميه تراثا شعبيا بالمعنى الصحيح .

ب ـ كشفت الدراسات السابقة لاغاني الطفل (العربية والاوربية على السواء) بوضوح شديد عن صفة الاستمرار عبر الزمن ، على نحو يمكن أن يمتد عبر مئات او آلاف السنين احيانا ، . وهى تشبه فى ذلك أغلب عناصر التراث الشعبى المتصلة بالطفل .

وتتميز أغانى الاطفال من الناحية الشكلية (أو الفورم) بأن الايقاع هو الذى يلعب الدور الحاسم فيها . وهذا يفسر لنا طبيعة العلاقة الوثيقة بين اغانى الاطفال والالعاب الشعبية ، وكذلك بين أغانى الاطفال والرقص الشعبى . كما تتميز أغانى الاطفال بالقافية الواضحة التى يستبدل بها احيانا السجع والجناس الاستهلالى . اما النغم فموقع توقيعا شديدا ، ويتميز بنفس الشكل الأساسي الذى يطوع عضويا مع كل النصوص . بل يمكن القول بان لحن اغنية الاطفال واحد متكرر ، طالما لم يتعرض بالطبع لمؤثرات من المدرسة أو أى مصدر آخر من مصادر الثقافة الرسمية .

ويمكن تقسيم أغانى الاطفال من حيث المضمون الى اربع مجموعات أو فئات كبيرة هي :

ا ـ المجموعة الاولى هى تلك الاغانى التى تتردد فى اثناء التعامل بين الطفل والكبار المحيطين به ، خاصة الأم . وتنتمى الى تلك المجموعة اغانى المهد ، واغانى ملاعبة وهدهدة الطفل ، والاغانى ذات المضمون التربوى بصفة عامة . (٥٥)

ب ـ المجموعة الثانية هى تلك التى تترددمن خلال تعامل الطفل مع البيئة ، وخاصة البيئة الطبيعية المحيطة . فالطفل يغنى لكثير من الظواهر والتغيرات الطبيعية التى تلفت نظره او تخيفه او تعجبه او تفاجئه . . . الخ فهو يفرح للمطر ، ويمضي تحت وابله منتشيا ، فيتمنى ان يشتد ليزكو الزرع ويفيض الانتاج فيمتلىء بطنه . (٥٦) ومرة ثانية يتمنى ان تصبب السماء ماءها قيملأ « القلة » (٥٧) . واغنية اخرى يرجو فيها ان يفيض المطر فتفيض به

---

(٥٥) انظر بعض نصوص لاغانى هدهدة الطفل عند رشدى صالح ، الأدب الشعبى مرجع سابق ، الجزء الثانى ، ص ص ١٠٥ وما بعدها .

(٥٦) انظر نصا لاغنية بهذه المناسبة عند رشدى صالح ، الادب الشعبي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٥٧) نص الاغنية فى المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

دروب القرية وبعوم الاوز . (٥٨) والطفل يغنى للقمر عندما يختنق ، ويغنى الشمس وهو يرمى اليها بسنته التي سقطت (٥٩) ويغني للرعدوالبرق ... الخ . كما يغني للحيوانات والطيور المعروفة فى بيئتها . وقد أورد رشدى صالح أغنية تحكى قصة طائر « أبو قردان » الذى طالما عرفه فى الحقول ويبهرهم بخفته وسمعوا من آبائهم ان صيده « حرام » ، والذى تثير مثل هذه الاغنية حبهم له لأنه « مسكين »بلا ولد . (٦٠)

جـ ــ المجموعة الثالثة هى تلك الاغانى التىتنشا نتيجة العلاقة الوثيقة بين الايقاع واللعب ، فتنشأ اغانى اللعب ، واغانى الرقص ، والاغانىالتنافسية .. الخ . (٦١)

د ــ اما المجموعة الاخيرة فتنشا نتيجةالتفاعل بين الطفل والمجتمع المحيط به فى مناسبات العادات الشعبية المختلفة فى مراحل دورة الحياة(كاغانى السبوع ، والختان ، والزواج ...الخ) ، والمناسبات التى ترتبط بمرور العام وتتابعه(كاغانى الاعياد الدورية ورمضان ..الخ) . ويبدو هذا بشكل جلى سمة هامة من سمات الاغنية الشعبية (بالمعنى العام الشامل) التى فقدتها بمرور الوقت ، وظلت باقية فى اغانى الاطفال فقط ، واعنى الترابط العضوى الوثيق بين الاغانى الشعبيه ومناسبات العادات الشعبية المختلفة .ولا نغالى اذ نقول ان استخدام تلك الاغانى فى مناسبات العادات الشعبية اصبح من الامور الاولى لبقاء واستمرار اغانى الاطفال .

ولكن ماذا عن مستقبل اغانى الاطفال ؟ من الملاحظ بالنسبة لمجتمع كالمجتمع المصرى ــ على سبيل المثال ــ ان الثقافة الرسمية (الراقية) لم تكن تحفل باغانى الاطفال ، وان كل اغانى الاطفال كانت مستمدة ــ حتى عهد قريب ــ من التراث .ولم يكن هناك اختلاف بين الطبقات الاجتماعية او المناطق الجغرافية فى هذا الامر . اذ كان الجميع يهدهدن اطفالهن باغان تعلمنها من أمهاتهن وجداتهن . كذلك كان الاطفال فى سن المدرسة يلهون باغان مما لم يتم انتاجه فى «معامل» الثقافة الرسمية . ولكن ما ان بدات الثقافة الرسميةتنتج اغانيا للطفل ، حتى تلقفها اغلب الطبقات العليا والوسطى ، خاصة تلك الفئات التى ترغبفى أن تنفض عن نفسها العناصر الشعبية وتبعد عن نفسها اى شبهة انتماء شعبى (لانه اصبحيعنى انتماء للطبقات الدنيا) . لم لاننسى بعد هذا دور المؤسسات التربوية الحديثة(المدارس اساسا)ووسائل الاعلام فى ترويج كثير من اغانى

---

(٥٨) النص فى المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٥٩) انظر هانس فينكلر ، الفولكلور المصرى(بالالمانية) ، شتوتجارت ، ١٩٣٦ .

(٦٠) نص الاغنية عند رشدى صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(٦١) انظر بعض النصوص فى المرجع السابق ، ص ص٢٤٠ ــ ٢٤١ .

المناسبات الوطنية للأطفال . معنى هذا ان ثروة اغاني الاطفال في مجتمعاتنا المستمدة من التراث الشعبي معرضة للزوال في المستقبل القريب ، مالم تلتفت الى تطويرها والترويج لها (من خلال وسائل الثقافة الرسمية ايضا) .

٢ ـ الالغاز :

يرى بعض العلماء ان الالغاز في نشأتها الاولى تعد نوعا من الشعر الشعبي من مستوى رفيع ، شأنه في ذلك شأن التعاويذ والأدعية السحرية ، وصيغ الاستنجاد بالقوى العلوية . ويرى هذا الفريق من العلماء ان الطرق الصوفية والفرق الدينية كانت تستخدم هذا الاسلوب (من التساؤلات الحكمية ذات المغزى الديني او الصوفي) في تربية افرادها والحكم عليهم وترقيتهم في مدارج الطريق . كما كان بعض المطاردين من اصحاب الدعوات الدينية والصوفية واصحاب الدعوات السرية يتخذون الالغاز اسلوبا لتبادل الرأي واذاعته . (٦٢)

ولكن هناك الى جانب ذلك عامل آخر في تكوين اللغز والاحتفاء به لدى الاطفال والكبار على السواء . هذا العامل هو الرغبة الكامنة لدى الانسان والميل الى لعبة الاخفاء . ويبدو هذا الميل في اوضح صوره لدى الطفل ، ولكنه موجود لدى كل منا على اى حال .

ومحور هذا الاسلوب حفز المشتركين الى البحث عن الاشياء العادية المألوفة وراء هذا الوصف الشعري المعمى . وهذه الرغبة في الاخفاء والالغاز تتعارض بطبيعة الحال مع اسلوبنا العصري (الرسمي) الذي يتوسل بالمنطق ويسعى الى الوضوح . ولكنه يتفق مع ذلك مع التصور البدائي من وجود صلة قرابة بين كل الاشياء الموجودة في هذا العالم . وهو تصور على الاعتقاد البدائي بوجود نوع من التناغم في الوجود كله . ومعناه انه توجد بين كافة الاشياء والعمليات التي تبدو متقاربة او متباعدة في الظاهر علاقة داخلية عميقة .

فعلى حين يبدو لنا اسلوب اللغز امراحجافيا لتفكيرنا المنطقي ، فقد كان يؤدى في الاصل وظيفة عميقة الدلالة هي رؤية صلة القرابة والرابطة المشتركة بين البشر ، والحيوانات ، والنباتات ، وكافة الاشياء ، وادراكها ككائنات على مستوى واحد .

ويمكننا ان نلتمس اليوم القواعد الراسخة لكل من الالغاز والحكايات الخرافية من نفس القطاعات الشعبية ، حيث تتجلى بأوضح صورها لدى الاطفال . فهم اليوم الجمهور الاول لكل من اللغز والحكاية الخرافية . فالصبي او الفتاة يحفظون منها قدرا يسوقه الواحد منهم عندما

---

(٦٢) وذلك على اساس ان الالغاز رموز لمعان مخبوءة ، قد يستطيع الفرد حلها بذكائه ، ولكن الكثير منها لا بد ان يعرف المرء « شفرته » كما يقال . انظر رشدي صالح ، فنون الادب الشعبي ، الجزء الثاني ، ص ص ١٤ ـ ١٥ ، حيث نجد معالجة اوسع لموضوع الالغاز من وجهة نظر دارسي الادب الشعبي .

يتبارل احد اقرانه ، ويلهي الاب والام بايرادها على مسامع ابنائهما . وذلك بأن حل اللغز من اكثر الموضوعات رواجا وقبولا لدى العامة ، ومن اكثر الموضوعات نجاحا في الادب الشعبي .

وتعكس الالغاز علاوة على هذا سمة من السمات المميزة للغة الشعبية بصفة عامة ، وهي الميل الى التشخيص (او التجسيد) ، مما لامجال للخوض فيه تفصيلا هنا ، ويجد القارىء دراسات وافية في بعض مراجع الادب الشعبي الحديثة . (٦٣)

ويترتب على تلك السمات السابقة للقرائنا لايصح ان تفاجأ عندما يحاول البعض اقامة الدليل على وجود نفس اللغز (وكذلك بعض الحكايات الخرافية) ربما بنفس النص ونفس الاستخدام ـ في اماكن متباعدة على خريطة العالم ، بل ربما في كافة ارجاء العالم ، ذلك لانه يستجيب بهذا الوضع لسمات انسانية عامة لصيقة بالانسان حيثما كان ، لانها انبثقت منه بوصفه انسانا .

ومع ذلك فلا بد ان نسلم في نهاية الامر ـ ورغم كل ما قلناه ـ بأن الحضارة العقلية الحديثة التي تتسم بالرشد قد ادت الى تراجع اللغز حتى بين الاطفال انفسهم . حيث اصبح الناس اكثر انطباعا بالاسلوب المنطقي في التفكير ، علاوة على ان سرعة ايقاع الحياة الصناعية الحديثة لم تعد تسمح مكان للتفكير العابث بأن يأخذ مداه ويستغرق في حل ما يطرح عليه من الغاز .

والملاحظ كذلك ـ على الاقل في كثير من دراسات الفولكلور الاوروبي ـ ان الميل الى الالغاز (تأليفها وحلها) لدى الكبار قد انحصر بحيث اصبح يقتصر اساسا على ميدان الجنس . وفي هذا المجال تداخل اللغز الجنسي مع النكتة الجنسية المعتمدة على التورية والجناس والتلاعب اللفظي .

• • •

رابعـا :

العاب الاطفال الشعبية :

الالعاب الشعبية ضرورة اساسية من ضرورات الطفولة تصاحب الطفل منذ بداية تكون القدرات الحركية عنده ، وتتطور معه تبعا لتطور قدراته الجسمية والنفسية والاجتماعية . فهي بذلك حاجة طبيعية لديه ، لاتحتاج الى تربية معينة لتعويده عليها او جذبه اليها ، وربما فقط لتنظيم ممارسته لها . ويتم هذا التنظيم بشكل تلقائي عادة من خلال التفاعل مع امه في البداية ، ثم مع رفاقه بعد ذلك .

---

(٦٣) انظر على سبيل المثال ، ريتشارد فايس ، المرجع السابق ، ص ص ٢٥٢ ـ ٢٧٦ . وكذلك المراجع والدراسات الواردة هناك .

والالعاب الشعبية بصفة خاصة متنوعة تنوعا كبيرا فمنها الالعاب الصغيرة والكبيرة ، ومنها الفردية والجماعية ، والهادئة والكثيرة الحركة ، ومنها الداخلية (التى تتم داخل مكان مغلق) والخارجية . كما انها متدرجة ففيها مايصلح لكل الاعمار والقدرات . وهذا التنوع الكبير يلبي شرط العمومية والانتشار ، ففيها المناسب لكل اتجاه ولكل قدرة ولكل مرحلة عمرية . والالعاب الشعبية لاتحتاج لمعدات خاصة أو أدوات رياضية معقدة ، ولا تحتاج بالطبع لملاعب خاصة ، وانما يمكن تدبيرها بأبسط الامكانيات وبما هو متاح فى البيئة المحلية ، وعلى اى ارض أوفى اى مكان متوفر امام الطفل . والسمة الهامة الاخرى فى الالعاب الشعبية انها لاتتطلب مسبقا ايه استعداد خاص أو مهارات معينة فيمن يود ممارستها ، بل هى التى تربى المهارات وتهذب الاستعدادات وتنميتها . وهى لذلك تتسم بالبساطة اذ يوسع اى فرد ان يفهمها وان يؤديها ، لان القوانين التى تحكمها سهلة ميسورة وبسيطة . وهذه الخاصية تجعلها فى متناول الجميع فلا يشعر احد بعجزه ازاءها . وتلك من العوامل التى تؤكد ذيوعها وانتشارها بين كل الدوائر الشعبية . ومن اهم سمات الالعاب الشعبية انها طابع محبب يستهوى اللاعبين . فهى تهدف ــ من بين ما تهدف اليه ــ الى اظهار المهارة وسرعة البديهة (واحيانا القوة) ، فتشد الاطفال الى ممارستها وتحقق لهم بذلك قدرا من الاشباع هم فى حاجة طبيعية اليه . وهى كذلك تساهم فى نهاية الامر من خلال المران المستمر عليها ــ الى تنمية سرعة الخاطر وحضور البديهة لدى ممارسيها .

لذلك يمكن أن نقول بحق ان الالعاب الشعبية تعمل على تكوين الشخصية الناضجة ، وتتيح الفرصة للطفل لتنمية استعداداته وقدراته، ومتابعة احتياجاته الاساسية بدنية ونفسية واجتماعية(٦٤) .

وتتميز العاب الاطفال شأنها شأن كافة العناصر الشعبية المتعلقة بالطفل (كأغاني الاطفال مثلا) بأنها تحتل فى المجتمع مكانة اكبر من العاب الكبار . كما انها تعكس مثل بقية عناصر التراث الشعبي الخاصة بأطفال تراث الاجداد بشكل أوضح من تراث الكبار(٦٥) .

---

(٦٤) انظر حول هذا الموضوع ، محمد عادل خطاب ، الالعاب الريفية الشعبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ ، ص ص ٢٢ وما بعدها .

(٦٥) استعرض وليم نظير ، المرجع السابق ، ص ص ٥٨ وما بعدها عددا من الالعاب التي وردت شواهد عن وجودها عند قدماء المصريين ، وما زالت تمارس حتى اليوم فى مدن مصر وقراها . من هذا مثلا التحطيب ، ولعبة الكرة ، (تقاذف الكرة باليد بين الفتيات) ، والنط (التي تعرف باسم نطة الانجليز) ، والسيجة ، والداما (الداما كانت على هيئة مائدة من الطين غير المحروق فوق اربع قطع من الطين تقوم مقام الارجل ، وسطحها مقسم الى ثمانية عشر مربعا ومعها نحو اثنتى عشرة قطعة للعب مصنوعة من الطين ومغطاة بالشمع . وهى لعبة مسلية) . هذا علاوة على رياضة الصيد ، بأنواع وأساليب مختلفة . وقد أورد نصوص وصور عدد من الشواهد التي استند اليها .

فعلى حين نجد ان العاب الكبار لا تعدوان تكون في أغلب الاحيان مجرد تمارين بدنية او عمليات تحريك للجسم ، نجد ان العاب الاطفال تتميز بأنها مزيج رائع بين حركة الجسم والمضمون الذي تعبر عنه .

ومن هنا ندرك سبب اهتمام علم الفولكلور في كل بلاد العالم بدراسة العاب الاطفال بدرجة تفوق الاهتمام بدراسة العاب الكبار . فقد لاحظنا ان العاب الاطفال قد حفظت لنا كثيرا من عناصر التراث القديم ، التي كان يمكن ان تختفي دون اثر لولا ارتباطها بالعاب الاطفال . ولكن هذا الاستمرار الثقافي يفرض علينا التزام الحذر الشديد عند التعرض لتفسير مدلول هذه الالعاب ومعاني ما تتضمنه من رموز او اشارات . ذلك أننا هنا بصدد صور باهتة ـ غالبا ما تكون مشوهة او معدلة ـ لالعاب قديمة درست من عالم الثقافة التقليدية على امتداد آلاف السنين .

ولكن هذا الحذر وهذا التحفظ لم يمنع كثيرا من الباحثين من ان يؤكدوا بكل قوة أن دلالة التراث والمجتمع بالنسبة لعالم الطفل والعابه دلالة واضحة وقوية . ويرى هذا الفريق من الباحثين ان دراسة العاب الاطفال تعد اسهاما هاما بعيد الاثر في تأسيس فهم انثروبولوجي شامل ومتكامل للانسان (٦٦) .

ويدلنا التأمل السريع لالعاب الاطفال التي عرفتها المجتمعات في العصور الغابرة وتلك التي ما زالت معروفة في ايامنا ان بعض تلك الالعاب مجرد تقليد لبعض العمليات او اساليب السلوك وبعضها الاخر مجرد تدريب او استعداد (ربما من الوجهة البيولوجية) لحياة الطفل في مرحلة البلوغ عندما يصل اليها . اما الجانب الاكبر من تلك الالعاب فيعكس لنا بوضوح خيال الانسان وقدراته الخلاقة ، وفن التجسيد الحي للافكار والعمليات والمعاني ، والقدرة على الفهم الحقيقي لكثير من جوانب الحياة .

ويبدو ان اللعبة (اعني الدمية او الشيء الذي يلعب به الطفل) هي التي تضفي على العاب الاطفال طابعها الرئيسي ومعناها الخاص . ولكننا نلاحظ مع ذلك ان تطور اللعبة واندماج الطفل فيها يأخذ في الابتعاد التدريجي عن اللعبة كشيء مادي ، وتحتل فيها اللعبة (الدمية) مرتبة ثانوية في عملية اللعب نفسها . ولكن لنا ان نتساءل اذا كانت اللعبة (الدمية او الشيء) تتقلص اهميتها ويتراجع دورها بهذا الشكل ، ففيم اذن ذلك الاهتمام الكبير من جانب دارسي

---

(٦٦) انظر مزيدا من التفاصيل عند ريشارد بايل ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق مادة العاب الاطفال ، ص ص ٤١١ ـ ٤١٢ .

التراث الشعبي بالعاب الاطفال ؟ ربما يرجع ذلك الى اننا نرى في تلك الالعاب تعبيرا عن قدرة فنية بدائية على التشكيل ، تتفق وشخصية الطفل وتكوينه النفسي والفكري والعاطفي(٦٧) .

والملاحظ بصفة عامة ايضا ان العاب الاطفال الراقصة والغنائية ترتبط بالمرحلة العمرية للطفل ، فكل عمر له العابه وله اغانيه التي تتفق ومزاجه وتتفق كذلك و « العرف » السائد بين الاطفال . فطفل العام والعامين يسعد اكبر السعادة حين الاعبه لعبة البيضة » ، ويستنكف طفل السادسة ان الاعبه اياها .

ولكن في كل تلك المراحل تتحدد حركات اللعب بايقاع الاغاني او الكلمات المسجوعة المصاحبة، فهي التي تضبط هذه الحركة وتنظمها، وتدخل في تكوينها مكونة معها نسيجا عضويا متماسكا . ولكن مع اضطراد نمو الطفل ، ثم نلحظ بدايات حدوث اختلاف بين تطورها عند الاولاد وعند البنات . حيث تظل الايقاعات الغنائية والكلمات المسجوعة تنظم حركة اللعب عند البنات . اما عند الاولاد فتتجه الالعاب الى اتخاذ الطابع الحركي والطابع الصراعي الواضح (الذي لا يخلو من العنف او استخدام القوة البدنية) .

وهذا التطور هو نفسه الذي يجعل من الصعب علينا في بعض الاحيان أن نفصل فصلا قاطعا حاسما بين العاب الاطفال والعاب الكبار ، اذ تمثل تلك الحلقة بدايات الدخول في العاب الكبار أحيانا .

واقصى ما يمكن ان نجريه في هذا الصدد هو التمييز بين العاب الشباب او كبار الاطفال والعاب الكبار العاملين (الذي بدأوا يمارسون عملا منتجا) . ولكن لا شك ان مثل هذا التمييز شيء قليل الفائدة وضعيف الدلالة بالنسبة لتاريخ الالعاب من وجهة نظر دارسي الفولكلور . واقصى ما يستطيع دارسو التراث الشعبي عمله اليوم هو تحديد الخطوط العريضة لتطور العاب الاطفال في ضوء التاريخ العام للالعاب عموما .

• • •

(٦٧) يثير بعض المشتغلين بالفولكلور مسالة تحول انواع معينه من ادوات السحر والادوات المستخدمة في الطقوس والمناسبات الاعتقادية الى مدار اللعب او الى حيث تكون مادة للسخرية . ومن الامثلة التي يقدمونها شاهدا على ذلك عرائس الاطفال . فالمعروف انها شائعة في شتى الوان السحر في كل العصور ، تتخذ انموذجا للكائن البشري ، فتلقى عليها العزيمة او الرقية . وما تزال النساء في قراناحين يردن رد العين يصنعن عروسا يثقبنها بدبوس ، ويلقينها في النار بين البخور ، وكأنها تمثال للحاسد او الحاسدة . ثم تجد البنات يشغفن شغفا جما بالعرائس . ونقطة الجدل هنا خاصة بالصلة بين السحر واللعب . ويرى رشدي صالح في كتابه الادب الشعبي (ص ٢٤١) أن الفراغ ووسائل تمضيته توأم العمل ذاته ، ومثله في المرافقة والقدم . ويرجع ان الانسان بدأ في فجر تاريخه يلهو اثناء قعوده عن طلب الطعام وقبلما يخطو الى حيث يريد السيطرة على مصادر الخير والشر . وبالتالي فاللعب ووسائله اعرق من السحر .

خاتمة

لمسنا على امتداد الدراسة كيف ان الطفل هو محور لكثير من العادات والمعتقدات الشعبية، ومستهلك رئيسي لعديد من الانواع الادبية الشعبية ولطائفة كبيرة من الالعاب الشعبية . وهو البطل الاول لعملية التنشئة الاجتماعية ،وكل عملية نقل التراث ، من جيل الى جيل انما هي بيان عملى حى متجدد لاهمية الطفل من حيث علاقته بالتراث الشعبي .

ولكن الملاحظ ان طريقة الاهتمام بالطفل قد اختلفت فى المجتمع المعاصر عن المجتمعات التقليدية ، واتخذت مسارا مغايرا . لقد اصبح الطفل فى مجتمع اليوم تعبيرا عن مستوى الاسرة، واصبح مظهره مقياسا لحالة الاسرة . ولذلك اصبحت عملية تنشئة الطفل متأثرة بسيطرة النزعة الفردية على مجتمعنا المعاصر . ذلك المجتمع الذى يركز بكل الشدة والاصرار على تدعيم القدرات الفردية لكى يحقق الطفل نجاحا كبيرا فى مستقبله . والتعليم هو فى راى ابناء كافة الطبقات الاجتماعية خير ضمان لتهيئة مستقبل مناسب للطفل . ولم يكن هذا التوتر قائما فى الماضى ، لان الطفل كان يرث مكانة اسرته كما يرث مهنة والده .

وهذا التركيز على الاعداد الفردى للطفل حرمه من اللعب ، ومن الغناء ، وصرف نظر الوالدين عن كثير من اركان عملية التربية الحقة . لان الهم هو تحصيل مزيد من التعليم ، وتحقيق النجاح الفردى فى المستقبل .

وترتبط هذه النقطة كذلك بانفتاح الطبقات الاجتماعية ، وشدة وكثافة الحراك الاجتماعى فى المجتمع المعاصر . فهذا الانفتاح الطبقى وبروز المكانة المكتسبة كعنصر غالب فى تحديد مكانة الشخص ، جعل الطموح الفردى او طموح الوالدين لابنهما لا يقف عند حد . ومن هنا تفسير هذا الاهتمام الهستيرى بنجاح الابن فى المستقبل . ذلك ان هذه المرونة فى سلم التدرج الاجتماعى هي نفسها التي تجعل من السهل ان يسقط او ينحدر هذا الابن فى سلم التدرج الاجتماعى اذا لم يزود بامكانيات النجاح .

ان الطفل فى مجتمع كثير من البلاد النامية اليوم دخل طرفا فى سباق الصعود الطبقى ، فارهقت ملكاته الرقيقة ، واستنفذت فى اغلب الاحيان لغير ما خلقت له . فاصبح هذا الطفل ـ مالم ندركه بالعلاج المناسب ـ اقل سعادة واقل « طفولة » .

* * *

ألفت حقي

ثقافة الطفل

فى اواخر القرن الثامن عشر ، اثناء ظهورالبوادر العلميه الاولى لفهم التطور العقلى والانفعالى للانسان ، عثر بعض القناصه علىطفل فى الثانية عشرة من العمر (١) ، يجوب غابات افيرون Aveyron خارج مدينة باريس بفرنسا . وكان الطفل لايتحرك الا على يديه وقدميه ، يطلق اصواتا غير مفهومه تصدر عادةمن حيوانات المنطقة ، ويهاجم باسنانه واظافره كل من يقترب منه . عندما عرض على فيليب بينيل Philippe Pinel (١٧٤٥ ـ ١٨٢٦) وهو من مشاهير الاطباء النفسيين الفرنسيين ، شخص الطفل على انه حالة تخلف عقلى عميق غير قابلة للتحسن . ولكن تلميذه ايتار J.M.C. Itard . . . رأى ان شدة التخلف العقلى عند الطفل لم يكن سببها الا انعزاله عن المجتمع الحضارى ، وحرمانه ، بالتالى ، من تكوين استجابات اجتماعيه يتعلمها الاطفال الاخرون لتعرضهم المستمر للمثيرات التى تولدها . ومع ان ايتار نشر ورقتين في سنة ١٨٠١ وسنة ١٨٠٧ تعبران عن خيبة امله الشديدة لاخفاقه فى تعليم الطفل الاعتماد الكامل على نفسه ، الا ان الاكاديمية الفرنسيه للعلوم

(*) مدرسة علم النفس بكلية الادارة جامعة الاسكندرية .

(١) Humphrey, G. and Humphrey, Muriel. (1932). **The Wild Boy of Aveyron.** Appleton- Century Crofte. New York. (Translation of Reports of Itard IBOI-1807).

اجمعت على ان الطفل اظهر تقدما ملحوظا عن الحالة التى وجد عليها . فقد تعلم المشى منتصبا ، واصبح ينطق كلمات بسيطه ، ويتعامل مع الافراد المحيطين به باسلوب اكثر تحضرا ، حصل هذا كله ، مع انه كان متخلفا عقليا .

كيف يصل الطفل الى ما يكون عليه غدا من معارف ، كالقدرة على القراءة والكتابة والتعامل بالارقام ، او التهيؤ لفهم الاخرين والتفاعل معهم بما يناسب الموقف ، او التوتر لعمل الاشياء او

توليد الافكار او مواجهة المشاكل ؟

يساعده فى الوصول الى هذا كله قدرته على المادة واسلوبه فى اختيار المنهج ، علاوه على اسلوب محيطه فى تقديم المادة التى ستوصله الى اهدافه .. وتنتهى هذه العمليات المتصله بتكوينه النفسى والعقلى الى تكامل وظيفى بينه وبين ما يشبه يسمى ثقافته .

الثقافه هى مجموع الموروثات الاجتماعيه التى تمثل انجازات جماعة ما (٢) . وعليه فان ماتوصل اليه مجموعة من الافراد ، من افكار وعادات وقيم او مناهج وانشطة عمليه او انتاج فكرى او يدوى او اساليب لنقل هذه المعلومات والخبرات من جيل لجيل ، كل هذه فى مجموعها تمثل ما نسميه بالثقافه ، وهذا يعنى ان التنظيم الاجتماعى لاى مجموعة من السكان لايمكن ان يدرس ويفهم الا عن طريق ثقافتها . فالجزء الفيزيقى من البيئة الذى يصنعه الانسان حوله (مأواه ـ آوانيه ـ كساؤه ـ ادواته العملية اواساليبه التكنولوجيه) ، ثم الجزء الميتافيزيقى الذى يخلقه لنفسه فى نفسه (الرموز ـ المثل ـ قواعد المعامله ـ الخيال والاساطير ـ التنظيمات العلميه اوالترفيهية اوالضابطه) يشكلان مخلفات جماعة سابقة تعالجها الجماعة الحاضرة لكى تعيد صياغتها للجماعة المستقبلة او تناولها لها كما تناولتها .

اين يقف الطفل من كل هذا ؟

الاجابة على السؤال هنا ترتكز على قاعدة عريضة اساسها ان الطفل يولد مفلس المعلومات الخاصة ببيئته الخارجية ، خصب الاستعداد للاستقبال وخزن المعلومات الخاصه بكل خبرة يتعرض لها ويتكيف اى انه منظمة حيوية خام ، لها صفاتها الخاصة فعلا ، ولكنها شديدة التفاعل مع كل ما تحتك به . هو الان اجتماعى من صنع بيئته ، ولكنه تكوينى من خلال وراثته . فتكوين الطفل phenotype يتبع خصائص وراثية genotype تخزنها مورثاته genes وتنقلها من جيل لآخر مستمرة الى مالا نهاية احيانا . وقد يتبادر الى الاذهان ان الثوابت الوراثية لاشان لها بثقافة الطفل ، ولكنها فى الحقيقه تلعب دوراهاما فى تثقيفه . فمما يراه قد يكون تخلفا عقليا

(٢) Hinsie, L.E. and Campbell, R.J. (1970). **Psychiatric Dictionary.** Oxford University Press. New York.

او اعاقة حسية او اضطرابا غدديا . (٣) ونجده بذلك معرقلا من اول مرحلة التثقيف ، ولن يعني هذا احباطا في كل الحالات ، لاننا عرفنا في طه حسين وهيلين كيلر وبيتهوفن وميلتون امثلة لاعاقة حسية نجحت في دفع اصحابها الى الابداع. ولم يكتف العلم بالبحث في تاثير هذه المحددات البيولوجيه فقط ، لانه اتجه الى دراسة طوبيولوجية التذكر مثلا. (٤) وتتبع عمل الحمض النووي ribonucleic acid وتصنيعه البروتينات المسئوله عن عملية التعلم والتذكر . بل واتجه الى اعمق من هذا في نظرية الانجرام (اي قصاص الذاكره memory trace) . لان التجارب المعملية على ديدان planaria لفتت النظر الى ان استجاباتها الشرطية للضوء بعد ازدواجه مع صدمات كهربائية لم تتوقف متداول جيل لهذه الديدان (٥) . فلم ينطفىء تعلمها الشرطي في جيل آخر من انصاف هذه الديدان (٦) ، بعد ان فصلت رؤوسها عن اذنابها ، وتركت الى ان استكمل كل جزء ما فصل عنه ، ليصبح النصفان دودتين كاملتين ، اي جيلا آخر ، او امتدادا للجيل الاصلي . هل تدعم هذه النتائج نظريات كارل يونج Carl Jung حول اللاشعور الجماعي اي النفس الموضوعية objective psyche ؟ (٧) وهل يكون للمخلفات النفسية المتراكمة نتيجة لخبرات الاجيال السابقة اثر على اجيالها التالية فعلا ؟ وكيف تكونت مفاهيم الطوطم والتابو والمندالا ؟ ومع ان هذا اللاشعور الجماعي ليس الا جزءا صغيرا من ثقافة الطفل ، الا انه قد يلعب دورا ذا وزن في نوع المخاوف او اساليب الادراك التي ستلاحقه .

• • •

يدرك الطفل الاشياء والتغيرات الحادثه حوله لان له حواسا تعده لذلك ، ودوافعا تنشط ادراكه ، وقسطا مما نسميه بالذكاء يتعامل به ليصل الى المعرفه ويخزنها. وهذه هي الخصائص الذاتيه التي سيساهم بها من ناحيته في عملية التثقيف . لان للتثقيف قطبا آخر مقابلا هو

---

(٣) Kleinmuntz, B. (1974). **Essentials of Abnormal Psychology.** Harper and Row. New York.

(٤) Lashley, K. (1960) In search of the engramn, In **The Neuropsychology of Lashley.** F.A. Beach, D. D. Hebb, C.T. Morgan, and H. W. Nissen, editors. McGraw-Hill. New York.

(٥) John, E.R. (1967) „Neurophysiological correlates of learning and memory,'' In **Comprehensive Textbook of Psychiatry.** A. M. Freedman and H. I. Kaplan, editors. The Williams and Wilkins Co. Baltimore.

(٦) John, E.R. (1964) „Studies on learning and retention in plannaria'' In **Brain Function.** M.A.B. Brazier, ed. University of California Press. Los Angeles.

(٧) Jung. C.G. (1963) **Memories, Dreams, Reflections.** Collins and Routledge and Kegan Paul. London.

خصائص مادة ثقافته . وهي صفات لاحصر لهاتناقش فيما بعد . وبين القطبين المتفاعلين عامل آخر يحكمهما ، هو مسطرة معيارها السرعه ،وتعرف بالزمن . لان الطفل ولو انه تكوين حيوى مستعد للبقاء منذ ولادته ، الا انه شديد الاعتمادعلى بيئته وعلى هذه المسطره الزمنية منذ البدايه . فقد يظل خاوى المعلومات الحضارية مثلابينما هو يتقدم في النمو مع الزمن . ويقترب بذلك من النضج الفيزيقى ، ولكنه يبتعد عن الخزن المعرفى لافتقاره الى المثيرات . وهذا هو ما حدث لصبى افيرون . **معارف الطفل اذن رهن بمتغيرات تحيط به وتتولد حوله وبعوامل بيولوجيه تحرك استجاباته للاثارة ، ثم نموه ونضجه ثم عجزه .** وحيث ان الزمن ثابت التقدم ولكن النمو يختلف في السرعه من فرد لآخر ، فانالمقياس الزمنى هو المرجع الوحيد لتحديد كفاءة الطفل في الاستقبال والاستيعاب من ناحية ، لنوع وكمية التنمية المعرفية الممكن تشبيع الطفل بها من ناحية اخرى . فكم من طفل نابغة وصفبالجنون **(توماس اديسون) او بالفشل (تشارلز داروين ثم اينشتاين) لان عمره العقلى كان اكثرتقدما من عمره الزمنى . فاضطر الى التقدم بتفكيره وانتاجه حتى** وان تمهل الاخرون ، اوفقد الدافعية حتى الى **مشاركة العاديين الاخرين في مستوى تفكيرهم** لاحساسه **بالاحباط** .ولا يتوقف المقياس الزمنى عند رصد العبقرية او التخلف فقط ، ولكن هدف الثقافة ازاءه هوالتغذية الموقوتة للنفس النامية ، بحيث تنتهى تغذيتها هذه الى ثراء نفسى اقتصادى يفيدها ويفيد المجتمع الذى تتعامل معه . فلن يتعلم الطفل الجبر قبل معرفته الاعداد ، ولن يقرأ مفهوم الامانة قبل تطور عملياته السيمانتيكيه .

الثقافه التى يعرضها المجتمع على الطفل يأخذها الناشىء على علاتها . لذلك تكون مهمة المعطاء حرجة . فالمجتمع ، سواء كان عائلةالطفل او مجتمعه الكبير ، له هو الآخر صفاته . وحيث انه اقدم واكثر خصوصية واقوى فاعلية من الناشىء الفج ، فانه يفرض عليه اساليبه الفكرية والعملية بلا منازع . فبصمات العائلة العاملة الامينة او المفككة اللااخلاقية تظهر واضحه على جيلها الثانى الناشىء . ولا تتغير آثارها ، إن تغيرت ، الا بعد ان ينتقل الطفل الى مرحلة الرشد ،او تغير ثقافته بيئة اخرى موازية لبيئتهالمباشرة . لاننا نعجب احيانا مثلا من صغير ينحرف مع انه من عائلة مستقيمة . او من آخر يتحلى بصفات مثالية مع انه من اسرة لامثل لها . ويكون السبب ان كلاهما قد حول انتماءه الى جماعة بديلة تشكل الآن اليد العليا في تكوينه النفسي .

وانتقال الثقافة من الاباء ظاهرة غير معقدة قوامها تقمص الطفل لشخصية الكبار . وهي عملية واضحة ومنطقيه في معظم الاحيان . ولكن العمليه الاكثر تعقيدا هي انتقال الثقافة جماعيا من اجيال باكملها الى الاجيال التى تليها ، مع وجود فروق فردية بين ابنائها تساعد على عدم

ثبات الميراث او على الاقل على عدم ترابطه . هذابالاضافه الى حتمية تغير التشكيل الاجتماعى (٨) واساليبه ومنجزاته . فللحضارة المصريهالقديمة مثلا خصائص ثقافية لم تتغير كثيرا عبر عشرين قرنا تقريبا ، منها فن المعمار والنحتوالتصوير ثم عقائد الالوهية وعودة الروح ثم الهيراكية الاجتماعية والسياسية . كما كانتللحضارة الرومانية من ناحية اخرى طباع ثقافية بدات سبع قرون قبل الميلاد واستمرت خمسابعده ، ولم يؤثر فيها كثيرا اختلاطها بالحضارات الاخرى بعد الفتوح الحربية ولا التغير الثقافىالذى فرضه ظهور المسيحية (٩) . وكان لهذا التطبع الصارم يد فى تقوضها . ومن الطريفمثلاان كثيرا من الطقوس والعادات التى يمارسها الكثيرون فى مصر اليوم يرجع اصلها الى الثقافةالفرعونية ، كاستمرار الحداد على الموتى اربعين يوما . بل ونجد ان اللون الاسود يتبناه العالم فىالحداد بعد المصريين القدامى ايضا . ولا دخل للدين فى العادة على الاطلاق ، لان كثيرا منالمجتمعات الاسلامية لاتمارس هذه العادة بل وتستكبرها ، بالاضافه الى انها عادة عالمية لايحددها الدين او المواقع الجغرافية .

اهم عناصر الثقافة التى يقابلها الطفل ،سابقة التجهيز فى مجتمعه ، هى اسلوب السلوك المنتظر منه ونوع التفكير الدينى الذى سيتتباه . فاذا ولد فى الشرق الاقصى او الاوسط فى الغرب ، فان الدين الذى ولد فيه وتعلم ان يميل اليه هو الذى سيتمسك به فى معظم الاحيان . لان حالات الانتقال من دين لآخر طواعية (بعدتناول كل الاديان واستيعابها على الارض) تعد ضئيلة جدا اذا ما قورنت بالحالات التى استمرتبدون تغير ، حتى وان تعرضت لمغريات الانتقال اولعوامل التفكير الذاتى . ومع ان دين الطفلهو ميراث جماعته الدينية ، الا ان الطرف المباشر فى التوريث يكون عائلته . لذلك نجد انعمليه التطبيع الدينى رهن بفهم وتطبيق اسرة الطفل قبل كل شيء ، حتى وان تعرضت العمليهللتطور فيما بعد ، لانه اخفق فى التذكر . ومع ان القسط الاكبر من اعباء العملية يقع على عاتقالمربى الدينى فى حياة الطفل ، الا ان جذور التربية تنتهى الى جماعة الدين الكبرى . لذلكيعتبر هذا المدخل الثقافى اجتماعيا اكثر منه فرديا . ويهمنا من الناحية التربويةاثر هذا النوع من الثقافه على سلوك الطفل فى طفولته ثم بعد نضجه ، لان الطفل لن يقابل فىحياته بعد هذا شيئا بمثل قوته ، مع غموضه وغرابه جذبه ورهبته . فهو حتى وان عوقب لانهكسر قانونا اجتماعيا ، او جوزى لانه قام بعمل استفاد منه مجتمعه ، الا ان خبرته الميتافيزيقيهالمتصله بالثواب والعقاب الدينى (المؤجل ، غير المحسوس) هى التى ستؤسس قواعد الضميروالاخلاق لديه .

---

(٨) Sherif, Muzafer and Sherif, C.W. (1969), **Social Psychology.** Harper and Row. New York.

(٩) Van Loon, Hendrik. (1938 **The Story of Mankind.** Garden City Publishing Co. New York.

ولن يكون الميراث الدينى القاعدة الاجتماعيه الوحيدة بالنسبه للطفل . لانه سيولد ايضا فى مجتمع له عادات خاصة يقبلها واخرى يحرمها . فقد يكون مجتمعه من التطرف بحيث يحرم عليه اكل الابقار مثلا ، اويفرض عليـه اكل اللحوم البشريه ، اويحتم عليه ارتداء انواع خاصه من الكساء والطلاء ، اويبيح له التعرى . وقد يولدق مجتمـع يمارس طقوس التكريس او ختـان الاناث او تفضيل الذكور او انهاء حياة الكهول فى المجتمع . ويكون موقع حادثه ميلاده هو المقرر لما سيتعرض له فى حياته من خبرات . وتكون هذه الخبرات نتاج الفكر والتطبيق الاجتماعى لموقع ميلاده او للجماعات المستقله فى الموقع الواحد . ولن تكون كل العادات متطرفة او غير مقبوله فى معظـم المجتمعات الاخرى . لان مـن اساليب السلوك التى تفرضها معظـم المجتمعات مثـلا تنظيم كل من علاقات الزواج والملكية والحريات الفردية ثم المعاملات الاقتصادية والضابطة واخيرا اساليب التعليم والانتاج . هذا علاوة على صفات السلوك الاخرى كاحترام الســن او الوقت او المحافظة على العهد . وهى صفات تختلف تسبيامن مجتمع لآخر ، فيكون للاخلال بها عقوبات فى بعضها او مرورا غير ملحوظ فى اخرى .

وفى النهايـة تتولد مـن هذين الأصلين الثقافيين سابقى التجهيز ، آفاق ثقافية اخرى يشق فيها الطفل طريقه الخاص . لانه سيطبق او يخالف قواعد الاخلاق والانضباط والمشاركة الاجتماعية . وسـيختار ماذا يأكل وكيف يأكله ومتى يأخذ واين يتوقف ، الى من يلجأ ليتعلم او يستكشف . ولن تكون كل جهوده ذاتيـة . لانه سيحاط فى كل مراحلها بافراد اكثر خبرةمنه يرشدونه او يضبطونه . والمهم من الناحيـة الانسانية هنا هو الفروق الواسعة بـين المتـاح لبعض الاطفال والذى يحرم منه آخرون . لان كثيرا من المجتمعات تعوزها التكنولوجيا الحديثة اوحتى المعلم الكفء . وتكون النتيجة الا يتعدى ما يتعرض له الطفل من ثقافة حدود ضروريات البقاء على الحياة . وقد لاتتوفر هذه ايضا . فمن المؤلم مثلا ان يتوقف الانسان اولا فى بلـد يتمتع فيه الطفل بالدفء والشبع والصحـة ، ويدير قرصا فيتصل باى مكان فى كوكبـه ، او يضغط زرا كهربائيا فيرى ويسمع اوينال ما أرادمن خدمات آليا ، او يستفهم فيجيب على اسئلته عقل الكترونى يوفر الطاقة البشرية . ثم ينتقل الانسان بعد ذلك الى بلد مقفر يئن فيه الطفل من المرض والجوع وعوامل الجو ، ولا يجد فى بيئته ما يوصله الى اى معرفه ذات قيمة ، فيظل جاهلا متخلفا مريضا يعيش ليومه لا غير ، لان اى عمل يقوم به سينتهى الى عيش اليد الى الفم .

• • •

مادة الثقافة التى ستملأ حياة الطفـل ، لتثير انتباهه فيعبرها تفكيره وتخيله وذاكرته ، مادة مركبـة بعضهـا نشط العناصر والبعض الاخر ثابتهـا ، فاذا اتجهنا مثلا الى ادواته التى سيـستعملها لكى يصل الى اهدافه لوجدناهـا اسرع مواد ثقافته تطورا وتغيرا ، بينما تظل

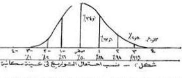
المادة المجردة بطيئة التغير قليلة التعديل . ولناخذ على سبيل المثال ادوات طهى طعامه من ناحية ، واكله لما يميل اليه من ناحية اخرى ، او مسكنه وولائه لعائلته ، او معدات قتاله وحاجته الى الامن . فسعيه الى الشبع ثابت ولكن الانتقال من موقد الفحم القديم الى افران الاشعة القصيرة microwa ve ovens لم يتوقف فى مسيرته بعد . وكذلك مواد مبانيه من طوب نيء الى زجاج الالياف fiber glass مازل يتطور ، بينما احاسيسه نحو الافراد الذين يضمهم البناء لم تتغير . ولا تتفاوت عناصر الثقافة حيث التغير والثبات فقط ، لانها تختلف ايضا من حيث الابتكار والاستكشاف . فبينما المبتكر يخلق شيئا جديدا لم يكن موجودا ، تجد ان المستكشف يعثر على شيء جديد كان . ولناخذ على سبيل المثال وسائل مواصلات هذا الطفل من ناحية ، والطبيعه حوله من ناحية اخرى . فالطفل البدائى لم يعرف سوى كتف امه اولا وقدميه ثانيا . واضاف اليهما بعد زمن ظهر الجواد ، فسيارة فقواصة ، ثم طائرة فمركبة فضاء . ومع ذلك فالطبيعة هى كما كانت عندئذ . يابس وماء وفضاء . بل وستظل هكذا . ولكن طفل اليوم فى معظم دول العالم تعرف على عطارد وعلى الثقوب السوداء black holes فى فضائه ، وسمع عن اللانتيس ومثلث برمودا فى مائه ، ودرس مواد الطاقة التى يخزنها يابسه من بترول الى يورانيوم الى غازات طبيعية جوفية . ولم لكن كل هذه الاشياء غائبة عندما كان الطفل الاول يمتطى جوادا فقط . ولكنها ، وغيرها كثير ، كانت وما يزال بعضها الاخر ، فى ظلمات المجهول ، تنتظر طاليس وفيثاغورس ثم نيوتون وماكس بلانك واينشتاين .

نخطىء الظن اذن لو اعتقدنا ان ثقافة كل الاطفال محكومة بما تعرضه عليهم بيئتهم فقط . لان لبعض الاطفال خصائص ذاتية لايتمتع بها الا القليل منهم . كالطفل الذى اجاد اللعب على الهارب والكمان والارغن ولم يتعد الخامسة من العمر . والف الموسيقى بينما اطفال سالزبورج الاخرون يطاردون الفراش فى حدائقهم . وعند انطفاء حياته في الثلاثين من عمره كان موتسارت قد ملأ آلاف الصفحات الموسيقية ليتمتع العالم بالعديد من السيمفونيات والكونشيرتو واعمال الاوبرا مثل **دون جيوفانى ، وزواج فيجارو ، والفلوت السحرى** . الامثله الصارخة للموهوبين من الاطفال قليلة جدا ، ولكن كل العباقرة الراشدين كانوا اطفالا . ومما يحير العلم مثلا ان البرت اينشتاين لم يتكلم قبل الثالثه ، وانه كان يتعثر فى لغته حتى التاسعة ، وان ابويه خشيا ان يكون متخلفا عقليا (١٠) . وترك اينشتاين مدرسة الجيمازيام بلا رجعة ، ثائرا على طريقة التدريس المارينشتالية بها . واخيرا التحق بمعهد بوليتكنيك زيوريخ وهو فى السابعة عشرة من العمر ، بعد ان فشل مرة فى اختبار الالتحاق . هذا الطفل ، ضعيف التحصيل ، اذهل علماء الفيزيقا وهو فى السادسة والعشرين باربع أوراق علمية فى مجلد واحد ، فجرت

(١٠) Newsweek. March 12, 1979. Modern Prometheus'' **Newsweek.** New York.

نظرية نسبية الفراغ والزمن ونظرية الكوانتام ونظرية الذرة . وكان حينئذ موظفا مغمورا في مكتب تسجيل بمدينة برن سنه ١٩٠٥ .

ماهو العدد المنتظر من هذه النماذج العقلية في الطفوله المبكرة اوفيما بعد ؟ لان امثلة هذا النوع الذي لن توقف . بل من المؤكد ان المسيرة ستفيف الى ميادين العلم آخرين يسلطون الضوء على مجهول ويخلقون اويبدعون . ومن الواضح ان الرهط يزداد كثافة ، وان المسافة الزمنية بين العبقري والآخر اصبحت اقصر ، فما الذي يحدث للعقل البشري ؟ الحقيقه الاولى هي ان عدد العباقرة بالنسبة للتوزيع السكاني لن تتغير . فاذا اتبعنا قاعدة نسبه الاحتمال probability لوجدنا ان ١٣ر٠٪ فقط من البشر سيتفوقون في الذكاء اوفي الانتاج العقلي اوالعملي او الفني . فاذا كان تعداد عالم القرن الرابع قبل الميلاد مقدرا بمائتي مليون نسمة(١١) ، فان اغلب الظن ان من بين مواليده عاش ٢٦٠ الف طفل مفرط الذكاء . ولم يقدرلهم جميعا الوضوح ، ولكنهم وجدوا ، وعلى الارجح ، فان من بين هؤلاء ، لم ينشط سوى قرابة ٣٢٨ عبقريا في كل الميادين . واليوم نحن نقارب اربعة آلاف وخمسمائة مليون على ظهر الارض . ومع ان التعداد السكاني يتزايد الان نسبه الاحتمال في حدوث اي ظاهرة تظل ثابته . وبتطبيقها على سكان اليوم ستجد خمسة ملايين طفل مفرط الذكاء . ولكن من بين هذه المجموعة المختارة ايضا سيحس العالم بوجود واحد في الالف منها . لان احتمال النشاط بينهم سيتوقف عند الانحراف المعياري الموجب الرابع من التوزيع ايضا . اي اننا سنسمع عن ٦٥٠٠ تقريبا من مثل ابن سينا او اينشتاين او شيكسبير او ما يكل انجلو جديد في هذا الجيل .



شكل ؟ ـ نسب احتمال التوزيع في عينة سكانية

ما الذى يلهب مثل هذه الشعل سواء في الطفوله المبكرة او عند الرشد ؟ فاذا ورث الطفل الذكي حدة النشاط العقلي ، ولم ير او يسمع منه احد شيئا ذا قيمة ، فانه يختلف كثيرا عن آخر يقتني نفس الصفة الوراثية ولكنه يسخرها ويمتطي طاقاتها ليحلق في اجواء معيشيه عليا .

---

(١١) United Nations Statistical Yearbook. 1977. Geneva.

عنصر الاختلاف بينهما خليط آخر من امكانياتتربة ومعلومات نشطة في بيئته ، وهو خارجي . كيف توصل الطفل الى اقصى حدوده من اول الطريق ! ولانعنى توصلـه الـى العبقريـة او الابداع ، ولكن الى استثمار كل طاقاته . الطفل مستكشف منذ البدايه ، فهو لذلك يفتح الاشياء ليعرف ما بداخلها ، ويسال فيما بعد اين نذهب عندما نموت اوما هو شكل الله ، ثم عندمـا يشب سيتعلم انه سيعيش اسعد واطول اذاالم اكثر بما يحدث داخله وخارجه . وهذه هي الفرصة المثلى لاول دفعة في ثقافتـه . ان يترك ليبحث وان يعطى عندما يريد . وهذا يتطلب وقتـا وصبرا ممن يباشره ، علاوة على درايـةعلمية بما قد يسال عنه ،ودراية بكيفية الاجابـة عليـه . ولايسيء الى الطفـل اكثر من سقوط بطله الذى اعطاه معلومات يظهر خطؤها فيما بعد . وهذا عيب يقع فيه عدد غير قليل من الآباء . فاهون على الطفل ان يسمع من ابيه اقتراحا بأن يفتشا معا عن الاجابة ، عن ان يتضاءل العملاق في اعين الطفل لانه كذب . بل وتخلق الأمانه في هذه الحالة دافعا جديدا هو المشاركة والزمالـة في البحث ، او الاتجاه الى خوض المعرفة المتصلة به من كل جانب وبكل السبل .

دوافع الاستكشـاف والتحسس والانتماء والاتصال والمشاركة الاجتماعيـة معروف انهـا مكتسبه ، اعنى ان الطفل يتعلمهـا ممن يعيش معهم . وليس كل اكتسابها معتمدا على هذه البيئة ، لان الطفل نفسـه يتبنى بعضا من هذه الدافعية بالفطرة . لانه ، وهو مازال في اشهر الجهل الاولـى من عمره ، يلتفت تلقائيا الى المثيرات الضوئية او الصوتيه كلما نشطت وهو يخبط بيده على مايقع عليه ليحدد نوعه وسلنه به . فاذا صح تنظيم مورفي Murphy لبناء الشخصية الاخذ بتبادل العلاقات بيـن عوامـل اربعة هي : (١) الاستعدادات التكوينيه ، (٢) التوجيه اوالتقنيه canalyzation ، (٣) الاستجابات الشرطية ، ثم (٤) العادات المعرفية والادراكية (١٢) ، فان ميلاد الطفل يضعه في المحتوى الثاني بمجرد اتصاله بالعالم الخارجي ، ليواجه بالنمو ضرورة تأسيس محتويات البناء الاخرى . وفي النهاية ، تتجمع كلها لتستقر على هيئـة دور role هو الطريقة الثابتة نوعـا للسلوك والاتجاهات ، وهذا الدور تفرضه الثقافه على الطفل .

اى ان تكوين الطفل ، وبالتالي وظائف هذا التكوين تعد نقطة انطلاقه النفس ونموه . وقد فسـر كارلا يونج (١٣) الديناميات النفسيـة بمبداين : مبدا التعادل ومبدا الانتقال entropy . ومبدا التعادل يوازى مبدا هلمولتز Helmholtz الاول للديناميكـا الحراريـة في الفيزيقـا ، الاخذ بثبات الطاقـة . فانخفاض قيمتها في مجال ما يعنى رفعها في اخرى . فاذا

---

(١٢) Murphy, G. (1951) **Introduction to Psychology.** Harper. New York.

(١٣) Jung, G.G. (1916) **Analytical Psychology.** Moffat and Yard. New York.

انخفض تقدير الطفل لعائلته مثلا فسوف يزيد اهتمامه باشياء او افراد اخرين . اما مبدأ الانتقال ، وهو ايضا يوازى المبدأ الثانى للديناميكا الحرارية ، كما يصف به يونج ديناميات النفس فيعنى توازن القوى بتبادل الطاقة . هذا مع ان الطاقة والحركة فى النفس لاتتبعان نفس الاسلوب الجامد النمطى الذى تتبعانه فى الطبيعة. فالطاقة النفسية كيان فرضى كما اكد يونج، يستخدم الفرد كل ما يلزمه منها لاشباع احتياجات بقائه اولا، واى فائض بعد ذلك يخدم انشطة الفرد الثقافية والروحية وهنا يتجه الى اهداف ارقى من مجرد البقاء واذا انطلقنا من هذه النقطة لاستنتجنا ان توليد دافع حب المعرفة اوالبحث عن الحقيقة فى الطفل الناشىء لايمكن ان ينجح اذا كان محروما من حاجاته الاساسيه . فكيف يدرس سبب انجذاب الاشياء الى الارض اذا كان جائعا اومحروما من الرعاية ؟ ولايعنى هذا تعميم القانون . لان الفريد آدلر (١٤) راى ان الفرد يكافح فى سبيل التفوق. والتفوق عنده لايعنى التميز الاجتماعى ، ولكنه يقترب كثيرا من فكرة تكون الذات عند يونج ، وهى الانتقال من الانا الى مركز اقل بداية واكثر جدية يقع بين الشعور واللاشعور ، ومن مبدأ تحقيق الذات عند كيرت جولد ستين (١٥) وهو خاصية فردية تختلف من شخص لآخر اختلافا كبيرا . لانه وجد ان بعض ضحايا آفات المخ يخضعون لمرضهم ، بينما البعض الاخر يتخطى الاصابة بمحاولات للتكيف وتحدى الشلل الناتج عن المرض . بل ويمكننا الخوض اكثر من هذا (١٦) لان الحرمان او الاحباط يتسببان احيانا فى توليد دافع خاص (المقاومة) يكون هدفه تحقيق الذات . وهو دافع لايتساوى فى القوة عند كل الافراد ، ولا يزول توتره عند بلوغ نهاية السلوك الهادف الناتج عنه ـ لان حالات الفقد او الاحباط او الحرمان تظل مستمرة ، ويظل الدافع الجديد مستمرا معها . ولعل ابرز الصور لهذا النوع من الدافعية هو المقاومة التى يبديها بعض الافراد فى الكوارث او الشدائد حتى بعد نقطة اللارجوع.

• • •

البيئة الاجتماعية وثقافة الطفل : ـ

واضح مما سبق ان الثقافة تتولد فى كائن حى لانه تعرض لكائنات اخرى واشياء تخصهم . وواضح ايضا ان لهذا الكائن الصغير صفات يجىء مزودا بها قبل ان يلتقى بالبيئة التى سيتفاعل معها . وان هذه الخصائص قد تساعده على تلقى الثقافة اولا تساعده .

---

(١٤) Ansbacher, H.L. and Ansbacher, R.R. (1959) **The Individual Psychology of Alfred Adler.** Basic Books. N.Y.

(١٥) Bischof, L.J. (1970) **Interpreting Personality Theories.** 2nd edition. Harper & Row. New York.

(١٦) Hakky, U.M. (1976) **Basic Psychology.** Manar El Elm. Alexandria.

ويهمنا الآن التعرض لما تساهم به بيئة الصغير الجديدة من مثيرات ومؤثرات ستكون في مجموعها ثقافته على حده ، وثقافة الاجيال التالية بعد ان يتعامل معها هو وجيله معا . لان اسلوب الحياة الذى سيلقنه اياه مجتمعه لن يظل كما هو الى مالا نهاية ، بل سيتعرض للتغير والتعديل ، شأنه تماما شأن كل شيء حي نشط .

اذا شرحت البيئة الاجتماعية الكل لوجدت مجزاة الى اربعة مكونات - افراد ، اشياء ، انظمه ، وحاجات (١٧) . ومن الممكن الاشارة الى الافراد ككتلة عامة لاتمييزية من الادميين homosapiens ، او كمجموعة مختلطة من البشر فى موقع جغرافى محدد (دولة) ، او كمجموعة اصغر من الافراد متجانسة الميول والاتجاهات (فريق سباحة كلية الهندسة ، أو جمعية الرفق بالحيوان مثلا) . اما الاشياء فيمكن ان تكون اجزاء من الطبيعة (زرع ، جبال ، انهار ، موارد ، انشطة طبيعية كالمطر والضوء والحرارة الخ ..) أو اشياء من صنع الافراد (مساكنهم ، ملابسهم ، أوانيهم ، وسائل مواصلاتهم وترفيهم وتخاطبهم الخ .) . والانظمة هى الحدود المجردة التى يرسمها المجتمع ليتبعها افراده ، كلهم او من ينطبق عليهم نظام بالذات . ومن هذه الانظمة : الدين ، الشرع ، الضبط ، السياسة ، التعليم ، الزواج ، الملكيه ، الحريات الخ .. اما الحاجات ، وان كانت اصلا فردية ، الا انها تنتظم فى النهاية لتصبح حاجات اجتماعيه . ومنها مثلا الاتصال ، التكامل ، المشاركة ، الاستقرار ، الامن والمنفعة الخ ..

اقترح ايريك فروم Erick Fromm (١٨) مجتمعا مثاليا يرتبط الانسان بالانسان برباط المحبة ، ويتيح له امكان التعامل مع الطبيعة بالخلق بدلا من التدمير ، ويشعر فيه الفرد بذاته . ولم يكن فروم رائدا فى فكرته ، لان جان جاك روسو سبقه اليها بأسلوبه الخاص في تشخيص امراض المجتمع وعلاجها . بل وسبقهما كلاهما افلاطون بمدينته الخالدة يوتوبيا ، بمثلها ونظمها . وحيث ان تمنى الشيء يعنى الحرمان منه (١٩) ، فان تهيؤ هؤلاء المفكرين لاشكال المجتمعات التى خلقها خيالهم يعتبر فى حد ذاته مؤشرا للمرض الاجتماعى الذى عانت منه مجتمعات كل منهم . هل تغيرت المجتمعات عما كانت عليه آنئذ ؟ وما هى الهيئه التى يكون عليها المجتمع اليوم عندما تطؤه قدم الطفل ؟ هل يعطيه هذا المجتمع العزة والرعاية والطمأنينة والدراية ؟ وهل يوفرها له طول الوقت منذ البداية حتى تشكل دعائم ثقافته ، وتهيىء الميدان لديناميات سلوكه وتفاعله السليم المجدى مع هذا المجتمع ؟

---

(١٧) حفنى ، الفت . (١٩٧٩) علم النفس الحديث . منار العلم - الاسكندرية

(١٨) Fromm, Erick. (1955) **The sane Society.** Rinehart. New York.

(١٩) Guetzkow, H.S. and Bowman, R.H. (1964), Men and **Hunger,** Brethren Publishing House, Elgin, Illinois.

المجتمع ، او الكل من افراد واشياء ونظم وحاجات ، يخضع هو الاخر ، تماما كالطفل الفرد ، لمتتالية زمنية تترتب عبرها احداثه . وهذا التتابع ، التطورى فى المظهر والوظيفة ، يحدد ثقافة الطفل التاريخية ، من اين نزحت عائلته الاولى ، ولاى احداث تعرضت ، ثم اين استقرت وكيف تاثرت بالطبيعة وانتفعت بها ، ولمن خضعت او على من سيطرت ، كلها اثار تاريخية تشكل طابع هذا المجتمع . فلا شك فى وجود اختلاف ثقافي مثلا بين طفل نشأ فى صحراء غرب افريقيا ، واخر فى ادغال البرازيل ، وثالث فى جبال سويسرا . لان لكل منهم مناخ وطبيعة خاصة ، علاوة على تاريخ قديم يتابعه الصغير فى عادات قومه وفى فولكلورهم وفيما يفرض عليه من اساليب المعاملة والماكل والملبس .

ولا ترضخ كل المجتمعات لقيودها التاريخية ، او لاساليب ماضيها التقليدية . وهنا يواجه الطفل صراع الثقافتين الحديثة والقديمة ، ولا يحدث الانتقال فجأة الا فى حالات قليلة ، كقيام الحروب او تغيير اسلوب الحياة (تعديل تكنولوجى مثلا) او الهجره . وعادة ما يشارك الاهل الطفل فى مواجهة الصراع في مثل هذه الحالات . ويكون عبء التكيف ، الواقع على عاتقه اقل ثقلا . واذا ما قارنا موقفه السابق بموقفه من محاولة التوفيق بين ثقافة جيل ابويه والتغير الحادث فى ثقافة جيله لوجدنا التوافق مظهرا اخر ، لانه سيواجه ، وحيدا ، تيارا داخل عائلته . ولناخذ على سبيل المثال دخول الفتاة المدرسة او الجامعة فى مجتمعات كانت تحرمها منه . **هل اذا ارادت الفتاة** ستستجيب الاب ؟ وحتى ان رضى الاب فهل سيرضى العم او الجد او رئيس القبيلة ؟

تغير اسلوب الحياة فى المجتمع الواحد لا يحدث كثيرا فى المجتمعات المغلقة ، وهذه تتضاءل فى العدد بشكل واضح كلما ازدادت طرق الاتصال وتقدمت اساليبه . ولكن التغير ظاهرة مستمرة في المجتمعات المفتوحة . وهذا هو اكثر العوامل الثقافية تفاوتا بينها . فقد يولد الطفل مثلا فى مجتمع زراعى يعتمد على اسلوب محدود لانه محكوم بظروف اقتصادية ومناخية وجيوفيزيقية معينة . او يولد فى مجتمع آخر يجمع بين الزراعة والصناعة والتعدين ، ويضيف الى موارده الطبيعية المعرفة التكنولوجية . **وهنا تظهر الفروق بين ثقافة الطفلين . لان الميراث الثقافى للطفل الاول يظهر كما جاء فى معظم الاحيان** ولكن الطفل الثانى يتعلم منذ طفولته الاستعداد لتقبل التغير بل والتهيؤ لاستقبال التطور المنتظر فى كل الاوقات . ويتولد عامل جديد ، يحكم ثقافته ، هو خليط من سعة الافق والتطلع المتواصل ، واذا تواجد فانه نادرا ما يشبع .

ثراء الثقافة المطروحة امام الطفل مسئولية مجتمعة اولا واخرا . فاذا لم يصعد رصيدها دائما ، فان اقتصاديات هذه الثقافه يصيبها الكساد **لا بالنسبة لنفسها فحسب ، ولكن** بالمقارنة بالثقافة الموازية . لان معيار التقدم فى اى مجال ليس الازدياد في القوة والسرعة

فحسب ، ولكنه الفرق في التطور بينه وبين آخر . ولنأخذ على سبيل المثال اسلوب تلقين اللغة للطفل . فاذا افترضنا بان وسيلة الاتصال بين الافراد في المجتمع الواحد هي رموزهم الخاصة لمعاني عامة مالية ، وان هذه الرموز اللفظية تختلف في النطق والمسمع من مجتمع لاخر ، ولكنها في النهاية تتفق في اشارتها الى نفس الشيء ، فان هذا النوع من الاتصال الاجتماعي يعتبر اولى حاجات الطفل غير الحيوية التي يقاوم بها العزلة ، والتي يعتمد في اكتسابها على مجتمعه . وحيث ان حجم وغزارة هذه الرموز يشير الى كمية وعمق المفاهيم والمعاني التي ترمز اليها ، فان اللغة خير معبر عن ضيق او سعة الثقافة . وغني عن الذكر ان افتقار لغة ما الى المصطلحات التي تزخر بها اخرى لخير مؤشر على تخلف مجتمع الاولى . كيف تولد اذن هذه الرموز ؟ اذا رجعنا **الى الوراء السحيق في تاريخ البشرية لاستنتجنا، وهذا محض تخمين ، ان الانسان الاول لا بد وانه** لجا الى نوع من الاصوات ، يخلقها في حلقه ، **ليعبر بها عن خوفه او المه او لينبه بها افراد مجموعته الى خطر او اى شيء حادث** . لان الاصوات الحلقية هي استجابة فطرية تصدر من معظم الكائنات الحية عند انفعالها . بل وتظهر هذه الحاجة للتعبير عن الانفعال بشكل اوضح عند دراسة سيكولوجية الصم . فمع ان الاصم ابكم ، الا انه عند الانفعال يصدر من حلقه اصواتا ، لا معنى لها بالنسبة لباقي المجتمع ، الا انها موحدة نمطية عند الحيوانات العليا . وترجع معظم الدراسات الفيلوجينية للسلالات احتمال اعتماد الانسان بالتالي على حنجرته وعلى تعبيرات وجهه الفطرية في نقل افكاره الى الآخرين . وان استعماله الحنجرة لم يتعد اصدار ما تسميه اليوم الحروف المتحركه ، تماما كما يلاحظ على الاطفال في دراسات نموهم الارتقائي (٢٠) . وهذا يعني ان ضحالة الرموز اللفظية في المجتمعات البدائية يرجع افتقارها الى المثيرات التي تولدها . لان الانسان الاول لم يلجأ الى تكوين **هذه الرموز الا عندما اضطره ازدحام بيئته الى** خلق اصوات موحدة لكل تعبير ، حتى يتسم التفاهم مع الآخرين من طريقها .

ضحالة او عمق اللغة ، وتهذب السلوك اللفظي او عدمه ، لا يشيران الى ثراء الثقافة فحسب (٢١) ، ولكنهما يحددان الطبقة العقلية والاجتماعية التى ينتمي اليها المتكلم . فالمتخلف العقلي والمتخلف الاجتماعي يستعملان رموزا لفظية محدودة ، سهلة التمفصل syntax بينما يتعامل مرتفع الذكاء او ثري الثقافة بكودات لغوية اكثر تعقيدا واشد تركيبا من حيث التفصيل والتحديد والاتساع . وعليه فان دور المجتمع واضح في هذه الناحية . فتطوير اللغة باستمرار لتساير تطور حاجات المعيشة والعلوم ، وتلقين النشيء لها في سنين حياتهم

(٢٠) Bernstein, B.A. (1955) ,,A Socio-linguistic approach to social learning, In **Social Science Survey**, J. Gould, ed. Pelican Books, London.

(٢١) Deutsch, M. (1965) The role of social class in language development and cognition, **American Journal of Orthopsychiatry.** 35:78, 1965.

الاولى ، خير دعامة للكسب المعرفي . ولا تتوقف المعرفة هنا عند لغة جماعة الطفل المباشرة ، لانه في حاجة الى اخريات تخص مجتمعات موازية ، حتى تتحسن مهارته في الاتصال الاجتماعي والقدرة على حل المشاكل . وحيث ان اللغات تعبير عن الافكار ، والافكار تعبير عن المعارف ، وان المعارف معيار للتطور الاجتماعي (٢٢) ، فان لغة الطفل في النهاية هي معيار رصيده من المعرفة الخاصة بالمعاني والعلوم القائمة في مجتمعه .

القيم ونظم السلوك واساليب الانفعال ركن آخر من اركان ثقافة الطفل التي تنتقل اليه من مجتمعه . والدليل على ذلك هو اختلافها الشديد من مجتمع لآخر . ومن الصعب تصور هذا التباين الى ان يلمسه الانسان بالانتقال من ثقافة الى اخرى (٢٣) . وهذا ما فعلته مثلا مارجريت ميد (٢٤) ، عندما عاشت فعلا في جزيرة بالي (جنوب شرق اندونيسيا) ، وسجلت ، على مدى عامين ، كل ما يتصل بشخصية اهل هذه الجزيرة النائية عن العمران . وقارنت بين السلوك الخاص بالدوافع البيولوجية بالذات ، العالمية في خصائصها ، في مجتمع بالي والمجتمعات الغربية . فسكان بالي يتفادون الاكل امام الآخرين . واذا اضطروا الى ذلك فانهم يعطون ظهورهم لبعض ، ويأكلون بسرعة ، كما لو كانت العملية مخجلة او معيبة . وقد ربط بعض الملاحظين اتجاه اهل بالي نحو التغذية باتجاه الحضارات الاخرى نحو الاخراج . ويزيد من تنفير الطفل لعملية الاكل ، طريقة تغذيته الاولى ، بدس الطعام في فمه عنوة وهو مطروح على ظهره ارضا ، سواء رغب ام لم يرغب . ومن العادات الاخرى التي شاهدتها ميد هناك ، طريقة المعاملة التي يلقاها الطفل من امه . فدافع الامومة معروف انه يهدف الى حنو الام على اطفالها لاعتمادهم عليها عاطفيا وجسميا . ولكن مجتمع بالي يخرج تماما عن هذه الاستجابات المكتسبة لانه يفرض على الام تبني اطفال آخر ، لتعود اطفالها على الاستغناء عن الحاجة العاطفية للغير ، بما فيهم الام . ويشب الفرد بعد ذلك محافظا على « بعد اجتماعي » يقيه من مواقب الاحتكاك الانفعالي مع الآخرين ، ويعطيه فرصة اكبر للتأمل الذاتي . واذا قارنا هذه القيم بتلك التي تفرضها المجتمعات الاخرى ، لوجدناها في كثير منها تشخص على انها انطواء اجتماعي .

انتقال الطفل بعد ذلك من نظام اجتماعي الى آخر ، لا يعني بالضرورة تمسكه التام بالنظام الاول الذي شب عليه ، لان من خصائص الكائن الحي القدرة على التكيف لبيئته . وهذا يعني

---

(٢٢) Piaget, J. (1926) **The language and Thought of the Child,** Harcourt Brace, New York.

(٢٣) Mead, Margaret (1934), **Mind, Self and Society From the Feral Man,** Harper **Standpoint of a Social Behaviorist.** University of Chicago Press, Chicago.

(٢٤) Mead, Margaret, Ed. (1937) **Cooperation and Competition Among Primitive Peoples.** McGraw-Hill. New York.

ان التعديل وظيفة يمكن حدوثها طالما توفرت القدرة والامكانيات من داخل الطفل ومن خارجه . فاذا كان طفل افيرون قد عانى من التخلف العقلي ، وهو لذلك لم يتقدم كثيرا عندما غير بيئته ، فان الطفلة كمالا الهندية نجحت في الارتقاء من سلوك حيواني عدواني بحت الى سلوك اجتماعي ذكي (٢٥) . فبعدما عاشت كمالا تسع سنوات في جحر ذئب ، عثر عليها لتنتقل من مجتمع الذئاب الى الانسان . وتعلمت كيف تمشي منتصبة على قدميها ، وكفت عن التجوال ليلا والعواء ، وتعلمت مخالطة الناس بحرارة والتحدث بلغتهم بطلاقة وبدون تعثر ، الى ان توفيت وهي في السابعة عشرة من العمر . وتضيف هذه الامثلة **براهين اخرى على ان اسلوب الحياة رهن بالاحتكاك** الاجتماعي الذي يتعرض له الطفل .

ومع ان التغيير في الحالات السابقة يعتبر فرديا ، الا انه يساعد في الاشارة الى ما يمكن ان يحدث عند عبور الثقافات او عند هجرة الجماعات الى مجتمعات ثقافية اخرى . وحيث ان الحدود الجغرافية لم تعد وعاء ثقافيا كما كانت الى مدخل القرن العشرين ، فان تداخل الثقافات اليوم يجعل من العسير التعرف على اسلوب حياة مميز لكل مجتمع معاصر على حده ، الا في عدد صغير من المجتمعات المعزوله جغرافيا . لان معظم دول العالم مثلا تتبنى نفس النظم الاجتماعية والترفيهية والسياسية والقانونية تقريبا ، كالزواج والملكية وقواعد المرور والحريات الخ .. واذا استثنينا الديانات ، لوجدنا ان الحدود المميزة تتلاشى بين العديد من الثقافات المتجاورة ، بحيث اقترب كثير منها من كونه عالميا مع فارق بين الشرق والغرب مثلا ، او الزراعي والصناعي ، او المجتمعات المتحضرة والنامية .

بقي شيء اخير ، هو معنوي من ناحية ، وفيزيقي من ناحية اخرى . فالبشرية بامدادها المتفجرة لم تعد تهيىء نفس الظروف التي كانت تهيؤها للاجيال السابقة . ويشكل هذا النوع من التغير في الكثافة السكانية ضغطا على بعض المجتمعات يختلف من ضوضاء الى ملوثات بيئة ، الى تضاؤل العناية والقوت والوقت والدخل والفرص . والصارخ في هذه الحقيقة ان المجتمعات المسئولة عن الازدحام والتلوث والتخلف تعاني اصلا من ثقافة محدودة . بينما المجتمعات الاكثر تطورا ، والتي تتحكم تكنولوجيا في تلك العوامل ، تقاسي من القلق الناتج عن اللا مبالاة والاخطار التي يتسبب فيها غيرها .

الى الآن ، ومناقشة ثقافة الطفل التي يكتسبها من مجتمعه ، معتمدة على مداخل انسانية فقط ، تدور حول اساليب اتصاله بالآخرين من حيث سلوكه اللفظي والعملي والانفعالي فقط .

---

(٢٥) Singh, J.A.L. and Zingg, R.M. (1942), **Wolf Children and Feral Nad,** Harper and Bros, New York.

ولكن مساهمة المجتمع في ثقافة الطفل لا تتوقف عند هذه العوامل المعنوية فقط ، لانها تشمل ايضا عناصرا مادية محسوسة هي ادوات المعيشة التي يستعملها الفرد في مجتمعه ، ونوع الغذاء والعقاقير التي يتناولها ، والكساء والمأوى الذي يحميه ، علاوة على ادوات الترفيه والتعبير الفني التي يلجأ اليها لتسليته .

• • •

يعتمد المام الطفل بالطبيعة حوله على الوسائل التعليمية التي يقدمها له مجتمعه ، بل وتعتمد على ذلك كثير من العادات التي سيتبناها في مستقبله ، الخاصة بحياته ومآله وفهمه للامراض والعدوى والعلاج والوقاية . وحيث ان هذا المجتمع يوفر له ايضا نوع وقوانين مسكنه ، ثم نظام محاصيله الكبرى والصغرى وقوانين تصنيع منتجاته ، وطرق حمايته من الطبيعة ومن المجتمعات الاخرى ، فان الطفل يولد وثقافته هذه رهن بعطاء هذا المجتمع . ولا متسع هنا لعد المسئوليات ، وهل هي اليق ما بوسع هذا المجتمع ان يقدم ؟ وهل هي آخر ما وصل اليه العلم في باقي المجتمعات ؟ وهل هي تضمن فعلا لهذا الفرد الصغير ، الذي لم يكن له شأن بميلاده ، حياة السعة والطمأنينة والعافية ؟

الاسرة وثقافة الطفل :

يتكون المجتمع الكبير من وحدات من مجتمعات أصغر هي الاسر . ومع ان هذه الاسر لا تخضع لنفس التنظيم الذي يخضع له المجتمع الكبير ، الا ان لمعظم الاسر قواعدا وطرقا للمعيشة تقوم مقام النظم والقوانين الاجتماعية العامة . ويعتقد معظم السيكولوجيون ان سنين الطفولة الاولى تشكل مرحلة التكوين النفسي للطفل ، وانها اكثر مراحل نموه حرجا . وحيث ان سنواته الخمس الاولى « الحرجة » تجده في كنف اسرته طول الوقت تقريبا ، فانه لعجزه ، يصبح صورة الظل لهذه الاسرة . فكيف ينفعل ، ماذا يأكل ، ماذا يقول ، لماذا يخاف او يفرح وكيف يعبر عن نفسه ، كلها رهن بما يدور داخل هذه الاسرة وما يبدر عن افرادها .

تكوين الذات ، اي الشخصية الفردية ، يتم على مراحل متعددة منذ ولادة الطفل الى ان ينضج . وهذه الذات ، او « الانا » ، لا تظهر بوادرها في الاسابيع الاولى . لان الطفل حديث الولادة لا يميز بين جسمه وبين بقية الحقائق التي تحيط به . يعني ان جسمه ونفسه يظلان وحدة متصلة الى ان يصل الوليد الى مرحلة التمييز بين هذا الجسم وبين محتويات العالم خارجه . ثم بعد ذلك ينتقل الى تنظيم الاشياء الى ذاتية وموضوعية عن طريق ادراكه وذاكرته . ويكون بهذا الاسلوب قد توصل الى التعرف على ذاته ، وتعرف عليها المحيطون به ايضا .

الذات تنظيم يتطور ، لان الطفل يتعرض لمثيرات حوله تخص حواسه اولا ، واخرى تخص عملياته العقلية والحشوية بعد فترة قصيرة . وكما قال وليام جيمس فانه « بمجرد الولادة الطبيعية ، تهاجم البيئة الصاخبة حواس الطفل » . فتتطور الوظائف الدماغية بين الاسبوعين الرابع والسادس (٢٦) بحيث تبدأ في الاستقلال عن وظائف التوازن الحيوى . **لان الطفل يولد مستعدا** للقيام بعمليات التفاعل العضوى التي تؤمن له الاستمرار على الحياة ، كالتنفس والمص والبلع . ولكن عملياته العقلية التي ستعتمد على حواسه ، لا تكون مؤهلة للعمل الا بعد عدة اسابيع ، بل ولا تعمل اذا لم تتصل بما يثيرها من الخارج . فقد ثبت تجريبيا مثلا (٢٧) ان قردة الشمبانزى التي حرمت من الضوء منذ ولادتها تفقد ٩٠٪ من خلايا الابصار بشبكيتها . وان القطط التي منع الضوء عن احدى عيونها فقط (٢٨) ، لكي تبقى العين الثانية بمثابة عامل الضبط بالتجارب ، اصبحت تستعمل العين المتعرضة للضوء فتطلق الاستجابات التلقائية المتماثلة اصلا في الاثنتين المتصلة بمتابعة الضوء او المثيرات المتحركة . اى كما راى بياجيه Piaget ، يلزم الكائن الحى النامي غذاء من المثيرات ، تماما كما يحدث فى جهازه الهضمي ، لكي ينمو ويتطور . ونكتفي بالحقائق الطبية الانثروبولوجية الخاصة بتطور الجمجمة كدليل على ان النمو رهن بالوظيفة بالاضافة الى الوراثة ، لان حجم مخ الانسان الاول Australopithecus (٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد) لم يكن اكثر من ٧٠٠ سنتيمتر مكعب بينما اصبح حجم مخ الرجل المتوسط اليوم حوالى ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب . ولم يحدث ذلك الا لان ازدياد الوظائف الموكولة الى هذا المخ اضطرته الى توسيع مسطحه ، فزادت تلافيفه ، وبالتالي عدد نوروناتها .

ما سبق يعنى ان ثراء بيئة الطفل الاولى يثرى ثقافته سواء من الناحية التكوينية او من الناحية الوظيفية . ولا يتوقف تقدم النمو على الخلايا الدماغية فقط ، لان انظمة الطفل الحيوية ، وعظامه وعضلاته تتأثر بعوامل البيئة ايضا . فعلاوة على انه قد ثبت ان اطفال الملاجىء اللقطاء (٢٩) يعطون متوسطات اقل للذكاء ، ترتفع عندما ينقل الطفل الى عائلة لرعاه ، فان نسب الوفاة

---

(٢٦) Erikson, E.H. (1959) **Identity And The Life Cycle. Psychological Issues,** Monograph No. 1 International Universities Press, New York.

(٢٧) Riesen, A.H. (1960) „Effects of stimulus deprivation on the development and atrophy of the visual sensory system," **Amer. J. Orthopsychiatry.** 30:23, 1960.

(٢٨) Wiesel, T.N. and Hubel, D.H. (1963). Effects of visual deprivation on morphology, and physiology of cells in the cat's lateral geniculate body," **J. Neurophisiology** 29:978 1963.

(٢٩) Bowly, J. (1952) **Maternal Care and Mental Health,** 2nd ed. Monograph Series, No. 2, World Health Organization, Geneva.

تختلف ايضا بين اطفال الملاجــىء والاطفــال المتبنين (٣٠) ، بل ويتباين طوال عظامهم ونضج عضلاتهم نتيجة للمجاعة النفسية . ولا يخفــى مدى ما تسببه هذه المجاعة من حرمان مــن حرمان من الدافعية لتبنى النظم الصحية للسلوك السليم (٣١) .

الرعاية التى تحيط بها الاسرة طفلها هــى السند الاكبر لنمو واكتمال كل وظائفه النفسية والجسمية . وتساعده هذه الوظائف على تكوين مكانته الخاصة فى المجال الاجتماعى ، لا بالنسبة للآخرين فقط ، ولكــن بالنســبة لتقديــره السوسيوميترى لنفسه ايضا (٣٢) . ويلاحظ ان بياجيه قسم التطور المعرفى للطفــل الى ثــلاث مراحل : ١ ـ الحس ـ حركيــة (العــام الاول والثانى) ، ٢ ـ العمليات المحسوسة (٢ ـ ١٢ سنة) ، واخيرا ، ٣ ـ العمليــات المدروســة (١٢ سنة فصاعدا) ، وانه وجد فروقا فى التطور بين الثقافات من ناحية وبين الطبقات الاجتماعية من ناحية اخرى . يعنى ان انتماء الاسرة الــى واحدة او الى اخرى يؤثر على نمو الطفل المعرفى . بل اثبت الباحثون (٣٣) تميز الانفعالات الطفلية من اول الشهر الثالث ، وان الفــروق تبعث خصائص الانفعالات لدى الابوين او مــن يقــوم برعاية الوليد . فالطفل البشوش ، هادىء الطبع يتبع الراعى الحنون . اما الطفل القلق ، حاد المزاج ، غير المنتظم فى استجاباته فانه ناتج الرعاية المقتضبة غير المستقرة او الفظة .

لم ينتقل الطفل من مرحلة المهد الى مرحلة المشى toddler stage ، يجنى اثناءها مهارات كثيرة ، كالكلام والاعتمــاد علــى ساقيه والتفريق بين ما يريده وما لا يقبله . ويتبنى للمرة الاولى اما سياسة الــرفض او الاتجــاه السلبى نحو ما يفرض عليه . بل يتعلم ان يقول « لا » قبل « نعم » . ويتعرف على ما يمقته قبل التعرف على ما يريد . وفى هذه المرحلة تستكشف الاسرة كيفية التعامل مع هذه الذات الجديدة . لان اسلوب الجلب والشد لن يؤدى الى حــل مشاكلها ، ولكن سياسة التعاطف والحزم هى التي ستنجح فى اقامة الحدود الاولى للسلوك المقبول (٣٤) .

---

(٣٠) Spitz, R.A. (1946) Anaclictic depression, **Psychoannal. Stud. Child.** vol 2, pp. 313-42.

(٣١) Sherif, M, (1967) Group processes and collective interaction in delinquent activities **J. Res. in Crime and Delinquency**, January, 43-62.

(٣٢) Petri, H. L., Mills, R.G., and Barry, L.S. (1974). Variables influencing the shape of personal space, **Proc. Amer. Psych. Assoc.** New Orleans, Aug. 1974.

(٣٣) Thomas, A., Brich, H.G., Chess DS., Hertzig., M.E., and Korn, S. (1965) **Behavioral Individuality in Early Childhood.** New York University Press. New York.

(٣٤) Kessen, W. (1965), **The Child.** Wiley. New York.

وفي السنتين الثالثة والرابعة يجد الطفل متعة في الانطلاق والاعتماد على نفسه والتحسس المعرق . ويزيح اسرته الى اقصى محيط انشطته . لان الطفل يأبى الآن ان يظهر ضعيفا ويصر على الاستقلال . ويكون المطلوب من اسرته في هذه المرحلة (٣٥) التقليل من ممارسة السلطة ، واطلاق حرية الطفل في النشاط الهادف الى تحقيق ذاته . ومع ذلك فان مستوى طموحه في هذه المرحلة يفوق دائما مستوى امكانياته . فهو لذلك يأخذ على عاتقه اعمالا لا يستطيع اتمامها ، او يدخل في مشاكل لا قدرة له على الخروج منها . ويكون دور الاسرة اما مساعدته على بلوغ هدفه بعدما يستنفد كل طاقته في المحاولة ، او ارشاده في المراحل النهائية الى انجح السبل لحل مشكلته . واهم من هذا وذاك هو دور الاسرة في اعداده لتقبل الفشل او القصور ، وانتظارهما كواحد من وجهي اللعبة .

ويتقدم الطفل نحو التطبيع الاجتماعي في هذه الفترة ايضا . لانه سيستقبل اطفالا جدد في العائلة ، او يقابل اطفالا غرباء خارج العائلة . ويتعلم للمرة الاولى ضرورة التعامل مع الغير ، والم فراق بعض اشيائه دائما او احبائه بعض الوقت ؛ لان الآخرين سيشاركونه فيهم . وتخدم هذه المعاناة منفعة جديدة ، لان الطفل سيجد نفس الطريق الى البحث من ذاته ، وسيتأثر بهؤلاء الغرباء ، وسيعين ايهم يميل اليه وايهم ينفر منه . وهنا ايضا تؤثر اسرته على اختياره ، لانها تتحكم فيمن يخالط ، او لانها تحدد له القيم التي ينتظر منه ان يزن بها الافراد والاشياء والافعال .

وتنحصر الثقافة النفسية السليمة التي تتيحها الاسرة للطفل بعد هذا في قيم تعتبر في الحقيقة معايير عامة للصحة النفسية . فعليه ان يتعلم تقبل الحقائق المتعلقة بقدراته ، واستعداداته ، وحالته الجسمية والعقلية . وعليه ان يتفاعل مع من يحيطون به تماما كما يود ان يعاملوه ، فيتعاطف معهم ويتقبلهم كما يقبل نفسه ، وعليه ان يتعلم الاقبال على الحياة وتحمل نصيبه في اى عمل ، وان يكون طموحا شجاعا مستعدا للكفاح والمقاومة اذا تعرقل هدفه او فشل اول الامر . واخيرا ان يتعلم الموازنة بين حاجاته وبين متطلبات المجتمع حوله ، فيتوقف عند الحدود التي رسمها هذا المجتمع ، حتى وان ادى ذلك الى حرمانه من اشباع حاجة جسمية او نفسية . وحيث ان الرياح لن تجيء بما تشتهي السفن دائما ، فان عليه ايضا ان يتعلم التكيف لمواقف الاحباط بتغيير الاشياء او بتغيير اوضاعه النفسية . ومهمة اسرته في هذه الثقافة النفسية

(٣٥) Eisenberg, L. (1967) Normal child development In: **Comprehensive Textbook of Psy- chiatry.** Freedman & Kaplan, eds. The Williams and Wilkins Co. Baltimore.

طويلة شاقة ، لانها لا تخضع للوقت او لقانون اولطريقة . فهي تبدأ من اول يوم يتبادل فيه الطفل الكلمات مع من يقوم برعايته . ولا تنتهي الا عندمايصبح الطفل راشدا آخر مسئولا عن طفل آخر ، يرعاه ويحنه بنفس الاسلوب تقريبا ، ويختار عندارشاده بعض الاساليب التي طبقت عليه (٣٦) :

« واذا استطعت ان تملأ كل دقيقة قاسية بستين ثانية من سعي ومثابرة ، فلك الارض بكل ما عليها ، واكثر من ذلك ، تكون قد صرت رجلا يا بني » .

لتنتقل الثقافات من الجيل الى الجيل عن **طريق فرد ، ميراثا ومتعة ودين .**

* * *

(٣٦) Kipling, Rudyard (1959). "If", In : **Anthology of Modern Verse.**, Pelican Books. London.

محمد احمد غالي

غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد

مقدمة : ـ

حقق علم الاجنة ، وعلم نفس الطفل توسعا كبيرا فى دراسة مرحلة ما قبل الميلاد ، باعتبارها اهم مرحلة لضع البذور الاولى لحياة الانسان بعد الولادة فترسم له عن طريق الوراثة ، وعن طريق ما يصله من الام من خدمات التغذية ، ووظائف التنقية ، ترسم له اطار مستقبل حياته اما حياة سليمة سوية ، اوحياة متعثرة فاشلة جسميا او عقليا او انفعاليا ، او هى جميعا .

ولقد عشنا عصورا طويلة ننكر ، او نجهل اثر هذه المرحلة على نمو الفرد بعد الميلاد ، ولا زالت الكثير من الامهات الى اليوم لا يعين هذه الاهمية ، ولذلك فانهن بالتالى لا يسمعن الى صوت الجنين الصامت يشكو التقص ، ولا قرحته المدوية دون ضوضاء حين يتم بالكمال كل الكمال ، فيما يأتيه من امدادات غذائية ، او يحظى به من اعفاء من عمليات الاخراج او التنفس للتخلص من الفضلات او العناصر الضارة بجسمه الواهى ، الى ان ظهرت على بعض المواليد امراض

وعلل ، او تطورت لديهم انواع من النقص الجسمى او العقلى ، اضر بهم وبمستقبلهم وارق مضاجع آبائهم ، فانتبه الناس الى هذه المرحلة«مرحلة ما قبل الميلاد prenatal period » يتلمسون فيها ما قد يحدث اثناءها من نقص فى غذاء الجنين او دوائه ، او عجز فى مقومات حصانته من كل سوء ، او عوامل قد تؤخر نماءه.

لقد عاش الفكر النفسى فترة طويلة يقصر تاثير هذه المرحلة على المواليد فى حدود تأثير العوامل الوراثية دون غيرها ، منكرا احيانا ومتجاهلا احيانا ان ذلك الكائن الذى يعيش فى ظلمات ثلاث ، هى ظلمات الرحم ، يتأثر كثيرا وكثيرا جدا بما وراء هذه البيئة الرحمية ، او ماهية البيئة الخارجية التى تعيشها الام الحامل .

ولقد توصل العلم الحديث الى الكثير عن التاثر المباشر الذى يظهر على الجنين فى بطن امه ، اذا تغيرت المؤثرات البيئية التى تحيط بالام ، او تغيرت الام نفسها بما يغير البيئة الرحمية . ولا غرو فالجنين كائن متطفل على الام يعيش بهاومعها ، وعلى ما تقدمه له من احتياجاته الغذائية والهوائية والوقائية جميعا .

ان الجنين فى بطن امه كائن عاجز ، ولكنه مع عجزه لديه استعدادات تبدأ من لحظة تلقيح البيضة لعطيه طاقات حيوية واضحة جدا ، فبمجرد تلقيح البيضة التي يفرزها مبيض الام بواسطة الحيوان المنوى تصبح لها القدرة على الحركة ، ثم تخرج من الشعيرات « الحوالق » ما يصلها ويزرعها فى جدار الرحم ، ثم لديها من الطاقة ـ طاقة الحياة ـ ما يجعل خليتها الواحدة تنقسم ثم تنقسم وتتضاعف عددا ، ثم تتمايز وظيفة ، ثم تصبح علقة ثم مضغة ، ثم تكسى او يكسوها الله ـ بعد تكوين العظام لحما ـ الخ من التطورات المعروفة .

قابلية الجنين للتاثر بظروف البيئة الخارجية .

المعروف ان تطور الجنين فى مرحلة ما قبل الميلاد يمر بمراحل نمائية هامة هي : ـ

١ ـ مرحلة البذرة او البيضة الملقحة بالحيوان المنوى . وتستمر لمدة اسبوعين بعد الاخصاب . .

٢ ـ مرحلة المضغة وتستمر من الاسبوع الثالث حتى السابع .

٣ ـ ثم مرحلة العلقة والجنين وتبدأ من الاسبوع الثامن يوم الولادة .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل تحدث تغيرات نمائية ، وتظهر اعضاء وتتضح وظائف لهذا المخلوق ، وهو يبدأ اول حياة فى تاريخه الطويل.

وقد يفيدنا هنا ان نستعرض فى عجالة سريعة اهم التغيرات التكوينية والحيوية والبيولوجية التي تظهر فى كل مرحلة من هذه المراحل . ذلك ان اهتمام هذا البحث بموضوع التغذية يجعل من الضرورى تحديد المراحل النمائية ـ قبل الميلاد ـ التي قد تتأثر باضطراب مورد الغذاء او عناصر تكوين الغذاء الواصل من الام : « شكل ٢ »

مراحل التغير قبل الولادة : prenatal development

١ ـ مرحلة البذرة : وهى مرحلة البيضة التى تم اخصابها بواسطة الحيوان المنوى . بعدها يتكون حول البيضة غشاء قوى يمنع دخول اكثر من حيوان منوى واحد من مئات الملايين التي تصب فى الرحم بعد عملية الوصال الجنسى . بعد ذلك تبدا المرحلة الثانية فى التطور وهى انقسام الخلية الى العديد من الخلايا ، وهى ما تسمى مرحلة الانقسام « metosis » (١) وفى اليومين التاليين تستمر عملية الانقسام الخلوى . وخلال هذه العملية تتحرك البيضة المخصبة خلال قناة فالوب لتصل الى تجويف الرحم (انظر شكل ١ وشكل ٢) .

وبين اليوم الثالث واليوم الخامس بعد الاخصاب تبدا الخلايا فى اعادة تنظيم نفسها لتتجمع حول السطح الخارجي تاركة فراغا خاويا وسطها يمتلىء بسائل ما .

وفى اليوم الخامس او السادس تتجمع خلايا معينة داخل هذا الفراغ لم تبدا فى التخصص ، فالخلايا التي تتجمع على احد جوانب هذا التجويف ستصبح فيما بعد العلقة ، اما الخلايا الباقية فانها تكون منطقة الاتصال بالرحم وهى المشيمة « placenta » والسائل الداخلى الذى سوف يسبح فيه الجنين .

وبعد اليوم السابع الى التاسع من الاخصاب ، تحتك هذه التركيبة بجدار الرحم ، وتبدا عملية التصاق بالجدار بواسطة « حوالق » تضمر فيما بعد وتكون بعد ذلك المضغة . ان افراز الام الحامل لهرمونات الاستروجين والبروجسترون تهىء الرحم لاستقبال هذا الضيف الجديد المقدس (٢) . هنا ترقد كتلة العلقة فى احضان جدار الرحم ويبدا تموينها بالغذاء من دم الام عن طريق حويصلات تتكون فى جدار الرحم لتبادل دم الأم مع دم الجنين . والأم هنا معطاءة كريمة ، حانية على التكوين تطهر دمه لحظة بلحظة فى عملية تبادل غريبة كلها السخاء والعطاء . (انظر شكل ١) .

هنا يحدث نماء سريع جدا لهذه العلقة يوما بعد يوم ، ويتضاعف حجمها كل ٢٤ ساعة (انظر شكل ٢) وبعد حوالى أسبوع يكون طول العلقة تقريبا ١ : ١٫٠٠٠ من البوصة . ان احتضان جدار الرحم لهذه العلقة يعطى الحياة لهذا التكوين حين يتسلم الغذاء والاوكسجين من دم الام ويطرد منه الفضلات . ولا يزال الكائن هنا جسما غريبا على الام ، ولولا ما تقدمه له من هرمونات ، ولولا قوة هذه المنطقة لحدث للجنين طرد سريع ولم يتمكن الرحم من الامساك بالتكوين .

مرحلة المضغة : « The embryonic period »

هذه مرحلة هامة جدا فى تطور الجنين وهنا يتغير مظهر العلقة بصورة جذرية من كتلة من الخلايا الى كائن بشرى واضح المعالم .

---

(١) تسمى احيانا حالة تكاثر الخلق بالانقسام المتتابع (cleavage).

(٢) غالي وآخرون



شكل (١)

رسم توضيحي يبين العلاقة بين الرحم والغشاء الرحمي والجنين ايام الحمل



شكل (٢)

أضواء على نمو الجنين في الأسابيع الثمانية الأولى من الحياة عن " Moore " 1977 (13)

وهنا نشهد بديع خلق الله فيما جاء فى قول الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون » سورة المؤمنون آية ١٢ ـ ١٥ .

وبنهاية المرحلة تكون جميع الاعضاء الكبرى والاجهزة الرئيسية قد تكونت كما يتضح ذلك من « شكل ٢ » . وهذه المرحلة التي تنتهي بنهاية الاسبوع السابع او آخر الشهر الثانى من الحمل تتسم بالنمو السريع ، وهى لذلك مرحلة يكون فيها التكوين اكثر عرضة للتأثر بالعوامل البيئية الخارجية التي قد تمتاز بنقص او قصورها . ولهذا فانها بالنسبة للكائنات البشرية تعتبر اكثر المراحل حساسية لاى مؤثر رحمي أو خارج رحمي . وهنا نلاحظ انه ـ بين اليوم ١٨ ـ ٢٨ يبدأ الجهاز العصبى فى الظهور والتطور . وهو الجهاز الذى يقوم بعملية توجيه النماء والتطور لاغلب الاجهزة الحيوية الاولى ، ويبدأ تطوره من تجميعة عصبية ثم تتطور لتكون المخ والمخيخ والحبل الشوكى .

ـ فى نفس الوقت تقريبا تتطور اجهزة دقيقة اخرى فى نفس فترة تطور الجهاز العصبي المركزى . ففى الاسبوع الثالث من الاخصاب يبدأ تشكيل الاوعية الدموية والمعدة . وهنا تظهر انبوبة صغيرة تتطور لتكوين القلب ، ولذلك يظهر عليها نوع من النبض البدائي فى الاسبوع الرابع . وبعد ذلك يسير تكوين الجهاز الدورى بانتظام .

وفى اليوم الثامن والعشرين تظهر فى جسم المضغة ٤٨ زوجا من قطاعات الانسجة هى التى تتكون منها العضلات فيما بعد .

ـ ثم يبدأ تكوين الاربطة والعظام فى صورة خلايا غضروفية .

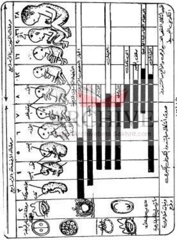
ـ وفى نهاية الاسبوع الرابع تحدث تغيرات غاية فى العجب فى المضغة ، فهنا يزيد حجمها ليصبح قدر ما كانت عليه ٧٠٠٠ مرة ، ومع ذلك لا يمكن تمييز كائن بشرى ابدا من مظهرها فحسب . فهنا لا تختلف عن مضغة اى كائن حي آخر . « الله يعلم ما تحمل كل انثى ، وما تغيض الارحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » سورة الرعد آية ٨ ، ٩

ـ وابتداء من الاسبوع الخامس الى السابع تتطور المضغة تطورا واضحا حين تصبح وظيفة المخ والقلب ضرورية تماما لعملية تطورها ، وهى اكثر حاجة لهما من حاجتها الى وظيفة الهضم مثلا . (شكل ٣)

ـ ففى الاسبوع الخامس يكبر حجم المخ نسبيا اذا قورن بكبر حجم كتلة المضغة ، وتبدأ قشرة المخ الدماغية فى الظهور لاول مرة ، وهى الجزء من المخ الذى يحكم النشاط الحركى والذهنى العقلى ، ويؤثر فى اسلوب الفرد الانفعالى بعد الولادة (٢) .

---

(٢) غالي واخرون .



شكل (٢)

ـ وفى الاسبوع الخامس يتم تكوين التجويف الصدرى والبطن ، ولذلك هنا تصبح العيون واضحة من خلال الجفون المغلقة ، ثم تظهر براعم الرئتين وصفائح اليد والقدمين غير متميزة بأى اصابع » .

ـ وفى الاسبوع الخامس يبدأ تكوين النص الشمى من المخ .

ـ وفى الاسبوع الخامس والسادس يتعرض القلب لتغيرات جذرية فى التكوين والوظيفة ، اذ تتحول صورته الانبوبية الى القلب الرباعى التقسيم .

ـ ولا يزال التكوين خفيف الوزن صغير الحجم حتى اليوم ٣٦ حين تظهر جميع الكتل العضلية وتتكون براعم الاذرع والساقين .

ـ فى اليوم ٤٧ يبدأ تشكيل الاجهـــزة الجنسية وفتحة الشرج ولو انه يكون من الصعب تحديد جنس التكوين ـ ذكرا كان ام انثى .

ـ وفى نهاية المرحلة اى فى اليوم ٤٩ تكون جميع أعضاء التكوين قد ظهرت ، ويسمى الكائن النامى هنا بالجنين .

اليس فى ذلك ابراز لعظمة الخالق الذى حدد كل هذه المعالم المتغيرة فى الجنين فى الكتاب الكريم فى آيات بينات « هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم ». آية ٦ سورة آل عمران ، وقوله تعالى « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون » آية ٧٨ سورة النحل .

مرحلة الجنين : Fetus

ان التغيرات النمائية التى تتم فى هـــذه المرحلة تكون اقل غرابة من تلك التى تمت فى المرحلة السابقة ، ولو أن التغير يظل مستمرا .

ـ ففى خلال الشهر الثالث تتضح الاجهزة التناسلية ويتمايز الجنـــان .

ـ ثم هنا تبدأ التكوينات العظمية تحل محل الانسجة الغضروفية الطرية فى الهيكل العظمى ، اى تتكلس الغضاريف نوعا ما .

ـ ونظرا لاتصال العضلات بالجهاز العصبى المركزى تبدأ حركة الساقين والذراعين ، وهو امر يحتمل حدوثه دون أن تشعر الحامل بحركة الجنين .

ـ ان الاستجابات الانعكاسية الاولى للجنين تكون بصورة كلية يقوم بها بكل جسمه قبل بدء تخصصه العضوى ، لكل مثير . ثم تبدأ مناطق معينة من الجسم فى التخصص . وبنهاية الشهر الثالث تتضح للجنين : ـ

* جفون العين
* اظافر الاصابع

٨٠

* لم براعم اسنان الطفل .

وخلال الشهر الرابع : —

* يظهر الشعر على الراس

* ويبدأ ظهور الرمش والحاجب

وفى الشهر الخامس : —

* يزيد شعر الراس

* ويأخذ الجلد شكلا واضحا فى المثانى .

* وخلال الشهر الخامس يسمع نبض القلب بالسماعة المعروفة ، وهذا دليل هام على ان الجنين يتمتع بالحياة .

اما الفصل الثالث والاخير فهو الشهور الثلاثة الاخيرة ، السابع والثامن والتاسع وهى شهور يكون فيها الجنين قد نضج بدرجة تكفيه الحياة خارج الرحم فى حالات الولادة المبتسرة "Premature birth"

ففى الشهر السادس يكون الجنين قد تعلم التنفس بنفسه عن طريق رئتيه ، ويمكنه ان يعيش لو ولد ، ولو ان الافضل ان يتم الشهر السابع لكى يتم له فى هذه الفترة الكمية اللازمة لاكتمال حجم المخ والجهاز العصبى المركزى .

هذا وتحدث هنا ايضا تغيرات ذات مغزى، فقد يطول شعر الراس الى بوصة ، وتمتد الاظافر الى ابعد من اصابعه فى اليدين والقدمين . ولعل من اهم ما يحدث فى الشهر التاسع هو وصول الاجسام المضادة « Anti bodies » والتى تقاوم الامراض العديدة تنساب مع دم الام الى الاوعية الدموية للجنين ، وبذلك تعطيه المناعة الضرورية ضد الكثير من الامراض ، الامر الذى لا يتحقق له بدون ذلك لمدة شهرين او ثلاثة بعد الولادة (٤) .

وخلال هذه المرحلة يزيد حجم الجنين باستمرار وصول امدادات من عناصر الغذاء الضرورية لعملية التسمين فى هذه الفترة ، ولو انه على العموم يأخذ معدل النماء فى الانخفاض تدريجيا فى الشهر التاسع . وينمى الجنين كذلك طبقة اضافية من الجلد السميك المتدهن الناعم الاملس تخلو غالبا من الشعر الذى يكسو اغلب الجسم .

وبعد الولادة يفقد المواليد بعض الوزن بسبب عملية التأقلم للبيئة خارج الرحمية ، والمعروف ان فرص الحياة تكون افضل بعد الولادة كلما قضى الجنين فترة اطول فى المرحلة الاخيرة تصل الى ٤٠ اسبوعا من آخر دورة شهرية .

---

(٤) براجع فى موضوع التغيرات النمائية فى مرحلتها قبل الميلاد . اغلب المراجع المدونة بآخر البحث وخاصة Fein, G. Greta, 1978, (5)

النماء والغذاء من البيئة الخارجية :

لقد اردنا بعرض هذه الصورة ان نبرز المراحل الهامة والحيوية من حياة الحمل والتى قد تتاثر بنقص الغذاء او نقص العناصر الغذائية ، وذلك لتكون الأم الحامل على وعي بالعناصر الضرورية لكل مرحلة نمائية من مراحل عمر حملها ، وما يحتاجه لكل منها من عناصر غذائية. فمثلا فى فترة تكون الجهاز العصبى المركزى تكون حاجة الجنين ماسة للبروتين والفسفور والبوتاسيوم ، وفى حالة تكوين او نمو الهيكل العظمى تكون الحاجة ماسة للكلسيوم وغيره من العناصر مثل فيتامين (د) مثلا .

هذا ونحن هنا ـ وبصدد دراسة اثر نقص الغذاء على تطور الجنين ـ **نحب ان نشير الى ان علوم الاجنة وعلم نفس الطفل قد تلمسا هذه النتائج من تتبع تطور الاجنة فى بطون امهاتها وكذلك لما قد يبدو على المواليد من نواحي النقص النمائى نتيجة ذلك .**

كذلك نحب ان نوضح هنا ان هذه الدراسة ، وهى تبرز الجوانب السلبية للامدادات الغذائية من الام ، انما نفترض ان هذا يوضح ضرورة الاهتمام بعكس هذه المظاهر ، **اى توفير ايجابيات غذائية الحمل فى كل مرحلة من مراحل التطور .**

كذلك نحب ان نشير هنا الى اثر البيئة الخارجية على نمو الجهاز العصبى المركزى وتطوره فى عجالة نبدا بها جانب انماء كل مسببات الطفولة بالى ذلك على هذا الجزء الحيوى ، والحيوى جدا من التكوين .

فالمعروف ان مراحل نضوج المخ الاساسية ثلاث ، ولو تعرض نماء المخ لاى تاثير من البيئة الخارجية وخاصة نقص الغذاء فان لذلك آثارا سيئة جدا كما يتبين من الجدول التالى :

جدول رقم ١

يبين الاوجه الثلاثة لنماء المخ وتاثير سوء التغذية فيها (٥) .

الوجه او المرحلة النمائية	المظهر النمائي	اثر سوء التغذية
(١) من التلقيح الى الولادة وتسمى Hyperplasia	استمرار زيادة عدد الخلايا العصبية	يؤثر فى انقسام الخلايا ويسبب عطبا دائما .
(٢) من الولادة حتى آخر السنة الاولى خليط من hypertrophy و Hyperplasia	زيادة فى عدد الخلايا وفى حجمها ووزنها .	يسبب عطبا واصابة دائمة قد يكون من الممكن اصلاحه جزئيا ولكن هذا امر غير مؤكد .
(٣) ما بعد السنة الاولى Hypertophy	استمرار زيادة وزن الخلايا العصبية	يكون حجم الخلايا اقل من العادى ويمكن اصلاح النقص بالاهتمام بزيادة الغذاء الملائم .

(٥) Fein, G. Greta, 1978

الحمل والغذاء وحجم المشكلة :

يتبين لنا من العرض السابق لمراحل تطورالحمل ان تأثير الظروف البيئية الخارجية يختلف باختلاف المرحلة التي يحدث فيها : فمثلاان بعض الظروف البيئية قد تسبب هلاك التكوين في ٣٠٪ من الحالات اذا حدثت في مرحلةالمضغةلشدة ضعفها ، وافتقارها لعناصرالمقاومة، وفي هذه المرحلة كذلك تكون مظاهر النقصالخلقي والتشوه الاستعدادي او الولادي اكثر احتمالا « Congenital » . هذا ونحب انشير هنا الى ان المؤثرات البيئية الخارجية لا تؤثر في الكرموزومات ولذلك فانها قد لا تنتقلالى الاجيال التالية ، ما لم تتعرض لمثل هذه الظروف .

ولعل من فضل الله على البشر ، ان المؤثرات البيئية الخارج رحمية قد لا يظهر لها اى اثر اذا حدثت بعد الاسبوع العاشر من الاخصاب ،فلا تسبب هنا اى تشويه للجنين او نقص خلقي ، الا ما قد يحدث للمخ والجهاز العصبي المركزي او العيون والاجهزة التناسلية، كما يحدث في حالات الولادة من امهات اصبن بالامراض السريةالتناسلية .

كذلك مما يجب ان نشير اليه ان النقص والشذوذ الخلقي بالولادة لا يصيب اكثر من ٥ر٢٪ من المواليد واغلبها يكون من انواع الخلل والنقصالبسيط . ففي كل ٢٠٠ مولود يولدون اصحاء تماما يولد واحد فيه علة او نقص ما ظهر عليهقبل الولادة ولم تدركه الام او المسئول عنها .

ان مرحلة المضغة تعتبر مرحلة حساسةتماما ، حيث ان الكثير من التكوينات والاجهزة الاساسية يبدا تطورها ، بل يتم بعضها في هذهالمرحلة ، وهي عملية تسير بسرعة مذهلة . والمعروف ان التطور السريع يجعل الكثير منالصفات او السمات الموروثة قد تنحرف عن جادة تطورها السوي . ولذلك فان الكائن في هذهالمراحل الدقيقة يكون اكثر عرضة واستعدادا للتاثر بالمؤثرات خارج الرحمية منالبيئةالخارجية ، التي قد لا يكون لها نفس التاثير في المراحل اللاحقة ، اى انه كما يرى Waddington* ان هذه المراحل مراحل المضغة هي مراحل الازمات التكوينية الخلقية » . اكثر المراحلحساسية للمؤثرات الخارجية Epigenetic crises .

ففي الايام التي يتطور فيها عضو بذاته ، كالقلب مثلا ، يكون لكل مؤثر من البيئة الخارجية يصل الى هذا العضو اثره الخطير في حسن تطورهوتشكله وتوصله الى الاداء الوظيفي الامثل (٦) .

كذلك نجد ان هنالك اياما وفترات مبنية(شكل ٣) تبدا فيها وبسرعة اعضاء ما في الظهور والتطور ، ويتوقف تاثير اى نقص او عجزاو ضغوط بيئية على نوع العضو النامي في هذه الفترة .

فمثلا قد وجد ان تاثير عقار الثاليدوميد« Thalidomide » وهو واحد من العديد من العقاقير المهدئة التي شاع استعمالها في الستينات تاثيره على الجنين كان واضحا تماما في اكثر

---

(٦) Waddington, 1957 (18)

من حالة . وقد ظهر من دراسات عديدة على مواليد أمهات كن يتعاطين هذا العقار أيام الحمل ما يمكن أن يكون للبيئة الخارجية من تأثير على تطور الجنين . بل ان هذه الدراسات كانت اشبه بالدراسة العملية لأثر البيئة الخارجية على تطور الجنين . ذلك انه ثبت أن تأثير هذا العقار على تطور التكوين أيام الحمل يتوقف على تاريخ تعاطيه . فمثلا أكدت البحوث انه :ـ

ـ اذا تعاطته الحامل بين الايام ٣٤ ـ ٣٨ من تاريخ الاخصاب فان الوليد يولد بدون الاذن الخارجية .

ـ واذا تعاطته الحامل بين اليوم ٣٨ ـ ٤٦ فانه يسبب عدم ظهور الاذرع أو تشوه نموها . وقد يكون له تأثير كذلك على الساقين .

ـ واذا كان تناول العقار بين اليوم ٤٦ ـ ٥٠ من تاريخ الاخصاب فانه يسبب ظهور عظام زائدة في اصبع الابهام .

وينطبق ما امكن الكشف عنه من الدراسة التتبعية لآثار تناول هذا العقار على تأثير سوء التغذية على حياة الحمل . ذلك ان التغذية تؤثر من اتجاهين :

ـ الاول كمية الغذاء ودرجة كفايته الحامل وحملها معا .

ـ والثاني توفر كيفية وعناصر معينة ضرورية في الغذاء .

ومن هذين الاتجاهين يختلف التأثير باختلاف فترة تطور الجنين وطبيعة التغيرات النمائية التي تحدث له . فكل فترة تحتاج لعناصر غذائية تختلف عن الفترة الاخرى ، سواء في كمية الغذاء او كيفيته وتوفر عناصر معينة فيه .

تحديد أثر سوء تغذية الحامل على تطور الجنين :

ثبت من دراسات عديدة أن ٦٦٪ الى ٧٥٪ من المواليد في الدول النامية يولدون من امهات يعوزهن الكفاية الغذائية قبل وأثناء وبعد الحمل . وليست حالة سوء التغذية قبل وبعد الولادة ظاهرة تضر بالكائن الجديد أثناء الحمل وبعد الولادة في الدول النامية وحدها ، بل ان هناك نفس هذه الظاهرة في امريكا نفسها .

فقد اثبتت الدراسات الاحصائية أن الكثيرات من الامهات الحوامل القادرات لا يختلفن كثيرا عن صاحبات الدخل المنخفض في هذا الامر من حيث انهن يعانين نقصا وحرمانا كبيرا من البروتين الكافي ، وذلك لان هؤلاء يكتفين فقط بالتهام أكلات خفيفة أثناء العمل ، وهي وجبات يعوزها السعرات الحرارية الضرورية اللازم توفرها للأم الحامل ، أو لانهن يعتمدن كثيرا على المشروبات الخفيفة أو أنواع « البسكويت » الملح أو يحصلن على حاجتهن من السعرات الحرارية من تناول الكحول أو بعض الدهنيات أو الكربوايدرات ، دون الاهتمام بالاغذية التي توفر لهن البروتين اللازم من اللحوم والبيض وغيرها ، كالاسماك مثلا ، كذلك دون رعاية لأهمية الخضر والفواكه في تزويد اجسامهن ، وبالتالي احمالهن من الاجنة بالحاجة الضرورية من الفيتامينات المختلفة .

كذلك لوحظ بين أبناء الطبقات الغنية فى الليبلاد العالم لمسكهن « بالحصة » أيام الحمل « الرجيم » حفاظا على القوام المشوق ، وقدتصل (٧) بهن هذه النزعة الى درجة من فقدان الشهية الهستيري Anarexio nervosa .وهذه كلها امور تحرم الحمل المتعطش للغذاء كل الغذاء ، النهم المحتاج لتنوع العناصر الغذائية ،تحرمه من توفر البيئة الغذائية وهو حبيس الظلمات الثلاث ، داخل التجويف الرحمى لاحول له ولا قوة الا من امه .

ولقد ركزت البحوث الاخيرة على تاثير سوءالتغذية بين الحوامل فى مرحلة ما قبل الولادة والشهور الست الأولى بعد الولادة ، على اعتبارانها امتداد لمرحلة الرحم ، على آثار هذه الحالة على جوانب نمو هامة اهمها : ــ

ا ــ سوء تغذية الحامل واثره على النمو العقلىللجنين :

ان الاطفال الذين يولدون بعد جو من سوءالتغذية فى المرحلة الرحمية قد لا يحققون اقصى درجات النماء الجسمى ، وقد لا يتوفر لديهمالتكوين اللازم لتحقيق اقصى درجات النمو العقلى . فقد اثبتت دراسات اجراها دايتن Daytin فى عام ١٩٦٩ ان سوء التغذية يؤثر تاثيرا مباشرا على نضوج المخ ونمائه عند الجنين ،ما دام يعتمد فى غذائه على الام الحامل ، وهى لا تمده بالعناصر أو الكميات الضرورية الغذائيةاللازمة لنماء هذا العضو الهام فى التكوين . (جدول رقم ١)

ان دراسات ذلك العالم وغيره من العلماءاثبتت ان الجنين اذا لم يحصل على القدر الكاف من الغذاء ايام الحمل فان معدل انقسام خلاياالمخ وتكاثرها الانقسامى يقل بنسبة ٢٠٪ عن المعتاد . وانه اذا كان يعانى من سوء التغذية فىالشهور الست الاولى بعد الولادة فان الانقسام الخلوى فى المخ يقل مرة ثانية بمعدل ٢٠٪ اخرىعن المعتاد . وهكذا يمكننا ان نتصور كيف يمكن ان تكون صورة الكارثة اذا اجتمع للجنين سوءالتغذية قبل الميلاد وبعد الولادة ، ولو علمنا انه فى هذه الحالة الاخيرة يقل حجم المخ بمعدل ٦٠٪عن الحجم الطبيعى) ! (٨) .

ولعل مما يزيد هذه الكارثة فظاعة ماتعلمه من ان هذا الجهاز هو من اول الاجهزة التى تتكون فى تطور الحمل كما بينا ، (شكل ٣)،وذلك لأن الحاجة اليه ملحة فى تشغيل وتنظيم عمل وتناسق وظائف ما يأتى او يتطور بعد ذلكمن الاجهزة .

ولوعلمنا ان فى وسط هذا الجزء من الجسمتتكون اهم الغدد الصماء ، التى تلعب دورا قياديا بين الغدد ، ونعنى بها الغدة النخامية« Pirustry » وهى الغدة التى تنظم عمل جميع الغدد ، كما انها هى نفسها تفرز ، وفىوقت مبكر من الحياة ، هرمون النمو او المنشط للنمو الجسمى . Soma to trophic hormane وانها تتأثر بلا شك بأى اصابة أو نقص او انخفاض فى جسم المخ ، لو تصورنا ذلك كلهلامكن ان ندرك اى جناية تجنيها الحامل على

---

(٧) غالي : محمد واخرون : (٢)

(٨) Wyden 1971

وليدها اذا حرمته وهو في احشائها من حاجته الضرورية للغذاء ؟ ! ؛ الغذاء المكتمل كما التكامل كيفا ؟ !

ان العمليات العقلية المختلفة العليا ، والوظائف الذهنية تتأثر الى حد كبير بحجم المخ ، ولعلنا جميعا نعرف الارتباط الكبير بين حجم المخ وظاهرة النقص العقلي عند من يسمون اصحاب الرؤوس الصغيرة « Microcephals » .

ولقد اجريت دراسات عديدة اجراها العلماء من امثال وايدن « Wyden » ودرايتون « Dryton » على اطفال من مواليد شيلي وجواتيمالا وجنوب افريقيا تبين منها ان الاطفال الذين عانوا من سوء تغذية الام ايام حملهم ، او سوء تغذيتهم في الشهور الست الاولى لا يمكنهم ان يعوضوا آثار ذلك من نقص الكفاية الذهنية ، ولايمكنهم ان يلاحقوا انداده‍م من العاديين في الاداء الذهني ، حتى ولو امكن امدادهم بالتعويض الغذائي فيما بعد (٩) .

ولقد تأكدت هذه الكشوف بنتائج دراسات جديدة على الاطفال الامريكيين من الذين كانت امهاتهم تعانين نقصا واضحا في كمية البروتين في الغذاء في النصف الثاني من فترة الحمل ، وهي الفترة التي تزداد فيها حاجة الجنين الى البروتين للتصنيع ، وتأكيد وظائف الاعضاء المختلفة ، وتقوية الخلايا العصبية ، خاص في الجهاز المركزي .

ولقد قورنت حالة المواليد من هؤلاء الامهات بمواليد امهات اخريات كن ايام الحمل يحظين بقدر كاف ووافر من البروتين اثناء فترة الحمل الاخيرة خاصة ، ووجد ان اطفال المجموعة الثانية كانوا يولدون ووزنهم اكبر كثيرا من اطفال المجموعة الاولى .

وعند اجراء اختبارات عقلية ، ومقاييس النمو الحركي ، وقياس نسبة الذكاء على هؤلاء في دراسات تتبعية استمرت حتى الرابعة من العمر ، وجد ان الاطفال الذين حرموا من البروتين ايام الحمل كانت حالتهم العامة اسوأ بكثير من حالة المجموعة الاخرى . فقد كانت نسبة ذكاء المجموعة التي حظيت امهاتها باللازم من البروتين تزيد عن ١٠٠ في المتوسط ، بينما كان متوسط ذكاء مواليد الامهات المحرومات ٨٤ .

وفي هذا المقام يكتب Mussen ، Konge وKagan (١٠) الكثير عن اهمية التغذية للام الحامل ، فيري هؤلاء جميعا ان الام التي تتوقع مولودا يجب ان تحتفظ لنفسها بنسبة معقولة من التغذية الجيدة اذا كانت حريصة على ولادة طفل يتمتع بدرجة معقولة من الصحة . وهذا يبدو امرا معقولا اذا علمنا ان امداد الجنين النامي من الغذاء يأتي كلية من مجارى الدم للام (شكل ١) عبر غشاء شبه كامل يقع في منطقة التبادل الدموي المشيمة Placen ta والحبل السري . ولقد قدم لنا هؤلاء العلماء تجربة اجريت لدراسة وبحث تأثير الغذاء على الجنين ، لغذاء الام ايام

---

(٩) Wyden 1971 (19) Dayton 1969 (3)

(١٠) Mussen et al 1963 p 81 (18)

الحمل . ولقد تحدد المتغير المراد دراسته بسوء تغذية الام اثناء الحمل ، واجريت التجربة على ٢١٠ من الحوامل اللاتي كن يحضرن عيادة رعاية الحوامل في جامعة تورنتو . كن جميعا يتناولن غذاء غير ملائم من الناحية الصحية ومن ناحية احتوائه على عناصر الغذاء الضرورية ، وكان ذلك في الاربع والخمس شهور الاولى من الحمل . وفي المراحل التالية اختيرت منهن تسعون امرأة من الحوامل اعطي لهن غذاء اضافي ، وكانت تغذيتهن اكثر ملاءمة لوضعهن ، اما المجموعة الباقية وعددها مائة وعشرون من الحوامل فقد استمرت حالة التغذية لديهن طوال الحمل . ولقد استطاع البحاثة في هذه الدراسة مقارنة المجموعتين لدراسة تاثير الغذاء الجيد والسيء للام الحامل على مجريات عملية الحمل وعلى حالة الوليد في الشهور القليلة الاولى بعد الميلاد.

اما عن النساء اللاتي احسنت تغذيتهن فكن ينعمن بصحة جيدة طوال فترة الحمل ، ولم يتعرضن لما تعرضت له مجموعة الحوامل اللاتي لم يحظين بتغذية جيدة ، وهن اللاتي كن اكثر مرضة لعلل فقر الدم ، والتسمم الجنيني ، وكن يتهددهن الاجهاض او الحمل الخاطيء (خارج الرحم) . والولادة المتيسرة ، او ولادة الاجنة الميتة ، وحتى التي شاعت في حالات السيدات من المجموعة الثانية بفروق ذات دلالة واضحة عن مجموعة الحوامل جيدات التغذية . وقد استطاعت السيدات اللاتي تمتعن بالغذاء الجيد ان ينتهين من الوضع في وقت اقل من المجموعة الاخرى بمتوسط خمس ساعات ، ناهيك عن تكرار تعرض الامهات سيئات التغذية للالام الشديدة في الظهر والبطن ايام الحمل .

اما عن المواليد فقد تبين من الدراسة والمتابعة وجود فروق هامة فقد كان مواليد الامهات اللاتي تمتعن بالغذاء الجيد ينعمن بصحة افضل خلال الاسبوعين الاولين بعد الولادة . كذلك كانت معدلات الاصابة بالامراض الخطيرة بينهن اقل ومنها (الالتهاب الرئوي ، والتيتانوس ، وفقر الدم ولين العظام) ، كذلك كانوا اقل مرضة للامراض الخفيفة خلال الاشهر الستة الاولى من الميلاد (ومنها نزلات البرد والالتهابات الشعبية) .

وفي دراسة اخرى على الف جانح من امهات لم ينعمن بالغذاء الملائم (١١) وجد في نسبة كبيرة منهن حالات الولادة الميتة ، والمتيسر ووفيات الاطفال بين هؤلاء المواليد الذين كانت امهاتهم لا تنعم بالغذاء الملائم . كذلك وجد ان حسن تغذية الام التي ترضع ابنها في الشهور الاولى كان يساعد تماما على نقص حالات وفيات الاطفال في الاسبوعين الاولين . كما ان الدراسة بينت ان نقص البروتين في غذاء الام كان يرتبط كثيرا بحالات الولادة المتيسرة ، ويسبب ايضا اشكالا من النقص العصبي للمواليد .

---

(١١) قام بهذه الدراسة العالمان Glueck & Glueck عام ١٩٧٥
ونشرت في مجلة Clinical Research Advances in human growth and Development.

ان نتائج الدراسات جميعا تؤكد ان الجنين يستمد حاجاته الغذائية من الام قبل ان تحصل هي على حاجتها من هذه العناصر الغذائية ، ولذلك فهو يستهلك قدرا كبيرا من مخزون الغذاء لدى الام . فاذا كان هذا المخزون يتناقص الى درجة القصور الكبير لدى الام الحامل ، فان الجنين لن يتحقق له الحصول على العناصر الغذائية الضرورية .

ويؤكد Mussen (١٢) ان الادلة عديدة على صحة الفرض القائل بان النقص الحاد فى غذاء الام الحامل قد يسبب التاخر العقلي للطفل ذلك انه فى جميع الكائنات الحيوانية يوجد غطاء من الدهن يكسو الألياف العصبية Myelin وهذا الغشاء لا يتكون ، بل انه يتهتك اذا تعرض الجنين لسوء التغذية فى فترة تكون هذا الغشاء الدهني . والجنين البشري يبدا تكوين هذا الغشاء فى الشهر السابع من الحمل ، ولهذا فانه من الممكن فى مرحلة الجنين ، اذا لم يتوفر له الغذاء الكافي بسبب سوء تغذية الام ، ان يتعطل لديه تكوين هذا الغشاء . هذا النقص قد يؤدي الى تعطل تطور وظيفة المخ وبالتالي قد يؤدي الى تاخر النمو العقلي ، ناهيك عن تعريض كثير من الالياف العصبية للالتهابات .

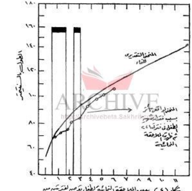
واذا كنا نشهد ظاهرات نقص التغذية بين الامهات الحوامل فى كل دول آسيا تقريبا ، وافريقيا وامريكا اللاتينية ، فان ذلك قد يهدد هذه المجتمعات بزيادة المواليد الذين يتعرضون لتلف المخ فى فترة الحمل وهم اجنة فى بطون امهاتهم ، ولذلك فعلى المؤسسات الصحية المحلية بل والعالمية استدراك هذا النقص ورعاية غذاء الامهات حتى لا تصاب البشرية جميعا ، بزيادة نسبة من يعانون من التاخر العقلي ، خاصة وان هذا العامل يمكن التحكم فيه ، وهذا يكلف الدول والمجتمعات اقل كثيرا مما تتكلفه هذه المؤسسات لعلاج وتحمل مسئوليات هذه الولادات المشوهة عقليا .

كيف يؤثر سوء التغذية على المخ ؟ :

هذا سؤال يتبادر الى ذهن كل باحث ، بل لقد اثار هذا السؤال بحوثا عديدة فى تطور نمو المخ عند الكائنات وخاصة الانسان . ولقد اصبح من الممكن الان ـ وبعد تطور علوم النيورولوجيا فى دراسة الخلايا العصبية ـ الاجابة على هذا السؤال بشكل افضل . لقد انكر العلماء قديما اثر الغذاء على مخ الانسان واكتفى الفكر النفسي وعلوم الاحياء بالاهتمام بتاثير الغذاء على طول القامة ووزن الجسم ، وربما محيط الجمجمة . ولقد كانت هذه وحدها المقاييس التي اهتم بها العلماء كادلة على سوء التغذية ، وكانت مع ذلك مقاييس تقريبية عرضة لكثير من الخطأ الى حد ما ، بل احيانا لم تكن لها دلالة كبيرة نظرا لتعدد العوامل التي قد تؤثر فيها ، ومنها الوراثة والامراض وغيرها . فهناك بعض المواليد يكونون على العموم صغار الحجم بالوراثة ، او بسبب الاصابة بمرض معين ، او بسبب الاضطراب فى الكروموزومات ، او اضطراب افراز الغدة الدرقية مثلا ، دون ان يكون للتغذية دور يذكر فى حجم الجسم .

---

(١٢) Mussen et al : Idid 1963



شكل (٤) يبين الملاحقة النمائية لطفل تعرضه لفترتين من فقدان الشهية العصبي Anorexia Nervosa

اما اليوم فان التقنية الحديثة قد مكنت العلماء من دراسة وقياس معدلات النماء لا عن طريق مجرد حجم الجسم ولكن بتحديد عدد وحجم الخلايا العصبية المختلفة ، او الخلايا الاخرى المكونة للعضو موضوع القياس والدراسة. ولقد ساعد هذا الانجاز العلمي الكبير على دراسة وفحص وقياس حجم خلايا المخ عند الانسان .

ولكي نجيب على سؤالنا هذا ، السابق التقديم به لهذا الجزء الخاص بآثار سوء التغذية على نمو المخ ، لا بد من ان تتتبع الصور المختلفة التي تأخذها عملية النماء لهذه الخلايا . ان الخلايا في المخ تزداد عددا من طريق الانقسام الخلوي ، اي ان الخلية تتكاثر وذلك بانقسامها المستمر الى خلايا عصبية تتضاعف يوما بعد يوم ايام نمو الجهاز العصبي المركزي في الحمل ابتداء من الاسبوع الثالث تقريبا . كذلك يزيد حجم الخلية المخية يوما بعد يوم . اذا هناك نماء عددي ونماء حجمي او كمي معين . ولقد استطاع العلماء ان يميزوا ثلاث مراحل او اوجه لتطور المخ ونمائه : (راجع جدول رقم ١) .

١ ــ ففي المرحلة الاولى ، قبل الولادة تزيد خلايا المخ في عددها من طريق الانقسام الخلوي.

٢ ــ وفي المرحلة الثانية بعد الولادة مباشرة وخلال السنة الاولى من عمر الوليد تستمر عملية الزيادة بالانقسام الخلوي ، كما تبدأ الزيادة من طريق كبر حجم الخلية الواحدة وتسمى هذه العملية Hyertrephy hyperplasia

٣ ــ وتبدأ المرحلة الثالثة بعد السنة الاولى حيث يزداد حجم المخ عن طريق استمرار زيادة حجم ووزن الخلايا العصبية فقط ، وتستمر هذه العملية الى ان يصل حجم المخ الى ما يقرب من حجمه عند الراشدين بنهاية السنة الثانية من عمر الوليد تقريبا Hypertrophy

ويضيف بعض العلماء في هذا المقام مرحلة رابعة وهي مرحلة تكون ارتباطات عصبية بين الخلايا المختلفة في المخ ، وهي العملية او المرحلة الهامة والضرورية لاحداث عملية التعلم والارتباط الشرطي ، وهي مرحلة قد تستمر الى نهاية مرحلة النماء العضوى او الى اقصى درجاته . (١٣)

هنا تعود مرة ثانية للاجابة من سؤالنا الذي يفرض نفسه دائما وهو ما تاثير سوء التغذية على نمو المخ !!

ان الاجابة على هذا السؤال لا بد ان تأخذ في الاعتبار الزمن او الوقت الذي تحدث فيه حالة سوء التغذية . ففي المرحلتين الاوليين ــ قبل الميلاد والسنة الاولى من عمر الوليد ــ تؤثر حالة سوء التغذية ونقص العناصر الضرورية لنماء الجهاز العصبي المركزي في سرعة انقسام الخلايا ، بحيث يولد الطفل الجنين وفي جمجمته عدد اقل من المعتاد من الخلايا العصبية التي تكون المخ لدى من تحظى امهاتهم ايام الحمل بالغذاء المناسب .

---

(١٣) Wyden 1971 Ibid. (19)

هنا يقول العالمان الشهيران مايرون ...... Myron ووتش "Witch" وهما من الرواد الاوائل فى دراسة نماء المخ وتطوره « ان المخ لا يمكن ان تتوفر له فرصة اخرى اذا فاتته فرصة التكاثر عن طريق الانقسام الخلوي فى مرحلة الجنين ، ذلك ان عملية التكاثر فى الخلايا تتوقف فى وقت واحد عند كل من الفئتين من الاجنة ، فئة من يحظون بنعمة الغذاء الجيد للام الحامل وفئة من يقاسون نقص التغذية لدى الامهات الحوامل . (١٤)

وكذلك يلاحظ ان السنة الاولى من حياة الوليد ، وهي تكاد تعتبر امتدادا للمرحلة الرحمية ، تتأثر بالغذاء ، لان نقص الغذاء يعطل عملية النماء فى صورة زيادة حجم الخلايا العصبية، وهو امر يصعب تداركه كذلك .

الا انه بعد السنة الاولى من الميلاد ، أي من عمر الوليد فان سوء التغذية قد يؤدي الى نقص حجم ووزن الخلايا بالمخ ، وهذا نقص يمكن تصحيحه بالتغذية الملائمة بعد ذلك . ذلك ان الدراسات المتعددة فى موضوع النمو النفسي قد اثبتت ان الاطفال يمكنهم ان يلاحقوا فى نمائهم وبسرعة مذهلة بعد فترة من سوء التغذية ، ذلك ان النماء ، بعد ان يحظى الطفل بظروف تغذية افضل يزيد معدله بصورة ظاهرة وبسرعة تجعلهم يصلون الى المستوى المعياري الطول والوزن فى حدود العوامل الوراثية لديهم ، وهذا ما يعرف بظاهرة اللاحقة النمائية ، كما سنشرح ذلك فيما بعد .

هذا امر يصدق بعد الميلاد ولكن ذلك يصعب تماما اذا حدثت نتائج سوء تغذية الام الحامل ايام الحمل فان الجنين يلاحق حتى لو تحسنت ظروف التغذية بعد الولادة ، وخاصة فيما يتعلق بالنماء الخلوي العصبي فى خلايا المخ بالذات وهي التي لا تستطيع ان تحقق ظاهرة اللاحقة النمائية بعد الولادة .

اللاحقة النمائية : "Developmental catch up"

اللاحقة النمائية ظاهرة تعتبر من اهم واوضح امثلة الاتجاه النمائي فى الاجهزة المختلفة لدى الكائن البشري ، ويقصد بها انها عملية تنظيم ذاتي فى سير الفقرات النمائية ، بمعنى ان الكائن البشري يستطيع بسرعة ان يعوض ما فاته من نماء فى حياته اذا تحسنت الظروف وزالت العوامل المعطلة للنمو ، والا تعرض لما يعرف بالهوة النمائية او التخلف النمائي او ما يعرف باسم ...... Developmental Lag

وهنا يهمنا كيف يمكن ان تظهر هذه الظاهرة مع متغير نقص او سوء التغذية . فالاطفال الذين يعانون نقصا فى الغذاء يتعثر نموهم بصورة عامة ، ولكنهم اذا استعادوا حاجاتهم المناسبة من الغذاء ، فان معدلات النمو تكون اسرع من متوسط معدلات نمو العاديين من انداهم فى السن ، وذلك يحدث للجهاز او الوظيفة او العملية الحيوية التي تأثرت بسوء

(١٤) Ibid Wyden 1971 P. 93

التغذية . هذا الاسراع الواضح في معدل النمو والتطور والنماء يستمر حتى يقترب الكائن من وضعه الطبيعي في المنحنى الاعتدالي للنمو عند الامتداد من نفس السن ، وهو المنحنى الذي يتأثر وضع الفرد فيه بعوامل الوراثة وغيرها ، من يحدد ما نسميه مستوى اكتمال النضج وحدوده Maturity والذي يختلف من سن لآخر ، ويختلف كذلك بسبب عوامل ترجع لفروق فردية .

وللدلالة على ان ظاهرة اللاحقة النمائية تعتبر ظاهرة ذات فعالية كبرى في مواقف معينة نسوق هذا المثال : ـ

فقد تعرض طفل لمجاعة غذائية في فترتين بسبب اصابته بمرض عصابي هو فقدان الشهية الهستيري Anorexia nervosa وهو اضطراب يجعل الفرد يرفض الطعام كله احيانا او اطعمة معينة احيانا اخرى . ولقد تبين من دراسة حالة هذا الطفل « راجع شكل ٤ » ان منحنى نمو هذا الطفل كان يلاحق في آخر كل مرحلة حتى يصل الى مستوى المنحنى العادي لامثاله ، بعد ان تزول حالة نقص السكر في الجسم .

ولقد لاحظ العلماء ان عملية النماء وما يظهر فيه من اللاحقة تشيع لدى الاطفال الذين يعانون اضطرابا في الهرمونات . وكذلك في الاطفال الذين يعانون من آثار سوء التغذية بعد الولادة ، وحتى في الاطفال الذين يولدون ولديهم حاملات الوراثة التي تؤهلهم لطول القامة ، مع اخرى تورثهم نزوعا لقصر القامة ، فهؤلاء يشفون مما قد يرثونه من ميل لقصر القامة الموروث عن الام القصيرة من طريق ظاهرة اللاحقة النمائية ، هؤلاء جميعا يكون نماؤهم ظاهرا واضحا ويسير بمعدل اكبر خاصة في السنة الاولى ، بل اكثر واكثر من المتوسطين في الشهور الستة الاولى بعد الولادة . (١٥)

هذا وعملية اللاحقة كظاهرة نمائية لا تكون كاملة تماما . فقد دلت التجارب على الفئران على انه اذا تعرضت للتجويع بعد الولادة اعطيت لها بعد ذلك حرية كاملة في تناول الغذاء او اعطيت كميات اكبر من الغذاء .

ان ظاهرة اللاحقة النمائية في موضوعنا هذا تثير الكثير من التساؤلات ولعل اهمها ؟!

١ ـ لماذا تحدث هذه الظاهرة على العموم ؟!

٢ ـ ما الذي يجعل النماء يبطىء عندما يصل الانسان الى مستوى المعدل العادي كما يظهر في منحنى النمو ؟

٣ ـ لماذا تكون عملية اللاحقة غير كاملة عندما تحدث آثار سوء التغذية في فترات حرجة من عمر الكائن البشري واهمها مرحلة ما قبل الميلاد والشهور الستة الاولى من العمر بعد الولادة ؟!

---

(١٥) Tanner, 1973. (17)

لا تبدو الاجابة على هذه التساؤلات واضحةتماما لدى كثيرين من العلماء . ثم أنه يزيد المسألة تعقيدا ما يلاحظ من ان ظاهرة اللاحقةالنمائية تؤثر في الجهاز او العضو الذي تخلف عن النماء كله ، بل ربما يمتد اثرها لغير الجهازاو الوظيفة او العضو الذي حدث فيه الخلل ، ثم اعقبه ظاهرة اللاحقة النمائية . هذا ولقد حاول بعض العلماء ان يجيبوا على هذه التساؤلات بما جاء في بعض دراساتهم مما يؤكدان للقدرة التعويضية لبعض الغدد الصماء دورها في ابراز هذه الظاهرة ـ ظاهرة اللاحقة النمائية ـ ذلك ان القصور أو التعطل في بعض جوانب النمو قد يثير مزيدا من افراز غدة من الغدد الصم تساعد على اتمام اللاحقة النمائية ، حين تزيد سرعة المعدلات النمائية . (١٦)

اختلاف التوافق الزمني واثر ذلك على نمو المخ :

هناك نظرية جديدة توصل اليها العالمتانر Tanner (١٧) الذى استمر في دراساته للموضوع من عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢ ، وهى نظريةتساعد على تفسير ظاهرة اللاحقة النمائية . فهو يرى انه مالن يصل المخ والجهاز العصبي المركزى كله في نموه وتطوره الى نقطة معينة ، وربما بنهاية الشهر الثالث بعد الاخصاب حتى تتراكم مادةمعينة ذات طبيعة دهنية على جدران خلايا هذا الجهاز التى تسير في نمائها بدرجة وحسب منحنى معين . وهذه المادة القرضية تعطى الجهاز العصبي الوقت او التوقيت الانسب للنماءالعصبي الكلي ، وهي تختلف في كميتها وتركيبها من فرد الى فرد . وهو يرى ان الحجم الحقيقيلجسم الكائن في مرحلة ما من مراحل نموه قد يدل عليه ويمثله مادة اخرى تنتجها خلايا هذاالجسم . وبمعنى آخر فانه كلما توفر للكائن من الغذاء ما يزيد وزن جسمه كلما توفر له قدرةاكبر على افراز هذه المادة الثانية في جسمه .

وبمعنى آخر فانه اذا تعرض الجنين اوالطفل في مراحل معينة حرجة من نموه لاى نوع من انواع المجاعة نتيجة نقص التغذية او الجوع، او غير ذلك من اشكال الحرمان البيئية ، فان حجم جسمه الواقعى يكون اقل كثيرا مما يجبان يكون عليه حسب منحنى النمو الطبيعى لامثاله . وبذلك يقل حجم المواد اللازمة للمساعدة علىنموه والمحافظة علىخلايا الجهاز العصبيالمركزى.

ونظرا لانه حتى ولو زالت اسباب هذهالحالة من المجاعة ، فان النماء لايسير بنفس السرعة المطلوبة التى تصل بالكائن الى المستوىالعادى للاطفال بعد نفس سنه ممن يعيشون في ظروف بيئية غذائية افضل . فقد تبين انه اذاأحدثت حالة مجاعة ما تأثيرا على الجنين فيمرحلة النماء السريع المخ والجهاز العصبى المركزى ،حين تكون هذه الاجهزة نفسها واقعة تحت تأثير مظهر تمائى سريع جدا عن طريق الانقسامالخلوى ، فان اللاحقة النمائية الزمنية التى يمكن ان تولدها طاقات المخ ليستعيد قوته تتأثر بشكل ظاهر ولا تكون لها فعالية كاملة تماما .

---

(١٦) راجع في قالي واخرون الوظيفة التعويضيةللغدد وخاصة الغدد الجنسية وبالاخص المبيضين .

(١٧) Tanner 1973 - Ibid (17)

ان فشل اللاحقة النمائية هنا تعنى ان هناك نقصا ما فى التقدم الطبيعى للطاقة النمائية الموروثة فى المخ . فاذا كان النقص فى الغذاء او كانت حالة المجاعة غير حادة او طويلة الامد او الاثر ، فانه عندما يزول سببها ، فان مخطط النمو يعود الى مجراه الطبيعى عن طريق آلية اللاحقة النمائية . اما اذا كان النقص حادا ، او طويل المدى والاثر ، فان هذا يؤدى الى تعطيل اللاحقة النمائية الزمنية ، ويأخذ النمو طريقا آخر ينجو به نحو النقص او عدم الكمال غالبا . وهذه الحالة تشيع كثيرا فى فترات النماء الخلوى للمخ التى سبق ان اشرنا اليها .

نقص الوزن واثره فى نمو الطفل :

بناء على هذا فاننا نجد من النتائج الشائعة لسوء تغذية الام الحامل نقص وزن المولود عند الولادة . ولقد كان العلماء قديما ـ والى عهد قريب ـ يسلمون بان المواليد الذين يزنون اقل من ٥ر٥ رطلا عند الولادة (٥ر٢ كيلو جراما) كانوا يعتبرون مواليد من ولادة مبتسرة Premature birth او انهم ولدوا ناقصى اكتمال النضج ايام الحمل . اى بمعنى آخر انهم ولدوا قبل مرور ٣٧ اسبوعا من الحمل . الا ان ابحاثا كثيرة قام بها العلماء فى الستينات اثبتت ان الكثير من الاطفال الذين ولدوا فى تلك الايام ناقصى الوزن ، كان مالا يقل عن ثلث عددهم قد اكملوا ايام الحمل الى آخر اسبوع ، ولكنهم عانوا اثناء الحمل من آثار نقص تغذية الام الحامل وتأثروا لذلك من سوء تغذيتهم داخل الرحم .

ان نقص الوزن الناجم عن سوء التغذية يختلف تماما عن نقص الوزن الناجم عن الولادة المبتسرة ، او قصر مدة الحمل ، فهما ظاهرتان متشابهتان فى مظهرهما مختلفتان فى اسبابهما . ولهذا يطلق على الاطفال الذين يولدون ناقصى الوزن مع اكتمال مدة الحمل Low birth weight infants . اما الذين يولدون قبل الاسبوع السابع والثلاثين من الحمل فانهم يطلق عليهم اسم Short gestation period infants S.G.P.I. .

ولقد حدد العلماء الاوزان المعيارية لكل مولود فى اى لحظة يولد فيها بعد عملية الاخصاب . وهنا تتضارب الآراء بين آراء اطباء النساء والولادة وبين اطباء الاطفال عن الوزن الامثل للجنين فى مراحل تطوره داخل الرحم ، ولكنهم على العموم يحددون سن الجنين ومن الحمل عند الولادة بعلامات عديدة منها لون الجلد وصبغته ، وشكل الاذن وتكوينها كذلك بعض الخطوط التى تظهر على كعب الوليد فى شكل تجاعيد ، وغير ذلك من المقاييس العصبية ومنها وضع الوليد عند الولادة وطريقته فى النوم وكذلك سرعة انثناء الرسغين والكعبين والعودة الى وضعهما . ولهذا فان اى وليد يولد فى اى لحظة من اوقات الحمل يمكن تحديد مركزه بالنسبة لعمره الجنينى ، وهل هو عادى الوزن ام اقل . او اكثر من المعتاد .

لقد تأكد ان هناك اهمية عملية للتفرقة بين نقص الوزن لسبب الولادة المبتسرة ونقص الوزن عند الميلاد لسبب سوء التغذية ، ذلك لان لكل منها اجراءات معينة وطرق رعاية تبدأ بعد الولادة مباشرة لتحقيق اللاحقة النمائية .

فقد يحتاج المواليد نتيجة ولادة مبتسرة الى التغذية بالحقن الوريدى ، والى المعينات الضرورية لضمان التنفس السليم ، اما اولئك الذين يولدون فى حالة نقص الوزن بسبب سوء التغذية فانهم يعانون من نقص سكر الدم Hypoglycemia ، وهذه الظاهرة تؤثر كثيرا فى الخلايا العصبية ، ذلك لان الخلية العصبية تعتمد فى حياتها على القدر الكافى من البروتين وكذلك المواد السكرية والكربوايدراتية التى تمنع احتراق الخلية نفسها . لذلك فان هذه الحالة تجعل هؤلاء المواليد يتعرضون لتلف فى خلايا المخ اذا لم يتم حقنهم فورا وبمجرد الولادة بكميات من الجلوكوز . لهذا يعتقد العلماء ان الاهتمام بمن يولدون ناقصى الوزن بسبب سوء التغذية ، ورعايتهم الغذائية بعد الولادة مباشرة ، قد يقلل وفيات مثل هؤلاء المواليد بنسبة ٥٠٪ وربما كان لهذا كله اثره الطيب فى استبعاد حوادث تلف المخ وما يترتب عليه من نقص الكفاية او الكفاءة العقلية اذا تمت الملاحقة النمائية .

وعلى اية حال ، فانه بالرغم من كل ماتقدم من الرعاية التى يمكن ان تقدم للمواليد ناقصى الوزن بسبب سوء التغذية ، فان هؤلاء الاطفال يعانون كثيرا من الاضرار فى نمو وتطور قواهم العقلية لدرجة قد تعرضهم للضعف العقلى . فقد دلت الابحاث على انه لاتوجد علاقة تذكر بين الولادة المبتسرة وبين النمو العقلى فى ايام الطفل المبكرة الا ان الدرسات التى قام بها علماء من امثال وليامز وديفز (١٨) عام ١٩٧٤ على مواليد عام ١٩٦٠ قد اظهرت ان الاطفال الذين ولدوا فى تلك السنة (١٩٦٠) وكان وزنهم عند الولادة اقل من المتوسط كان متوسط نسبة ذكائهم ٩٢ ، بينما كان متوسط نسبة ذكاء من ولدوا فى نفس السنة وكان وزنهم عند الميلاد فى حدود المتوسط ٩٦٫٢ . كما انه كذلك اثبتت دراسات اخرى ان متوسط وزن المخ لدى الاطفال الذين يولدون قبل الموعد المنتظر العادى او الذين يولدون ناقصى الوزن كان اقل من المعتاد بصورة ذات دلالة واضحة ، مما يدل على ان عملية النماء الضرورية بالمخ لم تحقق القدر الكافى من الانقسام الخلوى او زيادة وزن المخ . (١٩)

دراسات احصائية لتدعيم الآراء النظرية فى تاثير سوء التغذية : ـ

ان حجم مشكلة المواليد ناقصى الوزن تختلف من دولة الى دولة وذلك لاسباب ثقافية حضارية ترتبط الى حد كبير بالوضع الاقتصادى لهذه الثقافة وتؤثر بالتالى فى حالة الام الصحية ، كما تؤثر فى مدى تحقيق انسب الغذاء لها ايام الحمل . وفى دراسة عبر الثقافات ظهرت الحقائق التالية : ـ

ـ فى الولايات المتحدة كانت نسبة المواليد ناقصى الوزن ٧٫٤٪ من المواليد الاحياء (وزن ٥٫٥ رطل ٢٫٥ كيلو) احصائية ١٩٧٥ .

---

(١٨) Francis Williams & Davies 1974 (6)

(١٩) Hill 1975

ـ في المناطق الفقيرة من الهند وقرى جواتيمالا كانت النسبة ٤٠٪ او اكثر من المواليد الاحياء .

وفي جميع بلاد العالم تتأثر نسبة المواليد ناقصي الوزن بعوامل اجتماعية اقتصادية « Socioeconomic »

ـ فمثلا في امريكا نجد ان نسبة المواليد ناقصي الوزن بين غير البيض ١٣٫١٪ من المواليد الاحياء .

وهؤلاء بالطبيعة يعيشون ضغوطا اقتصادية من نوع او آخر .

ـ بينما نجد ان نسبة المواليد ناقصي الوزن بين البيض ٦٫٥٪ .

ـ وفي الشعوب والسكان الذين يعانون قسوة الفقر المدقع نجد ان المواليد ناقصي الوزن تزيد نسبتهم بين مواليد الامهات القصيرات القامة .

ـ ان الوزن المنخفض عند الولادة يرتبط كثيرا بنسبة الوفيات بين الاجنة ، وحديثي الولادة ، ففي الشعوب التي ترتفع فيها نسبة اي من هذه الانواع ، ترتفع النسب الاخرى .

ان زيادة وزن الجنين تعطيه فرصة اكبر للعيش والحياة ، سواء في لحظات الولادة او بعد الولادة . والوزن الامثل طبعا هو ٨ ارطال (٣٫٦٣ كجم) .

فقد وجد ان نسبة الوفيات بين المواليد الناقصي الوزن (اقل من ٥ ارطال او ٢٫٥ كيلو) هي ٥٨ في كل الف من المواليد من هذه الفئة . وهذه النسبة تصبح ٢٠٧ اذا نقص وزن المولود عن ٢٫٠ كيلو ، وهذا ما ابرزته تقارير مكتب الاحصاء في امريكا عام ١٩٧٥ . كذلك دلت الدراسات التي اجريت في بلاد غرب اوروبا على نسبة الوفيات قبل الولادة وبعد الولادة مباشرة على انها كانت ترتبط الى حد كبير بتوافر اعداد المواليد ناقصي الوزن . ولعل من الغريب ان اغلب الوفيات من هذا النوع كان يرجع الى الضعف العصبي الشديد او تلف المخ الشديد ، او الالتهاب العصبي بسبب تأخر تطور الغشاء المبطن لحماية الالياف العصبية .

وفي السويد مثلا ، وبلغاريا ، حيث وجد ان ٥٪ من المواليد كان وزنهم اقل من ٥٫٥ رطلا عند الولادة كانت هناك حوالي ٢٠ حالة مولود ميت في كل الف من المواليد الاحياء . وفي المجر حيث كانت نسبة المواليد ناقصي الوزن تصل الى ١٠٪ كانت نسبة المواليد الموتى ٣٥ في كل الف من المواليد الاحياء .

وهذا ما ابرزته تقارير منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٢ .

هكذا نجد ان وزن المولود امر هام لعدة اسباب : ــ

ــ فبالاضافة الى انه يرتبط بتحسين فرص البقاء ومقاومة العلل والادواء بعد الولادة .

ــ فانه كذلك يعتبر دليلا جيدا للتنبؤ بالنمو السليم عامة ، جسميا وذهنيا .

ــ وهو كذلك يرتبط بالكثير من ادلة النمو السليم كالطول ومحيط الجمجمة وحجم المخ ، والنمو العقلي والمعرفي بالتالي .

ــ وهو يعني فيما يعني ان الجنين قد تحققت له فرص تغذية افضل أيام الحمل بما يرجح ان يكفل نماء الجهاز العصبي المركزي بصورة افضل .

نقص الوزن عند الولادة واثره على النمو العقلي :

لقد دلت الدراسات التي اجريت في البلاد التي يعاني سكانها النقص الحاد في الغذاء على ان نقص وزن الوليد من الامهات اللاتي يعانين سوء التغذية ــ يعتبر من العوامل الهامة في تواتر ظاهرة التاخر العقلي .

ففي احدى المدن المكسيكية دلت الابحاث على انه كلما صغر حجم الطفل بالنسبة لسنة كلما نقصت درجاته في اختبارات القدرة على التعلم واختبارات السلوك الاخرى .

وفي بحث اجرى في قرية مايان Mayan الهندية ، حيث وجد ان اغلب الاطفال في سن ماقبل المدرسة (قبل السادسة) يبدو عليهم التاخر الواضح في النماء الجسمي ، تاكدت هذه الحقيقة بصورة واضحة . فقد كان يطلب الى الاطفال تادية ثلاثة من الاختبارات لقياس قدرتهم على اكتساب المعرفة المتكاملة من حواس عديدة ، وفي هذه الاختبارات كان أداء الاطفال ذوي الاجسام الصغيرة الحجم اسوا من غيرهم دائما وبصورة واضحة .

وهنا يجب ان نشير الى حقيقة هامة ، وهي ان نتائج مثل هذه الاختبارات كانت تعتبر صادقة فقط عندما كان صغر حجم الطفل يرجع الى سوء التغذية L. b. w. I

وفي مدينة جواتيمالا ، وبين اطفال الطبقة العليا والوسطى حيث صغر حجم الاطفال يرجع لاسباب وراثية او بسبب جينات معينة من الموروثات اكثر منه الى سوء التغذية ، وجد انه لايوجد ارتباط يذكر بين صغر حجم الطفل وطول قامته من جهة ، وبين انخفاض مستوى قدراته العقلية او نموه العقلي المضطرب .

ان النتائج التي تترتب على سوء تغذية الام الحامل اثناء الحمل تزداد عمقا : في اثرها في نمو الطفل العقلي بسبب الظروف البيئية التي قد تعمق هذا الاثر . ومنها ظروف حياة الطفل وتغذيته بعد الولادة مثلا .

كذلك نلاحظ ان الاوضاع الاجتماعية هي عوامل لايمكن فصلها فصلا تاما عن العوامل البيولوجية في التاثير واحداث ما يعرف بتاخر النمو العقلي . ذلك ان الاسر التي يتوافر

فيها سوء تغذية الام والاطفال تميل لان تكون من تلك الاسر التي لاتحظى بالقدر الكافي من الرعاية الصحية او النظافة ، وهي غالبا أسر كبيرة الحجم ، وغالبا ما يكون الآباء ممن يعوزهم القدر الكافي من العلم والثقافة . وبالرغم من انه يصعب أن نميز أو نفرق بين أثر سوء التغذية وبين تأثير غير ذلك من العوامل او من الظروف البيئية المختلفة المتعددة المتنوعة ، الا أن هناك حقيقة تبرز واضحة في كل الدراسات : وهي ان النتائج السيئة المتعددة التي تترتب على سوء التغذية بأيام الحمل تزداد سوءا بسبب البيئة الفقيرة التي يعيشها الطفل فيما بعد ولادته . فالاطفال الذين يقاسون من العاملين معا ـ سوء تغذية الام أيام الحمل ، وسوء الظروف البيئية ـ انما يتعرضون لخطر يتضاعف تأثره وأثره باستمرار ، وهو خطر مزعج فاحش مدمر للقوى البشرية ، وذلك لانهم لا تتوفر لهم غالبا عوامل تحقيق الملاحقة النمائية ، ولو انها تكاد تكون فرصا غير مؤكدة .

هذا وبالنظر الى تعدد أسباب تأخر النمو عامة لدى الاطفال ، والنمو العقلي خاصة ، لتعدد هذه العوامل وتداخلها وتراكبها ، فاننا ننصح بمايلي كوسيلة لوقاية الاطفال من أسباب تأخر نموهم العقلي بصورة خاصة وهي : ـ

ـ تحسين الظروف المدرسية الصحية والغذائية والتعليمية خاصة في المراحل الاولى .

ـ نشر الثقافة الصحية والغذائية بين الآباء وخاصة الامهات الحوامل .

ـ توفير التموين الغذائي المناسب لكل من الام الحامل والمواليد في أول أيامهم .

ـ تحسين القيمة والنظام الغذائي للام الحامل في الاسرة والعمل وذلك للتقليل من حالات المواليد الموتى ونقص وزن المولود .

ـ توفير الظروف الصحية للأم الحامل في المنزل وخارجه .

هذا وفي هذا المجال ، مجال أثر تغذية الام الحامل لدينا دليل ملموس مما حدث في بريطانيا خلال الحرب العظمى الثانية عندما بدأ فيها نظام الحصص الغذائية بالبطاقة وهي « تجربة طبيعية ميدانية حية » توضح تماما تأثير الاهتمام بالتموين الغذائي الانساني للحوامل . فقد جاء في التقرير الذى أصدره مجلس البحوث القومي البريطاني سنة ١٩٧٠ ص ١٢٢ ـ ١٢٤ ما يأتي : ـ

« في اطار نظام الحصص الغذائية أعطيت أيام الحروب أولوية خاصة للنساء الحوامل في الحصول على حاجتهن من الغذاء ، وخاصة من حيث مستوى الغذاء اللازم في كميته وجودته ، وخاصة أولئك اللائي كن من أسر ذات دخل مادي منخفض ، وكان هذا الامر موضع اهتمام المسئولين بصفة خاصة تماما . لهذا كله انخفض معدل الوفيات بين الاطفال او المواليد الموتى الذى ظل ثابتا فترة طويلة على مستوى ٣٨ في كل ١٠٠٠ من المواليد الاحياء انخفض الى ٢٨ في كل ١٠٠٠ في الفترة التي كانت بريطانيا تعاني فيها من التدهور الشديد في كثير من نواحي الحياة المادية ، وهذا الانخفاض الذى بلغ ما يقرب من ٢٥٪ يعتبر تحسنا جيدا يدل على أثر الاهتمام بتغذية الام الحامل في تحسين مستوى المواليد صحيا » .

ولقد اكدت دراسات العالم شوفيه "Chavez" وآخرين ، وهى دراسات اجريت عام ١٩٧٤ على بعض مدن كولومبيا والمكسيك ان الامدادات الغذائية الاضافية للحوامل والاطفال الحديثي الولادة قد ادت الى تحسن ملحوظ فى نمو الاطفال العقلي ، وكذلك فى اتجاهات الآباء نحو تقبل الابناء ، والابناء نحو الآباء ، وبالتالي فى نموهم الاجتماعي عامة . (١٩)

وهكذا تؤكد نتائج الدراسات المتعددة والمتداخلة بقوة ان تحسين التغذية الامومية له اثر ايجابي على المواليد . وعلى اى حال فان صحة الحامل والجنين لاتتاثر وتاخذ صورتها المزهرة بتحسين الغذاء اثناء الحمل فقط بل ايضا بالحالة الصحية التي تكون عليها الام قبل الحمل . وهنا يؤكد العالم مريل ريند "Merrill's Rend" وهو الذى عمل مديرا لمشروع « النماء والتطور » الذى تبناه « المعهد القومي لصحة الطفل والنمو الانساني » ان رصيد الام من الغذاء الذى يجب ان يتوفر لها ليكفي لامداد حملها من الجنين ،لا يمكن ان يجمع او يجتمع اثناء فترة الحمل وحدها ، بل ان هذه النتيجة الطيبة ، وهي حسن تغذية الجنين هي محصلة تراكم الغذاء خلال سنوات عمرها السابقة .

وهنا يضيف هذا العالم كذلك ان اكثر النساء حظا « لا يجب ان يثقن ثقة مطلقة فى ان اجسامهن سيكون لديها المخزون المطلوب من رصيد الغذاء اللازم للجنين حين يحملن حملهن باية حال » .

هنا يجدر بنا ان نتقدم ببعض النصائح الضرورية التي يمكن ان تطبق على اغلب النساء الحوامل ايام الحمل . فالبحث الى هذا الحد كان يهتم باسماع صوت الجنين للامهات الحوامل ، وذلك عن طريق دق نواقيس الخطر بابراز سلبيات نقص تغذية الام الحامل . ويجب هنا وفى نهاية هذا العرض الطويل ان توجه الاذهان الى طريقة التغلب على هذه النتائج او الوقاية منها بمعنى اصح .

الوقاية والعلاج من مشكلة سوء تغذية الحوامل واثرها السيء على الجنين

من الافضل ان تحصل الام الحامل على حاجتها من السعرات الحرارية من العناصر الغذائية الاربعة ولا تقتصر على مجموعة دون اخرى ، وهي : ــ

ا ــ مجموعة الاسماك واللحوم والالبان ومنتجاتها وهي توفر البروتين اللازم لبناء الخلايا عامة والخلايا العصبية خاصة .

ب ــ مجموعة الخضر والفواكه وهي التي تمد الجنين بحاجته من الفيتامينات العديدة التي تؤهله بمقومات الوقاية من كثير من الامراض .

---

(١٩) مكرر Gseta, G Fein, 1978 Ibid

كذلك براجع chavec, a. et al : The importance of nutrition and stimulion child mental & social development, in J. Cravioro et al, Early maturation and mental development, Almquist and Wiksell 1974

جـ ـ مجموعة الخبز والكربوايدراتبأنواعها ، وهي التي تفيد في عملية امداد الجنين بما يلزمه في وقت التسمين بعد الشهر الرابع والخامس من الحمل .

كما أنها تفيد في توليد الطاقة اللازمة لحركة الجنين بعد الشهر الرابع .

د ـ مجموعة البقول وهي تحتوي على مزيد من البروتين وبعض العناصر الضرورية لبناء الخلايا .

وهكذا يضر الحامل ويضر الجنين معا أن تعتمد الحامل في غذائها على الحلوى فقط ، او المشروبات الخفيفة « المياه الغازية » او شرائح البطاطس وحدها دون غيرها .

نظام الغذاء الامثل ايام الحمل (٢٠)

لقد توصل العلماء اخيرا الى ما يجب أن يكون عليه التركيب الجيد لغذاء الحامل بحيث يضمن لها ولحملها ما يحتاجه كلاهما من العناصر الغذائية ولذلك تحدد الغذاء على النحو التالي : ـ

١ ـ اربع مرات يقدم لها فيه وحدة من اللبن الطازج ومجموعة من منتجات الالبان اي ما يعادل ١/ لتر من اللبن

٢ ـ في مرتين يقدم للحامل قطعة من اللحم او الدجاج او الاسماك او البيض بكمية تزن بين ٣ ـ ٥ اوقيات حسب وزن جسم الحامل .

٣ ـ في اربع مرات او اكثر يقدم لها عناصر من الخضر والفواكه بحيث يكون منها الخضر الطازجة الخضراء ، ذات الورق الاخضر او الاصفر احيانا ، مع اضافة وجبة يكون فيها من الفواكه ما يكفي لتموين الحامل بكمية كافية من فيتامين ج (Vit. C) .

٤ ـ في اربع وجبات او اكثر يقدم للحامل غذاء يحوي حبة كاملة من الخبز الغني بالفيتامينات مع الدهن او الزبد وكذلك البقول .

ولقد اوصى المكتب الدولي للصحة والتربية والرعاية الاجتماعية بأمريكا في تقرير له صدر عام ١٩٧٣ بهذا التنوع الغذائي للأم الحامل ، كما تحدد في جدول دقيق المزيد من العناصر الغذائية التي يجب أن تحصل عليها الحامل أيام الحمل بما يزيد عما تحصل عليه غير الحامل ، وذلك رعاية لصحة الجنين في اكثر مراحل تطوره حساسية للتأثر بنقص عناصر غذائية معينة ، ضمانا لصحته ، وكفالة لحسن سير خط نماله .

هذا الجدول نعرضه فيما يلي ، ويتضح منه كيف أن المزيد من العناصر الغذائية الاضافية تحتاج اليها الحامل بدرجة قد تصل الى نسبة ١٠٠٪ مما تحتاجه المرأة غير الحامل ، وذلك في بعض العناصر الغذائية .

---

(٢٠) Greta G., Fein 1978 Ibid

(جدول ٢) (٢١)

العناصر الغذائية	غير الحامل يوميا سن ١٨ - ٢٢	اضافة في ايام الحمل يوميا	نسبة الزيادة ايام الحمل	فعالية هذه العناصر واثرها في تطور الكائن ايام الحمل
١ - سعرات حرارية	٢٠٠٠ يوميا	٢٠٠ يوميا	٪١٠	لتزويد الكائن بالطاقة - يتوفر في الكربوايدرات
٢ - بروتين بالجرام	٥٥ يوميا	١٠ يوميا	٪١٨	هام لنمو الخلايا خاصة الخلايا العصبية والعضلات
٣ - فيتامين أ (وحدةدولية)	٥٠٠٠ يوميا	١٠٠٠ يوميا	٪٢٠	لتقوية الشبكية ونمو العصب البصرى
٤ - فيتامين د (وحدةدولية)	٤٠٠ يوميا	-	-	يقوى العظام ويمنع لين العظام والكساح
٥ - فيتامين هـ (وحدةدولية)	٢٥ يوميا	٥ يوميا	٪٢٠	يمنع اكسدة المواد الدهنية على جميع الخلايا والخلايا العصبية وغشائها
٦ - حامض الاسكوربيك « ملجم »	٥٥ [illegible]	١٠ يوميا	٪١٨	يقوى جدران الاوعية الدموية الشعرية والاغشية المبطنة
٧ - الفولاسين B « ملجم »	٤ر يوميا	[illegible] يوميا	[illegible]	يساعد على سرعة توليد الكريات الحمراء ويمنع الانيميا
٨ - النياسين « ملجم »	١٣ يوميا	[illegible] يوميا	٪١٥	يسهل التمثيل الغذائي للجيكلوز
٩ - ريبو فلافين « ملجم »	٥ر ١ يوميا	[illegible] يوميا	٪٢٠	نفس مفعول فيتامين ب
١٠ - ثيامين « ملجم »	١ر٠٠ يوميا	١ر يوميا	[illegible]	ب ١٢ لسلامة الاعصاب وتقويتها ويدخل في تركيب الزيمات التمثيل الغذائي
١١ - فيتامين ب ٦ « ملجم »	٢ر٠٠٠ يوميا	٥ر يوميا	٪٢٥	يساعد على منع قيء الحمل المستعصى
١٢ - فيتامين ب ١٢ مجلرام	٥ر٠٠٠ يوميا	٣ر٠٠ يوميا	٪٦٠	لسلامة تركيب الدم وتقوية فعاليته
١٣ - كالسيوم (جرام)	٨ر٠ يوميا	٤ر٠ يوميا	٪٥٠	لسرعة نمو الهيكل العظمى وتوازن التطور من الغضاريف
١٤ - فسفور (جرام)	٨ر يوميا	٤ر يوميا	٪٥٠	لسلامة عمل الجهاز العصبى وتطوره وحسن ادائه .
١٥ - يود « ميكروجرام »	١٠٠ يوميا	٢٥ يوميا	٪٢٥	يساعد على النماء الكلى وفعالية الدرقية
١٦ - حديد « ملجم »	١٨ يوميا	٣٠-٦٠ يوميا	١٦٦ - ٪٣٣٢	تقوية عامة وزيادة الهموجلبين - والكريات الدموية الحمراء
١٧ - مغنسيوم « ملجم »	٣٠٠ يوميا	١٥٠ يوميا	٪٥٠	يلزم لسلامة وقوة فعالية الجهاز العصبى المركزى

(٢١) منقول بتصرف واضافة

Yaeta Y fein 1978. Ibid (5)

هذا الجدول يبرز امورا هامة لعل من اهمها حاجة الحامل لمزيد من العناصر الغذائية وكذلك اختلاف هذا المزيد من الامدادات من العناصر الغذائية من عنصر لآخر . ولذلك تتحقق الفائدة من هذا الجدول لو امكن الربط بينه وبين توقيت ظهور اعضاء معينة او وظائف بذاتها في تطور الجنين . (راجع شكل ٢)

• • •

لقد اصبح الشغل الشاغل لجميع دول العالم هو موضوع غذاء الحامل ، بل ان الكثير من الدول النامية قد اصبحت تقدم للحامل التي تعيش في ظروف اقتصادية صعبة الكثير من العناصر الغذائية بالمجان ، وتجد في ذلك استثمارا اقتصادية ووفرا كبيرا . ذلك ان النفقات التي تنفقها الدول على الاطفال المرضى ، والامهات الضعيفات والمواليد الاول وغير ذلك تفوق كثيرا ما ينفق في اعطاء الحامل كفايتها من الغذاء بما يكفل وقاية الجنين من العلل ، ويوفر على الحامل جهدا يضيع هباء بموت حملها ، ناهيك عما يصيب الأم الحامل من احباط واضطراب نفسي كلما ضاع جهدها هباء ، وكان شقاء حملها جهدا لا ثمرة منه ، ولا نتيجة له ، حين تعود من عملية الولادة خاوية الوفاض مهيضة الجناح محرومة من متعة الامومة بعد شقاء دام شهورا تسعة .

عوامل قد يكون لها اثر سلبي على تغذية الحامل الجيدة : (٢٢)

قد تكون الشعوب التي تعيش في غرب اوروبا والدول الصناعية اسعد حظا واقل عرضة لاضرار سوء تغذية الحامل ، من كثير من الشعوب القديمة والحديثة ، ومع ذلك فان الكثير من الامم الراقية المتقدمة والحديثة تعاني اخطارا جديدة تتعرض لها الأم الحامل هي وما تحمله من جنين .

وبالرغم من ان موضوعنا هنا ينصب على اضرار سوء التغذية ومحاسن التغذية الجيدة للحامل ، الا ان مجتمع القرن العشرين في اغلبه، وخاصة في الثقافات المتحضرة تتعرض لظروف واخطار قد تجمل فعالية الغذاء الجيد في حسن تطور الجنين في بطن امه تتهددها الاخطار ، وتكون بذلك اقل جودة ، بل تقل استفادة الجنين بشكل واضح من العناية الغذائية بالحامل .

فهناك على سبيل المثال :

(١) ـ **تلوث البيئة** : خاصة في البلاد الصناعية والمدن المزدحمة . وسواء كان هذا التلوث كيماويا او ذريا او صحيا ، فانه يتلف فعلا الكثير من العناصر الغذائية قبل وصولها الى الجنين ، بل يتلف الكثير من الخلايا الدموية في دم الأم مما ينعكس على صحة الجنين .

---

(٢٢) (14) Mussen et al. 1963 Ibid

(ب) ـ **والمخدرات** التى قد تتعاطاها الإمايام الحمل بارادتها قد تسبب خطرا كبيرا على الجنين . فانها بالاضافة الى انها تسبب فقدان الشهية لدى الحامل ، فانها تحرمها وتحرمه بالتالى من كثير من احتياجاته من الفيتامينات خاصة فيتامين ب المركب و ب ١ و ب ٦ .

والمخدرات لها ضرر بليغ على صحة الجنين ـ ابتداء من الكحول وانتهاء بانواع المخدرات الاخرى ، حيث انها تمر فى الدم مباشرة الى دورة الجنين وتخترق الغشاء المصفى الذى يفرز بحجب كل الفيروسات ، وهو الموجود فى منطقة التبادل الدموى المشيمة Placenta السابق الاشارة اليها ، وتؤثر تاثيرا مباشرا على صحة الجنين فتحول بذلك بينه وبين الاستفادة الكاملة من الغذاء الواصل مع دم الحامل .

(ج) ـ **العقاقير** : وهناك كثير من العقاقير التى تتناولها الحوامل دون وصفة الطبيب عادة، وهى العقاقير الاكثر خطورة على صحة الجنين ،ولذلك يؤكد العلماء من أمثال روغ وشملز Rugh and Shemles انه لا يجب على الحامل ان تتعاطى اى عقار ـ ولا حتى الاسبرين ـ دون استشارة الطبيب ، وهؤلاء يعددن العقاقير التى يجب أن تمتنع عنها الحامل امتناعا باتا وأهمها :

ـ هرمون الاندروجين وغيرها من الهرمونات الجنسية الذكرية ، وهى رغم انها قد تفيد فى تقوية الرحم ومساعدته على الحفاظ على الحمل ، الا انها قد تسبب اضطراب تطور الاجهزة التناسلية للجنين .

ـ التابولامين Tabulamine وهو عقار يوصف احيانا لمرضى السكر ويسبب نقص حاجة الجنين من المواد الكربوايدراتية .

ـ الادوية المضادة للتجلط والتى توصف فى حالات ارتفاع ضغط الدم وهذه قد تسبب نزيفا داخليا للجنين وتعطل استفادته من الغذاء.

ـ الكورتيزون بجميع فصائله ، وهذه قد تسبب للجنين بعض التشوهات الخلقية خاصة تقوب سقف الحلق ، وتشوه الاذن الخارجية ،لو تعاطتها الحامل فى الشهور الاولى من الحمل .

ـ العلاج بالتيروكسين او مضادات التيروكسين، وقد يسبب ذلك تلف الغدة الدرقية، وما يترتب على ذلك من مرض الجويتر ... Goiter وقد يؤثر ذلك فى حجم الجنين ووزنه، وقد يترتب عليه ولادة جنين قمىء ...cretine

ـ انواع العلاج بالاشعة العميقة او غيرها فى حالات مرض السرطان وهى تسبب تلف الخلايا المختلفة فى الجنين فتهدم ما بناه من خلايا نتيجة امداده من غذاء الأم .

هكذا نجد اننا ـ ونحن بصدد اهمية الغذاء للحامل ودوره في نمو الجنين ـ نجد ان هذه العقاقير قد تعطل القيمة النمائية للغذاء الجيد .

(د) **التدخين** : وقد وجد مثلا ان افراط الحامل في التدخين ايام الحمل يؤثر كثيرا في مضاعفة حركة الجنين في بطن امه ، وهي حركة تزيد احيانا بنسبة ٢٠٠ ٪ عن الحركة الطبيعية بسبب ما يصله من النيكوتين مع دم الأم . وبذلك تبدد هذه الحركة نسبة كبيرة من اثر الغذاء في الطاقة التي يبذلها في الحركة الزائدة ... Huprtmobility وهو الغذاء الذي كان يمكن أن يستفيد به الجنين في تسمينه أو زيادة وزنه ، او مضاعفة عملية النماء الخلوي في الجهاز العصبي المركزي .

ولقد وجد من دراسات عديدة ان اغلب مواليد المفرطات في التدخين يكونون اقل وزنا من المعتاد ، وكذلك اقصر في طول القامة وتكون نسبة الوفيات بينهم كبيرة نسبيا . ثم هم يولدون شديدي الحركة Hyperactive

ولقد اكدت دراسات اجريت في بريطانيا عام ١٩٧٢ ان اكبر العوامل ارتباطا بنقص الوزن عند الولادة هو عامل افراط الام في التدخين ، ويرجع ان التدخين يفقد الدم الواصل للجنين نسبة كبيرة من الاكسجين الضروري لاكسدة الاغذية حتى تتم عملية الايض لدى الجنين على الوجه الاكمل ، وذلك لانه يحمل كمية كبيرة من ثاني اكسيد الكربون والنيكوتين .

(هـ) ـ **الخمور وتعاطي الكحول** : ان تعاطي الخمور باعتدال ايام الحمل قد لا يضر الجنين ولو ان الكحول يصل الى دم الجنين مباشرة ، ولذلك فان الافراط في تعاطي الخمر قد يسبب ولادة اطفال يعانون من الارتعاد الذي يشبه الارتعاد الهتري (٢٢) لدى المدمنين ، اي انهم يولدون وعندهم رعشة عصبية غريبة تعطل بلا شك فعالية ومفعول الغذاء الجيد . ناهيك عن ان المراة المدمنة على الكحول تفقد الشهية للطعام المكتمل العناصر او الاهتمام بالطعام وهذا مما لا يجعلها تراعي القواعد الغذائية على الوجه الامثل . كذلك وجد ان هذه الحالة تصيب الأم المدمنة بنقص فيتامين ب ، وفيتامين ب ١ ، وهي فيتامينات ضرورية لتقوية وتحسين ظروف نمو الجهاز العصبي المركزي عند الجنين وتطوره.

(و) ـ وجد ايضا أن **ادمان الهيروين** او **الافيون** او غيرها يرتبط كثيرا وكثيرا جدا بظاهرة نقص الوزن عند الميلاد ، هذا الى ان الوليد يكون شبه مدمن ، فهو يولد في حالة دوخان وتخدير ، ويتعرض من اول ايامه للسلبية والانسحابية وعدم الاقبال على الطعام فترة تمتد

---

(٢٢) Delerius tramen وهو نوع من الاضطراب العصبي يصيب كثيرين من المدمنين على الخمر اذا عادوا اليها بعد الاقلاع عنها .

من ٢٤ ـ ١٢٠ ساعة بعد الولادة . هذا يجعل الوليد عزوفا عن الرضاعة ، ويزداد ضعفا على ضعفه الطبيعى الذى يحدث نتيجة تكسر الكريات الدموية الحمراء فى اول عهده بالحياة وهو يحاول التأقلم والتكيف مع البيئة الجديدة خارج الرحم . هذا واطفال المدمنات يكونون بعد فترة التخدر هذه شديدى الحركة ، يتعرضون لحالات توتر عنيف وتقلصات وقد يتعرضون لنوبات من الاغماء متكررة ، وقد يفضى بهم ذلك للموت . (٢٤)

وفى هذا المقام لا بد من الاشارة الى بعض الامور البديهية والظروف البيئية التى قد تعطل اثر التغذية الجيدة ونذكر منها على سبيل المثال:

ـ مرض الأم وخاصة فى الشهور الاولى مما قد يعطل نمو الجهاز العصبى المركزى على الوجه الأمثل وخاصة عندما تصاب بالحميات او الحصبة الالمانية او النكاف او الحمى القرمزية والانفلونزا الحادة والامراض السرية وغيرها من الامراض التى تستطيع فيروساتها أن تخترق الغشاء المصفى فى منطقة التبادل الدموى وتصل الى الجنين ، فتعطل بالتالى التأثير الجيد للغذاء المتكامل فى نمو الجنين .

ان ما يهمنا من هذه الامراض هو تأثيرها على فعالية الغذاء فى تطور الجنين ونمائه ، ذلك الغذاء الذى نهدف من وراء تأمين وصوله للجنين الى ان يحقق الغاية من سرعة نماء الكائن خاصة فى مراحل التطور الحرجة ايام تكوين الهيكل العظمى او الجهاز العصبى او ظهور الحواس الدقيقة الهامة كالسمع والابصار .

فمثلا قد تسبب الحصبة العادية اضطرابا فى تكوين القلب وقد تحدث فيه ثقبا اذا اصيبت بها الأم فى الشهور الاولى ، وقد تسبب صغر حجم الجمجمة ويترتب على ذلك عدم كفايتها لتكاثر خلايا المخ وتطور حجم هذه الخلايا بما يكفل نمو هذا الجزء الهام جدا من اجهزة الجسم ومن هنا قد تتطور ظاهرة التأخر العقلى . كذلك قد يسبب بطء النماء الخلوى فى العضلات او تغير الكروموزومات حاملات الوراثة اضطرابا كبيرا فى نمو الطفل الجسمى ووزنه ، ويترتب عليه ما أشرنا اليه من اضطراب النمو العقلى .

اما عن الحصبة الالمانية ، فان لها آثارا سيئة تماما على نحو الجنين ، خاصة لما تحدثه من خلل فى الجهاز العصبى المركزى الذى يصاب بكثير من التلف اذا اصيبت بها الأم قبل الشهر

(٢٤) Mussen et al. 1963 Ibid.

الرابع من الحمل ، وهكذا تعطل هذه الاصابةما ترجوه من التغذية الأنسب في ان تحدثه في هذا الجهاز الهام .

لذلك يترتب على اصابة الام بهذا المرض قبل الشهر الرابع من الحمل ضعف العقـــل كالولادة المشوهة واحيانا الميتة ، ناهيك من أنها تسبب ولادة (٢٥) الجنين بثقب في القلب او تقط فيه او اضطراب في تكوين الاوعية الاساسية وغيرذلك مما يعتبر عاملا معطلا معوقا لاثر الغــذاء الجيد .

كذلك الامراض الـزهرية السرية التي انوصلت الى الجنين توقف تماما اثر التغذية الجيدة في تطور الجنين . فهي التي تسبب ٢٥٪ منحالات الولادة المبتسرة ، و ٢٥ ـ ٣٠٪ من المواليد الموتى ، كما يكون لهذه الامراض دالمااثر سيء في وزن الجنين وصحته العامة ، فهي تعطل النماء الخلوي السابق الاشارة اليه وبذلكتحرم الجنين من الصحة والحيوية اللازمة لعملية الولادة وما تعنيها من جهد شديد قد يقع امامهاالجنين الضعيف المصاب صريعا ، ولو ولد بعد جهد شديد فهو مولود معوق لما يصاب به منعاهات العمى او الصم او لين العظام او غيرها. وهنا تكون قد فاتت عليه فرصة الاستفادة من الغذاء في تقويته وتقوية حواسه . ناهيك عن ان المواليد بالامراض السرية بالوراثة هم ضعاف العقول غالبا .

اما عن الام المصابة بالسكر أيام الحمل فانمرض السكر يعطل تماما النماء الطبيعي للجنين، وذلكاما لان الام لتبع نظاما خاصا في الحمية ؛اولان الانسولين الذي تتعاطاه لكي يساعد على تخلصها من سكر الدم بتعويض نقص الســكرالحيواني الذي تفرزه غدد الام يصل مع دم الام الى الجنين فيسبب اضطرابا ما في عملية الايضوالبناء الطبيعي في خلايا الجنين . كذلك فان حرمان الام من بعض العناصر الغذائية لتقليـلنسبة السكر في دمها ينعكس على الجنين في فترة شدة احتياجه الى هذه العناصر .

ولقد وجد ـ ان نسبة كبيرة من الاجنةتموت في الاسبوع الاخير من الحمل بسبب مرض الحامل بالسكر ولذلك ينصح الاطبـاء عـادةمريضات السكر بـان يتممـن عمليـة الولادة بالقيصرية بحيث تتم عملية الولادة قبل موعدهاباسبوعين حفاظا على الجنين وتلافيا لما يعانيه الجنين من نقص عناصر غذائية معينة .

ان الجنين في عملية الولادة يحتاج لبذلجهد كبير حتى يساعد في تمديد عضلات جدران

---

(٢٥) Mussen, et al 1963 Ibid

الرحم وعنق الرحم ، وحتى يوفر لنفسه فرص الخروج الى الحياة . فاذا كان يعوزه الغذاء في فترة أمس الحاجة اليه أيام الحمل بسبب ما تسير عليه الام من حصنة ونظام التغذية المحدد ، فان ذلك يؤثر في تموين الجنين بحاجته من الغذاء وبالتالي يجعله ضعيفا في عملية الولادة بدرجة قد تعرضه للاختناق .

هذا وكثيرا ما تصاب الام بظاهرة نقص السكر بالجهاز العصبي والدم ، وهي ما تعرف بظاهرة « هيبوجلايسيما » Hypoglycemia وهي حالة من الدوار والاغماء احيانا بسبب ضعف قدرة الجهاز العصبي على الحفاظ على مخزون من المواد الكربوايدراتية لفترة طويلة . هذه الحالة في ذاتها قد يتعرض لها الجنين وهو في بطن امه فيعاني ظاهرة نقص الغذاء في خلايا جهازه العصبي ، وربما تعرض لشبه دوار الهيبوجلاسيميا عندما تتعرض له الام .

والمعروف ان تكرار تعرض اي كائن لهذه الحالة ـ صغيرا كان او كبيرا ـ يؤدي الى ضعف الخلايا العصبية ويترتب على ذلك ـ في حالة حدوثه للجنين ـ تأخير عملية النماء العصبي سواء عن طريق الانقسام الخلوي قبل الولادة او اكبر حجم الخلايا العصبية قبل وبعد الولادة ولذلك فقد دلت بحوث عديدة على ضعف الاجنة الذين يولدون من امهات مرضى السكر وخاصة السكر الذي يورث الاستعداد له ويولدون بجهاز عصبي اضعف بكثير من المعتاد عند الولادة .

هذا وتعتبر الوراثة عاملا هاما في وراثة الجنين للاستعداد للاصابة بالمرض نفسه ـ مرض سكر الدم ـ حيث يرث الجنين الاجهزة الضرورية للموازنة في كمية السكر في الدم في حالة استعداد تكويني يهيىء الفرد للاصابة بمرض السكر . ولذلك قد تضعف قدرة الجنين وهو في بطن امه على ايض المواد الكربوايدراتية واكسدتها بما يعين على دخولها في بناء خلايا جسمه .

اختلاف وجود عامل : R.H. وهو عامل وجد انه قد يثير في الام نشاطا زائدا في تكوين الاجسام المضادة اذا كان الاب +RH والام —R.H ، وهذه الاجسام تقوم بدور اتلاف خلايا الكريات الدموية الحمراء في الجنين، فتعطل بذلك آثار الغذاء الجيد من الام . ثم ان ان هذه الظاهرة ، ظاهرة تكسير الكريات الحمراء بواسطة الاجسام المضادة من الام تعتبر الخطوة الاولى نحو ذلك الجسم الغريب ـ جسم الجنين الذي دمه به عامل +R.H. ، ولذلك قد يترتب عليها ، بعد مدة الاجهاض او ولادة الطفل بدون حركة still birth ضعفه ، وزيادة الصفراء في جسمه . والصفراء تنجم عن زيادة البليروبين Bilirubin... او غشاء الكريات الحمراء المتكسرة التالفة ، وهو بذلك قد يؤثر في الجهاز العصبي ويكون مسئولا بالتالي

من المواليد ضعاف العقول او المصابين بالكساح او العاهات المختلفة وهذا كله تعطيل للتأثير **المرغوب** من الغذاء الجيد يصل الى الجنين .

اخيرا : نحن نرجو ان يؤتى هذا البحث ثماره في استثارة اهتمام كل أم يهبها الله نعمة الحمل ، اهتماما بغذائها كما وكيفا .

كما نرجو ان يكون لهذه الدراسة اثرها في استثارة انتباه الحكومات والهيئات المسئولة عن الحوامل في أي مجتمع الى ضرورة توفير الغذاء الامثل بأي ثمن ، او بغير ثمن للامهات الحوامل، وهذا ما تنبهت اليه **هيئات وحكومات** عديدة تتأثر تشريعاتها في هذا المجال بظروفها الاقتصادية، بل العكس من ذلك لقد اصبحت مثل هذه المجتمعات تجد ان من أهم مشروعات الاستثمار الاقتصادي ان العناصر الغذائية الضرورية للحوامل والمرضعات اذا حالت ظروفهن المعيشية الاقتصادية ، دون التمكن من توفيرها ، بالحصول على الغذاء الامثل والاكثر تكاملا .

* * *

مصادر البحث :

لمزيد من الاطلاع في موضوع البحث يمكن الرجوع الى المصادر الآتية :

(أ) ـ المراجع العربية :

١ ـ القفى ، حامد عبد العزيز : دراسات في سيكولوجية النمو . قرطاسية المتيقى ، الكويت ١٩٧٧ . الفصل الثالث .

٢ ـ غالي ، محمد أحمد وآخرون : القلق وأمراض الجسم . مكتبة الفلاح بالكويت . الطبعة الثانية ١٩٧٨ الفصل الخامس والسادس (الجهاز العصبي ـ والغدد الصم .)

(ب) ـ المراجع الأجنبية :

(3) Dayton. D.H.
Early maturation and human development. Wiley 1969.

(4) English, H.B.
Dynamics of child development. Holt Rinehart and Winston INC. 1967. chs 8 & 11.

(5) Fein, G. Greta, Child development.
Prentice Hall Inc Englewood Cliffs, New Jersey. 1978.

(6) Francis Williams, J. Davies, P.A., Very Low birth-weight and later intelligence. In : Developmental medicine and Child Neurology. 1974, 16.pp. 709-728.

(7) Hill, D.E., Placental insufficiency and brain growth of the fetus. In: D.B. Cheek, Fetal and postnatal Cellular growth. edited. New York. Wiley. 1976.

(8) Hurlock, E.B., Developmental Psychology. Tata McGraw-Hill Publishing Company Ltd., Bombay, New Delhi 1959-Ch. 2

(9) Hurlock, E.B., Child development. McGraw-Hill Book Company INC 1972 Chs. 4 and 5.

(10) Johnson, R.C., and Medinnus, Gene, R., Child Psychology, behavior and development. John Wiley & Son Inc. N. Y. London. Second Edition 1969.

(11) Liebert, R.M., Poulos, R.W., and Strauss, G. D., Developmental Psychology. Prentice-Hall, INC. New Jersey 1974 Ch. 3. pp 47-77.

(12) Marcus, A. Krupp and Milton, J. Shatton, and associate authors. Current medical diagnosis and treatment. edited. Langne Medical Publications (L.M.P.) Los altos California. 1975.
Ch. 20 on Nutrition : Nutritional and Metabolic Disorders : By Milton, J. Shalton, and Phyllis, M. Ullman.

(13) Moore, K.L. The developing human : Clinically oriented embryology. (2nd ed) Philadelphia. Saunders 1977.

(14) Mussen, P.H., Conger, J.J. and Kagan, J. Child development and personality. Humper and Row Publishers N.Y. 1963 Chs. 3 and 4.

(15) Pribram, K.H., Brain and behaviour 1. Mood, States and Mind. edited. Penguin Modern Psychology 1969.

Ch. 2 : Research on the nervous system in general and on that of the brain in particular : By : F.G. Gall and G. Superzheim.

Ch. 6. pp. 61 - 69.

(16) Smith, A.M. Sheridan, The retarded child and the mother. Trans. Tavistock Publications. London 1973. 1 - 2 pp. 3-45.

(17) Tanner, J.M. The regulation of human growth. In : F. Robelsky and L. Dorman (Eds) Child development and behavior. New York. Knopf. 1973.

(18) Waddington, C.H. The strategy of genes. London. Allen and Unwin 1957.

(19) Wyden, B. Growth : 45 crucial months. Life. December 17 1971 - pp. 93 - 95.

* * *

فيولا الببلاوى *

الأطفال واللعب

مقدمة :

الطفل لاينمو من تلقاء نفسه : فهو يتشكل ويتغير ويرتقي كشخصية سوية ، بقدر ماتوفر له ، في الوسط الانساني الاجتماعي الذى يعيش فيه ، من عوامل التربية ومقوماتها ، بل اننا لنستطيع بتربية رشيدة ان نشكل هذا الكائن الحي بمواصفات تجسد الجوهر الحقيقي للانسان .

وقد جرت عادتنا ان نهتم فقط ، بتربية الطفل في المدرسة ، استنادا الى التعليم المدرسي خاصة ، كأساس حقيقي لبناء شخصية الطفل . هذه النظرة تنطوى على معنيين مختلفين : **فمن ناحية** تعنى ان اهتمامنا بالتربية المنظمة كما لوانها تبدأ مع التعليم الشكلي ، اى مع التحاق الطفل بالمدرسة . وتعنى من **ناحية اخرى** ان التعليم المدرسي وكأنه غير متصل بنشاط الطفل وخبراته خارج المواد الدراسية التقليدية، ويتعلم الطفل في سنوات ماقبل المدرسة .

ان من ابرز المقومات التربوية ، في سنوات الطفولة خاصة ، اللعب كنشاط مميز لحياة الاطفال . وهي مقومات لانكاد ندركها بوعي ، أواننا لانعطيها قدرها الذى تستحقه في تربية

(*) مدرسة علم النفس بكلية التربية ببنها - جامعة الزقازيق ، وحاليا بقسم التربية بكلية الاداب والتربية - جامعة الكويت .

الطفل . فالدراسات والبحوث الكثيرة والمتنوعة تؤكد على ان اللعب هو مدخل وظيفي لعالم الطفولة، ووسيط تربوى فعال لتشكيل شخصية الفرد فى سنوات طفولته .. وهي تلك الفترة التكوينية التى تجمع نظريات علم النفس على اهميتها الحاسمة كركيزة اساسية للبناء النفسى للفرد فى مراحل نموه المتعاقبة .

و « اللعب » كلمة كثيرا ما نستخدمها فى حياتنا اليومية ، الى درجة يكاد معها هذا المفهوم يفقد معناه الحقيقى . فاللعب قد نربطه باى نشاط يمارسه الفرد لكي يبعث فى نفسه البهجة والارتياح ، ووفقا لذلك فقد نفهم اللعب على انه نشاط هدفه اللهو واستهلاك الوقت والجهد ، بدون ان تكون هناك قوى او دوافع خارجية تحركه وتوجهه . واللعب بذلك قد نفهمه على انه يختلف عن العمل الحقيقي الذى هو نشاط موجه نحو غاية محددة يقوم به الفرد .

بل ان اطفالنا كثيرا ما يفرقون بين العمل واللعب على اساس الشروط الخارجية التى يفرضها المجتمع ، فالعمل بالنسبة للطفل هو العمل المدرسي اساسا ، او قد يعني لديه فى بعض الاحيان ماقد يكلف به من مهام منزلية يساعد فيها اسرته ، بينما يعنى اللعب اى شيء آخر يبعث على اللهو . وغالبا مايهتم الاطفال، وتشجعهم نحن الكبار ، بأن العمل نشاط جاد مفيد ، بينما اللعب لهو لافائدة منه .

والحقيقة ، ان اهمية اللعب فى حياة الاطفال وتحقيقه لدوره التربوى فى بناء شخصية الطفل ، تتحدد اساسا بوعي الكبار عامة والآباء والمعلمين خاصة ، وبمدى اتاحتهم الفرصة امام الطفل لتحقيق الذات فى انشطة اللعب ، ومواقفه المتنوعة .

• • •

الخصائص المميزة للعب الاطفال

يختلف لعب الاطفال عن لعب الكبار فى اوجه كثيرة . ويتميز بجانب ذلك بخصائص معينة نجدها فى اى مجموعة من الاطفال نقوم بدراسة نشاطها .

١ ـ اللعب عملية نمو :

فاللعب يأخذ النموذج الذى يتطور به نمو الطفل نسقا نمائيا محددا . تتضح هذه الحقيقة اذا تتبعنا الخط النمائى للطفل منذ ميلاده ، وموقع اللعب فيه .

فمنذ المهد والطفولة المبكرة ، تبرز انشطة معينة للعب ، وتشيع فى سن عن آخر ، بصرف النظر عما ينتمى اليه الطفل من بيئة او قومية او سلالة او خلفية اجتماعية اقتصادية . ومع ذلك ، وبالرغم من ان شكل النشاط يتغير كلما ازداد الطفل نضجا ، الا أنه لاتوجد بداية او نهاية محددة لنشاط لعب معين . بيد ان المرحلة العمرية ، التى يشيع فيها لعب معين ، تكون متشابهة بدرجة كبيرة لدى جماعة اخرى من الاطفال .

فاللعب ، في البداية ، يكون بسيطا للغاية ، يتألف أساسا من حركات عشوائية ، ومن استثارة لاعضاء الحس . وهي تلك الفترة العمرية التي تستغرق العامين الاولين تقريبا من حياة الاطفال (مرحلة المهد) ، حيث تكون الحياة النفسية — وفقا لنظرية جان بياجيه (*) — عبارة عن نشاط حسي — حركي sensori-motor ، يتمثل في ممارسات الأفعال المنعكسة reflexes والارجاع الدورية circular reactions ، وتكون فاعلية استثارة أعضاء الحس والحركة في هذه المرحلة « منبئا » الى حد كبير عن فاعلية الحياة النفسية في مراحل النمو التالية .

ومع تطور نمو ذكاء الطفل ، يصير لعبه معقدا بشكل متزايد . فاللعب بالدمى يجتذب الطفل منذ الطفولة المبكرة ويصل الى ذروته في العام السابع أو الثامن من العمر ، لذا تعرف هذه الفترة بـ « سن اللعب بالدمى » toy age . وبعد التحاق الطفل بالمدرسة ، تبدأ اهتماماته باللعب في التغير . فخلال العام الاول او العامين الاولين من الحياة المدرسية ، يجري تداخل بين أنشطة اللعب المميزة لمرحلة الطفولة المبكرة (سن ٣ — ٦ سنوات) وتلك المميزة لمرحلة الطفولة الوسطى (سن ٦ — ١٠ سنوات) . فبينما تظل أنشطة اللعب المحببة الى الصغار في الطفولة المبكرة قائمة لسنوات قليلة ، تنمو في نفس الوقت اهتمامات جديدة للعب ، وفي البداية يكون الطفل شغوفا بألعاب الجري ، ثم تصبح الالعاب الرياضية القائمة على قواعد ونظم محددة هي تسليته المفضلة بعد ذلك . وعلاوة على هذا ، تأخذ اهتمامات الاطفال باللعب في الاتجاه الى آفاق أخرى — كالقراءة مثلا ، أو جمع الأشياء كالطوابع والعملة والفراشات والنبات ، والاقلام والصور ، والاذاعة والتلفزيون ، والاناشيد والغناء ، والتركيب ... الخ وتتبلور هذه الاهتمامات بصورة واضحة في مرحلة الطفولة المتأخرة .

وبجانب ذلك ، تتصف الطفولة المتأخرة (سن ١١ — ١٢ سنة) بالاتزان الحسي الحركي الذي يتميز بمعالم معينة من النضوج — كالرشاقة ، والقوة والحيوية ، وهادفية الحركة والقدرة على التحكم فيها ، والانسيابية وسهولة انتقال الحركة وتنوعها من الجذع الى الذراعين والقدمين ، وسرعة تعلم المهارات الحركية . ولذلك فكثيرا ما يجري تشبيه اتساق الاستجابات الحسية الحركية في هذه المرحلة العمرية « برشاقة القط » . وتنطوي حقائق النمو هذه على مغزى تربوي عظيم : فنظرا لان هذه المرحلة هي فترة « كمون نسبي » من الناحية الفسيولوجية ، أي تكون عمليات الهدم والبناء في الجسم أكثر هدوءا ، وتجري بمعدل أقل اذا قورنت بمعدل النمو في المرحلة التالية (المراهقة) ، فانها تعتبر المرحلة الحساسة من النمو للتعلم الحركة المنظم ، والفترة المثلى للتمكن من الألعاب الرياضية الحركية .

ويتضح الخط النمائي للعب الاطفال اذا اخذنا بعض انواع من لعبهم ونرى كيف تنمو في حياة الطفولة . فبناء المكعبات ، مثلا ، يسير في اربع مراحل محددة من النمو (جونسون ، ١٩٣٣) : **فالمرحلة الاولى** عبارة عن مجرد تناول للمكعبات وحملها وتكويمها في مجموعات غير منظمة . **وفي المرحلة الثانية** يبدأ الطفل في تكوين صفوف وأعمدة من هذه المكعبات ، **وفي المرحلة**

(*) (ارجع الى الفصل الثاني من كتاب : ر . بيرد : جان بياجيه وسيكولوجية نمو الاطفال . (ترجمة : فيولا الببلاوي) . القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٦) .

الثالثة تنمو قدرة الطفل على عمل نماذج من هذه المكعبات وتتضح بعض الطرق التى يتبعها فى بنائه للمكعبات . اما فى **المرحلة الرابعة** فيقوم ببناء تكوينات حقيقية تعبر عن معان متكاملة ويستطيع اعادة البناء وتجويده . اما الرسم والنشاط التعبيرى فيختط كذلك نموذجا للنمو (بل ، ١٩٥٢) : فهو يبدأ بـ « الشخبطة » او « الخربشة » فى حوالى العامين الأولين من عمره، وينمو كصورة معبرة على ارضية ملائمة فى حوالى سن الثامنة او التاسعة . وهكذا يمكن أن نميز فى كل اشكال اللعب نسقا نمائيا developmental course لتطور نمو نشاط الطفل من مرحلة لأخرى .

٢ ــ تتناقص انشطة اللعب « كما » مع تطور نمو الطفل :

يقضى الاطفال الصغار معظم اوقات يقظتهم فى اللعب ، لدرجة انهم يلعبون وهم ياكلون او يستحمون ، او حتى فى لحظات ماقبل النوم وفى الفراش . ويتفق هذا مع طبيعة النمو فى هذه المرحلة ، حيث انها مرحلة نشاط حركى، وتتم عمليات الهدم والبناء فيها بمعدل اسرع ، ناهيك من أن هذه الفترة تمثل بدايات تعرف الطفل على العالم المحيط به واكتشافه لذاته داخله .

فى سنوات ماقبل المدرسة (الحضانة ورياض الاطفال) تتضمن انشطة اللعب الالعاب التمثيلية ، واللعب بالمكعبات والماء والرمل والطين ، واستخدام مواد الرسم والتلوين بالأصابع ، والموسيقى والرقص الايقاعى (هارتلى وآخرون ، ١٩٥٢) . وفى هذا السن يكون لعب الاطفال ابداعيا ، تمثيليا ، تكراريا ، تخيليا ، وتخليقيا (ارنسى ، ١٩٥٤ ، لورانس ، ١٩٦٢ ، ليتون ، ١٩٧١) .

اما فى مرحلة المدرسة الابتدائية فيهتم الاطفال باللعب الذى يتضمن نشاطا جسميا ، فيمارسون شيئا او يذهبون الى اماكن خارج المنزل والمدرسة اكثر من اهتمامهم بالالعاب ذات النمط العقلى او الجمالى . وفى هذه الفترة يركز بعض الاطفال على القراءة او الموسيقى فى لعبهم (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) . لبين بعض الدراسات (ليهمان ووتى ، ١٩٢٧) ان الاطفال فى سن الثامنة يلعبون بانشطة مختلفة بمتوسط ١١ر٤٠ فى الاسبوع ، فى حين يبلغ هذا المعدل ١٧ر٧١ لدى الشباب فى حوالي الاثنين وعشرين عاما من العمر .

ويتناقص مقدار انشطة اللعب الاجتماعى، بما فيه اللعب مع الاطفال الاخرين ، مع العمر . ففى حوالى سن السابعة والنصف يبلغ متوسط هذه الالعاب ٢٧ ، بينما يصل هذا المعدل الى ٢١ فى سن الحادية عشرة والنصف ، والى ١٣ فى سن السادسة عشرة والنصف (وتى ، ١٩٣١).

ويمكن ان نعزو التناقص الكمى فى انشطة اللعب عند الاطفال الى عوامل عدة : فى مقدمتها تضاؤل مقدار الوقت المتاح للعب ، بسبب الواجبات الجديدة المفروضة عليه ، وبسبب الوقت الذى يقضيه فى المدرسة وما يتبعه من التزامات خارج المدرسة . والنتيجة ان الطفل عليه ان ينتقى من بين الانشطة المختلفة تلك التى تستثير اهتماماته اكثر وتبعث فى نفسه البهجة . ويتضح ذلك اكثر حينما يصل الطفل الى مرحلة المراهقة ويصير وقت فراغه محدودا

بشكل متزايد . فالطفل كلما كبر يجد انه مطالب بالاقلال من الوقت الكثير الذى يقضيه فى اللعب وفاء لمسئولياته المختلفة ، ومسايرة للضغوط الاسرية والمدرسية والاجتماعية ، كما يدرك ان عليه ان يحسن التنسيق بين عمله ولعبه . وهذا جانب ايجابى ينبغى تنميته فى طفلنا ، حتى يستطيع ان يستمتع بلعبه حينما يلعب، ويرضى عن عمله حينما يعمل . ومن عوامل التناقص الكمى لنشاط اللعب ايضا ، تزايد وعى الاطفال بميولهم وقدراتهم ، وتزايد مدى الانتباه وتركيز الطاقة العقلية لديهم ، مما يمكنهم بالتالى من التركيز على نمط واحد من نشاط اللعب لفترة طويلة والاستمتاع به ، وينقلنا هذا الى خاصية « الكيف » فى لعب الاطفال .

٢ – تتزايد انشطة اللعب « كيفا » مع تطور نمو الطفل :

يتنقل الاطفال فى نشاطهم ، بسبب نقص قدرتهم على تركيز الانتباه ، من لعبة لاخرى او من نشاط معين الى نشاط آخر . لذلك يجب ان يكون فى متناولهم عدد كبير من مواد اللعب حتى يظل اهتمامهم قويا . وفى مقدور الطفل فى سن العامين ، على سبيل المثال ، ان يركز انتباهه فى نشاط لعب معين لمدة سبع دقائق فى المتوسط تقريبا ، فى حين يزداد معدل الانتباه الى حوالى ١٢٫٦ دقيقة لدى الطفل فى الخامسة من العمر (فان اليستون ، ١٩٣٢) . كذلك ، كلما كبر الطفل ، ازداد مقدار الوقت الذى يقضيه فى نشاط واحد (بريد جس ، ١٩٢٩) . ولكن اذا كان اللعب ومواده مثيرا لاهتمام الاطفال ، فان الاطفال فى سن ماقبل المدرسة سوف يثابرون على هذا النوع من اللعب حتى ولو كان ذلك سببا لتعبهم (ويلسون ، ١٩٥٥) .

فاذا كان الطفل فى المراحل الاولى للنمو يشتغل بالعاب كثيرة تستغرق معظم وقته ، فانه مع تطور نمو قدراته واهتماماته ومعارفه وخبراته يأخذ فى « انتقاء » العاب معينة من بين هذا الحشد الهائل من الالعاب ، وقد تصل عملية الانتقاء من الناحية الكمية الى لعبة واحدة او نشاط واحد ، لكنه اذا صار يجيد هذا النمط الواحد من نشاط اللعب وتمكن من مهاراته وتوحد معه انفعاليا ونظم له وقتا اكبر بدلا من تشتيت طاقاته واهتماماته على كل مايقع فى مجاله الحسى المباشر . اى ان هذا التحول من « الكم » الى « الكيف » فى نشاط اللعب عند الطفل دليل على تغيرات كيفية فى بنية الشخصية عن طريق « التمكن » من نفسه بيئته . فاذا اخذنا اللعب الاجتماعى مثلا ، نجد الطفل فى المراحل الاولى يلعب مع اطفال كثيرين ، حتى ولو كان لايعرفهم من قبل ، وهو يلعب معهم حينا ، و « يتعارك » معهم احيانا اخرى ، ليتصالح واياهم فى غضون فترة قليلة من ناحية ثالثة . ولكن من مظاهر النضج الاجتماعى ان « يصطفى » الطفل ، كلما كبر ، مجموعة معينة من اصدقائه ، يتوحد معها ويعيش لنشاطها ، ويسعى لان يحظى بمكانه داخلها ، ويرتبط بها بروابط المحبة والانتماء . ويتضح هذا بصفة خاصة فى ظاهرة « جماعة الشلة » فى مرحلة المراهقة .

ومن مظاهر « التحول الكيفى » فى نشاط اللعب عند الاطفال، ان النشاط الجسمى المبذول فى اللعب يأخذ فى التناقص كلما كبر الطفل ، بينما يزداد الميل الى انشطة اللعب ذات الطابع العقلى المعرفى . فالمراهق ، مثلا ، يبذل طاقة اقل من الناحية الجسمية فى لعبه ، بينما نجد الطفل ، وخاصة فى مرحلة ماقبل المدرسة ، دائب الحركة والنشاط الجسميين . وبينما نجد الاطفال فى

الاربع سنوات الاولى من المدرسة الابتدائية يفضلون الالعاب الرياضية النشطة ولايهتمون كثيرا بالالعاب التي يقضي فيها الفرد معظم وقته جالسا كما هو في سنوات المراهقة (جيرسيلد وتاس ، ١٩٤٩) ، فانه بدءا من الطفولة المتأخرة والمراهقة المبكرة يسيطر على لعب الاطفال أشكال معينة ، مثل مشاهدة التلفزيون والافلام السينمائية والاستماع للموسيقى والقراءة واجادة العاب رياضية معينة (سوالينجر وآخرون ، ١٩٥٢) .

هذا التحول الكيفي يسير بدوره هكذا مع التغييرات الكيفية في عملية النمو العقلي المعرفي ، الذي يبدأ بالمظاهر الحسية الحركية في مرحلة المهد حتى يصل في مرحلة المراهقة غالبا الى المستويات التجريدية للذكاء الانساني .

٤ – اللعب في الطفولة نشاط تلقائي :

يتسم لعب الاطفال ، عند الصغار خاصة ، بالتلقائية واللاشكلية . فالطفل يكون على سجيته حينما يلعب ، ويبدو بذاته وبأصالة ، بدون ما اصطناع، وبدون ما مسايرة لضغوط اجتماعية.

الطفل الصغير يلعب حينما يرغب ، بالكيفية التي يريدها غالبا ، وبأي مواد اللعب ووسائله ، بصرف النظر عن اعتبارات الزمان والمكان ، وبصرف النظر عما لديه من لعب لعينة او كثيرة . ففي احيان كثيرة نجد الطفل سعيدا وهو يلعب بأشياء تخص والديه او اخوته او ببعض ادوات المنزل ، اكثر مما يسعد بالعابه الخاصة ، والطفل الصغير لايكترث لان يلعب بملابس خاصة ، فالموقف يتساوى لديه اذا كان يلعب ، سواء ارتدى ملابسه او بملابس اللعب ، وهو ايضا لا يبدي اهتماما كثيرا بما قد تخصصه له الأسرة من مكان او حجرة للعب ، ولا يراعي مواعيد معينة للعبه .

ولكن اللعب يأخذ في ان يصير بالتدريج اكثر شكلية ، وفي ان يختفي الكثير من تلقائية اللعب في مرحلة المراهقة . ففي هذه المرحلة يزهو المراهق بارتدائه للزي المميز لبعض الالعاب ، ويشعر بحاجته الضرورية الى اجهزة وادوات خاصة للعب كمضارب التنس مثلا ، والى اماكن معينة يلعب فيها كالملاعب والنوادي والساحات التي يشترك فيها . وهو لايلعب بغير هدف ، بل يخضع نشاطه لنظام معين – فهو يتفق على مواعيد محددة ليلتقي برفاقه ، وليلعب في وقت محدد ، وهو يلتزم بدوره في اللعب ويسعى الى تحقيق اعلى مستويات الأداء فيه .

هذا الاتجاه نحو الشكلية في اللعب يزداد كل عام مع تطور نمو الطفل ، وتكون النتيجة ان يصير اللعب في المراهقة شيئا جدا ، وليس بذلك النمط اللاشكلي العرضي من النشاط الذي يبتهج به الطفل الصغير .

اهمية اللعب في حياة الاطفال :

الطفل في لعبه لايكون طفلا فحسب ، ولكنه يلعب ايضا دور طفولته ، فيعيشها من خلال اللعب الذي ينضوي فيه ، ويتوحد مع عناصره وادواته ، ويستجيب لرموزه ومعانيه . ومع أن

الكبار يتقبلون اللعب كجانب اساسي من حياة الاطفال ، الا ان هذا التقبل ربما لاينطوى على ادراك واع لاهمية اللعب فى حياة الاطفال ولقيمة الدور الذى يحققه فى نمو الطفل وبناء شخصيته.

فاللعب بالنسبة للطفل حقيقة يعيشها بواقعه وبخياله . وهو نشاط تلقائى اكثر اثارة لاهتمامه مما يحيط به . فى اللعب يعيش الطفل، فتظل آثار خبراته فيه حية متأصلة اكثر من آثار الحياة الواقعية التى لم يستطع بعد ان يدخل فيها ويستوعبها لصعوبة ظاهراتها وعلاقاتها . **فى اللعب يعيش الطفل خبرة نموه، ومن اللعب يحمل معه ركائز نموه للمراحل التالية وانطلاقه فى تطور عملية النمو .**

وفى الواقع ان ابراز قيمة اللعب فى حياة الاطفال كان موضع اهتمام الكثير من علماء النفس والتربية ، فى امريكا والغرب والشرق . فعلى سبيل المثال ، اذا كان عالم النفس الالمانى الاصل « كارل بيولر » (١٩٣٠) يؤكد على اهمية اللعب فى النمو العقلى للطفل، فان عالم التربية الروسى « ماكارينكو » (اعمال مختارة ، ١٩٥١ ص٣٧٣) يؤكد على التأثير البالغ للعب فى تشكيل شخصية الطفل : « فاللعب فى حياة الاطفال يحمل نفس الاهمية التى ينطوى عليها العمل فى حياة الكبار. فكيفما يكون الطفل فى اللعب ، فانه سوف يكون كذلك الى حد كبير فى عمله عندما يكبر . لذلك تنشأ تربية الشخصية قبل كل شىء فى اللعب . بل ان كل تاريخ الفرد كشخصية وكانسان يعمل، ربما نتصوره فى نمو اللعب وفى الانتقال التدريجى من هذا الشكل للطفل للنشاط الى العمل . ومن ثم فان تربية الطفل كشخصية المستقبل ينبغى ان تقوم لا على استبعاد اللعب من حياة الاطفال ، وانما على حسن تنظيمه ، بحيث يؤدى الى تكوين الخصائص البنائية للطفل فى نموه » .

.. واذا كان اللعب بهذه القيمة البالغة فى حياة الاطفال ، فما هى ابعاد هذه الاهمية ؟ وما هى الجوانب من شخصية الطفل التى يباشر فيها اللعب تأثيره بالدرجة الاولى ؟ تلك تساؤلات عامة نتبين اجابتها فيما يلى ، استنادا الى تحليل نتائج بحوث ودراسات شتى شهدها هذا الميدان.

(١) اللعب قيمة بنائية

(اللعب نمو)

يتضمن اللعب بالنسبة للطفل ، وخاصة فى سنوات ماقبل المدرسة ، بدرجة كبيرة تلك المثيرات الباعثة على تكوين قدراته وخصائص شخصيته ، بحيث ان المثيرات التربوية التى توفرها المدرسة فى المرحلة التالية هى امتداد لمثيرات ماقبل المدرسة وتطوير لها تبعة لمطالب وحاجات نمو الطفل المتغيرة من مرحلة لاخرى.

من الطبيعى اذن ان تنسحب نواتج مثيرات النمو ، المرتبطة بنشاط اللعب الذى « ينضوى فيه الطفل » ، على بنية الشخصية برمتها ..وان تنعكس « تغذياتها الراجعة » على مكوناتها الجسمية الفسيولوجية ، والاجتماعية والانفعالية ، والعقلية المعرفية .. وعلى التمايز التدريجى لهويته ولاسلوبه فى الحياة الذى يعكس « ذاته » التى بدأت « تتمايز » وسط المثيرات المتباينة للحياة والوجود بابعادهما المادية والانسانية .

● **فمن الناحية الجسمية الفسيولوجية في بنية الشخصية ، يؤدي اللعب دورا ضروريا** اذا كان للطفل ان ينمي عضلاته على نحو سليم، ويدرب كل اعضاء جسمه بشكل فعال . ويستخدم نشاط اللعب ايضا كمتنفس الطاقة الزائدة surplus energy outlet التي اذا احتبست تجعل الطفل متوترا ، عصبيا ، غير مستقر ، (ميلليتشامب ، ١٩٥٣) . وفي دراسة من تأثير اللعب على نمو النشاط الحركي للاطفال في سن ماقبل المدرسة ، وتوصل «زابارو جيتس» (١٩٤٨) الى ان اللعب حينما يخضع للتنظيم الملائم ، فانه يخلق شروطا مواتية لنمو وتحسين الاشكال المختلفة للنشاط الحركي عند الطفل. وفي تحليله لأسباب وطبيعة تأثير اللعب على نمو النشاط الحركي عند الطفل ، يبين أنه حتى وان كان الطفل يستوعب المهارات الحركية المعقدة ، ليس في اللعب وانما عن طريق التعلم المباشرة ، فان اللعب ، بصفة خاصة يوفر تلك الشروط الملائمة التي تهيىء الطفل لتحسين هذه المهارات فيما بعد . والسبب في ذلك انه في اللعب تتحول الحركة من كونها وسيطا لتحقيق نتائج معينة الى كونها ايضا غاية في حد ذاتها لفاعلية الطفل ، وتصير لذلك موضوعا لوعيه . وباتخاذ الطفل لنفسه دورا محددا ، فانه ينزع يومي الى ان يأتي بحركات مميزة لشخصيات معينة تصدر عنها مثل هذه الحركات . لكل هذا يعتبر نمو النشاط الحركي في اللعب مقدمة للممارسات الجسمية الواعية لدى الاطفال في سنوات المدرسة .

واذا كانت قيمة اللعب من الناحية الجسمية الفسيولوجية تتجلى في « فاعلية البدن » وفي « حكمة توظيفه » ، فان الطفل وسياق اللعب يبدأ في ان تتكون لديه اتجاهات معينة نحو كيانه الجسمي الذاتي ، وكيفية استغلاله لامكانياته الجسمية ، وسعيه الى تعلم مهارات حركية معينة ، وغير ذلك مما يعرف بمفهوم الذات الجسمية physical-self concept وبالاضافة الى ذلك ، فان المدخل الجسمي حركي لتربية الاطفال في سنوات ما قبل المدرسة، خاصة وانه لايعود بالفائدة على المكونات الجسمية من بنية بالشخصية فحسب ، ولكن ايضا على « الفاعلية النفسية » psychic activeness بصفة عامة : فاعلية الانتباه والادراك والتخيل والتفكير والذاكرة والارادة والضبط الذاتي وغير ذلك من مظاهر تطور نمو عمليات النشاط النفسي في الطفل .

● **وفيما يتعلق بالنواحي العقلية المعرفية في بنية الشخصية :** يباشر اللعب دورا كبيرا في نمو النشاط العقلي المعرفي ، وفي نمو الوظائف العقلية العليا ـ كالادراك والتفكير والذاكرة والكلام ... الخ عند الطفل ، بدءا من ابسط الوظائف الى اكثرها تعقيدا .

فاللعب يساعد الطفل على ان « يدرك »العالم الذي يعيش فيه ، وعلى ان « يتحكم فيه ويتمكن منه » ميلليتشامب ، (١٩٥٣) . فالطفل الصغير من خلال انشطة اللعب المختلفة يتعرف على الاشكال والالوان والاحجام ، ويقف على مايميز الاشياء المحيطة به من خصائص وما يجمع

---

(١) د . بيرد : مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(٢) هذه البحوث قد تضمنتها بعض اعداد من مجلة تربية الطفل « (Child education) في عام ١٩٥٨ خاصة .

بينها من علاقات ، وما تحققه من وظائف وتحمله من اهمية . وهو بذلك تنمو لديه محكات التمييز بين موضوعات العالم المحيط به (التعلم التمييزى) . وكلما تقدم الطفل فى السن ، فانه ينمى الكثير من المهارات فى سياق ممارسته لالعاب ولانشطة معينة . ولاشك ان الالعاب التى يقوم فيها الطفل بالاستكشاف والتجميع وغيرها من اشكال اللعب الذى يميز مرحلة الطفولة المتأخرة تثرى حياتهم العقلية بمعارف جمة عن العالم الذى يحيط بهم ، وبمهارات معرفية تمكنهم من هذا العالم ، لايستطيع الحصول عليها من الكتب المدرسية وحدها . ومن شأن القراءة والرحلات والموسيقى والبرامج التلفزيونية والافلام السينمائية ان توسع من الافاق المعرفية للطفل ، بالاضافة الى ما تجلبه الى نفسه من بهجة وسرور . وفى اللعب يتعلم الطفل الكثير عن نفسه وقدراته ، بما من بناء مفهوم أوضح عن ذاته (آكسلين ، ١٩٥١) .

ويبرز من وحى نظرية « جان بياجية » فى نمو الاطفال وما استثارته من دراسات وبحوث وفيرة ، ان مدى القدرات بين الاطفال فى سن الخامسة وقبل التحاقهم بالمدرسة يكون عاليا بالفعل ، اما الاطفال الذين يأتون من بيوت فقيرة لم تمكنهم ظروفهم من الالتحاق بدار للحضانة او بمركز للعب الاطفال فانهم يبدون بمستوى منخفض فى هذه القدرات (١) .

وقد تكرست سلسلة من البحوث العلمية فى بريطانيا على استخدام انشطة اللعب فى « تقريب مبادىء العلم الى الاطفال » (٢) . وتوظيف هذه الانشطة لابراز اهمية هذا المدخل اللعبى فى توسيع آفاقهم المعرفية وفى التمكن من مهارات اكتسابها وتعلمها . فى احدى هذه الدراسات التى اجريت على عدد من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية فى بريطانيا ، يقرر « م . بيرى » (١٩٥٨) انه قد جرى الاهتمام فقط بالميول التقليدية للاطفال الصغار نحو الحيوانات المنزلية والبرية والطيور والنبات والاشخاص البارزين فى البيئة ، الا انه ينبغى ان تطرح الآن مشكلة نمو اهتمام الاطفال المتزايد بالعلم : فهم يستثيرهم الكثير من مظاهر العلم والتكنولوجيا فى عالمنا المعاصر — من وسائل مواصلات ، كالطائرات وسفن الفضاء وارتياده والسفن البحرية ، ومن تركيبات فى الاجهزة ، ومن سير للعلماء وقصص عن الاختراعات ، الخ . وقد اتضح من دراسته انه من خلال اهتمام الاطفال من سن ٤ — ٧ سنوات باللعب بالسفن وبنائها ونظام العمل فيها ، فقد صارت حصيلتهم اللغوية اكثر غنى ، وكلامهم اكثر امتلاء بالمضمون وفى مثابرة قاموا بعمل سجل للسفينة دونوا فيه ملاحظاتهم على حالة الجو والبحر . وفى نشاط لعب آخر قاموا ببناء منزل ، انتقلوا فيه ايضا الى الاهتمام بالالات الحديثة — فلبناء المنزل عملوا اوناشا بسيطة ووضعوا لها رافعات من البكر والخيط . ، وعن طريق جريان الخيط تنقل مواد البناء من قطع طوب ومونة . وفى تجارب بعض المدارس فى هذا الدراسات اكدوا على قيمة استخدام الماء وما يرتبط به من اشياء ووظائف (عوامات واطواق ، آنية ، ومراكب مصنوعة من المطاط ، وسفن مصنوعة من الخشب ذات الات محركة) . وبمساعدة هذه الالعاب استطاع الاطفال ادراك الكثير من صناعة السفن : لماذا تظل السفينة طافية على الماء ؟ ولماذا لا تغرق ؟ كيف ترفع السفينة الغارقة ؟ ما علاقة سير المركب باتجاه ؟ .. الخ . وقد كانت النتائج التى خرجت بها هذه الدراسات واضحة فى هدفها ومضمونها التربوى — فالالعاب التى تستثير الاهتمام بالعلم

لدى الاطفال تستحق عناية بالغة في عالمنا اليوم ، حيث يحرك الاطفال شغفا متاججا بما يحيط بهم من منجزات العلم والتكنولوجيا .

ويؤكد الكثير من الدراسات والبحوث المعاصرة على اهمية تنظيم انشطة اللعب على أساس مبادىء التعلم القائم على حل المشكلات في تنمية الابتكار عند الاطفال (تورانس ، ١٩٧٠) كما تؤكد هذه الدراسات والبحوث أيضا على ان ذلك المعين الخصب الهائل من خيال الاطفال ، الذي يتجلى في الكثير من أشكال لعبهم ، وخاصة فيما يعرف باللعب الايهامي ، يمكن توظيفه في تدريب الاطفال على تعلم السلوك الابتكاري (دافيز وهوتمان ، ١٩٦٨) .

● **وفيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية والانفعالية في بنية الشخصية ، يؤدي اللعب دورا بنّاء في** نضج الطفل اجتماعيا واتزانه انفعاليا . فبدون اللعب ، وخاصة اللعب مع الاطفال الآخرين وليس مع الكبار ، يصبح الطفل انانيا ، مسيطرا ، ضيق الافق ، غير محبوب . ولكن الطفل يتعلم من لعبه مع الآخرين أن يشاركهم ويقاسمهم خبرات اللعب وادواره والتزاماته ، وان يتعاون معهم ، وان يتدرب على مهارات الاخذ والعطاء ، وان يكتسب مكانة مقبولة وسط جماعة رفاقه . فاذا كان الطفل في بداية حياته متمركزا حول ذاته ، فان انخراطه في انشطة اللعب الجماعي خاصة يجعله يتخفف بالتدريج من نزعة التمركز حول الذات ، فيرتبط اكثر بالجماعة ويتبادل فيها الادوار الملائمة .

والحقيقة انه اذا كان على الطفل ان يتعلم السلوك الاجتماعي المقبول من خلال اتصالاته وروابطه بالاطفال الآخرين في المدرسة ، فان الفصل المدرسي بنظامه التقليدي ، او اللعب الخاضع لاشراف المدرسة لايتيح الا فرصة ضئيلة للتعلم الاجتماعي ، اذا قورن باللعب الحر خارج المدرسة . فهذا اللعب الحر يعطي الطفل متنفسا للرغبة في عقد اتصالات اجتماعية نادرا ما تلقى اشباعا في المنزل ، الا اذا كان هناك اطفال آخرون كثيرون من نفس عمر الطفل تقريبا ، وكذلك في المدرسة حيث القيود الكثيرة المفروضة على التفاعل الاجتماعي الحر .

وفي داخل الاسرة ، من ناحية أخرى ، يساعد اللعب الخيالي او الايهامي على تخفيف العداوات بين الاخوة الاكبر والاصغر . ومن خلال اللعب مع الاطفال الآخرين ، يتعلم الطفل كيف يعقد علاقات اجتماعية مع الغرباء ويوسع من دائرة اتصالاته بالآخرين ، وكيف يواجه ويحل المشكلات التي تجلبها مثل تلك العلاقات (اكسلين ، ١٩٥١) . ومن خلال الالعاب التعاونية ، يتعلم الطفل مهارات اجتماعية مرغوبة كالاخذ والعطاء المتبادلين ، والعطاء اكثر من الاخذ في بعض الاحيان ، وان يتعاون مع الآخرين ، وكيف يتبادل معهم المسئوليات والالتزامات (كورنيليوس ، ١٩٤٩) . وهو يتعلم أيضا ان يقبل الخسارة او الهزيمة في بعض الاحيان مثلما يغتبط بالكسب والفوز (ديوا ، ١٩٥٢) . وفي اللعب يمارس الطفل ادوارا مختلفة كثيرة ، يتعلم منها الادوار التي تعطيه رضا اكثر ، وفي نفس الوقت تمكنه هذه الادوار من اقامة علاقات مشبعة مع الآخرين (جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

والواقع أن الكثير من تكوين **النظام الاخلاقي المعنوي للشخصية** يستمد اصوله من الانشطة والممارسات السلوكية التي يعيشها الطفل في سنواته الاولى . فمنذ فترة مبكرة من حياة الاطفال ، يقوم الكبار بتوجيههم الى معايير السلوك ، ويطلبون منهم الالتزام بها ، ويتعلم

ما تعتبره الجماعة صوابا او خطا فى المنزل اوالمدرسة ، ولكن تدعيم تقبل المعايير الأخلاقية لايكون جامدا فى جماعة اللعب . فالطفل يعرف انه ينبغي أن يكون نزيها ، أمينا ، موضع ثقة ، لاعبا حسنا وخاسرا حسنا ، وقادرا على ضبط النفس ، اذا كان عضوا مقبولا من جماعة اللعب.

ويستوعب الطفل معايير السلوك الاجتماعى من خلال الاختلاط المباشر مع غيره من الاطفال والكبار ، ويكتسب بالتدريج القدرة على التنظيم الواعى لسلوكه وفقا للمعايير المرغوبة لهذا السلوك . فمعايير السلوك الاجتماعي تتجسد بدرجة كبيرة فى الدور الذى يقوم به الطفل فى اللعب ويتوحد معه ، وبالتالى تنتقل المعايير من مؤثرات خارجية الى معايير لذاته هو . فالدور يمثل فى هذه الحالة حلقة وسيطة بين الطفل وقواعد السلوك .

ويستند مضمون القواعد الاخلاقية المعنوية للسلوك فى اللعب ليس فقط على علاقات الطفل نفسه بالاشخاص المحيطين به ، بقدر مايستند ايضا على العلاقات المتبادلة بين هؤلاء الاشخاص، وخاصة فى نظامهم العملى والاجتماعي ، فورا. هذه العلاقات تكمن معايير معينة يبدا الطفل فى ان يدركها خلال لعبه ، وان يعيشها ويمارسها لتصبح جزءا من ذاته . وفى ذلك يؤكد « كارل روجرز » . فى الفصل الحادى عشر من كتابه عام (١٩٥١) انه فى بعض الظروف يشعر الفرد بموضوعات او احداث توجد خارجه لتكون جزءا من ذاته ، وخاصة اذا كان الفرد يدركها على أنها تحمل اهمية ومعنى بالنسبة له ، او اذا كان يحدث لديه « انضواء للأنا » ego-involvement فى هذه المواقف .

ولنا ان نعتبر فى اللعب ايضا « مجالا هاما لنمو عملية » الادراك الاجتماعى » social perception ، حيث أن « القدرة على الاحساس بشعور الآخرين empathic ability تنمو وتتطور من خلال العلاقات الاجتماعية التي يتعرض لها الطفل فى السنوات الاولى من حياته» (سعد عبد الرحمن ، ١٩٧١ - ١٩٧٧ ، ص٣٨١) وفى انشطة اللعب التى يعيشها الطفل يقف بدرجة كبيرة على « التشابة الحقيقى » actual similarity حيث تؤثر صورة الذات عند الفرد على تكوين مفهومه عن ذات الفرد الاخر ، وعلى « التشابه المدرك » perceived similarity الذى يدركه الفرد بين صورة ذاته وبين مفهومه عن ذات الآخرين (سعد عبد الرحمن ، ٧١ - ١٩٧٧ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١) .

فاذا كان الطفل فى اللعب يجرب ويختبر قدراته بدون ما التزام بمسئولية كاملة حيال افعاله (جيرسيلد ، ١٩٥٤) ، واذا كان يتعلم فى اللعب ان يميز بين الواقع والخيال ، فانه فى اللعب ، وفى سنوات الطفولة الاولى خاصة ، **يظهر الشكل الأولى للاحساس بالذات** لدى الطفل وفى علاقتها بموضوعات العالم المحيطة به ، فيبدا فى ان يكون صورة عن ذاته وادراكها على نحو متميز عن ذوات الآخرين او الموضوعات الموجودة فى الوسط المحيط به . وهذا المفهوم الاولى عن الذات self-concept يأخذ فى النمو والتطور بتزايد خبرات الطفل فى الانشطة التى يعيشها .

(٢) للعب قيمة تربوية

(اللعب تعلم)

اللعب ـ شكل رئيسي لنشاط الطفل ، فيه يجرى بدرجة كبيرة نمو الذاكرة والتفكير والادراك والتخيل والكلام والانفعالات والارادة والخصال الخلقية . ولكن لاينبغي أن نفهم من ذلك أن نمو هذه العمليات النفسية وخصائص الشخصية يحدث تلقائيا لدى الطفل لمجرد أنه يلعب فحسب . فلقد سار في هذا الشأن وجهة نظر تذهب الى أن الطفل الصغير يتعلم بوحي من خبرته الخاصة ، وانه بنفسه يتكشف هذا العالم . ولاشك أن الطفل يستوعب الكثير عن طريق المحاكاة المباشرة للأشخاص المحيطين به : فبهذه الطريقة أساسا يستوعب اللغة والكثير من خبرات الحياة . وهذه الخبرة التي يكتسبها الطفل بطريقة تلقائية واستقلالية ذات قيمة تربوية عظيمة : فهي تنمي فيه حب الاستطلاع والشغف ، والفاعلية ، والتزود بانطباعات عديدة عن العالم المحيط به ، والثراء الحسي ، الخ .

ولكن مبالغتنا ، من ناحية أخرى ، في تقدير قيمة هذه الخبرات القائمة في معظمها على مبادىء التعلم بالمحاولة والخطأ ، انما ينطوي على خطأ كبير . فهذه الخبرات ليست دائما مربية ، وليست في كل الاحوال بنائية ، بل كثيرا ماتجلب في ثناياها انطباعات وتصورات خاطئة يؤدي ترسيبها وتراكمها الى الانحراف بالخط النمائي للطفل ، فتسير عملية النمو في اتجاه سلبي ، قد يؤدي الى اختلال في التكوين النفسي للطفل .

فاللعب في حد ذاته لاينطوي بدرجة كبيرة على قيمة تربوية ، ولكنه يكتسب هذه القيمة اذا ما أمكن تنظيمه وتوجيهه تربويا . فلا يمكن أن تترك عملية نمو الاطفال للصدفة أو الخبرة العرضية ، فالتربية العفوية أو الفلسفة الترسلية Laissez-faire التي ذهب اليها « روسو » لاتضمن تحقيق القيمة البنائية للعب التي تكلمنا عنها ، وانما يتحقق النمو السليم للطفل بتأثير تربية واعية ، تضع في الاعتبار خصائص نمو الطفل ومقومات تشكيل شخصيته في سياق نشاط تربوي منظم هادف .

يتضح ذلك من نتائج سلسلة من الدراسات التجريبية اجريت على أطفال من سن ٥ ـ ٨ سنوات في عدد كبير من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية في انجلترا (جاردنر ، ١٩٤٢ ـ ١٩٤٨ ، ١٩٥٦) ، بلغت ١٨ مدرسة ابتدائية وروضة أطفال : منها ٦ مدارس تجريبية تقوم على استخدام نشاط اللعب كأساس وكطريقة للتعليم ، وكان يتراوح وقت هذا النشاط ما بين ساعة الى ساعة ونصف يوميا ، و ١٢ مدرسة تؤلف المجموعة الضابطة التي لم يكن فيها تقريبا توظيف للعب كنشاط للتعلم .

ولقد كشفت نتائج مجموعة المدارس التجريبية عن مستويات متقدمة للنمو في كافة جوانب بنية شخصية الطفل ، مقارنة بالمستويات الاقل التي ظهرت لدى المجموعة الضابطة ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ نمو مهارة جمع المواد بحرص ودأب ، لكي يجعل منها شيئا تعبيريا يثير اهتمامه وشغفه .

(٢) الرسم الحر بالاقلام والتعبير الحر عما يراوده من افكار فى رسومه ، (٣) نمو مهارة الاجابة على الاسئلة المنظمة الموجهة اليهم ، وتكوين الجمل المفيدة ، والتعبير الحر المباشر عن افكارهم (٤) نمو القدرة على عقد علاقات قائمة على الصداقة والود مع غيرهم من الاطفال او الكبار ، وحتى مع من لا يعرفونهم ، (٥) سلوك اجتماعى ناضج فى علاقاتهم مع الاطفال الاخرين ، (٦) التمكن من مهارات الكتابة بسرعة وبنظافة وباتقان ، (٧) القدرة على توجيه الانتباه الى مشكلات او انشطة يختارونها ، (٨) القدرة على تركيز الانتباه على العمل الذى يطلب الاطفال انفسهم ان يقوموا به ، والذى قد لا يستثير اهتمامهم بشكل مباشر فى اللحظة الراهنة ، (٩) القدرة على توزيع انتباههم من نشاط لاخر وفقا لمتطلبات الموقف ، (١٠) اكتساب مهارات جسمية حركية والافادة من تدريبات الالعاب الرياضية ، (١١) الانتظام فى انجاز الاعمال والواجبات المطلوبة منهم ، (١٢) زيادة الحصيلة اللغوية والقدرة على التعبير عن موضوعات معينة .

وقد قامت « جاردنر » بتتبع هؤلاء الاطفال فى بعض سنوات تعليمهم التالية ، ووجدت ان اطفال المجموعة التجريبية كانوا متقدمين فى النظام والاستقلالية والنضج الاجتماعى ، وفى التمكن من بعض المهارات ، كالتعبير بالكتابة او بالفن مثل الرسم او الموسيقى ، وكانت النتيجة ان حصيلتهم اللغوية والمعرفية عالية ، وتحصيلهم الدراسى مرتفع ، وميولهم المعرفية متعددة وعميقة ، وغير ذلك من مظاهر تقدم النمو .

وقد اهتمت دراسات اخرى فى انجلترا (مانسيل وايلفر ، ١٩٥٨) بالالعاب التمثيلية المسرحية للاطفال من سن ٥ — ١٠ سنوات ، وهى متنوعة من حيث المضمون او الشكل . فبعض الالعاب تستخدم العرائس لعرض مسرحيات تكاملية يشترك فيها الاطفال بادوار مختلفة ، وبعضها يقوم على العاب « الاسرة » و « المنزل » يعيش فيها الاطفال بادوارهم احداثا معينة . وكان الاطفال يثابون على اشتراكهم فى الاعداد والتنظيم الجيدين للعرض . وتوضح ملاحظات هذين الباحثين « ان تشجيع هذه الالعاب ، مثل « علاء الدين والمصباح السحرى » على اساس من اشتراك الاطفال فى الاعداد والتنظيم الجيدين يستثير اهتمامهم بطريقة بناءة . اما بدون الاعداد والتنظيم للعبهم فكان من المستحيل ان يأتى الاطفال بافكار اصيلة لحكاياتهم ومسرحياتهم ، ولا ان يعيشوا جو المسرحية او القصة ..... » .

وتولى الدراسات التربوية والنفسية فى روسيا للعب الاطفال ، واستخدامه كمدخل تربوى لتعلمهم ، اهتماما كبيرا . ونسوق مثالا من بعض هذه الدراسات : قامت « جوكوفسكايا » (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) بسلسلة من التجارب كانت تهدف منها الى ان الاطفال يكونون الظاهرات والاحداث والشخصيات فى لعبهم وبصورة خلاقة . قدمت الباحثة للاطفال قصة عن طفل نشط محب للاستطلاع وطائر طيب نشط فى عمله ايضا . وكان الهدف ان يتبنى الطفل فى لعبه دور الطفل البطل فى القصة ، وان يعكس مضمون القصة فى لعبه . وقد اتضح ان الاطفال من سن ٥ — ٦ سنوات (ويبلغ عددهم ٩٠ طفلا) استطاع ٤٦ منهم ان ينقلوا مضمون القصة الى لعبهم ، ويثرونه بخبراتهم الشخصية ، وان ١٥ من الاطفال استطاعو ان ينقلوا الى حد ما مضمون القصة فى لعبهم ، فى حين ان ٢٩ من الاطفال لم يستخدموا اطلاقا مضمون القصة فى لعبهم .

وفي المرحلة الثانية من هذه التجارب كانت تهدف الى اختبار اثر الاستشارة التربوية على تغيير العملية التي يعكس بها الاطفال مضمون القصة . ومن أساليب الاستشارة التربوية هذه : اعادة قراءة فقرات من نصوص القصة تكون ذات جاذبية أكثر بالنسبة للعب ، عمل محادثات مع الاطفال للوقوف على دوافع سلوك ابطال القصة . وقد اوضحت النتائج انه اذا كان ٥٠٪ من الاطفال في المرحلة الاولى من هذه التجارب لم يعكسوا مضمون القصة في لعبهم ، فانه بتأثير التنظيم والتوجيه التربويين لهذا النشاط من اللعب استطاع غالبية الاطفال ان يعكسوا ، بطرق مختلفة ، مضمون القصة ، ويلعبوا ادوارها في لعبهم ، ويعبروا عنها في انتاجهم . وتبين نتائج هذه الدراسات ايضا ان الذاكرة تثرى وتزداد سعتها وتكون فعالة اذا ما تجسد لعب الطفل في انشطة حية تستثير اهتمامه . وبالاضافة الى ذلك ، فان تقمص الطفل لشخصيات مرغوبة في القصة من ناحية ، وممارسته لادوارها وسلوكها من ناحية اخرى ، قد ادتا الى تغيرات بنائية في شخصية الطفل اجتماعيا وعاطفيا ، فقد صاروا اكثر صداقة وتعاونا وضبطا للذات ، الخ .

وهكذا ، اذا كانت نزعة الطفل الى اللعب تعبير عن حاجة اصيلة ، الا ان اللعب يصير وسيطا تربويا وخبرة مربية اذا ما خضع لاهداف تربوية محددة ، وتحقق في اطار خبرات تربوية منظمة . في هذه الحالة يصير اللعب مدخلا وظيفيا لتعلم فعال للاطفال .

٢ ـ للعب قيمة كلينيكية

(اللعب علاج)

ليس النمو في كل الحالات خبرة باعثة على الارتياح في نفوس الاطفال ، فالنمو ينطوي على تغيرات دينامية عديدة ، في داخل الطفل وخارجه ، في علاقته بنفسه ومع الوسط المحيط به . وقد تتضمن هذه التغيرات وبتأثير الضغوط والتوقعات الاجتماعية خبرات سلبية ، وهي ليست بقليلة ، قد يعاني منها الطفل ، ويتوتر بشأنها ، ويصطرع حيالها .

وتلعب اتجاهات الكبار ، وخاصة الوالدين والمعلمين ، واساليبهما في تربية الناشئة ، دورا كبيرا في تكوين المخاوف في حياة الاطفال ، وفي دفعهم الى مواقف باعثة على التوتر والصراع . فقد يفرط الاباء في القسوة او التدليل او التذبذب في تعاملهم مع الابناء ، وقد لا يكونون عادلين بين الابناء بسبب ترتيب ميلاد الطفل (كان يفرقوا الابن الاكبر او الاصغر بالعطف) او بسبب جنس الطفل (كمحاباة الطفل الولد) . وقد تؤدي احداث معينة في الاسرة الى تكدر انفعالي في حياة الطفل ، مثل ميلاد طفل جديد ، او حدوث تصدع في الكيان الاسري ونظام حياته بالوفاة او الطلاق ، او بسبب عدم الوفاق بين الزوجين . وقد يمر الطفل بخبرات غير سارة خارج نطاق اسرته ، في المدرسة او مع رفاقه . وقد يلقى احباطا في بعض المواقف حينما ترتطم اهدافه ببعض الصعوبات التي تعوقه عن تحقيقها .

تلك بعض عوامل النمو من المنظور السلبي . ولعلنا لانجانب الصواب اذا قررنا ان مايترتب عليها من خبرات سلبية كثيرا مايقع بشكل او بآخر في سياق عملية تطور نمو الاطفال . لذا ينبغي علينا كآباء ومربين ان نكون على وعي بالمصاحبات السلبية لهذه العملية ، وبكيفية تشخيصها وتدبر

علاجها ، وبان تنمي فى الطفل من ناحية اخرى قدرة عالية على « تحمل الصعاب » و « مواجهة المشكلات » ؛ لان الحياة الانسانية زاخرةبالصعاب والمشكلات .

الطفل بحاجة اذن الى « التخفف » من المخاوف والتوترات التى تخلقها الضغوط المفروضة عليه من بيئته،والاساليب غير الرشيدةفى تربية الأبناء . ومن الطرق الفعالة للعلاج النفسي فى هذا المجال ومع الاطفال خاصةمايعرف بطريقة « العلاج باللعب » او « اللعب العلاجى » . play therapy . هذه القيمةالعلاجية للعب قد تبينت من دراسات وبحوث عديدة :

فاللعب يساعد الطفل على التعبير عن انفعالاته (ميلليتشامب ، ١٩٥٢) . ويستخدم اللعب الخيالى كمخرج للقلق وللتوتر (سايموندس ، ١٩٤٦ ، آمين ورينيون ، ١٩٥٤) . والكثير من الحاجات والرغبات التي لايتحقق لها الاشباع فى حياة الطفل اليومية يمكن ان تلقى اشباعا فى اللعب ؛ وبالتالى تقل الاحباطات التي يخبرها الطفل فى المواقف المختلفة . وفى خلال اللعب ، يتمكن الطفل غالبا من تكوين وتنفيذ خطط تساعده على حل مشكلاته التى تحمل اهمية كبيرة بالنسبة له فى حياته الخاصة (روبرتسون ، ١٩٣٩ ، اكسلين، ١٩٤٧،ل.ب. ميرق ، ١٩٤٧ ، ميتشيل وماسون ، ١٩٤٨ ، فرانك وهارتلى ، ١٩٥١ ، هارتلى ، ١٩٥٢ ، هارتلى وآخرون ، ١٩٥٢ ، جرسيلد ، ١٩٥٤ ، وغيرهم كثير) .

ان الطفل فى انضرائه فى نشاط اللعب وتوحده مع ادواره يقوم بتحقيق عملية علاجية هامة وهى « تفريغ » رغباته المكبوتة ونزعاته العدوانية ومخاوفه وتوتراته واتجاهاته السلبية، و « نقلها » من داخله ، اى اخراجها من دفينة تكوينه النفسي ، الى الخارج ، اى الى اللعبة او ادوار اللعب .. فتراه احيانا ينهر دميته بعنف،او يعاتبها بلهجة درامية مؤثرة ، وربما يحطمها بلا هوادة .

فى هذه العملية العلاجية يحدث هكذا « تصريف » ventilation للتراكمات السلبية فى حياة الطفل النفسية ، و « ازاحتها » عنه ،فلا تتدعم فيه او تتاصل بداخله .

وتعتبر اساليب اللعب بالادوار والتمثيليات الاجتماعية (السوسيودراما) ذات فعالية فى ترشيد العلاقات بين جماعات الاطفال والتلاميذ،وفى افصاحهم من مخاوفهم واحباطاتهم حينما يدعون أنها تنتسب لغيرهم ، وفى الوعي بانفسهم (شيلو وفوكس ، ١٩٦٦) . ويؤدى اشتراك الاطفال فى المسرحيات النفسية الى تحسين تكيفهم مع انفسهم ومع الآخرين (روسينتال ، ١٩٥٢) .

ولا تعنى القيمة الكلينيكية للعب انها مجرد طريقة للعلاج ، ولكنها ايضا مدخل للتشخيص وطريقة لدراسة شخصية الطفل ومعرفة عالم الطفولة (ل.ب. ميرقى ، ١٩٥٦) والعلاج الناجح : ففي اللعب يكون الطفل على سجيته ،وتتكشف تلقائيا رغباته واتجاهاته ، ويتبين سلوكه على طبيعته : فها هو طفل يعنف دميته لأنها « لاتسمع كلام ماما » ويردد الكثير من الاوامر والنواهى التى تمطرها به امه ، يكشف عن أسلوب « متسلط » للتربية . وهنا يمكن لبين

« مصدر العلة » في بعض اضطرابات الطفل الانفعالية كالعدوان او الكذب مثلا . وفي اللعب وادواره يتضح العيان خصائص مميزة لبعض الاطفال كالطفل العصبي او الطفل المنطوي او الطفل العدواني او الطفل المسيطر او الطفل المدلل ، وغير ذلك من نماذج الاطفال الذين يعكسون بدرجة كبيرة أساليب خاطئة في تنشئتهم .

(٤) للعب الصغار قيمة ايضا بالنسبة للكبار

واذا كان اللعب يحمل تلك الاهمية البالغة بالنسبة للصغار ، فانه ايضا ذو قيمة عظيمة بالنسبة للكبار .

« **تعرفونهم من لعبهم** » ، ذلك مبدأ أساسي يمكن ان يفيد منه الكبار في فهم الاطفال والدخول الى عالمهم المتميز . فمن خلال لعب الطفل يكتشف الكبار الكثير من الاشياء عنه ، لايستطيعون التوصل اليها باية طريقة اخرى لما يتصف به لعب الاطفال من خصائص مميزة كما ذكرنا من قبل . فاللعب بالدمى يزود الكبار بمعلومات عن بيئة الطفل والاتجاهات التي كان هو موضوعا لها ، والاساليب التي ربي بها ، وتأثير هذه الخبرات المبكرة عليه ، وخاصة المترتبة على اتجاهات والديه نحوه (وينستين ، ١٩٥١) . ويتعلم الكبار كيف يعقد الطفل علاقاته مع الاطفال الآخرين ، ويقفون الى حد كبير على مفهومه عن نفسه ، وذلك من ملاحظة لعبه مع غيره من الاطفال (اكسلين ، ١٩٤٧ ، ١٩٥١) . وقد ثبت ان الرسوم التلقائية او الرسوم المعبرة عن موضوعات انسانية تكشف بجلاء عن توافقات الطفل مع الناس ، وعن ادراكه لذاته في علاقته بالآخرين (باش ، ١٩٦٥ ، ماكوفر ، ١٩٤٩ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

ومن انشطة اللعب يكتشف الكبار مواهب الاطفال وقدراتهم وابتكاريتهم منذ سن مبكرة ، وبالتالي يمكن رعاية هذه الامكانات وتعهدها بالتنمية منذ السنوات التكوينية الاولى ، فلا يحدث « فاقد في الابتكار » مع تطور نمو الطفل (تورانس ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٥) .

ويعرف الكبار انفسهم ايضا من خلال لعب الاطفال ـ فيمكننا ان نشبه لعب الاطفال باشكاله المختلفة كمرآة تعكس خصائص سلوك الطفل ومكونات شخصيته كمترتبات ناتجة عن أساليب الكبار ، وخاصة الوالدين ، في تربية الابناء ، ومن الممارسات الوالدية في الاسرة وما يخلقونه من جو اجتماعي نفسي في نظام الحياة الاسرية . فالطفل السوي ، وفي مقابلة الطفل المشكل ، دالة بدرجة كبيرة لحياة الكبار مع الاطفال ، ولأساليبهم في تنشئتهم لهم وتوجيه نموهم . هنا قد يستطيع الآباء خاصة والكبار عامة ان يعيدوا النظر في انفسهم من خلال تبصرهم باتجاهاتهم نحو ابنائهم ، فيسعون الى ترشيد هذه الاتجاهات والممارسات الوالدية ، او الى التخفيف من « وطأة » الضغط على الطفل . فقد يكتشف الوالدان ، مثلا ، وجود انفعالات سلبية لدى ابنائهم كالغيرة او العدوان نحو احد اخوتهم ، وذلك بسبب عدم العدالة في المعاملة ، او بسبب عدم وعي الوالدين بسلوكهما الذي قد يؤدي الى مثل هذه السلبيات في حياة الاطفال النفسية بل ان ماقد يتكشف من دلائل تنذر بالعصف بالنمو السوي لطفلهم ، ربما تجعل الآباء يعيدون النظر وبشكل جذري في فلسفتهم في الحياة وفي اسلوبهم فيها .

وكم يتعلم الآباء من الابناء !! وما اعظم هذا التعلم !! اليس فى حياة الطفولة وسلوك الأبناء توجيه للوالدين وترشيد لأسلوب حياتهما ؟ اليس فى تربية الآباء للأبناء اعادة تربية للآباء ؟

فى لعب الابناء ، ان شئنا ، علاج للآباء ــ فكم هو محبب الى نفس الطفل ان يجد والديه فى بعض الاحيان يشاركانه لعبه ولهوه ؟ وفى مشاركة الآباء للأبناء لعبهم تقريب بين عالم الكبار وعالم الصغار ، وتقليل للهوة بين هذين العالمين، وزيادة للفهم المتبادل بينهما . وفى مشاركتهم اطفالهم لعبهم ، يخبر الآباء « تجديدا للنفس »، اذ يقتربون من الطفولة . . من البراءة والنقاء . . وفى هذا « علاج نفسى غير مباشر » للوالدين والكبار . . و « تصافى » مع النفس حينما تقترب من صفاء الطفولة حيث يدركون « اصالة » النفس الانسانية كما تتجلى فى طفولتها ، ويقفون على ماقد تكون قد انتهت اليه حياتهم فى الرشد من تحريف لهذه الاصالة بتأثير عوامل الضغط والصراع فى البيئة .

ولعل هذا يدعونا الى ان نتبصر وجهة نظر العالم الامريكى أ . ماسلو (١٩٥٤ ــ ١٩٧٠ ، ص ٢٢٣) التى تؤكد على ان الخاصية الاساسية المميزة للطبيعة الانسانية العامة هى « الابداع » بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ، فهو الجوهر المتأصل فى الطفل منذ الميلاد بحكم كونه انسانا . لكنه قد يفقد هذا الجوهر بتأثير عوامل ثقافية غير موالية قد يخضع لها فى تطور نموه من مرحلة لأخرى ، ومع ذلك ، فهو قابل ايضا لاستعادة هذا الجوهر اذا ماخضع لتنبيهات ثقافية ملائمة .

انواع اللعب عند الاطفال

انشطة اللعب فى الطفولة متنوعة ــ فى شكلها ، ومضمونها ، وطريقتها . ويتوقف هذا التنوع على مستويات وخصائص نمو الاطفال فى الاعمار المختلفة ، استجابة لمطالب النمو واحتياجات الطفولة فى كل مرحلة من مراحل النمو . ويعكس هذا التنوع ايضا الظروف البيئية والثقافية والاجتماعية فى الوسط المحيط بالطفل . ويمكننا تصنيف اشكال او نماذج اللعب عند الاطفال الى الفئات التالية :

(١) الالعاب التلقائية

وهى تتمثل فى الاشكال الاولية للعب ، حيث يبدو نشاط الطفل حرا تلقائيا . ويتصف هذا النموذج من نشاط اللعب بغياب القواعد والمبادى المنظمة للعب ، لذا يكون فى معظمه لعبا انفراديا وليس اجتماعيا . فى هذا النشاط يلعب الطفل كلما رغب فى اللعب ، ويتوقف منه حينما لايبقى مهتما به .

وهذا النوع من اللعب يكون فى معظمه استقصاليا ، استكشافيا ، فيه يخبر الطفل بهجة عارمة من استثارة اعضاء الحس لديه ، وبالتالى يخبر احساسات مختلفة فى البداية يكون معظم لعبه باطرافه ، وفى حوالى سن الثلاثة شهور ينمو التحكم فى اليدين بدرجة كافية تمكنه من اللعب بالدمى او بأية اشياء اخرى تكون فى متناوله . وهو يأخذ فى تكشف هذه اللعب

والاشياء المختلفة الموجودة فى مجاله الحسى المباشر بواسطة المص والجذب والتلويح بها . ويتضمن اللعب التلقائى الحر استخدام الدمى، وان كانت غير ضرورية فى هذه المرحلة .

وينزع الطفل فى هذه المرحلة الاستقصائية للعب الى التدمير ، بسبب نقص الاتزان الحسى الحركي لديـه . فهو يجذب الدمى او الاشياء بعنف ، وقد يلقى بها بعيدا . وعند نهاية العام الثانى تقريبا من عمر الطفل ، يتحول اهتمامه الى اشكال اكثر تقدما وتعقيدا ، وان كان يعود من وقت لآخر الى هذا المستوى من اللعب . الا انه مع تطور نموه يصير هذا الشكل من اللعب اقل تلبية لحاجاته النامية ، وبالتالى يتخلى عنها بالتدريج لكي يفسح المجال امام اشكال اخرى .

(٢) الالعاب التمثيلية (اللعب بالادوار)

يتمثل هذا النوع مـن نشـاط اللعب فى تقمص الطفل لشخصيات الكبار او الاشخاص الاخرين كما تتضح من انماط سلوكهم واساليبهم المميزة فى الحيـاة ، التى يدركها الطفل عياليا وينفعل بها وجدانيا . فى هذا اللعب يعكس الطفل نماذج الحياة الانسانية والمادية ، المحيطة به ، وينمى مضمونا للعب . اى ان هذا النموذج من اللعب ينشأ استجابة لانطباعات انفعالية قويـة يتاثر فيها بنماذج من الحياة فى الوسط المحيط بـه .

وتنطوى الالعاب التمثيلية فى اصلها على الكثير من الخيال عند الاطفال . وفى هذا يكمن المغزى الابداعى لهذه الالعاب ، التى يطلق عليها « الالعاب الابداعية » . ويتفق هذا مع مايطرحه « تورانس » (١٩٦١) مـن تصورات ونتائج لدراساته فى ميدان الابتكار ، خاصة من المدخل التربوى الذى يتبناه لتنمية الابتكار عند الاطفال ، فالكثير مما يتعلمه الاطفـال فى سن ماقبـل المدرسة يقوم على الخيال والتخمين والتساؤلات والاستفسارات والتنقيب والاستكشاف ، وهو مايعكسه فى ادوار اللعب التى يعيشها بالخيال غالبا وبالواقع احيانا .

من اللعب الايهامى الى التمثيل الواقعى :

« اللعب الايهامى » makebelieve play أو « لعب التوهم » game of illusion ـ شكل شائع للعب فى الطفولة المبكرة ، فيـه يتعامل الطفل ـ من خـلال اللغة او السـلوك الصريح ـ مع المواد او المواقف كما لو انها تحمل خصائص اكثر مما تتصف به فى الواقع، فيه يعمل الطفل مع « اى خيط كما لو انه يخصه ذاته »ويضفى الحياة (الاحيائية animism) على الاشياء المختلفة التى يلعب بها ، كان تكون العصا حصانا مثلا . (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) .

يبدا تمثيل الشخصيات dramatic impresonation لدى الاطفال مبكرا فى حوالى سن العام تقريبا ، رغم ان الفترة العادية لظهور هذا الشكل من اللعب تقع بين سن العام والنصف الى العامين من عمر الطفل (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . ويتعلم الاطفال كثيرا فى لعبهم الايهامى من الاطفال الاكبر سنا ، وخاصة الاخوة . كما يؤدى وجود الطفل وسط مجموعة من الاطفـال متباينة فى اعمارها الى تعلم سلوك خيالى اكثر مما لو كان الطفل يعيش وسط مجموعة متجانسة من حيث السن والجنس ، لان الاطفـال الاصغر سنا يتعلمون بالمحاكاة مـن الاطفـال الاكبر سنا فى المجموعة (ماركى ، ١٩٣٥) .

هذا اللعب التمثيلي الخيالى يحقق وظائف كثيرة فى حياة الطفل : منها تنمية قدرة الطفل على تجاوز حدودة الواقعية ، وعلى ان يذهب الى ماوراء القيود التى يفرضها الواقع ، وتنمية القدرة على تحقيق رغباته بطريقة تعويضية ، والقدرة على تخليص نفسه من الضيق والسخط والغضب ، وعلى استبعاد أو مقاتلة الظروف التى تزعجه أو تخذله فى حياته الواقعية (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وقد لوحظ انه بقدرمايخبر الطفل احباطات قوية كثيرة ، يكون انشواؤه فى لعب ايهامى . لذا كثيرا ما يأتى الطفل السيء التكيف بألعاب ايهامية أكثر من الطفل المتكيف (سيموندس ، ١٩٤٦) . وفى هذا تبين ملاحظات بعض الباحثين (آمين وريتسون ، ١٩٥٤) أن الاطفال الذين يبدون بمستويات عالية من القلق ، يقضون وقتا أكبر فى اللعب الايهامى . فالطفل فى اللعب ــ كما تبين دراسات « بيلر » (١٩٥٢) ــ يدعى ان يكون هناك شخص يحبه ويعجب به ويرغب فى ان يضاهيه ، ويختلق مواقف يحاول فيها ان يكون بصورة افضل تلقى « استحسان » الكبار وخاصة الوالدين .

ويتبع اللعب الايهامى نسقا نمائيا محددا : **فقد لاحظ** « ماركى » (١٩٣٥) أن الاطفال قبل سن ثلاث سنوات قد اظهروا اهتماما مسيطرا بالاشكال التالية من اللعب الايهامى : (ا) **اضفاء صفات شخصية على الاشياء** personification كالتكلم مع الدمى او الاشياء غير الحية ، او كالالعاب التى تتضمن مخلوقات يتخيلها الطفل مثل « العفريت » او « البعبع » ، (ب) **الاستخدام الايهامى للمواد** make-believe use of materials ، كالتسمية التخيلية للاشياء مثل تسميته للعصا حصانا، او كالسلوك التخيلى الصريح البسيط مثل تناوله كوبا فارغا لكى يشرب منه ، (جـ) **المواقف الايهامية** make-believe situations ، التى تتضمن استخداما معقدا للمواد كبنائهم لمنزل . وفى معظم الحالات يرتبط لعبهم بالمواد الموجودة امامهم فى مجالهم الحسى العيانى المباشر . وبعد سن الثلاث سنوات ، يصير الاستخدام الايهامى للمواد هو أكثر الانشطة التخيلية المميزة للعب فى هذه الفترة . وكلما تطور نمو الطفل ، يزداد استخدامه للمواد بطرق أكثر تعقيدا ، كان يستخدم الرمل فى بناء نفق بدلا من مجرد حفره بجاروف . وبالاضافة الى ذلك ، يأخذ الطفل فى الاشتراك فى لعب يتضمن المواقف الايهامية ، والانشطة التركيبية من مواد خام ، والألعاب التمثيلية الأخرى .

ويأخذ اللعب الايهامى اشكالا مختلفة : فهذا النوع من اللعب مرآة للثقافة السائدة فى مجتمع الاطفال ، من حيث انه يعكس بالتمثيل الاحداث الجارية فى حياتهم اليومية . وكل شيء يسمعه الطفل او يراه يكرره بالمحاكاة فى لعبه (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) . ولا يعبر اللعب بالمحاكاة عن ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه الطفل فحسب ، وانما يعكس ايضا روح العصر الذى ينمو فيه الطفل . فالاطفال فى ظروف الحرب العالمية الثانية ، مثلا ، كانوا يلعبون بأشياء تخيلية تتضمن الجنود والدبابات والمدافع والطائرات ، وغير ذلك من الأنشطة التى ترتبط بالحرب ومواده ومواقفه (جاريسون ، ١٩٥٢) . وفى عالمنا المعاصر ، كثيرا مايستخدم الاطفال فى لعبهم نماذج تعبر عن مركبات الفضاء وارتياده، ومن الكثير من مظاهر التكنولوجيا المعاصرة

ويمكن ان نحدد المظاهر التالية كأشكال للعب التخيلى الايهامى (ميرق ، ١٩٣٧) : (ا) الموضوعات المنزلية ، كبناء منزل ، تأثيث منزل ، الطبخ ، تناول الطعام ، عمل حفلة شاى ، رعاية

الاطفال الصغار ، او ان يعملوا كآباء وامهات ، او كعريس وعروسة ، (٢) البيع والشراء ، (٣) الانشطة المتصلة بالمواصلات ، مثل ركوب سيارة او قطار ، او ان يكون الطفل مهندسا ، او بحارا في سفينة ، او طيارا يحلق بالطائرة (٤) توقيع العقاب ، كأن يلعب رجل شرطة يوقع العقاب على المخالفين ، (٥) اشعال الحرائق واللعب كرجال اطفاء ، (٦) القتل والموت ، (٧) لعب ادوار اشخاص خياليين مثل بابا نويل او سندريلا ، او غير ذلك مما هو شائع في بيئة الطفل من شخصيات خرافية . ويمثل « اللعب منزلا » نشاطا مرغوبا لدى الاطفال في سن ماقبل المدرسة ، يتضمن غالبا انشطة معقدة مثل الجلوس الى المائدة بنظام ، استدعاء الطبيب المريض ، او ايواء الدمية الى الفراش (بارلن ، ١٩٣٢) . ويميل الاطفال الاكبر سنا الى تمثيل القصص التي يسمعونها او يقراون عنها ، او يشاهدونها في التلفزيون ، فبدلا من ان يلعبوا ادوار الشخصيات المعتادة في الحياة اليومية ، فانهم يقومون بادوار الجان او الهنود الحمر او طرزان او « كاوبوى » ، ... الخ .

وينزع الطفل الى تمثيل هذه الادوار بدقة تبعث على الدهشة ، فحتى نبرة الصوت يستطيع ان يحاكيها بالضبط . ولكن الطفل ، من ناحية اخرى ، كثيرا مايضيف الى هذه الادوار خلقا وابداعا من عنده ، فتاتي الادوار بنماذج جديدة تعكس خبرات الطفل ورغباته . وكلما اخذ الطفل في النمو ، يصير بالتدريج بجانب ذلك اكثر اهتماما بالتفاصيل التي يعكسها في تمثيل الادوار ، واكثر ارتباطا بالواقع الذي يعبر عنه .

بذلك لاتقتصر الالعاب التمثيلية على نماذج الالعاب الخيالية الايهاميه فحسب ، ولكنها تشمل ايضا ، ومع تطور نمو الطفل ، العابا تمثيلية واقعية ، تتضح في النشاط المنظم للتمثيل في المدارس ، وفيما يقوم به الاطفال من روايات . ولعل الصحية التربوية التي تنادي بضرورة العمل على « مسرحية المناهج الدراسية » تنشد الافادة من المضمون النفسي للعب بالادوار وتوظيفه في استيعاب افضل للمواد الدراسية يرجى منه نمو للطفل ككل .

ورغم ان التطور الطبيعي للألعاب التمثيلية يبدو انها تتجه باستمرار نحو الارتباط بالواقع والتعبير عنه ، الا اننا كمربين ينبغي الا نجعلها « واقعا محضا فحسب » فتصير جافة غير مشوقة ، بل علينا ان نشجع فيها ايضا ذاتية الطفل وما تأتي به مواهبه من خلق وابداع متفردين . بهذا يتلاقى الخيال مع الواقع في نشاط خصب حي .

(٣) الالعاب التركيبية

يعتبر الاهتمام بالتركيب او البناء construction جانبا هاما من لعب الاطفال . هذا الشكل من اللعب كثيرا ما يكون حتى سن الخامسة او السادسة موضعا للصدفة . فالطفل يضع الاشياء بجوار بعضها justaposition بدون خطة مسبقة ، واذا حدث بالصدفة ان صارت هذه الاشياء تمثل نموذجا مالوفا فانه يبتهج لما حققه . ومن السادسة تقريبا يلجأ الاطفال الى استخدام المواد بطريقة محددة وملائمة في البناء والتشييد . ولا يكون لعب الطفل ابداعيا اذا كان واقعيا للغاية او خياليا مفرطا في خياله . ومع تطور النمو ، تنمو قدرة الطفل على التمييز بين الواقع والخيال . لم يصبح اللعب اقل ايهامية واكثر بنائية . وفي ذلك يختلف الاطفال بشكل واضح في قدرتهم على البناء والتركيب (م . فرنون ، ١٩٤٨) .

ويأخذ اللعب التركيبي البنائي constructive play اشكالا مختلفة ، فالنماذج الاولى من هذا اللعب تتألف من عمل عجينة من الطين ، جبال او انفاق من الرمل ، واللعب بالمكعبات والخرز والمقصات والطين الصلصال والالوان والطباشير واقلام الشمع ومواد القص واللصق ، الخ ويستخدم الطفل هذه المواد والادوات لعمل اشياء لها معنى محدد ، ويمكن ان يتعرف عليها بهذا المعنى . ‌في بناء المكعبات ، مثلا ، يعطي الاطفال ، بعد العام الثاني تقريبا ، اسماء لما يكونونه من نماذج مثل منزل او قارب ، الخ . ويكون بناء المكعبات بعد العام الثالث ، متسقا مع اللعب التمثيلي (جوانيلا ، ١٩٣٤) .

ويعتبر اللعب التركيبي من المظاهر المميزة لنشاط اللعب في مرحلة الطفولة المتأخرة (١٠ ـ ١٢ سنة) ، ويتضح في بناء الخيم والالعاب المنزلية والاكواخ ، وعمل نماذج من الطين الصلصال وتشييد السدود والخزانات . يأخذ هذا اللعب عند الاولاد بصفة عامة شكل العمل المتعدد الخشن ويتحقق ارتباطا بلعبهم خارج المنزل ، اما في حالة البنات فيأخذ اللعب التركيبي شكلا رقيقا محددا يتضح في عمل دمى من الورق او عمل ملابس لها ، وفي الرسوم والتلوين ، وعمل نماذج من الصلصال . وبالنسبة لبناء المكعبات ، تميل البنات الى تشكيل مناظر اكثر هدوءا للحياة اليومية وخاصة تلك التي تدور حول المنزل او المدرسة ، اما في حالة الاولاد فيكون بناؤهم للمكعبات اكثر تنوعا في طرقه ويركزون اكثر على المناظر خارج المنزل (اريكسون ، ١٩٥١) . اذن في هذا السن ، فان هذه الالعاب تبنى ان تعبر وتسبب ميل الاطفال الى العاب التشييد والبناء احد اوجه النشاط في المعسكرات التي يقوم بها الاطفال في هذا السن .

ومن الالعاب التركيبية الانشائية جمع الاشياء ، وهو نشاط يتضح لدى الاطفال منذ سن الثالثة ، حينما يبدون رغبة في ان يقوموا بجمع اشياء تستثير اهتمامهم في موقف معين . هذه الاشياء غالبا ما تكون في مرحلة الطفولة المبكرة بغير ذات قيمة . فحالما يجمعونها ، فانهم قد ينسونها او يعطونها اهتماما قليلا . وقد يضعونها في جيوبهم او في مكان معين بحجرة اللعب لم يطويها النسيان . ولكن منذ سن السادسة حتى المراهقة يتملك الاطفال ميل قوي الى القيام بنشاط جمع الاشياء والواقع ان هذا النشاط محبب للغاية لدى الاولاد في هذه السنوات ، رغم ان البنات يجمعن اشياء اكثر من البنين (دروست ، ١٩٣٢) . وينزع الاطفال الاكبر سنا الى حفظ الاشياء المتجمعة في اماكن خاصة حتى لا تتلف او تضيع ، كالبدروم او القبو او الصناديق او السلال او المكاتب وغير ذلك . ويصير الاطفال مع العمر اكثر انتقائية في اختيارهم للاشياء ، فيجمعون اشياء قليلة ذات جاذبية اكبر . ويميل الاولاد في كل الاعمار الى جمع اشياء متعددة مختلفة اكثر من البنات (هوايتلي ، ١٩٢٩) .

والواقع او الاباء والمعلمين ينبغي ان يعملوا على توجيه نشاط جمع الاشياء كنموذج من الالعاب التركيبية البنائية ، كنشاط تربوي ينتقل فيه الطفل من مجرد نزعة الى الجمع والاقتناء ، الى معالجة الاشياء على اساس من التعرف على خصائصها وادارة مناقشات وتساؤلات عن طبيعة ما يجمعونه من مواد ؛ واستكمال جمع اشياء تنتمي الى نفس فئتها . وفي هذا النشاط المنظم الهادف يقوم الطفل بعمليات عقلية ، كالفرز والتصنيف وعمل

المعارض او حتى المتاحف لما قاموا بجمعه ، وعمل رسوم وقصص عنها ، وغير ذلك من تعدد الانشطة البنائية .

وقد وفرت التكنولوجيا المعاصرة تأسيسا على الاهتمام بلعب الاطفال ، الكثير من الالعاب التركيبية ، وتتبارى المصانع والمؤسسات في ذلك : مثل نماذج الاشياء التي تقوم على الفك والتركيب ، وبناء قطع واشكال بنماذج وطرق مختلفة ، كبناء منزل او مستشفى او مدرسة ، وتصميم اشكال معبرة من مواد متعددة في الحجم واللون ، ونماذج السيارات والقطارات والسفن والالات وتركيبها الداخلي وكيفية تشغيلها . وتجرى صناعة ادوات اللعب هذه من مواد مختلفة كالمعادن او البلاستيك او الخشب او الجلد ، الخ .

في كل هذه الاشكال المختلفة ، يتصف اللعب التركيبي بخاصية اساسية وهي أن عالم الظاهرات المحيطة بنا يمكنه الطفل في نواتج مادية ، مثل تشكيل آلة من اجزاء مختلفة ، وعمل مبنى ، او رسوم تعبيرية . وينطوي الكثير من الالعاب التركيبية على استثارة لقدرات الطفل العقلية والمعرفية ، وعلى تكوين مهارات حركية لديه ، كما يمكن ربط هذا النوع من اللعب بأشكال اللعب المختلفة .

(٤) الالعاب الفنية

رغم ان الانشطة التعبيرية كالرسم والزخرفة والنحت والتصوير والموسيقى والرقص والغناء والاشغال اليدوية تدخل غالبا في نطاق الالعاب التركيبية ، الا اننا قد رأينا ان نجعلها فئة متميزة تعرف بالالعاب الفنية التي تختلف في جزء منها عن الالعاب التركيبية . فهي نشاط تعبيري فني جمالي ينبع اكثر من الوجدان والتذوق الجمالي والاحساسات الفنية ، بينما يعتمد التركيب اكثر على شحذ الطاقات العقلية المعرفية لدى الطفل ، وسوف نقتصر فيما يلي على مثال من الالعاب الفنية .

رسوم الاطفال :

وهي احد الانشطة الاكثر تعبيرا عن الناتج الابداعي عند الاطفال فالطفل الصغير ، وان كان لا يستطيع الرسم حقيقة بسبب نقص اتزانه العضلي ، الا انه يحظى ببهجة عارمة من « الخربشة » او « الشخبطة » scribling التي يعملها بقلم او باصبع من الطباشير ، ويعبر بها عن حركات فجة وبلا هدف غالبا . ويعني الرسم بالنسبة للطفل ، وسيلة للتعبير اكثر منها وسيلة لتكوين صور واشكال جمالية . ويعتبر الناتج النهائي اقل اهمية بكثير من تكوين هذا الناتج . وكلما صار ادراك الطفل اكثر قدرة على التمييز ، فان ثقته في قدرته على الرسم تأخذ في التناقص (جيزل وتومسون ، ١٩٣٤) .

والرسم تعبير عما يتجلى في عقل الطفل لحظة هذا النشاط . وتكون رسومه الاولى « رمزية » ، وليست نسخ مباشرة للاشياء . وهو يرسم الاشياء كما تجود بها ذاكرته ، ولكنه لا يهتم بالمنظور او النسب او العلاقات . وهو يحشد من التفاصيل ما يثير اهتماماته ، كان

يضع الازرار على السترة بينما يغفل مكونات ضرورية مثل جسم الرجل . وكلما صار الطفل اكثر نضجا ، يقوم من ناحية برسم « كروكى » للاشياء من ذاكرته ، ومن ملاحظاته المباشرة لها من ناحية اخرى . ويحاول الطفل ، منذ سن السادسة تقريبا ، أن يستنسخ ما يراه فى رسومه ويبدأ فى النظر اليها بدقة واضعا فى الاعتبار الحجم والمنظور وصحة التفاصيل . وحينما يصل الطفل الى سن الثماني سنوات تقريبا ، يكون الرسم المنظورى قد نما لديه جيدا (ليروى ، ١٩٥١) . وبعد هذا السن ، يتناقص بل ويندرق الغالب ما يعرف بشفافية الرسم transparency ، الذى يبدو فيه رسم الطفل لشىء او لشخص كما لو أننا نراه فى صورة بالاشعة (ليروى ، ١٩٥٠) . الا انه سرعان ما تختفى أصالة الطفل فى التعبير بالرسم ، عدا حالات الاطفال الموهوبين (كايى ، ١٩٤٧) . ويبدى الاطفال الصغار اهتماما باللون اكثر مما يفعل الاطفال الاكبر سنا الذين يهتمون بالشكل . ويستخدم الطفل الصغير اصابع الطباشير او الالوان الشمع اساسا فى رسمه ، بينما يميل الطفل الاكبر الى الرسم بالقلم .

وتزخر العاب الاطفال بالكثير من نماذج الانشطة الابداعية التى تتمثل فى استخدام أقلام الالوان والطباشير ، التى تسير بنفس الخط النمائى الذى يأخذه نمو رسوم الاطفال . فى سن العامين يبدأ الطفل فى تجربة أقلام التلوين ، وفى الثالثة يمكنه ان يتحكم فى استخدامها ، وفى الرابعة يدخل الخيال فى انشطته ، وفى الخامسة يبدأ فى ان يكون واعيا بذاته فى عمله (جيزل وآخرون ، ١٩٤٠) . ويأتى استخدام الطفل للالوان المائية بعد استخدامه لاقلام التلوين بفترة قصيرة . والرسم بالالوان المائية شكل شائع للتعبير عن الذات ، ويبتهج الطفل كثيرا من تغطيته لصفحات الورق بالوان زاهية يختارها ويؤلف بينها بدون اشراف او تدخل من الكبار . ويسعد الاطفال كثير بالرسم والتلوين بالاصابع .

واعتبارا من سن السادسة تقريبا ، يتمثل التعبير الاكبر فى الرسم فى العمل على اتقان رسم « الارضية » التى يجسد عليها موضوعات رسمه (بل ، ١٩٥٢) . يتضح هذا فى حالة استكمال الطفل لرسوم ناقصة او رسمه لموضوع كامل . فالرسم الناقص لرجل ، مثلا ، يمكن ان يعجل باضافة اجزاء الرسم ، ولكنه لا يفقد النظام الذى تبدو به الاجزاء . وفى الرسم الحر تبدو العينان فى الراس اولا ، ويميلان الى الظهور فى استكمال الرسوم قبل اية تفاصيل اخرى ، حتى ولو كان المطلوب هو استكمال الذراعين او القدمين وليس العينين (آمز ، ١٩٤٥) .

وتأخذ رسوم الاطفال للاشكال البسيطة : كالدوائر والمربعات والمثلثات ؛ خطا نمائيا مشابها ، كما يتبين من ملاحظات « جيزل وآمز » « ١٩٤٦ » . وحينما يكون تصميم الرسم صعبا على الطفل الصغير اذا اراد أن يستنسخه ، فانه يميل الى تبسيط الرسم وفقا لمبادىء معينة : كان يستبدل تصميما له معنى بتصميم يختفى منه المعنى ، وان يوحد و « يغلق » التصميم ؛ وان يدخل الائتلاف او التماثل او التسب المالوفة حينما لا توجد فى التصميم . وهناك ميل الى تقصير المستطيل ، والى تربيع اى شىء له زوايا ، والى استبدال الدائرة باى تصميم يقترب من الاستدارة ، والى توسيع الزوايا والى التبسيط ككل من طريق الغاء التفاصيل . « فالميل هنا – كما تقرر « هيلدريث » (١٩٤٤) من ملاحظاتها – موجه نحو استجابة اكثر

اعتيادية وبدائية ، تتمخض عن اقتصاد عقلي mental economy وعن جهد اقل » ويميل الطفل الى التعبير عن رسومه في « كليات » ،حتى حينما ينقصها الكثير من الاجزاء (هيلدريث ، ١٩٤٤) . وتأخذ رسوم الاطفال الصغار شكلا مبعثرا على الورقة بطريقة عشوائية ، ولكنه يميل ، كلما اخذ في النمو ، الى تجميع الرسوم المنفصلة في وحدات كلية (بارنهارت ، ١٩٤٢) .

ولما كان الطفل يرسم اساسا من وحي الانطباعات والآثار المخزونة في الذاكرة ومما تجود به سعة ذاكرته وفاعليتها ، فان رسومه عادة ماتكون غير دقيقة وغير مكتملة . ويتضح هذا في النقص الملحوظ في النسب كما نراه في رسمهم للاشخاص حيث يبدو الراس اكبر غالبا من الجذع ، كما يكون جامدا وغير معبر .

ويشيع الطفل نموذجا نمطيا في رسمه لكل الانسان ولكن باجسام وبارجل اربع كالحيوانات. فغالبا مايرسم الحيوانات برؤوس كراس الانسان ولكن باجسام وبارجل اربع كالحيوانات . ومن مميزات رسوم الاطفال الصغار الشفافية، فتبدو الحجرات مثلا من خلال الجدران . ولكن في حوالي السادسة أو السابعة من عمر الطفل تصير رسوم الاطفال عبارة عن تراكيب تتضمن علاقة بين الأجزاء المختلفة (جود انف وهاريس، ١٩٥٠ ؛ ميري وميري ، ١٩٥٠) . وحينما يرسم الاطفال بطريقة تلقائية ، فمن غير المعتاد لديهم ان يرسموا اى شيء غريب أو شاذ ، رغم ان الكثير من رسومهم قد تبدو بالنسبة للكبار « كاريكاتورية » (جيزل ، ١٩٢٨) .

ويعبر الاطفال في رسومهم عن موضوعات مختلفة ، تخضع للتغير من سن لآخر . فالاطفال الصغار يعبرون عادة عن أشياء واشخاص ومنازل وحيوانات مألوفة ، ويتضح الشكل الانساني اكثر في الرسوم . وتزخر رسومهم أيضا بالمنازل والاشجار ، بينما تقل الحيوانات في رسومهم . ويحب الاطفال الالوان في رسومهم ، رغم استخدامهم لها بطريقة غير ملائمة . ومعظم رسومهم نمطية ، والزخرفة غير متسقة ، والنسب غير متوازنة .

ومع تطور نمو الاطفال ، يعبرون اكثر تركيزا على رسوم الآلات والتصميمات وتقل الرسوم ذات الشكل الانساني . ويتزايد الاهتمام برسوم الحيوانات والمنازل والازهار والاشجار (هورلوك وتومسون ، ١٩٣٤ ؛ هيوز وستوكديل ، ١٩٤٠ ؛ الكيش ، ١٩٥٢) . وكثيرا ما يلجأ الاطفال الاكبر سنا الى رسم مناظر هزلية تعبر عن موضوعات ومواقف مختلفة (ويتى ، ١٩٤١ ، ١٩٤١ أ) .

وتتضح الفروق بين الجنسين في رسوم الاطفال منذ فترة مبكرة . فالاولاد يرسمون الاشكال الانسانية اقل من البنات ، ولكنهم افضل من البنات في مراعاة النسب الجسمية. وتميل البنات اكثر الى زخرفة رسومهن المعبرة عن اشكال انسانية . ويميل الاطفال اكثر بين سن الخامسة والحادية عشرة ، الى رسم الاشخاص من نفس جنسهم . ولكن من الحادية او الثانية عشرة ، تبدأ البنات في رسم اشكال تعبر اكثر عن الجنس الآخر . ومع ذلك ، فان الوعي بالفروق الجنسية يتضح في خصائص تعبيرية مثل الشعر والملابس وتعبيرات الوجه منذ حوالي السادسة من عمر الطفل . ويتضح في رسوم البنات الميل الى رسم الاشخاص بوجوه مكتملة اكثر غالبا مما يفعل الاولاد الذين يرسمون صورا جانبية للوجه (بروفيل) . وتزخر رسوم

الاولاد بالطائرات والدبابات ومناظر المعارك ، بينما تندر هذه في رسوم البنات . ويميل الاولاد الى رسم الآلات اكثر من البنات (جود انف ، ١٩٢٦ ، ويبدو ونولر ، ١٩٥٠ ، جوارز ، ١٩٥٢) .

ويعكس الاطفال ، الذين ينتمون الى اسرذات مستويات اجتماعية اقتصادية عالية ، في رسومهم تفاصيل اكثر من الاطفال الذين من نفس عمرهم ولكن من مستويات اقل (ويبدو ونولر ، ١٩٥٠) . كذلك يؤثر مستوى ذكاء الطفل على نوعية رسومه وعلى الموضوع الذى يعبر عنه (جود انف ، ١٩٢٦ ، آمز ، ١٩٤٥) . لذا يستخدم الرسم كطريقة لقياس ذكاء الطفل ، « اختبار رسم الرجل لجود انف » .

(٥) الالعاب الترويحية والرياضية

يعيش الاطفال انشطة اخرى من الالعاب الترويحية والبدنية ، يسعدون لها اكثرا ، وتنعكس بايجابية تامة على كافة جوانب شخصيتهم . فمنذ النصف الثاني من العام الاول من حياة الطفل ، يبدأ في الانجذاب الى بعض الالعاب البسيطة التى يشار اليها غالبا على انها « العاب الأم » mother games ، لان الطفل يلعبها غالبا مع الام .

وتخبر الطفولة انتقال نماذج من الالعاب من جيل لآخر كميراث ثقافي مثل « لعبة الاستغماية » و « السوق » و « الثعلب فات فات » وغير ذلك من الالعاب التى تتواتر تقريبا عبر الاجيال . ونجد الطفل ، بعد ان يتعلم المشي ، يحظى بسعادة كبيرة حينما يختبيء عن انظار الآخرين لكي يرى ما اذا كانوا يعثرون عليه ، واذا ما عثروا عليه فتنطلق صيحات الفرح وتتعالى ضحكاته .

وفي سنوات ماقبل المدرسة ، يصبح الطفل اكثر اهتماما باللعب مع الجيران فيما يعرف بالعاب الجيرة neighbourhood games وهي نمط من الالعاب تكون فيه جماعة اللعب غير محددة ، حيث يمكن ان يشترك في اللعب اى عدد من الاطفال . وفي هذا اللعب قد يقوم طفل واحد بتنظيم اللعبة ويدعو الآخرين الى اللعب معه ، كما قد يجرى تنظيمها بواسطة طفل اكبر او شخص راشد . في هذه الالعاب يقلد الاطفال بعضهم بعضا ويتبعون اوامر وتعليمات محددة من القائد الذى يتصدر اللعبة .

والالعاب في هذا السن بسيطة ومختصرة وقليلة القواعد ، وكثيرا ما تنشأ توا لدى الطفل وفي الموقف نفسه . وغالبا ما تخضع هذه الالعاب للتعديل كلما مضى الاطفال في اللعبة (ربسي ، ١٩٥٤) . ومن امثلة هذه الالعاب « الاستغماية » والاختباء والمطاردة ، وقد يستخدم الاطفال ادوات للعب ، مثل ادوات المطبخ او حجرة نوم او صالون او مواصلات ، في تنظيم هذه الالعاب .

وفي حوالى سن الخامسة ، يقوم الطفل بالعاب لكى يختبر بها مهاراته ، كالسير على الحواجز الموجودة في الشوارع وعلى رصيف مكسر والقفز من اماكن عالية ، او يحجل على قدم واحدة ، او الوثب ونط الحبل ، او التقاط الكرات برشاقة ، الخ . وهذه الالعاب تقوم على تنظيم اجتماعي اقل من العاب الجيرة ، لانها فردية اكثر منها جماعية ، ولان عنصر التنافس

فيها ذو اهمية قليلة نسبيا . ويعتمد نمط الالعاب هذه بدرجة كبيرة على مستوى النمو الحركى والعقلى لدى الطفل (جيرسيلد، ١٩٥٤).

وفى سنوات ماقبل المراهقة ، تصير الالعاب غالبا تنافسية فى مضمونها : فيتخلى الاطفال عن الالعاب الفردية ، وتتحول العاب الجيرة **الى العاب الفريق او الالعاب الثنائية** ، والان يصير اهتمام الطفل متمركزا حول المهارة والتفوق . والمعروف ان الطفل فى البداية يكون فرديا ، قليل التعاون فى لعبه ، لانه يبتغى السيطرة على اللعب بدلا من تحديد جهوده فى اطار دوره . الا انه يتعلم بالتدريج التعاون مع الآخرين المشتركين فى اللعب ويتبادل ادوار اللعب معهم ، ونتيجة لذلك فانه يحظى بغبطة اكبر ، لانه عضو فعال فى فريقه ويتعاون مع اعضائه ويخضع لقواعده .

وليست الالعاب الترويحية والرياضية باعثة على البهجة فى نفس الطفل فحسب، ولكنها ايضا ذات قيمة بالغة كوسيط التطبيع الاجتماعى له . فمن هذه الالعاب ، ومن غيرها ايضا ، يتعلم كيف يسلك وينسجم مع الاطفال الاخرين، وكيف يتعاون فى الانشطة المختلفة ، وكيف يلعب دور القائد احيانا والتابع فى مواقف اخرى ، وكيف يقدر نفسه ويقيم قدراته بطريقة واقعية عن طريق مقارنة نفسه بزملائه المشتركين معه فى اللعب . وفى ذلك يؤكد « دى بوا » (١٩٥٢ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١) على قيمة هذه الانشطة فى تنشئة الطفل وفقا لمعايير الصحة النفسية السليمة :

« فهذه الانشطة تتحدى الطفل لكى ينمى مهارة ، او يكون عادة ، وفى سياقها يستثار بالنصر ويبذل جهدا اكبر . وحينما لايشترك الناس فى صباهم فى العاب رياضية ، فانهم يحصلون على تقديرات منخفضة وفقا لمقاييس التكيف الاجتماعى والانفعالى الناجحين . فمثل هؤلاء الاشخاص كثيرا مايتزعمون الشغب ويثيرون المتاعب ، لانهم لم تكن لديهم الفرصة لان يتعلموا كيف يكسبون بتواضع ، او يخسرون بشرف وبروح طيبة ، او يتحملون التعب الجسمى فى سبيل تحقيق الهدف . وباختصار، فان اشخاصا كهؤلاء لايحظون بميزة تعلم نظام الروح الرياضية الطيبة ، وهى لازمة للغاية لحياة سعيدة عند الكبار » .

والواقع ان ما تحققه الالعاب الرياضية من فوائد ملموسة ومعروفة تتعلق بتعلم المهارات الحركية والاتزان الحركى والفاعلية الجسمية لايقتصر على مظاهر النمو الجسمى السليم فقط، وانما ينعكس كذلك على تنشيط الاداء العقلى كما يتضح من نتائج اختبارات الذكاء ، وعلى العمل الاكاديمى كما يتضح من نتائج اختبارات التحصيل المدرسية ، بل وعلى الشخصية ككل متكامل .

فقد بينت بعض الدراسات (ابرنيثى ١٩٣٦، ، بايلى ، ١٩٤٠) وجود علاقة ايجابية بين ارتفاع الذكاء والنمو الجسمى الافضل لدى الاطفال منذ الطفولة المبكرة وحتى نهاية المراهقة، بسبب عوامل رعايتهم كالتغذية وممارسة الالعاب الرياضية . ومن ناحية اخرى ، كشفت بعض الدراسات (جونز ، ١٩٥٤) عن علاقة عكسية بين نقص النمو الجسمى والتحصيل الدراسى، اى ارتباط قلة الفاعلية الجسمية بانخفاض مستوى تحصيل الطفل دراسيا . ومع ذلك ،

فان نتائج الدراسات فى هذا الميدان ، وان كانت لها دلالتها عملا بالقول المأثور « العقل السليم فى الجسم السليم » ، فانها لازالت غير قاطعة ، وتدلكون متضاربة احيانا ، وغير دالة فى احيان اخرى .

(٦) الالعاب الثقافية

للطفولة ثقافتها .. تعبر عن حاجة اصيلة فى الاطفال وهى « الحاجة الى الاستطلاع » (برلاين ، ١٩٦٥) كما تبدو فى النزعة الى التعرف على العالم المحيط بهم ، والى ادراك العلاقات فيه ، والى الرغبة فى المعرفة . وتعكس ثقافة الاطفال ، من ناحية اخرى ، اسلوب حياة الجماعة كما يتضح فى النواتج المادية والمعنية والرمزية التى يهيئها الكبار لعالم الصغار : وفى فلسفة واساليب تنشئة الكبار للصغار .

ومن الاساليب الفعالة فى تثقيف الطفل مايعرف بالالعاب الثقافية ، حيث يكتسب الطفل اساسا معلومات ومعارف وخبرات من خلال نشاط مثير لاهتمامه يأخذ شكل اللعب بدرجة كبيرة . ورغم أن الطفل يكتسب زادا معرفيا من الاشكال والنماذج المختلفة للعب ، الا أنه يمكن أن نحدد اساليب معينة للالعاب الثقافية كالقراءة ، وبرامج الاطفال بالاذاعة والتلفزيون ، وسينما ومسرح الاطفال . وسوف نقتصر الآن على القراءة كنموذج من الالعاب الثقافية .

القراءة عند الاطفال :

من الخطأ الاعتقاد بأن القراءة عند الاطفال تبدأ مع تعليمهم للقراءة والكتابة وتمكنهم النسبي منهما ، فللقراءة اصولها التطورية التى تنمو مع الطفل .

فمنذ العام الاول نجد ان الطفل الرضيع يحب ان يسمع غناء الكبار حيث يغتبط للاصوات الايقاعية المصاحبة لترديد الام لكلمات او اغان حانية تغريه بالنوم ، وحيث يبتهج لما فى دور الحضانة من الوان الايقاع التى يجرى تناوبها او تسميعها بصوت غنائى . وفى حوالى العامين ، يحب الطفل أن ينظر الى الكتب المصورة التى تحوى صورا كبيرة مطبوعة بالوان زاهية للناس والحيوانات ولاشياء منزلية مالوفة ، الخ . وهم يستمتعون ، حينما ينظرون الى الصور ، بان تحكى لهم قصصا بسيطة عن هذه الصور . وحتى اذا لم يستطع الطفل فهم الكلمات ، فانه يستمتع بانسياب الاصوات ، وبما يحدثه القارئ من تغيرات فى مقام الصوت ، وبتعبيرات وجهه . وبالاضافة الى ذلك ، تعتبر القراءة للطفل الصغير خبرة سارة ، وخاصة اذا كان جالسا على « حجر » امه او شخص عزيز عليه (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وتنطوى الخبرات القرائية المبكرة على تأثير واضح على نمو الميول القرائية لدى الطفل فيما بعد ، فهى تؤثر ليس فقط على كمية ما يقرأ ولكن ايضا على نوعية ما يقرؤه (جيتس ، ١٩٤٩ ، رسل ، ١٩٤٩ ، افرون ، ١٩٥٣) .

لذلك يمكن ، والى حد كبير ، تبين الميول القرائية عند الاطفال منذ مرحلة مبكرة . فالكتب المصورة والقصص التى يقرأها الكبار للطفل والتى يعرفها غالبا عن ظهر قلب ، غالبا ما تجذب الاطفال خلال سنوات الطفولة المبكرة . ويحب الطفل فى هذا السن أن تكون كتبه صغيرة حتى يستطيع أن يمسكها بسهولة وان تحوى صورا جذابة وقصصا قصيرة . ولما كان الطفل لا يفهم

دائما معنى الكلمات التي يسمعها من قراءة القصص له ، فانه يسعد بالانصات لهذه القصص في عبارات مقفاة او في ايقاع منغم (جاريسون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وغالبا ما يميل الاطفال الصغار الى القصص الواقعية . ولكن بقدر ما تكثر حقائق الحياة امام الطفل الصغير ، يزداد عدم ميله للخيال في القصص . ولاتجاه الام نحو الخيال تأثير هام على الطفل . فالام التي تشعر ان الخيال غير ضروري او انه يشجع على الهروب من الواقع ، تؤثر في تفضيل الطفل للواقعية في قصصه . ومع ذلك ، فان معظم الاطفال الصغار يستمتعون بالخيال في القصص ، ويميلون الى « التوحد » مع شخصيات القصص التي يسمعونها (ولفنشتاين ، ١٩٤٦) .

والطفل الصغير ليس حرا في انتقاء ما يريد ان يقرأه له الكبار . فالكبار في حياته ، من اباء او مدرسين في دور الحضانة ورياض الاطفال يرودونه بكتب عليه ان يختار منها القصص التي يحب سماعها . لذا يفضل معظم الصغار قصصا تدور حول اشخاص وحيوانات مألوفة في حياتهم اليومية . ويميلون ايضا الى القصص الكلاسيكية مثل (سندريلا) و « على بابا والاربعون حرامي » والقصص العصرية مثل القصص التي تدور حول الفضاء ورواده ، والقصص الفكاهية والدرامية . وتتألف الشخصيات المحببة اليهم في هذه القصص من الحيوانات والاولاد والبنات ، مع الاهتمام الضئيل بالكبار والاطفال الرضع والجان . ويتحدد ميلهم الى تلك الشخصيات المحببة بما يتصفون به من خصائص مؤثرة او من مرح وفكاهة . ويميلون ايضا في سنوات ما قبل المدرسة ، بسبب ما يتصفون به من « احيائية » animism (اي اضفاء الحياة على الاشياء) ، الى القصص التي تدور حول حيوانات تسلك كالكائنات الحية الانسانية (ولسون ، ١٩٤٣ ، وي واخرون ، ١٩٤٩ ، فريدسون ، ١٩٥٢) .

والاطفال الاكبر سنا ، كالصغار ايضا ، محكومون الى حد ما فيما يستطيعون قراءته بما ييسره لهم الوسط المحيط بهم : في البداية يتحدد نطاق قراءاتهم بالكتب التي يمدهم الوالدان بها . وبعد فترة ، قد يستعيرون الكتب من اصدقائهم او من المدرسة او المكتبة العامة . ومع ذلك ، فان الطفل يخضع لضغوط ثقافية معينة تؤثر في تكوين اهتماماته بالقراءة . فهو يتعلم ان يقرأ ما يقترحه الكبار عليه وما يعتبر ملائما لجنسه (تشايلد وآخرون ، ١٩٤٦ ، سيوارد وهاريس ، ١٩٥١ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) . ويتأثر الى حد كبير مقدار ما يقرأه ونوعية قراءاته بالقيم والاهتمامات السائدة في طبقته الاجتماعية . وبالمستوى الثقافي للاسرة (وادنر ولونت ، ١٩٤١ ، براون ، ١٩٥٤) .

ومع تطور النمو ، تخضع تذوقات الطفل في القراءة للتغير . فهو يطلق على ما لا يحبه بانه « طفلي » ، وبسبب ذلك ، ان ما كان يستثير في الماضي لم يعد يشد انتباهه الان . وبتأثير نموه العقلي وازدياد خبراته المدرسية ، يصبح اكثر واقعية ، ويعتبر اي شيء يتعلق بالخيال على انه « زيف » او « دجل » (فريدسون ، ١٩٥٢) .

ولا يستطيع الكبار دائما التنبؤ بميول وتفضيلات الاطفال في القراءة وانتقاء الكتب ، فتفضيل الطفل للواقعية او الخيالية يتوقف بدرجة كبيرة على ما اذا كان قد تعلم حب الخيال في الطفولة المبكرة ، وعلى اتجاهات والديه في هذا الشأن . وقد يجذب شكل الكتاب وما فيه

من صور ورسوم ايضاحية بعض الاطفال اكثر من غيرهم ، كما ان ما يتجذب اليه الاطفال يكون غالبا مختلفا عما يتجذب اليه الكبار . كما ان القدرة القرائية لدى الطفل سوف تحدد ما الذى سوف يحبه ويفضله . فالاطفال الذين يلاقون صعوبات فى القراءة يفضلون كتبا ذات مستوى اقل مما يميل اليه الاطفال المتفوقون فى قدرتهم القرائية . ويؤدى الاهتمام الزائد بالوصف ويحشد الكتاب بالكثير مما هو غريب على الطفل الى جعل الكتاب غير مالوف لديه ، رغم تقدير الكبار لمثل هذا الاتجاه فى اعداد كتب الاطفال (ويليامز ، ١٩٣٦ ، رانكن ، ١٩٤٤) .

وتكشف الدراسات الخاصة بالميول القرائية لدى الاطفال فى سنوات المدرسة عن تفضيلات معينة لانماط من الكتب فى اعمار مختلفة ، فما يحصل عليه الطفل الاكبر من متعة القراءة يرجع غالبا الى اشباع روح المغامرة التى تكون قوية لديه فى هذا السن . واذا ادخلنا الطفل فى عالم خيالى نخلقه له بواسطة الكتاب ، فانه يتخيل نفسه وكانه يقوم بعمل الاشياء التى يحب ان يعملها ولا يكون قادرا على الاتيان بها فى حياته اليومية . وفى حوالى السادسة او السابعة ، تتركز اهتمامات الطفل بالقراءة حول قصص عن الطبيعة والرياح والطيور والاشجار والزهور . وفى هذا السن يبدأ الاهتمام بحكايات تتعلق بالجان او الشخصيات الخرافية ، ولكنها ينبغى ان تكون قصيرة وبسيطة وفى شكل حوار غالبا .

وتصبح الحكايات المتعلقة بالجان او الشخصيات الخرافية fairy tales اكثر الوان القراءة تفضيلا لدى الاطفال . فالعنصر الخيالى فى هذه القصص تكون له جاذبية اكبر فى نفس الطفل فى هذا السن . ويتزايد اهتمام الطفل فى هذه الفترة ايضا بالقصص التى تدور حول اجزاء اخرى من العالم ومن حياة الشعوب ، وخاصة اذا كانت تتمركز حول الاطفال .

وفى نهاية مرحلة الطفولة الوسطى ومع بداية الطفولة المتاخرة (اى فى حوالى التاسعة او العاشرة من عمر الطفل) ياخذ الاهتمام بمثل هذه الحكايات فى الانطفاء . ويعزى ذلك الى تلك الحقيقة بان ما يتلقاه الطفل فى المدرسة من تعلم وتدرب يجعل من الصعب عليه ان يعتقد فى مثل هذه العناصر الخرافية التى تتضمنها هذه القصص . ويصدق هذا خاصة على الاولاد الذين تنتقل اهتماماتهم القرائية الى القصص التى تدور حول حياة الاولاد ، مثل الكشافة والجوالة . ويميلون ايضا الى قصص المغامرة والكوميديا والرعب وقصص الاشباح . وفى نهاية الطفولة تبرز الرغبة الملحة فى القراءة التى يصير لها الان مكانة عالية بين اكثر انشطة اللعب التى يميل اليها الطفل . وينطبق هذا على البنات بصورة خاصة . بل انه لمن المالوف تماما عند الاولاد والبنات فى هذا السن ان يقراوا فى كل شهر كتابا او كتابين من اجل الاستمتاع .

اما فى مرحلة المراهقة ، فان الاهتمامات والميول القرائية لدى المراهقين تصبح اكثر صقلا وتبلورا واكثر اتساعا من الناحية العقلية . ويرجع هذا التغير الى نمو قدرتهم على التفكير التجريدى ، والى ازدياد خبراتهم ومعارفهم بالتعلم المدرسى . فى هذه المرحلة يكون الاطفال اكثر نضجا فى نظرتهم الى الامور ، وبالتالى فى ميولهم القرائية . فبينما يهتم الاولاد غالبا بموضوعات تتعلق بالعلم والاختراع ، تهتم البنات بالشئون المنزلية والحياة المدرسية . وفى المراهقة يصل الولع

بالقراءة الى ذروته . وترجع هذه الظاهرة الى نزعة المراهقين الى الانعزال بسبب ما تخبره هذه المرحلة من تغيرات جذرية فى داخل المراهق وخارجه ، وما قد يترتب على ذلك من مشكلات قد تجعله مهموما ومشغولا ، وبالتالى يلجأ الى الانهماك فى القراءة هروبا من مشكلاته أو صراعاته فى هذا السن . كذلك ترجع هذه الظاهرة الى الطفرة فى نموه العقلى والمعرفى ، والى تفرع نشاطه العقلى وتمايز قدراته الخاصة .

ولما كانت المراهقة مرحلة تسيطر فيها نزعة قوية الى التعلق بالابطال وعبادة البطولة ، فان الكتب التى تزخر بالابطال التاريخيين والخرافيين ، مثل سير العظماء ، تلقى هوى فى نفوس المراهقين . ويهتم الاولاد فى هذا السن بالاختراعات والمغامرة ، بينما تهتم البنات اكثر بالكتب المتعلقة بالمنزل والحياة فى المدرسة والجامعة والقصص المكتوبة عن الاولاد والكتب المتعلقة بالطبيعة والكتب الدينية . ومع تعاقب سنوات المراهقة ، تأخذ ميولهم القرائية فى التعلق والتأصل (تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، وتى وآخرون ، ١٩٤٦ ، لينيس ، ١٩٥١ ، جاريسون ، ١٩٥٢ ، فريدسون ، ١٩٥٣) .

والواقع ان عادات الالفة بالكتاب والاستئناس للقراءة ، ومهارات البحث والتنقيب عن المعرفة ، تمثل احد المقومات الاساسية التى تقوم عليها فاعلية النشاط العقلى المعرفى . لذلك ينبغى ان تتكون هذه العادات والمهارات منذ الطفولة ، وان تتأصل عند الاطفال مع انتقالهم من مرحلة لاخرى من مراحل تطور نموهم .

• • •

العوامل المؤثرة فى لعب الاطفال

لعب الاطفال ، كما يتضح من التحليل السابق ، يأخذ اشكالا ونماذج مختلفة ، فلا يلعب كل الاطفال بنمط واحد من النشاط ، ولا يلعب كل طفل فى كل وقت بشكل او نموذج بعينه . واذا كانت اهتمامات الاطفال باللعب تأخذ خطا نمائيا معينا ، الا أن لعب الاطفال هكذا لا يعد نشاطا يجرى بصورة مطلقة ، ولكنه يخضع للكثير من التباين والمغايرة الذى يعزى الى واحد او اكثر من العوامل التالية :

الحالة الجسيمة :

من المعروف ان الاطفال الاصحاء بدنيا يلعبون اكثر من الاطفال معتلى الصحة ، ويبذلون جهدا ونشاطا اكبر توظيفا لما لديهم من طاقة . ويتضح من ملاحظات المعلمين فى المدرسة الابتدائية والمشرفين على دور الحضانة ورياض الاطفال أن الاطفال ناقصى التغذية والرعاية الصحية اقل لعبا واقل اهتماما وعناية بالالعاب والدمى التى تعطى لهم .

ويلعب مستوى النمو الحسى ـ الحركي فى سن معينة دورا هاما فى تحديد مدى نشاط اللعب عند الطفل . فمثلا ، حينما لا يكون الطفل قادرا على قذف الكرة والتقاطها ، فلن يستطيع مشاركة اقرانه فى الكثير من العاب الكرة . ويؤدى نقص التناسق الحركى الى اعاقة الطفل

من ممارسة الالعاب التى تقوم على التقطيع والتركيب والرسم والزخرفة والعزف على الآلات الموسيقية .

وقد تبين من بعض الدراسات التى قامت على استخدام مواد من اللعب ، كنماذج لعربات القطار والدراجات (جونز ، ١٩٣٩) ، أن لعب الطفل يتوقف بدرجة كبيرة على مستوى الاتساق العصبى العضلى الذى وصل اليه الطفل : ففى سن ٢١ شهرا ، على سبيل المثال ، يستطيع جذب ودفع الدمى ، وفى سن ٢٤ شهرا يستطيع جذبها ودفعها بتحكم وتوجيه ، وفى سن ٢٩ شهرا يستطيع تسييرها لحوالى سبعة ونصف قدم. وفى سن الثلاث سنوات يستطيع تسييرها بمهارة ولا يستطيع الطفل أن يمسك القلم باتساق ويستخدمه فى الكتابة باتقان قبل سن السادسة تقريبا ، لان عضلاته الدقيقة وتآزر الآليات العصبية العضلية اللازمة للكتابة لم تنضج بعد بدرجة كافية .

المستوى العقلى :

يتأثر لعب الطفل منذ المهد بمستوى ذكائه . فالاطفال النابهون اكثر لعبا واكثر نشاطا فى لعبهم من الاطفال الاقل ذكاء ، كما يكشف لعبهم عن فراهة وابداع اكبر . ومنذ العام الثانى ، تبدو الفروق واضحة بين هؤلاء الاطفال فى نشاط لعبهم . فالطفل الاكثر ذكاء ينتقل بسرعة من اللعب الحسى الى اللعب القائم على المحاكاة ، ويبرز عنصر الخيال جليا فى لعبه . ولا يتضح هذا التطور فى لعب الاطفال الاقل ذكاء ، حيث يأخذ لعبهم مع انقضاء الشهور والسنوات شكلا « نمطيا » لا يتضح فيه مظهر اساسى للتغير ، فيتخلفون عن اقرانهم من نفس السن فى مدى نشاط لعبهم وانواعه وأساليب ممارساتهم فى اللعب . ومع مرور الوقت ، تأخذ هذه الفجوة بين لعب الاطفال الاذكياء والاقل ذكاء فى الازدياد ، وفقا للمستويات العقلية المختلفة . ومن ناحية اخرى ، حينما يختلف لعب الطفل كثيرا عن لعب الاطفال الاخرين من نفس السن ، فان ذكاء الاطفال يأخذ فى الانخفاض كثيرا (هولينجوارث ، ١٩٢٦) .

وفيما يتعلق باختيار مواد اللعب ، يبدى الاطفال العاديون او ذوو المستويات الاعلى فى الذكاء تفضيلا لمواد اللعب التى تعتمد كثيرا على النشاط التركيبى البنائى بدرجة اكبر من الاطفال ضعاف العقول . كما يبدى الاطفال العاديون والاذكياء ثباتا اكبر فى طول فترة اهتمامهم بمواد اللعب التى يختارونها (هورن وفيلليس ، ١٩٤٢) .

وتبين بعض الدراسات (ما يبورى ، ١٩٥٢) أن الاطفال الذين حصلوا على نسب ذكاء عالية فى سنوات ما قبل المدرسة قد اظهروا اهتماما واضحا بالاجهزة والمواد التى تستخدم فى الالعاب التمثيلية والانشطة الابتكارية ، مثل الصلصال والمقصات والرسم والزخرفة والالعاب التركيبية. وكان اهتمامهم بالكتب لاجل الحصول على المعرفة والاستمتاع والانسحاب من الجماعة .

وكلما تقدم الاطفال فى السن ، تصبح هذه الفروق فى اللعب بين الاطفال المرتفعى الذكاء والمنخفضى الذكاء اكثر وضوحا . فالاطفال النابهون يبدون اهتماما بمجموعة كبيرة من انشطة اللعب ، ويقضون فيه وقتا اكبر (ليهمان وويتى ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ،

١٩٣٣) . وهم اكثر ميلا الى الالعاب الفردية منها الى الالعاب الجماعية ، ويقضون وقتا اكبر فى القراءة ، ويكون اشتراكهم فى الالعاب التى تتضمن نشاطا جسميا قويا اقل من الاطفال ذوى الذكاء المتوسط . كما يميل الاطفال النابهون قليلا الى الالعاب الرياضية ، وكثيرا الى الالعاب العقلية (ليرمان ، ١٩٢٥ ، ليهمان وولى ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ، ١٩٣٣) . ويستمتع الاطفال النابهون بجمع الاشياء ولديهم هوايات اكثر من الاطفال الآخرين (بوينتون ، ١٩٤١) .

ويمكن ملاحظة عامل الذكاء فى لعب الاطفال فى القراءة خاصة . فالاهتمام المبكر بالقراءة والقدرة على القراءة يتضحان عند الاطفال الذين يحصلون على نسب ذكاء عالية . ويقضى الاطفال مرتفعو الذكاء فى كل سن وقتا اكبر فى القراءة ، ولديهم مدى أوسع من الاهتمامات القرائية . كذلك يختلف نوع القراءة التى يفضلونها . فالاطفال الموهوبون يستمتعون بقراءة القواميس والاطالس والموسوعات والعلم والتاريخ والسير والاسفار والشعر والادب . ولا يميلون الى الحكايات الخرافية ، لكن يفضلون الروايات البوليسية على قصص المغامرات العنيفة . والقصص الخيالية العاطفية اقل جاذبية للاطفال الموهوبين ، وان كان الاهتمام بالروايات العاطفية (الرومانتيكية) يتكون لديهم قبل سن العاشرة (ليرمان ، ١٩٢٥ ، هرلينجوارث ، ١٩٢٦ ، ليرمان وليما ، ١٩٢٧ ، ما يورى ، ١٩٥٢) .

الجنس (بنين ــ بنات) :

يلعب جنس الطفل دورا كبيرا فى نشاط لعبه . الا ان الفروق بين الجنسين لا تتضح فى السنوات الاولى من حياة الاطفال . بل انه اذا توفرت بيئة واحدة والعاب واحدة ، فلن تتضح اية فروق دالة بين الجنسين قبل مرحلة المراهقة . ولكن ، لما كان الاطفال يعيشون فى بيئات واوساط ثقافية متباينة تختلف فيها الالعاب والدمى باختلاف الجنسين ، فان الفروق بين الجنسين فى اللعب تبدأ فى الظهور منذ سن مبكرة . ويصبح الاطفال واعين منذ سن مبكرة بانه توجد انواع معينة من اللعب ملائمة للاولاد واخرى للبنات . وللعب الاتجاهات الوالدية وانتقاء ادوات اللعب ووجود امثلة من زملائهم فى اللعب ووجود اطفال اكبر سنا دورا حاسما فى تدعيم المؤثرات الثقافية بين الجنسين (كون ، ١٩٥١) .

وبصفة عامة ، تفضل البنات اللعب بالدمى والالعاب المتعلقة بالمواد المنزلية والخرز والمكعبات ؛ بينما يفضل الاولاد القطارات والعربات والدبابات والطائرات والسفن والاحصنة والمسدسات ، الخ . ويلعب الاولاد بعنف اكثر من البنات ويفضلون العابا ككرة القدم والبلى ، بينما تحب البنات العابا مثل النط بالحبل والعاب الاختفاء وان يلعبن منزلا أو مدرسة (بنجامين ، ١٩٣٢ ، كون ، ١٩٥١ ، هونزيك ، ١٩٥١ ، ما يورى ، ١٩٥٢) . وحتى حينما يلعب الاولاد والبنات بنفس مواد اللعب ، فان ما يتوصل اليه الاولاد من تكوينات وتشييدات يختلف عما تحققه البنات (هونزيك ، ١٩٥١) . وتبدو الفروق بين الجنسين واضحة فى تفضيلاتهم فيما يتعلق بالقراءة وبرامج الاذاعة والتلفزيون والافلام . ويبدى الاولاد فى كل الاعمار مدى من اهتمامات

اللعب اكبر من البنات (هونزيك ، ١٩٥١) . والواقع ان الكثير من هذه الفروق يعزى الى المؤثرات الثقافية ، والى توقعات الادوار من كل من الجنسين .

العوامل البيئية :

يتأثر الاطفال فى لعبهم بعامل المكان . فمعظمهم يلعب ، خاصة فى السنوات الاولى ، مع الاطفال الذين يجاورونهم فى المسكن . وبعد فترة يلعبون فى الشوارع او الساحات او الاماكن الخالية القريبة من سكنهم ، وقلة منهم تلعب فى النوادى والملاعب والحدائق (سوالينجر وآخرون ، ١٩٥٢) . لذلك يكون للبيئة التى يعيشون فيها تأثير واضح على الكيفية التى سيلعبون بها وعلى نوعية الالعاب التى سيشتركون فيها . واذا لم يتيسر امامهم اماكن ملائمة للعب قريبة من منازلهم او بعض مواد اللعب التى يستخدمونها فى لعبهم، فانهم سوف يقضون الكثير من وقتهم الحر فى « التسكع » hanging around ، وربما يقومون بالعاب غير منظمة او بمجرد ملاحظة الاطفال الآخرين او الكبار، او يصبحون مصدرا للازعاج (ريفز ، ١٩٣١) .

وتوضح بعض الدراسات (مثل دراسات ليهمان ، ١٩٢٦ ، مير وميرى ١٩٥٠) أن اطفال البيئات الفقيرة يلعبون اقل من البيئات الاغنى . وقد يعزى هذا جزئيا الى الاختلاف فى الحالة الصحية ، ولكن يعزى بدرجة كبيرة الى ان البيئات الفقيرة بها لعب اقل ووقت اقل ومكان اضيق للعب من البيئات ذات الامكانيات الاقتصادية الاعلى . ورغم ان الاطفال فى البيئات الفقيرة يحظون بصحبة اكبر فى اللعب ، الا ان هذا العامل وحده لا يكفى للتعويض من العوامل الاخرى التى ذكرناها . وفى المناطق الريفية والصحراوية ، بسبب انعزالها الجغرافى ، تقل الالعاب لصعوبة تنظيم جماعات من الاطفال ، كما تقل ادوات ووقت اللعب لان الاطفال كثيرا ما يساعدون الوالدين فى الحقل او الرعى او الاعمال المنزلية .

وتؤثر الظروف البيئية فى نوعية اللعب . فالمناخ وتغايره بين فصول السنة يؤثر فى نشاط اللعب عند الاطفال (سوالينجر وآخرون ،١٩٥٢) : ففى الشتاء فى المناطق المعتدلة يخرج الاطفال للعب فى الحدائق والمتنزهات ، بينما يستمتعون فى المناطق الباردة بالتزحلق على الجليد واللعب بالثلج . وفى المناطق شديدة الحرارة صيفا يتحدد نطاق لعب الاطفال بالاماكن المغلقة ، وفى المناطق المعتدلة الحرارة صيفا يهرع الاطفال الى شواطىء البحر وحمامات السباحة . وهناك العاب تتعلق بفصول معينة من السنة كان تعتبر كرة القدم والهوكى العابا شتوية اساسا ، والسباحة العابا صيفية بصفة عامة .

والاطفال فى المناطق الساحلية قد تنمو لديهم اهتمامات باللعب وبمواده تختلف عن الاطفال فى المناطق الداخلية او الصحراوية . والاطفال فى البيئات الصناعية قد يهتمون بالعاب معينة تختلف عن البيئات الريفية ، وهكذا من عوامل التعدد والتنوع البيئيين .

العوامل الاجتماعية والثقافية :

يتأثر لعب الاطفال بثقافة المجتمع .. اى باسلوبه فى الحياة ، وبما يتواتر فيه من عادات وقيم وتقاليد . وتتوارث اجيال الاطفال عن الاجيال السابقة بعض الالعاب التى تشيع فى المجتمع ،

كتوارث لعبة « التحطيب » فى صعيد مصر مثلا. ومع ذلك فان ثمة العابا متشابهة تتوارثها الاجيال المختلفة فى معظم دول العالم ، مثل العاب الاختفاء و « الاستغماية » و « عسكر وحرامية » ونط الحبل والقفز وكرة القدم وغيرها. ويكشف (تقرير الأمم المتحدة ، ١٩٥٣) عن العاب تقليدية نجدها تتكرر بين الاطفال فى كثير من الشعوب . فقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن لعبة « عكاز الاعمى » توجد فى الكثير من الدول الاوروبية ، ولعبة الاختفاء توجد لدى الاطفال فى كثير من البلدان الاسيوية والعربية والاوروبية . وربما تتضح الالعاب التقليدية المتوارثة لدى الاطفال الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية اقتصادية اقل ، فى حين ان الاطفال من المستويات الاعلى يستطيعون اقتناء الكثير من الالعاب العصرية ويلعبون فى اماكن مخصصة كالنوادى او ساحات المنزل .

وتلعب الخلفية الاجتماعية الاقتصادية دورا كبيرا فى لعب الاطفال. فالمستوى الاجتماعى الاقتصادى يؤثر فى انشطة اللعب من الناحيا الكمية والكيفية على حد سواء (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) . واذا كانت هذه الفروق لاتتضح خلال سنوات الطفولة الاولى ، الا انها تبرز كلما تقدم الاطفال فى السن (مير وميرى ، ١٩٥٠) . ويبدى الاطفال الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية اقتصادية اعلى تفضيلا لانشطة اللعب التى تتكلف بعض المال كالتنس مثلا ، بينما يشترك الاطفال من المستويات الاقل فى انشطة ضئيلة التكاليف كالعاب كرة القدم ونط الحبل والاختفاء والاستغماية (بوينتون ووانج ، ١٩٤٤) . بل ان الوقت المخصص للعب يتأثر بالطبقة الاجتماعية . فقد اوضح «فوكس» (١٩٣٤) ان الوقت المتاح امام الاطفال من الاسر الفقيرة اقل من الاطفال ذوى المستوى الاعلى ، وذلك بسبب ضرورة مشاركتهم الاسرة فى بعض واجباتها واعبائها الاقتصادية . ومن ناحية اخرى ، قد يقضى هؤلاء معظم وقتهم فى لعب غير موجه وغير مدعم من أسرهم .

وتؤثر الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الطفل فى نوع الكتب التى يقرأها ، وفى الافلام التى يراها ، وفى انواع النوادى التى قد ينتمى اليها (فولبردنج ١٩٤٨) . فالاطفال الذين ينتمون الى اسر ميسورة ماديا وثقافيا يشتركون فى العاب ذات صبغة حضارية اكبر ، كالموسيقى والفن والانشطة المنظمة مثل الرحلات والمعسكرات (جرامر ، ١٩٥٠) . وهم يقضون فى هذه الانشطة وقتا اكبر وبشكل اكثر نظاما ، بينما ينفق الاطفال ذوو المستويات الاقل وقتا كبيرا فى مجرد مشاهدة برامج التلفزيون ، او فى اللعب خارج المنزل ولمعظم اليوم (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) .

بل ان فلسفة المجتمع وايديولوجيته تؤثران الى حد كبير فى لعب الاطفال بنماذجه وأشكاله واساليبه المختلفة . فبرامج الاذاعة والتلفزيون والافلام السينمائية وكتب الاطفال وانتاج مواد اللعب المختلفة ، تخضع بشكل او بآخر للتوجيه القومى لهذه الانشطة وللغاية المنشودة منها .

نظرة الكبار للعب الاطفال :

ولعب الاطفال ، كأى جانب آخر من حياة الطفولة ، يتأثر بدرجة ادراك الكبار ، وخاصة الوالدين ، لهذا النشاط ولاهميته ولاساليبه . فلعب الاطفال يتحدد كثيرا بالاتجاهات الوالدية نحو اساليب تربية وتنشئة الاطفال . وهذه الاتجاهات بدورها تتحدد بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى للوالدين من ناحية وبتكوينهما النفسى من ناحية اخرى .

توافر امكانيات اللعب :

وفى ضوء الكثير من العوامل السابقة ، تؤثر نوعية اللعب ومواده وامكانياته المتاحة الى حد كبير فى نشاط اللعب وفى مباشرته لدوره الهام فى بناء الاطفال . فاذا زودنا الطفل بالعاب معينة ، فانه سوف يستخدمها ، وبالتالى فان نشاط لعبه سوف يتأثر بها. فاذا كانت امكانيات اللعب المتاحة ذات نماذج تركيبية بنائية ، مثل المكعبات والرمال والاجهزة التي يقوم الطفل بفكها وتركيبها ، فان اللعب بطبيعة الحال سوف يأخذ هذا الطابع التركيبى البنائى ، ويكون موجها اكثر للجانب العقلى من شخصية الطفل. اما اذا وفرنا العابا مثل الاجهزة المنزلية او الدمى ، فان هذا يؤكد على نموذج اللعب الايهامى .

والحقيقة التى تؤكدها دراسات عدة (مثل دراسات مى وسرى ، ١٩٥٠ ، ريسى ، ١٩٥٤) ان الكبار ينبغي عليهم أن يزودوا الطفل بالعاب تتضمن نماذج واشكالا كثيرة ، لان نشاط الطفل فى اللعب ينسحب الى كافة جوانب شخصيته ـ الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، ولان لعب الطفل ابداعى ، خلاق ، تمثيلى ، تقليدى ، تخيلى ، ولان الطفل سرعان ما ينتقل من لعبة الى غيرها .

ومن ناحية اخرى ، تؤدى المبالغة فى تزويد الطفل بمواد اللعب وامكانياته الى نتيجة عكسية اقرب الى ماقد يترتب على حرمان الطفل منها . فالاختيار الجيد لمقدار محدد من مواد اللعب يشجع على ان يكون لعب الطفل اكثر غنى بالمصادر resourcefulness واكثر اجتماعية مما لو ازدحم بمواد كثيرة للغاية (جونسون ١٩٣٥) . ومن المصادر التى ينبغي تزويد الطفل بها فى لعبه ، تلك المواد التى يقوم الطفل بعملها فى المنزل ومن اشياء بسيطة ، وايضا استغلال مصادر البيئة وتوظيفها فى انواع ومواد حية للعب قد لاتتيسر بالمواد والوسائل الجاهزة للعب الاطفال (ليونارد ، ١٩٥٢) .

ولعل ماعرضنا له فى الصفحات السابقة ، يكشف عن جانب اساسى من النشاط الذى يعيشه الاطفال ويعيشون فيه طفولتهم ، وفيه يدركون انفسهم والعالم المحيط بهم ، ومنه يتعلمون معارف ومهارات وخبرات جمة ، وفيه تتفتح امكاناتهم ، وتنمو شخصياتهم . ولكن اللعب ، لكي لايكون مجرد لهو واستهلاك للطاقة، ولكى يحقق الغاية البنائية المنشودة منه ، ينبغى ان يوجه ليصير نشاطا تربويا منظما هادفا .

المراجع

(١) امال احمد صادق : دراسة عاملية للابتكار الموسيقى . الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، المجلد الرابع، القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٦ .

(٢) ر . بيرد : جان بياجيه وسيكولوجية نمو الاطفال . (ترجمة : فيولا الببلاوى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .

(٣) ف . سيفرين : علم النفس الانسانى . (ترجمة : طلعت منصور ، عادل عز الدين ، فيولا الببلاوى). القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

(٤) سعد عبد الرحمن : السلوك الانسانى . الكويت : مكتبة الفلاح ، ٧١ ـ ١٩٧٧ .

(٥) سوزان ايزكس : الحضانة . (ترجمة : سمية فهمى). القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ ط ٢ .

(٦) سيد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى ، جزان. القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ .

(٧) رمزية الغريب : العلاقات الانسانية فى حياة الطفل الصغير ومشكلاته اليومية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ .

(٨) فيولا الببلاوى : دراسة لبعض الخصائص العقلية والمزاجية والانفعالية الاستجابة لعوامل الاستثارة لدى الاطفال فى مرحلة المهد . الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية . القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

(٩) فيولا الببلاوى : دور التشكلات فى حياة الاطفال النفسية . ندوة العمل مع الاطفال بجامعة عين شمس ، القاهرة ، فبراير ١٩٧٨ .

10— Adernethy, E.M. Relationships detween mental and physical growth. **Monogr. Soc. Res. Child Develpm.**, 1, No. 7, 1936.

11— Amen, E.W. and N. Renison. A study of the relationship detween play patterns and anxiety in young children.

Genet. Psychol. Monogr., 50, 3-41

12— Ames, L.B. Free drawing and completion drawing : a comparative study of preschool children. **J. Genet. Psychol.**, 66, 161 - 165, 1945.

13— Ames, L.B. Development of interpersonal smiling responses in the preschool years. **J. Genet. Psychol.**, 74, 273 - 291, 1949.

14— Axline, V. M. **Play therapy.** Boston : Houghton Mifflin, 1947.

15— Axline, V.M. Observing children at play. Teach. Coll. Rec., 52, 358 - 363, 1951.

16— Bailey, S. Agreession in infancy and early childhood. Cath. educ. Rev., 44, 421 - 429.

17— Barnhart, E.N. Developmental stages in compositional construction on children's drawings. **J. exp. Educ.**, 11, 156-184, 1942.

18— Bach, G.R. Young Children's play fantasies. Psychol. Monogr., 59, No. 2, 1945.

19— Bell, J.E. Perceptual drvelopment and the drwaings of children. **Amer. J. Orthopsychiat.**, 22, 386-393, 1952.

20— Benjamin, H. Age and sex differences in the toy preferences of young children. **J. Genet. Psychol.**, 41, 417-429, 1932.

21— Berlyne, D.E. **Structure and direction in thinking.** New York Wiley, 1965.

22— Boynton, P.L. The relationship between children's tested intelligence and their hobby participation. **J. Genet. Psychol.**, 58, 353-362, 1941.

23— Boynton, P.L. and F.A. Ford. The relationship detween play and intelligence. **J. appl. Psychol.**, 17, 294-301, 1933.

24— Boynton, P.L. and J.D. Wang. Relation of the play interests of children to their economic status. **J. Genet. Psychol.**, 64, 129-138, 1964.

25— Bridges, K.M. The occupational interests and attention of four-year-old children. **J. Genet. Psychol.**, 36, 551-570, 1929.

26— Brown, F.J. **Educational sociology.** New York : Prentice-Hall, 1954.

27— Buhler, K. **The mental development of the child.** New York : Harcourt, Brace, 1930.

28— Cappe, J. Les manifestations artistiques chez l'enfant. **Nouv. Rev. Pedag.**, 3, 89-93, 1947.

29— Child, I.L., et al., Children's textdooks and personality development. **Psychol. Monogr.**, 60, No. 3, 1946.

30— Cramer, M.W. Leisure-time activities of economically privileged children. **Social. sec. Res.**, 34, 444-450, 1950.

31— Conn, J.H. Factors influencing development of sexual attitudes and awarenecss in children. **Amer. J. Dis. Child.**, 58, 738-745, 1939.

32— Conn, J.H. Children's awareness of sex differences. II. Play attitudes and game preferences. **J. Child Psychoiat.**, 2, 82-99, 1951.

33— Cornelius, R. Games minus competition. **Child H. Educ.**, 26, 77-79, 1949.

34— Davis, G.A. and S.W. Houtman. **Thinking creatively : A guide to training imagination.** Madison, Wisc. : Wisconsin Research and development centre for Cognitive Learning, 1968.

35— Du Bois, F.S. The security of discipline. **Ment. Hyg.**, N.Y., 36, 353-372, 1952.

36— Ephron, B.K. **Emotional difficulties in reading.** New York : Julian Press, 1953.

37— Elkish, F. Significant relationships between the human figure and the machine in the drawings of doys. Amer. J. Orthopsychiat., 22, 79-85, 1952.

38— Frank,L. K. and R.E. Hartley. Play and personality formation in preschool groups. **Personality**, 1, 149-161, 1951.

39— Erikson, E.H. Sex differences in the play configurations of preadolescents. **Amer J. Orthopsychiat.**, 21, 667-692, 1951.

40— Gardner, D.E. **Testing results in the infant school.** London : Metheun, 1942-48.

41— Garden, D.E. **The education of young children.** London : Metheun, 1956.

42— Garrison, K.C. Growth and development. New Yori : Longmans, 1951.

43— Gesel, A. Infancy and human growth. New York : Macmillan, 1928.

44— Gesell, A. and L.B. Ames. The development of directionality in drawing. **J. Genet. Psychol.**, 68, 45-61, 1946.

45— Gesell, A. et al. **The first five years of life.** New York : Harper, 1940.

46— Gesell, A. and H. Thompson. **Infant behavior, its genesis and growth.** New York : McGraw-Hill, 1934.

47— Goodenough, F.L. **Measurement of intelligence by drawings.** Yonkers, N.Y., : World, 1926.

48— Goodenough, F.L. and D.B. Harris. **Studies** in the psychology of children's drawings. II. 1928-1949. **Psychol. Bull.**, 47, 369-433, 1950.

49— Guanella, F.M. Block building activities of young children. **Arch. Psychol.**, N.Y., No. 174, 1934.

50— Hartley, R.E.,**Growing through play : experiences of Teddy and Bud.** New York : Columdia Univ. Press, 1952.

51— Hartley, R.E., L.K. Frank, and R.M. Goldenson. **Understanding children's play.** New York : Columdia Nniv. Press, 1952.

52— Hildreth, G. The simplification tendency in reproducing designs. **J. Genet. Psychol.**, 64, 329-333, 1944.

53— Hollingworth, L.S. **Gifted children, their nature, and nurture.** New York : Macmillan, 1926.

54— Honzik, M. P. Sex differences in the occurence of materials in the play constructions of preadolescents. **Child Developm.**, 22, 15-35, 1951.

55— Horne, B. M. and C.C. Philles. A comparative study of the spontaneous play activities of normal and mentally defective children. **J. Genet. Psychol.**, 61, 33-46, 1942.

56— Hughes, M.A., and L. Stockdale. The young child and graphic expression. **Childhood Educ.**, 16, 307-314., 1940.

57— Hurlock, E.B. and J.L. Thomson. Children's drawings : an experimental study of perception. **Child Developm.**, 5, 127-138, 1934.

58— Jersild, A.T. Child Psychology. New York : Prentice-Hall, 1954.

59— Jersild, A.T. and R.J. Tasch. **Children's interests and what they suggest for education** New York : Teachers College Bureau of Pud., 1949.

60— Johnson, H.M. The art of block building. New York : Day, 1933.

61— Johnson, M.W. The effect on behavior of variation in the amount of play equipment. **Child Develpm.**, 6, 56-68, 1935.

62— Jolles, I. A Study of the validity of some hypotheses for the qualitative interpretation of the HTP for children of elementary school age. I. Sexual identification. **J. Chin. Psychol.**, 8, 113-118, 1952.

63— Joukovskaia, P.I. Educating child in play. (in Russia) Moscow : Academy Press, 1963.

64— Lehman, H.C. A comparison of the play activities of town and country children. **J. Genet. Psychol.**, 33, 455-476, 1926.

65— Lehman, H.C. and P.A. Witty. Periodicity and play behavior. **J. educ. Psychol.**, 18, 115-118, 1927.

66— Lehman, H.C. and P.A. Witty. **The Psychology of play activities.** New York : A.S. Barnes, 1827 a.

67— Lehman, H.C. and P.A. Witty. A study of play in relation to intelligence. **J. appl. Psychol.**, 12, 369-397, 1928.

68— Leonard, A Toys for toddlers. **Today's Health**, December, 42-43, 60, 1952.

69— Leroy, A. Representation of perspective in the drawings of children **Enfance**, 4, 286-307, 1951.

70— Lytton, Hugh. **Creativity and education.** London : Routledge & Kegan Paul, 1971.

71— Mac Donald, M.A. C.Mc Gurie, and R.J. Havighurst. Leisure activities and the socio-economic status of children. **Amer. J. Sociol.**, 54,**Amer. J. Sociol.**, 54, 505-519, 1949.

72— Machover, K. **Personality projection in the drawing of the human figure.** Springfield : Charles C. Thomas, 1949.

73— Markey, F.V. Imaginative behavior of preschool children. **Child Develpm., Monogr.,** No. 18, 1935.

74— Mansell, T.M. and T.H. Elfer. The growth of a play. **Child Educ.,** 35, No. 2, 1958.

75— Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed : 1970)

76— Maybury, M.W. Selection of materials by nursery school children of superior mental intelligence. J. educ. Res., 46, 17-31, 1952.

77— Merry, F.K. and R.V. Merry. **The first two decades of life.** New York : Harper, 1950/.

78— Millichamp, D.A. Another look at play. **Bull. Inst. Child Stud.,** Toronto, 15, No. 4, 1-13, 1953.

79— Mitchell, E.D., and B.S. Mason. **The theory of play.** New York : A.S. Barnes, 1948.

80— Murphy, L.B. Social behavior and child personality. New York : Columbia Univ. Press, 1937.

81— Murphy, L.B. Play therapy : The inner dynamics of childhood. New York : Houghton Mifflin, 1947.

82— Murphy, L.B. Personality in young children. New York : Basic Books, 1956.

83— Parten, M.B. Social play among preschool children. **J. abnorm. soc. Psychol.,** 28, 136-147, 1933.

84— Perry, M. young child's appreach to science. **Child Educ.,** No. 8 - 9, vol. 35, 1958.

85— Peller, L.E. Models of children's play. **Ment. Hyg.,** N. Y., 36, 66-83, 1952.

86— Rankin, M. **Children,s interests in library books of fiction.** New York : Teachers College Bureau of Pub., 1944.

87— Reece, L.H. The play ςeeds of children aged 6 to 12. **Marriage Fam. Living,** 16, 131-134, 1954.

88— Reeves, W.R. Report of Committee on street play. **J. educ. Sociol.,** 4, 607-618, 1931.

89— Rogers, C.R. Client - centered therapy. Boston, 1951.

90— Rogerson, C.H. **Play therapy in childhood.** London : Oxford Univ. Press, 1939.

91— Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **J. Child Psychiat.,** 2, 302-329, 1952.

92— Russel, D.H. **Children learn to read.** Boston : Ginn, 1949.

93— Seward, B., and D.B. Harris. The reading ease, human interest value, and thematic content of st. Nicholas Magazine. **J. educ. Psychol.**, 42, 153-165, 1951.

94— Symonds, P.M. **The dynamics of human adjustment.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1946.

95— Sullenger, T.E., et al. The leisure time activities of elementary school children. **J. educ. Res.**, 46, 551-554, 1953.

96— Terman, L.M. **Genetic studies of genius.** Stanford : Stanford Univ. Press, 3 Vols, 1925, 1930.

97— Terman, L.M., and M. Lima. **Children's reading.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1927.

98— Torrance, E. P. **Are the gifted being challenged to think and learn creatively : :** An address presented to the Sacramento State College Association for Gifted children, Sacramento, California, 1961.

99— Torrance, E. P. **Guiding creative talent.** Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1962.

100— Torrance, E.P., and R. Storm. Mental health and achievement. New York : Wiley, 1965.

101— Torrance, E.P. Encouraging creativity in the classroom. Dubuque, Iowa : William C. Prown, 1970.

102— Tsaparojets. **Psychology and education of play at preschoolars.** (in Russian). Moscow : Prosfishania, 1966.

103— United Nations Report. Games of childhood same around world. **New York Times,** May 24, 1053.

104— Van Alystyne, D. **Play behavior and choice of play materials of preschool children.** Chicago : Univ. Chicago Press 1932.

105— Vernon, M.D. The development of imaginative construction in children. **Brit. J. Psychol.,** 39, 102-111, 1948.

106— Volberding, E. Out-of-school behavior of eleven-year-olds. **Elem. Sch. J.,** 48, 432-441, 1948.

107— Warner, W.L., and P.S. Lunt. **The social life of a modern community.** New Haven : Yale IUniv. Press, 1941.

108— Whitley, M.T. Children's interest is collecting. J. educ. Psychol., 20, 249-261, 1929.

109— Weider, A., and P.A. Noller. Objective studies of children's drawings of the human figure. I. Sex awareness and socioeconomic level. **J. clin. Psychol.,** 6, 319-325, 1950.

110— Williams, A.M. Children's choices in science books. **Child Develpm. Monogr.**, No. 27, 1939.

111— Wilson, F.T. Stories that are liked by young children. **J. Genet. Psychol.**, 63, 55-69, 1943.

112— Wilson, L.A. The influence of a child purpose upon the perseverance of young children. **J. exp. Educ.**, 23, 353-358, 1955.

113— Winstet, B. The use of a controlled play situation in determining certain effects of maternal attitudes on children. **Child Develpm.**, 22, 299-311, 1951.

114— Witty, P.A. A study of deviates in versatility and sociability of play interests. **Teach. Coll. Contr. Educ.**, No. 470, 1931.

115— Witty, P.A. Children's interest in reading the comics. **J. exp. Educ.**, 10, 100-104, 1941.

116— Witty, P.A. Reading the comics - a comparative study. J. exp. Educ., 10, 105-109, 1941 a.

117— Witty P.A., A. Coomer, and D. Mc Bean. Children's Choices of favorite books : a study conducted in ten elementary schools. **J. educ.** 37, 266-278, 1946.

118— Wolfenstein, M. The impact of a child's story on mothers and children. **Monogr. Sec. Res. Child Develpm.**, 11, No. 1, 1946.

119— Yates, A.J. Behavior therapy. New York : Wiley, 1970.

* * *

طلعت منصور ●

تنشيط نمو الأطفال

(تناول جديد لبعض قضايا النمو الانسانى)

مقدمة :

النمو ، فى جوهره ، عملية تغير وتوجيه للتغير (هوايت ، ١٩٦٦) .

فالكائن الحي الانسانى ، منذ لحظة الاخصاب حتى الموت ، يخضع لعمليات من التغير المستمر . وهو بذلك ليس فى حالة استاتيكية ساكنة ابدا ، بل ينمو فى حركة ديناميه خلال المراحل المتتالية التى يمر بها ؛ نموا يتضمن كيانه ككل مركب : من النواحى الجسمية ـ التشريحية ، والعقلية ـ المعرفيه ، والانفعاليه والاجتماعية ، بما يحدد الخصائص

● دكتور طلعت منصور بقسم الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس ، ومعار حاليا بقسم علم النفس بكلية الاداب والتربية جامعة الكويت . اسهم ببحوث منشورة فى بعض المؤتمرات الدولية الاخيرة لعلم النفس (المؤتمر الدولى العشرين لعلم النفس بطوكيو ـ اغسطس ١٩٧٢ ، والمؤتمر الدولى الخامس للتوجيه التربوى والمهنى بكويبك بكندا ـ اغسطس ١٩٧٣) ، وفى بعض المؤتمرات المحلية (المؤتمر الخامس والاربعين للثقافة العلمية بالقاهرة ـ ابريل ١٩٧٥) والمؤتمرات العربية : الندوة الدولية العربية لخبراء التعلم الذاتى ، جامعة الدول العربية ـ ١٩٧٧ ، والمؤتمر الفكرى الثانى للتربويين العرب ببغداد ـ ١٩٧٨) . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والمجمع المصرى للثقافة العلمية والجمعية الامريكية لتقدم العلوم .

التي تميزه كشخصية متفردة . ولا تقف التغيرات عند حد معين ، ولكنها تستمر ، وان كانت بمعدل اقل سرعة حتى التدهور الذي يخبره الكيان الانساني في حالات الشيخوخة وما مولد الطفل الاحدثا واحدا في سلسلة متتابعة من التغيرات ، وليس بداية هذه التغيرات .

وربما لا يكون الفرد دائما واعيا بهذه التغيرات التي تحدث باستمرار ، ففي السنوات المبكرة من الحياة ، حينما تكون التغيرات سريعة في معدلها ، يكون الانتباه موجها الى التغيرات بسبب التوافقات المستمرة التي على الطفل ان يقوم بها حيال هذه التغيرات . كما ان هذه التغيرات تكون مرغوبة من الفرد ، لانها تدل على انه «آخذ في النمو» . وهذا يتناقض تماما مع اتجاه الفرد نحو التغيرات في مرحلة الرشد ، حيث يمثل كل تغير اعلانا له وللعالم المحيط به انه «آخذ في التقدم في السن» .

فالنمو عملية ارتقائية متتابعة موصولة الحلقات من التغيرات التي تكشف عن امكانات الطفل وتبرزها وتوسعها والنمو ، على هذا النحو ، عملية تفتح مركب للخصائص والامكانات العديدة التي تؤلف معا ، **وحدتها الوظيفية المتكاملة** ، ما نسميه بالشخصية . ويتحقق هذا **التفتح الموجه** من طريق العلاقة الدينامية بين الطفل والبيئة ، بين المحددات الداخلية والمؤثرات الخارجية . ونقصد بالمحددات الداخلية كل الشروط التي تجعل منا اعضاء في الجنس البشري من ناحية وشخصيات متفردة من ناحية اخرى ، فنحن نولد مزودين بتاريخ سابق من الوراثة ، مهيايين لان تكون لنا بنية معينة ، ولان نتمتع بمقدرات او امكانات خاصة .

ولكن هذه الشروط الداخلية (الاستعدادات الطبيعية ، الخصائص التشريحية ــ المورفولوجية وخاصة الجهاز العصبي المركزي) لا تظهر ولا تتحقق قدريا ولا تتفتح تلقائيا Automatic Unfolding ، وانما تظهر وتتحقق من خلال تحريك واستثارة المنبهات المتوفرة في البيئة (الفيزيقية ، التاريخية ، الاجتماعية ، الثقافية ، النفسية) . فكل هذه المقدرات او الامكانات الكامنة قد تظهر او لا تظهر ، او قد تتحقق بمستوى او بآخر ، وفقا لعوامل استثارة النمو التي يوفرها الوسط الذي يعيشه الطفل . اي ان التفاعل الوظيفي الموصول بين الطفل والبيئة وتوجيه هذا التفاعل هو وحده الذي يهيء التغيرات العديدة والمركبة التي تميز النمو وتحققه .

وفي ذلك يقرر « اندرسون » (١٩٥٧) :

« ما طبيعة الاشياء المتعلقة بالشخص الذي ندرسه من الميلاد حتى النضج ؟ تكشف الملاحظات المختلفة ، وحتى اكثرها اصطناعا ، عن نظام مركب Complex System للغاية يتحرك قدما مع الوقت عن طريق النمو في التركيب والحجم ، هذا النظام يتلقى الكثير من الاستثارة من العالم الخارجي ويستجيب لها بطرق كثيرة ومختلفة .

وكلما ينمو يعقد اتصالات ذات مدى اوسع من الاشياء والاشخاص ، وتتزايد قدرته على حل المشكلات ، ويبني الكثير من العادات والمهارات ، ويرتقي في المعرفة وضبط الذات . انه مركب متعدد الجوانب Complex manifold من خصائص وامكانات كثيرة تؤلف معا الشكل الكلي او الصورة الكلية لما نسميه بالكائن الحي الانساني »

ولا يقتصر تطور نمو الطفل على الزيادة في الحجم والنسب ، ولكنه ينطوي على تغيرات كمية وكمية ، وعلى اختفاء معالم قديمة واكتساب معالم جديدة ، وعلى تعدل انماط اكثر بدائية لتصبح اكثر اتزانا وتعقيدا وحضارية . والنمو ، على هذا النحو ، يتألف من سلسلة من التغيرات التقدمية الارتقائية ذات نمط منظم ، مترابط ، تهدف الى تحقيق النضج . ويشير مصطلح « ارتقائي » أو « تقدمي » Progressive الى ان التغيرات تكون موجهة ، تودي الى الانطلاق بالنمو قدما الى الامام ولا تعود به الى الوراء . أما المصطلحان « منظم » Orderly « ومترابط » Coherent فيؤكدان على ان النمو ليس عملية عرضية ، وانما هناك علاقة محددة بين كل مرحلة من مراحل النمو والمرحلة التي تليها في التتابع النمائي .

يقول « ايريك ايريكسون » (١٩٦٩) :

« اذا اردنا ان نفهم النمو علينا ان نتذكر مبدأ الخلق الجرثومي » Epigenetic Principle الذي يشتق من نمو الكائنات الحية في الرحم . يقرر هذا المبدأ بان لاى شيء ينمو خطة للبناء Ground Plan وانه انطلاقا من هذه الخطة تظهر الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقته الخاص الذى يبرز ويسيطر فيه ، حتى تظهر كل الاجزاء لتشكل كلا توظيفيا . وعند الميلاد يترك الطفل التبادل الكيميائي مع الرحم لينتقل الى نظام التبادل الاجتماعي مع مجتمعه ، حيث تواجه مقدراته Capacities المتزايدة بالتدريج فرص وحدود ثقافته » . والنمو ، كما يقرر « جيزل » (١٩٥٢) أكثر من مفهوم ، وهو يمكن ملاحظته وتقييمه ، وحتى قياسه الى حد ما ، في ثلاثة مظاهر اساسية : (أ) المظاهر التشريحية Anatomic (ب) المظاهر الفسيولوجية Physiologic (ج) المظاهر السلوكية Behavioral وتؤلف الجوانب السلوكية مع ذلك المؤشر الاساسى للوضع التطوري – النمائي Developmental Status وللامكانات النمائية للطفل Developmental potentials.

ويتمخض النمو عن خصائص جديدة وقدرات جديدة ووظائف جديدة تتوفر للطفل ، اعتمادا على ما تحقق من تطور نمائي لهذه الخصائص والقدرات والوظائف في مراحل سابقة ، لان كل تغير يستند الى ما سبقه من تغيرات ويؤثر بدوره على ما سيعقبه من تغيرات « **والنمو يمثل بذلك انتقالة من مراحل ادنى الى مراحل ارقى من النشاط والوظيفة ، استنادا الى « منجزات النمو »** Growth Achievements **في مسار العملية النمائية .**

موضوع علم النفس التطوري – النمائي اذن هو الدراسة العلمية لمظاهر التغير التي يخبرها الطفل النامي ، وعوامل هذا التغير ومحركاته ومثيراته ومعطلاته ، بهدف تفسيره والتنؤ به وضبطه وتوجيهه ، بما يحقق التطور الاحسن لنموه ، والتفتح الامثل لامكاناته التطورية النمائية . ويقوم تصورنا لدراسات النمو وقضاياه على فلسفة معينة ، وتتلخص في العبارة التالية : « النمو موضوع للدراسة ومنهج للبحث » (طلعت منصور ، ١٩٧٥) . ولقد عرضنا في عجالة لموضوع علم نفس النمو ، بقى ان نعرض لتصورنا النمو كمنهج للبحث السيكولوجي .

ان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية لا تتوفر للطفل في شكل عطاء موروث Heriditary Endowment يعطى « مرة لا تتكرر » Once forall ، وانما تنمو في النشاط وارتباطا به ، اى وفقا لاستثارة امكانات النمو بالمنبهات الثقافية الملائمة . وبقدر ما يخضع

النشاط ذاته وبالتالي مقومات استثارة النمو للتغير في سياق التطور الثقافي للانسانية ، فان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية ينبغي ان تتغير . واذا لم يكن الامر كذلك ، فكيف نفسر استيعاب الدماغ الانساني لكل المنجزات الثقافية المعاصرة (من انفجار معرفي ، وتكنولوجيا راقية ، الخ) ؟!

فالخصائص والعمليات النفسية (كالتفكير والتذكر والادراك والانتباه وغير ذلك) والقدرات العقلية قابلة للتغير والارتقاء المتواصلين ، وخاصة في المراحل التكوينية . ومن ثم ليس هناك من أساس لان نفترض ثباتها لدى الاطفال في المراحل العمرية المختلفة ، وانما قابليتها المستمرة للتغيرية والارتقائية .

هذا الاتجاه في تناول قضايا النمو يفترض بقوة كذلك ان كل طفل يتمتع بالقدرة على أداء مناشط معينة ، وان مهمتنا كسيكولوجيين ان نحدد اي الامكانات يمتلكها الطفل بالفعل ، واي القدرات ينبغي ان تنمى فيه ، وكيف تنمو .

وفي هذا الصدد يمكن ان نشير الى بعض المنجزات العلمية في تاريخ الفكر السيكولوجي ـ وتحمل دلالة بالغة الاهمية في تغيير تصورنا للطفل النامي ، ونقصد بها ما حققه « جان بياجيه » من منجزات ودفعات نظرية ومنهجية ، فتحت سبلا وآفاقا جديدة امام علم النفس عامة ودراسات النمو خاصة .

يبرز « ا. كلاباريد » ذلك ببراعة في تقديمه الطبعة الفرنسية لكتاب بياجيه : « في نفس الوقت الذي جعلوا فيه التفكير عند الاطفال مشكلة كمية ، تناولها بياجيه كمشكلة كيفية » . ففي الوقت الذي تناول فيه علم النفس التقليدي التفكير عند الاطفال من منظور سلبي يسجل نواقص وعيوب هذا المستوى من نمو الحياة العقلية عند الاطفال على أساس مقارنتها بتفكير الكبار ، حاول بياجيه ان يكشف عن الخصائص الكيفية لتفكير الاطفال من منظور ايجابي . فما كان يسترعي اهتمام الباحثين من قبل هو : « ما الذى لا يوجد عند الطفل » .. ؟ ما الذى ينقصه بالمقارنة بالكبار ؟ وبالتالي حددوا خصائص التفكير عند الطفل هكذا : الطفل تعوزه القدرة على التفكير المجرد ، وتكوين المفاهيم وربط الاحكام والاستنتاج المنطقي وغير ذلك . ولكن بفضل بياجيه اتخذت البحوث مسارا آخر يدور حول « ما الذى يوجد بالفعل عند الطفل ؟ وبماذا يتصف تفكيره من خصائص وصفات مميزة ؟ »

وفي الحقيقة ان ما قام به بياجيه يعتبر جادا وجديدا في تاريخ الفكر السيكولوجي افاد فيه من آراء « روسو » بان الطفل ليس اطلاقا بالشخص الراشد الصغير Miniature Adult وبان عقله ليس بعقل الراشد على نطاق صغير . ولكمن وراء هذه الحقيقة التي أيدها بياجيه بالاثبات التجريبي ، فكرة بسيطة في جوهرها فكرة التطور التي اضاءت كل اعمال بياجيه الفذة (فيجوتسكي ، ١٩٧٥ ، ص ٨٥ ـ ٨٦) .

وهكذا تكون مهمة علم النفس « العلمي » او « الانساني » اعظم واسمى من مجرد التوصيف او القياس الكمي لـ « الوضع الراهن » Status Quo الذى وصل اليه مستوى نمو الخصائص

والعمليات النفسية والقدرات العقلية لدى الطفل. وعلم نفس النمو مطالب بذلك بان يتبنى تصورا تفاؤليا فى تناول الظاهرات النمائية وامكانية نموها واتمائها، وان يصطنع طرقا مناسبة للانماء وليصبح الاطفال فى تطورهم « مكتملى الانسانية » Fully Human

النمو، اذن، كمنهج للبحث السيكولوجى يفترض تتبع مسار نمو الظاهرة النفسية، وصيرورتها، وامكانات دفعها الى المستوى الامثل. وهو يتطلب منا الكشف عن الابعاد الكمية والكيفية للتغيرات التى تطرأ عليها ارتباطا بميكانزمات لكشف خصائص هذه الظاهرة وتكوينها وتوظيفها فى سياق النشاط الذى توفره للطفل النامى وعوامل استثارة امكانات نموه، **ووفقا لهذا المنهج لا نضع فى الاعتبار « الناتج » Product فحسب، ولكن ايضا العملية Process ذاتها، لا نهتم بمنجزات النمو فحسب، ولكن ايضا بالمسار والسياق النمائى للظاهرة النفسية.**

فى داخل هذا الاطار تبرز بعض القضايا الحاسمة :

.. الى اى حد تعتبر امكانات الطفل ثابتة ام متغيرة .. ؟

.. ما هى القوى الدافعة لمسار العملية النمائية .. وما الذى يحدد خصائص النشاط النفسى للطفل فى مرحلة معينة من مراحل النمو ؟

.. ما دور النشاط فى تفتح وتوظيف امكانات الطفل الكامنة .. ؟

.. ما العلاقة بين النمو والتعلم .. ؟

امكانات الطفل بين الثبات والتغير (صيرورة النماء) :

فى صيف عام ١٩٧٠ زار آرثر جنسن Arthur Jensen استاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بريطانيا ليعقد ندوتين فى كامبردج : احداهما نظمتها « هيئة ابحاث المخ » Brain Research Association والاخرى « جمعية كامبردج المسئولية الاجتماعية فى العلم » . Cambridge Society for Social Responsibility in Science ولقد دعى جنسن خاصة لايضاح ومناقشة نظريته التى طفق يبشر بها عن طبيعة الذكاء الانسانى وتوزعه، تلك النظرية التى اثارت موجة عارمة من السخط والغضب فى الولايات المتحدة، امتدت بدورها الى بريطانيا .

تتلخص نظرية جنسن، كما عرضها فى بعض أعماله (١٩٦٦، ١٩٦٧)، فى أن الملونين بالولايات المتحدة، بسبب ما جبلوا عليه من عطاء خلقى، اقل ذكاء من البيض، وكذلك الفئات والطبقات الدنيا التي تنتمى الى الانسان الابيض اقل ذكاء من الانسان الابيض الذى ينتمى الى الطبقة الوسطى والارستقراطية، فالانخفاض فى المستوى العقلى مرتبط بالتكوين الوراثى المنحط Inferior Genstic Make-up

ويقرر جنسن أن ما توصل اليه من بينة، وهى مشتقة من نتائج اختبارات الذكاء والقياس النفسى، يؤكد بشكل قاطع ان كلا من الفروق السلالية والطبقية تقوم على امكانات موروثة، وبالتالى فهى « ثابتة » ، « مستقرة » تستعصى على التغير بواسطة السياسات الاجتماعية والتربوية .

واتجاه « جنسن » الجديد هو في جوهره تكرار للاتجاهات القديمة والمعيبة المشتقة من اختبارات الذكاء الجماعية ، وخاصة الاتجاه الذي يذهب الى أن الوراثة تحدد مستوى الذكاء . ويقرر ، وهو يتفق مع « سيريل بيرت » ، ان ٨٠٪ على الاقل من التباين في الذكاء يرجع الى الوراثة و ٢٠٪ الى العوامل البيئية .

وعلى ذلك يحدد جنسن نمطين او مستويين للذكاء : المستوى الاول يتفق مع القدرة على « التعلم الترابطي » Associative learning ، اى على التعلم الآلي البسيط ، قوة الاسترجاع ، وغير ذلك ، أما المستوى الثاني فيتفق مع القدرة على ادراك المفاهيم ، حل المشكلات ، اى باختصار على التفكير وتناول مواد التفكير بفاعلية . ويسلم بأن هذين المستويين ، كنتيجة للعوامل الخلقية ، يتوزعان بطريقة متمايزة بين الناس « كدالة للطبقة الاجتماعية » . ونتيجة لذلك ، واتفاقا مع هذا التصور ، ينبغي ان تتمايز التربية . فبالنسبة للمستويات الدنيا يكون التعليم الملائم قائما على التعلم الترابطي ، الآلي (حيث يكون : المدخل ـ المخرج . Input – Output) ، في حين ينبغي تخطيط التعليم بالنسبة للطبقتين الوسطى والارستقراطية القادرتين وحدهما على التفكير التصوري Conceptual Thinking (التفكير بالمفاهيم) لكي ينمي وينمى هذه القدرة الراقية .

وليس هنا مجال لاستعراض نظرية « جنسن » بالتفصيل ، ولكن ما نود الاشارة اليه تلك الموجة من التعاطف عليها . من هذا ، على سبيل المثال ، ما نشره سنو C.P. Snow في المجلة الاسبوعية المعروفة بـ « العالم الجديد » (New Scientist, May 1, 1969) منددا بـ « عاصفة الاحتجاج والتجريح » التي اثارتها نظرية جنسن . ويعتمد « سنو » في بعض دفاعه عن هذه النظرية على « بعض » البيانات المتعلقة » بالانجاز العقلي والفني لدى اليهود » الذي يعزيه الى معطيات وراثية .

واتجاهات عنصرية « فاشية » هذه شأنها ليست بغريبة على تاريخ الفكر السيكولوجي . فلا يغيب عن ذهننا « علم النفس النازي » الذي تكرس على تبرير نظرية « المانيا فوق الجميع » ، والنظريات والدراسات التي خرج بها بعض العلماء الانجليز (1) في أوج الامبراطورية البريطانية لتبرير أوضاع عالمية امبريالية يقوم فيها الرجل الابيض بمهمة السيادة على الاجناس الاقل وتدبير امورها لعجزها ، بما يعرف بعبء الرجل الابيض White man's burden

وهذا الاتجاه اللا علمي ، او الذي يأخذ بالعلمية الشكلية ، يشيع بصفة خاصة ويجد له تربة خصبة لدى السيكولوجيين الاسرائيليين ، نذكر منهم على سبيل المثال ، السيكولوجي « امير » بجامعة « بارايلان » الذي حاول في دراسة قدمها أمام « المؤتمر الدولي العشرين لعلم

---

(١) من هذه الدراسات على سبيل المثال :

— H. L. Gordon. The brain capacity of East Africans. Eugen Rev. 25:223, 1934.

— R.A. Oliver. Intelligence of European and African schoolboys in KENYA. A. Afr. J. 9:160, 1932.

النفس » (طوكيو ١٩٧٢) ان يبين، بمنطق فاشي كاذب ، ان الشباب الشرقي (العربي والايراني) اقل في وظائفه العقلية من الشباب الاسرائيلي (٢) .

وما تخرج به مثل هذه الدراسات من بيانات لا يصمد امام الحقائق العلمية الرصينة ، بل لتهاوى وتتلاشى مع نور العلم والانسانية . ويكاد يستقر الفكر السيكولوجي المعاصر على ان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية في تشكلها لدى الطفل هي انعكاس للواقع الثقافي بدرجة كبيرة . وتمثل مقدرة الكائن الحي الانساني على الانعكاس كخاصية لنظامه الراقي ، كما يتضح فيما يقوم به المخ من وظائف اوجدتها ظروف الحياة ذاتها ، وهيأتها الخبرة الاجتماعية . ويلعب الانعكاس دورا هاما للغاية في العمليات الحياتية لانه يهيء الفرد للانتظام Orientation مع موضوعات البيئة وظاهراتها، وتمكينه من ضبط وتوجيه سلوكه ذاته .

فالانعكاس ، من وجهة النظر التطورية النمائية ، يكون في البداية نشاطا خارج الطفل مرتبطا بموضوعات الوسط المحيط ويصير فيما بعد وبالتدريج نشاطا عقليا ، داخليا ، ذاتيا . الا ان المقدرة على الانعكاس لا تفقد ابدا علاقتها بالمصدر الاصلي ، بالاداءات العملية الخارجية التي يرتبط بها ارتباطا متبادلا ، وتؤلف وحدة مع هذا النشاط الثقافي بدرجة او باخرى . وفي نفس الوقت يتم بناء النشاط النفسي الداخلي بطريقة اشبه الى حد كبير بالنشاط الخارجي .

وتتطلب منا هذه القضايا وقفة لاعادة تناول الكثير من التصورات التقليدية عن نفس عملية النمو العقلي للطفل في ضوء مبادىء ثلاثة للنمو :

١ ــ النمو العقلي للطفل كعملية استيعاب للخبرة الانسانية المعاشة

يتميز النمو العقلي للطفل ، كيفيا ، عن النمو النوعي لسلوك الحيوان . تتحدد هذه الافضلية اولا وقبل كل شيء في غياب عملية استيعاب او تمثل الخبرة لدى الحيوانات ، تلك العملية التي تتجمع بواسطة الانسانية على مدار التاريخ الاجتماعي .

يمكن ان نميز لدى الحيوانات خبرة ذات نمطين : خبرة متجمعة بالتطور النوعي ومتثبتة وراثيا ، وخبرة فردية مكتسبة حياتيا . ويتفق مع هذين النمطين من الخبرة ميكانزمات للسلوك ذات نمطين ايضا : الاولى ــ تلك الميكانزمات الوراثية التي تكون اما جاهزة للاداء تماما منذ لحظة الميلاد ، او تنضج بالتدريج في عملية النمو النوعي . وتكوين هذه الميكانزمات يتم وفقا للقوانين العامة للتطور البيولوجي ويمثل عملية بطيئة كرد فعل للتغيرات البطيئة في الوسط البيئي . هذه الميكانزمات تحتل المكانة الاكبر في عمليات التكيف، اما النمط الثاني من ميكانزمات السلوك لدى الحيوانات ، فهي ميكانزمات اكتساب الخبرة الفردية . وتتحدد خاصيتها الاساسية بانه فيها تتثبت وراثيا فحسب امكانية تكوين السلوك الذي من شانه ان يحقق التكيف الفردي ، وفي نفس الوقت يتثبت السلوك ذاته في ميكانزمات الخبرة الوراثية .

---

(٢) Y. Amir. Inter - and intra - ethnic comparisons of intellectual functions in Israeli and MiddleEastern populations. **Abstract Guide of the XXth International Congress of Pyschology**, Tokyo, 1972.

وهنا ينبغى ان نؤكد ان هذين النمطين من الخبرة وميكانزمات السلوك مرتبطان ببعضهما ارتباطا متبادلا ليس فطريا فحسب ، ولكن ايضا وظيفيا . فظهور السلوك الوراثي لدى الحيوانات لا ينعزل اطلاقا عن الخبرة الفردية ، ومن ناحية اخرى يتكون دائما السلوك الفردى على اساس السلوك الوراثي ، النوعى .

اى ان الوظيفة الاساسية التى تحققها ميكانزمات تكوين الخبرة الفردية لدى الحيوانات تتمثل فى تكيف السلوك النوعى للعناصر المتغيرة بالوسط البيئي . ومن هنا يمكن تصور التطور النوعى للحيوانات على انه تجمع للخبرة الفردية تستخدم فى تحقيق نشاطها الغريزى فى ظروف خارجية دينامية معقدة .

وبالنسبة للانسان ، يختلف الموقف تماما . فاختلافا عن الحيوان ، يتمتع الانسان بخبرة من نوع معين ـ الخبرة التاريخية ، الاجتماعية المستوعبة . والسؤال : ماذا من هذه الخبرة المميزة للانسان بشكل فريد .. ؟

فى مسار التاريخ الانسانى ، تجمعت منجزات هائلة وعظيمة ، هى ايضا منجزات النمو العقلى للانسان ، تناقلها من جيل الى جيل . وتجسدت هذه المنجزات بجلاء ، من الآلة اليدوية البدائية الى العقول الالكترونية ووسائط ارتياد الفضاء ، فى اللغة ، فى العلم ، فى الفن ، فى الانتاج ، فى نظم العلاقات الاجتماعية ، وفى غير ذلك من مظاهر الوجود الانسانى . وفى هذه المنجزات ، من ناحية اخرى ، تتجسد الخبرة التاريخية الانسانية ، وايضا القدرات العقلية للانسان التى تشكلت فى هذه الخبرة .

وهكذا ، خلافا للتطور النوعى للحيوان الذى تبدت منجزاته فى شكل تغير للتنظيم البيولوجى ، تدعمت منجزات التطور التاريخى للانسان فى كل ما ابدعته عقليته وعبقريته من انتاج ، وفى تلك الظاهرات المثالية (اللغة ، العلم) التى عاشها الانسان .

وثمة عملية اخرى اكثر تعقيدا واهمية ـ عملية استيعاب او تمثل تلك المنجزات المتجسدة فى عمله وانتاجه ورموزه . الطفل منذ ميلاده محاط بعالم من الموضوعات والعلاقات ـ فهذه مواد للمعيشة ، وادوات بسيطة ، وهذه لغة وما ينعكس فيها من تصورات ومفاهيم وافكار . وحتى مع الظاهرات الطبيعية يلتقى الانسان بظروف اوجدتها عقلية الانسان ـ فهذه ملابس تقيه البرد ، وتلك مواصلات تيسر انتقاله . ويمكن القول بأن الطفل يبدأ نموه النفسى فى عالم انسانى .

ولكن .. ، الا يتم نمو الطفل كعملية تكيف لهذا العالم ؟

الاجابة بالنفى .. فخلافا لوجهة النظر الشائعة ، لا يعبر مفهوم التكيف عن ركيزة جوهرية للنمو النفسى للطفل ، الطفل لا يتكيف مع عالم الموضوعات والظاهرات المحيطة به ، ولكن يجعله عالمه ذاته ، اى يستوعبه ويتمثله .

ونسوق لذلك ابسط مثال : يلتقى الطفل «فى الوسط المحيط به » بحقيقة وجود اللغة التى تعكس تراثا انسانيا حيا متجمعا على مر العصور التاريخية . ويحيل الطفل « فى عملية نموه » هذه اللغة الخارجية الى لغة لذاته . وهذا يعنى انه تتكون لديه تلك الوظائف والقدرات الانسانية المتميزة ، كالقدرة على فهم الكلام والقدرة على التكلم، وتلك الوظائف كالسماع والتلفظ الكلاميان. وهنا تؤلف الخصائص البيولوجية الوراثية للطفل فحسب شروطا لازمة لامكان تكوين هذه القدرات والوظائف . فلكى يتكون لدى الطفل ، على سبيل المثال ، السماع الكلامى ، ينبغى ان يتمتع بطبيعة الحال بأعضاء السمع والاعضاء التى تسهم فى التلفظ . لكن وجود الاصوات الكلامية فى الوسط المحيط بالطفل يفسر لماذا يتكون لديه السماع الكلامى .

ان علاقة الطفل بالعالم المحيط تتوسط بعلاقته بالناس ، حيث ينخرط معهم فى عشرة كلامية وعملية . ولنأخذ لذلك مثالا من حياة الطفولة : كيف تعلم الطفل الامساك بالملعقة .. ؟ لم ير الطفل ابدا ذلك الشىء البسيط ، وعندما يعطيه الوالدان هذه الاداة فى يده ، ماذا سيفعل بها .. ؟ سوف يتناولها بيديه ويحركها ويلوح بها فى حركات عشوائية ، ويخبط بها ، ويحاول أن ياخذها فى فمه ، وغير ذلك من حركات غير منتظمة. وبقول آخر ، الملعقة تبدى بالنسبة له ليس من ناحية وسائل استخدامها التى تعارف عليها المجتمع ، ولكن من ناحية خصائصها المادية الطبيعية ، غير المتميزة . والآن فى مواقف متكررة تقوم الام باستخدام الملعقة كوسيلة لاطعام طفلها، وبعد ذلك تعطيه الملعقة فى يده ، ويحاول مستقلا ان ياكل بها . فى البداية تخضع حركات الطفل للوسيلة الطبيعية « اخذ ما تتناوله يده فى فمه » ، وفى هذه الحالة لا تحتفظ الملعقة فى يده بالوضع الافقى اللازم ، والنتيجة تساقط الطعام على المائدة . لكن الام لا تقف ساكتة : فهى تساعد الطفل ، وتتدخل فى اداءاته ، وتتكون لدى الطفل فى هذا الاداء « المشترك » الناشىء على هذا « المشترك » الناشىء على هذا النحو ، خبرة استخدام الملعقة والآن يجيد الطفل استخدام الملعقة كاداة انسانية أو كموضوع انسانى .

الخصائص والقدرات الانسانية تتكون «اذن » فى عملية استيعاب وتمثل الطفل لمنجزات الحضارة الانسانية فى مسارها من جيل لآخر .

٢ ـ نمو الوظائف والقدرات العقلية كعملية تكوين لمنظومات مخية وظيفية (٢)

الموقف العلمى الذى يقرر أن القدرات والوظائف العقلية لا تتكون فى شكل وراثة بيولوجية ،

— A.R. Luria. **Higher cortical functions in man.** New York ; Basic Books, 1966. (٢)
— A.R. Luria **Human brain and psychological processes.** New York ; Harper & Row, 1966.
— E.D. Homskaya. **Brain and activation.** Moscow Univ. Press, 1972.
— K.H. Bribram. Neocortical Functions in behavior. In H.F. Harlow & C.N. Woolsey (Eds.) **Biological beses of behavior.** Univ. Wisconsin Press, 1958.
— K.H. Bribrain A review of theory in Physiological Psychology. **Annual Review - of Psychology**, 11, 1960.
— D.O. Hebb. **The Organization of behavior.** New York : Wiley, 1949.
— D.O. Hebb Intelligence, brain functions and the theory of mind. ,,**Brain**'', 82, 1959.
— I.P. Pavlov. Abrief outline of the higher nervous activity. In C. Murchison (Eo.) **Psychologies of 1930.** Workester, Mass. : Clark Univ. Press, pp. 207-220, 1930.

ولكن في سياق مكتسبات حياتية وفي عملية استيعاب منجزات الحضارة الانسانية بانتاجها وادواتها ورموزها ، يضع امامنا قضية بالغة التعقيد ، تبدو متناقضة ، عن الاساس الفسيولوجي ـ التشريحي لهذه الوظائف والقدرات .

يتلخص حل هذه المفارقة في انه في نفس الوقت مع تكوين العمليات النفسية العليا لدى الطفل تتشكل الاعضاء الوظيفية للمخ التي تمثل اساسا جسميا ديناميا لنشاط هذه العمليات ، وهذه الاعضاء المخية عبارة عن تجمعات اومنظومات انعكاسية ثابتة ، تستخدم لانجاز اعمال محددة . وبالرغم من اننا نجد امكانية التكوين الحياتي لهذه المنظومات المخية الوظيفية لدى الحيوان ، الا انها لدى الطفل تصير ركيزة لتحقيق تكوينات جديدة . Neoformations في نموه النفسي ، كما ان تكوين هذه المنظومات يصير هو القانون الحاسم للعملية التطورية النمائية .

وتسمح نتائج الدراسات المختلفة في علم النفس الفسيولوجي ، والعصبي ، والمقارن ، ان نحدد خصائص هذه الاعضاء المخية الوظيفية الناشئة حياتيا :

اولا : حينما تتكون تلك الاعضاء ، فانها تقوم بوظيفتها كعضو واحد . لذا يمكن ان تكتسب العمليات النفسية المرتبطة بها خاصية الاداءات المباشرة التي تعبر عن قدرة معينة ، مثل القدرة على الادراك المباشر للعلاقات المكانية او الكمية او المنطقية .

ثانيا : بالرغم من ان المنظومات الوظيفية تتشكل عن طريق تكوين روابط انعكاسية شرطية، لكنها لا تنطفىء كما تنطفىء الافعال المنعكسة الشرطية . فمن المعروف ، على سبيل المثال ، ان القدرة على التصور البصري للاشكال المدركة باللمس تتكون حياتيا . ولذا تختفي تماما لدى الاطفال المكفوفين منذ الميلاد ، بينما تظل هذه القدرة لعشرات السنين لدى الاطفال الذين فقدوا الابصار ان تكونت لديهم بالفعل هذه القدرة ،بالرغم من عدم امكان توفر اى تدعيم للروابط اللمسية البصرية لديهم .

ثالثا : المنظومات المخية الوظيفية قابلة لاعادة البناء ، فبعض مكوناتها يمكن ان تستبدل بغيرها، *ومنذ ذلك تبقى المنظومة الوظيفية ككل مركب .اى ان هذه المنظومات تكشف عن قدرة فائقة على التعويض .*

والسؤال : كيف تتكون هذه الاعضاء المخية الوظيفية ؟

الطفل لا يولد باعضاء مخية جاهزة للعمل على تحقيق الوظائف والعمليات النفسية الراقية (تفكير ، تذكر ، ادراك ، انتباه، تخيل ، كلام ،انفعالات ، حركة ...) ، ولكن هذه الاعضاء وما يرتبط بها من وظائف وعمليات في وحدة وظيفية حية تنمو « حياتيا » في سياق عملية استيعاب وتمثل الخبرة الاجتماعية المتجمعة .وهذه المنظومات تتكون وفقا للميكانيزم العام لتكوين العلاقات الشرطية ، ولكن على نحو يختلف عن تكوين السلاسل العادية للافعال المنعكسة الشرطية .

وفي هذا تكشف البيئة السيكونيورولوجية ان الوراثة تزود الطفل الوليد بكافة الطاقات

والاجهزة والاعضاء اللازمة التى تهيئه للتفاعل مع البيئة والاستجابة للمثيرات المختلفة المتوفرة فى الوسط المحيط به . وليست عملية الولادة الا بداية لنشاط مرحلى معقد مستمر : تأثير واستجابة ، استعداد وتفتح ، حيث تقوم علاقة وظيفية متبادلة ، تفاعل موصول ، بين الاورجانزم، والبيئة يكمن وراء تطور نمو الطفل .

٢ ـ النمو العقلى للطفل كعملية تكوين لادوات عقلية

ينخرط الطفل منذ فترة مبكرة من حياته فى اختلاط كلامى مع المحيطين به ؛ يلتقى بكلمات ، ويبدأ فى فهم معناها واستخدامها بفاعلية فى كلامه . ويمثل تعلم الكلام واستيعاب اللغة الشرط الحاسم لنموه العقلى ، لان مضمون الخبرة الاجتماعية ـ التاريخية للناس يستقر ويتوطد ليس فحسب فى شكل الاشياء المادية ؛ فهذا المضمون يعمم وينعكس فى شكل كلامى ، لفظى . وفى هذا الشكل خاصة يتبدى امام الطفل ثراء المعارف المتجمعة بواسطة الانسانية ، والمفاهيم المتعلقة بالعالم المحيط به (٤) .

امام الطفل ، الان ، مهمة استيعاب هذه المعارف والمفاهيم . ولكن لكى يتم ذلك ينبغى ان تكون لديه تلك العمليات المعرفية اللازمة .

والسؤال : كيف تتكون العمليات العقلية ـ المعرفية ؟

هنا ، **ينبغى ان** نتصدى لرفض موقفين علميين :

اولا : وجهة النظر التى تذهب الى ان الطفل يتمتع بوظائف عقليـــة **او بعمليات معــرفية « وراثية »** ، وان الظاهرات الخارجية المؤثرة عليها تستدعيها الى الحياة فحسب .

ثانيا : التسليم بان العمليات العقلية تتكون لدى الطفل **تحت تأثير خبرته الفردية الشخصية**، وبان الطفل فى عملية التعلم يخضع للتأثيـــرات يتمخض من تكرارها وتدعيمها تشكل علاقات او ارتباطات شرطية جديدة ، وبان نشاطه العقلى لايخرج عن كونه مجرد استرجاع بسيط لهـــذه العلاقات او الارتباطات .

تصورات كهذه لا تستقيم مع الحقائق ،الا يتطلب هذا المسار تكوين عمليات عقلية لدى الطفل ، وفقا لهذين الموقفين ، سندا من خبرة هائلة ووقتا كبيرا للغاية . وفى الحقيقة ان تكوين العمليات العقلية لدى الطفل يعتمد على خبرة فردية ليست بضخمة نسبيا ، ويتم نسبيا على نحو سريع جدا .

تفسير ذلك ، **ان الطفل يستوعب الخبرة فى شكلها المعمم** Generalized **بالفعل** . ومع ذلك لا يمكن ان تقدم اية خبرة الى الطفل فى شكل جاهز الصنع . يمكننا ان نعلم الطفل ، مثلا ، تلك الارتباطات مثل ٥ + ٣ = ٨ او ٦ ـ ٢ = ٤ وغير ذلك من امثلة مشابهة . ولكن هذا لا يؤدى بالطفل على الاطلاق الى ان يتقن العمليات الحسابية اللازمة او مفهوم العدد . لذا لا يبدأ تعلم الحساب

---

(٤) A.R. Luria. The role of speach in regulation of normal and abnormal behavioer. London : Pergamon Press, 1961.

بهذا ، وانما بالتكوين الفعال لعمليات ذات موضوعات أو اشياء خارجية ــ بما يتفق معها من تحويل وعد . ثم تتحول هذه العمليات الخارجية بالتدريج الى عمليات كلامية (العد بصوت مسموع) ، وتتبلور وتختزل ، وتكتسب في النهاية خاصية العمليات الداخلية (العد في العقل) التي تتوافر بطريقة آلية في شكل افعال ارتباطية بسيطة . الا انه يكمن وراءها الآن تلك الاداءات المعممة مع مفهوم الكميات التي بنيناها لدى الطفل في البداية . ولذلك يمكن دائما ان تتوسع هذه الاداءات وان يستخرجها (في شكل استجابات خارجية) من جديد .

ومن ثم ، تتطلب اجادة الطفل المفاهيم والتعليمات والمعارف أن تكون لديه العمليات العقلية الملائمة . ولكي يتحقق ذلك ، فان هذه العمليات ينبغي أن تبنى لديه بطريقة فعالة : في البداية تظهر في شكل اداءات خارجية يشكلها الكبار في الطفل ، ثم تتحول الى عمليات عقلية داخلية .

يتضح مما تقدم ان بناء الشخصية وتكوين الذكاء والقدرات العقلية وتشكل الوظائف المعرفية لدى الاطفال هو انعكاس للواقع الثقافي بدرجة كبيرة ، وان خصائص الشخصية والمستويات العقلية ــ المعرفية لا تتوفر للطفل منذ ميلاده في شكل معطيات وراثية ، او في شكل خصائص ومقدرات قدرية جاهزة الصنع « تعطى مرة لا تكرر » Once for All و « لا تتغير » .

فبقدر ما يخضع الواقع الثقافي ذاته للتغير في عملية التطور التاريخي للانسانية ، فان القدرات والخصائص التي يمتلكها الفرد ينبغي ان تتغير . ففي كل مرحلة من التغير التاريخي يواجه الانسان بمتطلبات جديدة تتغير بتأثيرها قدرات الفرد وخصائصه . ولكن هذا لا يستبعد اطلاقا دور الاستعدادات الطبيعية (الخصائص الفطرية ، والمكونات التشريحية ــ المورفولوجية للجهاز العصبي) التي يستند عليها ــ الى حد ما ــ نمو القدرات . « فالقدرات لا تتمركز كميزة في مخ الفرد . وانما يتضمن المخ في ذاته كميزة ليس هذه او تلك من القدرات ، ولكن بحسب القدرة على تكوين هذه القدرات » (٥) .

الا ان الاستعدادات الطبيعية ذاتها تمثل شروطا لازمة لنمو القدرات فحسب ، ولكنها لا تحتم ولا تحدد التحقيق الفعلي القدري لهذه الاستعدادات . فالنشاط الذي يقوم به الطفل في الوسط المحيط به يكمن وراء نمو استعداداته الطبيعية وامكاناته الكامنة .

بقول آخر ، النمو ليس عملية تفتح ذاتي Automatic Unfolding فليس بالضرورة ان تتحقق الاستعدادات الطبيعية في واقع الطفل ، واذا تحققت فقد تتحقق بمستوى او بآخر .

الاستعدادات الطبيعية ، اذن ، تتفتح في السياق الثقافي الذي يتفاعل معه الطفل ، تتكون وتأخذ خصائصها ومستوياتها وفقا له .

---

(٥) A.N. Leontiev. The significance of the concept of reflection for scientific psychology. **Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology**, 1966.

القوى الدافعة لمسار العملية النمائية

في سياق عملية النمو وبتأثير ظروف حياتية محددة يعيشها الطفل ، يتغير الموقع الذي يحتله الطفل في نظام العلاقات الانسانية . يتضح ذلك من تبين هذه الحركة الارتقائية في مسارها من مرحلة لاخرى .

طفولة ما قبل المدرسة ـ تلك الفترة المبكرة من الحياة التي ينفتح فيها امام الطفل عالم الواقع الانساني المحيط به . والطفل في نشاطه، وخاصة في نشاط لعبه الذي يتجاوز الآن الحدود الضيقة للتناول البسيط للاشياء المحيطة وللاختلاط بطريقة مباشرة مع الاشخاص المحيطين، ينخرط في عالم اكثر رحابة ، مستوعبا اياه في شكل اداتي . فهو يستوعب العالم المادي كعالم للموضوعات الانسانية ، فيه تنطبع الادامات الانسانية المرتبطة بهذا العالم ، وتتكون صور حسية ـ حركية وعقلية يسترجعها في مواقف مختلفة . الطفل « يسوق السيارة » ، و« يصوب المدفع » ، بالرغم من انه لا يستطيع حقيقة ان ينطلق بالسيارة او يطلق النار من المدفع . فحاجات الطفل الحياتية الاساسية تلقى الاشباع بواسطة الكبار بدون ما علاقة بانتاجية نشاطه .

ويخبر الطفل علاقته بالاشخاص المحيطين به بطريقة مباشرة ، فهو ينبغي ان يحتسب المطالب التي يفرضها الكبار المحيطين على سلوكه ، والتي تحدد بدورها علاقاته الوطيدة معهم . وبهذه العلاقات لا ترتبط نجاحاته واخفاقاته فحسب ، وانما يكمن فيها ايضا لذاته والمه ، وبالتالي فهي تتمتع بقوة الدافع .

في هذه المرحلة العمرية يتوزع عالم الاشخاص المحيطين بالطفل ، وبالنسبة له ، الى دائرتين : الاولى ـ وتتضمن الاشخاص القريبين (الاب ، الام او من يحل محلهما) من الطفل ، وتؤدي علاقاته بهم الى تحديد علاقاته بكل ما يحيط به . وتتضمن الدائرة الاخرى ، وهي اكثر اتساعا ، كل الاشخاص الآخرين الذين تتوسط علاقاته بهم بتلك العلاقات التي تتشكل في جماعة الدائرة الاولى ، جماعة الاسرة ذات العلاقات الوطيدة الدائمة .

ويمثل التحاق الطفل بالمدرسة حدثا سيكولوجيا بالغ الاهمية في تاريخ حياة الطفل ، فكل نظام علاقاته الحياتية يخضع لاعادة البناء والتنظيم . وتبرز الآن مهمة المجتمع كفرض واجب ، وليس فقط مهمة الوالدين او المعلم . ويؤدي تحقيق هذا المطلب الى تحديد موقع الطفل في الحياة ، وظيفته ودوره الاجتماعيين ، وبالتالي ما تنطوي عليه حياته من مضمون في المستقبل برمته .

هل يعي الطفل ذلك ؟ طبيعي ، ان يكون على وعي باهمية هذا الحدث (الالتحاق بالمدرسة)، هذا ايضا قبل التعلم الشكلي . فحينما يجلس الطفل على دروسه ، قد يشعر بنفسه انه مشغول بعمل عظيم حقيقة . ويمنع الكبار الاطفال الصغار في الاسرة من احداث ازعاج لطفل المدرسة ، وحتى قد يضحي الكبار باعمالهم الخاصة لكي يتوفر الطفل على دروسه . ويختلف هذا تماما عما كان يقوم به من لعب ونشاط من قبل . **فموقع نشاط الطفل ذاته في حياة الكبار المحيطين به قد صار موقعا آخر .**

ففى هـذه المرحلة يمكن ان نشترى اولاللطفل لعبة ، ولكن من المستحيل ان نشتري له كتابا وكراسة وقلما . لذا يطلب الطفل ان نشتري له كتابا او قصة او مجلة اكثر مما يطلب شراء لعبة . مثل هذه المطالب تحمل مغزى مختلفاليس بالنسبة للوالدين فحسب ، ولكن ايضا بالنسبة للطفل ذاته .

وفى هذه المرحلة الارتقائية تفقد علاقاتالطفل الوثيقة دورها المسيطر السابق لتمتد الى دائرة اكثر اتساعا لاختلاطه وعشرته ؛ فهذهالعلاقات ذاتها تتحدد الآن ـ بالعلاقات الآخذة فى الاتساع . وكيفما كانت ، على سبيل المثال ،العلاقات الاسرية الوثيقة التي يشعر بها الطفل طيبة ، فلا بد من ان يؤدي حصوله على درجةمنخفضة فى اعماله المدرسية او عدم استحسان المعلم له الى تعكير صفو هذه العلاقات .ويختلف هذا تماما عما كان من قبل ، فى سن ما قبل المدرسة . وهنا **كما لو ان المدرسة تبلور فى ذاتهاعلاقات جديدة ، شكلا جديدا للاتصال والمعاشرة ينخرط فيه الطفل ، معنى جديدا لتحقيق ذاته.**

ويصبح فى مقدور الطفل الا يغضب المعلمبسلوكه : فلا يحدث صوتا فى الدرج ، ولا يتحدث مع زميله اثناء الدرس ، ولا يلقى بالقاذورات على الارض ، ولا يحدث شغبا مع الآخرين ، او ضررا لهم وغير ذلك مما قد ينعكس فى الدرجات التي يحصل عليها . والدرجة المنخفضة لا تمحي من صفحة كراسته ، وانما تقف بجوارها الدرجة العالية الجديدة ، وليس بدلا منها .

وبهذا يتحقق الانتقال الى المرحلة التاليةمن نمو الحياة والوعي لدى الطفل . يرتبط هذا الانتقال لدى المراهق بانضوائه فى اشكال ملائمةمن الحياة الاجتماعية (المشاركة فى بعض المهام الاجتماعية التى لا تحمل طابعا طفليا ، الاضطلاعبادوار هامة فى التنظيمات الطلابية ، ومشروعات ومعسكرات الخدمة ، تبلور مضمونا جديداللعمل الجماعي ، الى غير ذلك) . وبذلك يتغير الموقع الحقيقى الذي يحتله الطفل فى الحياة اليومية للكبار المحيطين به ، فى حياة اسرته . الآن تضعه قواه الجسمية ومعارفه ومهاراته فى بعض الحالاتعلى قدم المساواة مع الكبار ، بل وحتى قد يشعر بالتفوق والافضلية : فقد يعترفون بما لهمن همة وما يقوم به من رعاية ومساعدة للاسرة ، وقد يكون هو العضو الاقوى فيها والناطقبلسان حالها فيما تمر به الاسرة من احداث .

ومن ناحية الوعي يتصف هـذا الانتقاليـنمو الروح النقدية لدى المراهق بازاء المتطلبات والمسئوليات والتصرفات والخصال الشخصيةللكبار ، وبانبثاق ميول نظرية اصيلة . وتظهر عند المراهق الحاجة الى ان يعرف ليس الواقعالمحيط به فحسب ولكن ايضا ما هو معرف عن هذا الواقع . وفى هذه الفترة يتهيأ المراهق للعملالمهني ، بل وقد يمارس نشاطا انتاجيا يحقق فيه ذاته . وهنا يحتل المراهق موقعا جديدا ،ويكتسب حياته مضمونا جديدا ، وهذا يعني انه صار يدرك كل العالم بمنظور جديد .

الا ان تغير الموقع الذي يحتله الطفل فىنظام العلاقات الاجتماعية خلال المسار النمائي لا يحدد فى ذاته ، بطبيعة الحال ، تطور نمـوالطفل ، وانما يعين **الطور النمائي القائم والمتاح بالفعل فحسب . لكن ما يحدد ، بطريقة مباشرة،نمو النشاط النفسي لدى الطفل ـ هو حياته**

ذاتها ، نمو العمليات الحقيقية لهذه الحياة ، بمعنى آخر ، نمو نشاط الطفل ، الخارجي والداخلي . وعلاوة على ذلك ، يرتبط نموه بدوره بالشروط الحياتية المتاحة وبمدى ما يتوفر **من « مقومات استثارة النمو » .**

ومن هنا ، ينبغي في دراسة لتطور نمو الحياة النفسية لدى الطفل ان ننطلق من تحليل **نمو نشاطه كما يتشكل في شروط ومواقف** ملموسة من حياته . وبهذا المدخل وحده يمكن **تفسير دور الشروط الخارجية لحياة الطفل ،وكذلك استعداداته الطبيعية التي يتمتع بها .** وبهذا المدخل فحسب ، الذي ينطلق من تحليل**مضمون نشاطه النامي ، يمكن أن نفهم بحق الدور الهائل للتربية التي تباشر** تأثيرها على نشاط**الطفل بصفة خاصة ، وعلى علاقته بالواقع ، ومن ثم على بناء حياته النفسية ووعيه .**

ولا يتشكل النشاط بطريقة آلية انطلاقا من اشكال منعزلة من النشاط . تمثل بعض اشكاله في مرحلة معينة اشكالا مسيطرة وتحمل معنى كبيرا بالنسبة **لاضطراد نمو الشخصية ، في حين تحمل الاشكال** الاخرى معنى اقل . بعضها **يلعب دورا رئيسيا في النمو والاخرى ثانويا . ومن ثم ينبغي** أن نقرر ارتباط **تطور نمو الطفل ليس** بالنشاط **بصفة عامة ، ولكن**بالنشاط **المسيطر .**

لذا **يمكن القول** بان كل مرحلة من مراحل النمو النفسي تتميز **بعلاقة محدودة ، مسيطرة في مرحلة معينة ، للطفل** مع الواقع ، بنمط محدد مسيطر لنشاطه . **ومن ابرز دلائل** ارتقائية **الطفل من مرحلة لاخرى ،** تغير النمط المسيطر للنشاط ، وتغير **العلاقة المسيطرة لدى الطفل مع الواقع .**

والسؤال : ماذا نعني بالنمط المسيطر للنشاط ؟

لا يتمثل النشاط المسيطر ابدا في دلائل كمية خالصة . النشاط المسيطر ـ ليس **بيساطة نشاطا نقابله اكثر في مرحلة** بعينها من مراحل النمو ، **يعطيه الطفل** وقتا اكبر . لكن **ما نعنيه بالنشاط المسيطر ، ذلك** النشاط الذي يتصف بالدلائل الثلاث التالية :

اولا : هو ذلك النشاط الذي تظهر على شاكلته وتتمايز في داخله اشكال جديدة اخرى من النشاط . من هذا ، على سبيل المثال ، ان التعلم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، يتضح قبلا في طفولة ما قبل المدرسة ، يظهر اولا في اللعب ، اى يظهر في النشاط المسيطر في هذه المرحلة من مراحل النمو . فالطفل **يبدأ التعلم وهو يلعب .**

ثانيا : النشاط المسيطر ، هو ذلك النشاط ، الذى تتكون فيه عمليات نفسية محددة ويعاد بناؤها . من هذا ، على سبيل المثال ، في اللعب تتكون عمليات التخيل النشط ، وفي الدراسة عمليات التفكير التجريدي . لكن هذا لا يعني ان تكوين واعادة بناء كل العمليات النفسية يتم داخل النشاط المسيطر فحسب . فبعض العمليات النفسية تتكون ويعاد بناؤها ليس بطريقة مباشرة في النشاط المسيطر ذاته ، ولكن ايضا في اشكال اخرى من النشاط ترتبط

به من الناحية التطورية . فمثلا ، عمليات تجريد وتعميم اللون تتكون في سن قبل المدرسة ، ليس في اللعب ذاته ، ولكن في الرسم واستخدام الالوان وغير ذلك ، اي في تلك الاشكال من النشاط التي ترتبط في أساسها بنشاط اللعب فحسب .

ثالثا : النشاط المسيطر ، هو ذلك النشاط الذي يرتبط به ما يلاحظ في فترة معينة من النمو من تغيرات نفسية أساسية في شخصية الطفل . فالطفل في سن ما قبل المدرسة ، على سبيل المثال ، يستوعب في اللعب خاصة الوظائف الاجتماعية والمعايير الملائمة للسلوك الانساني (« ماذا يفعل العامل في المصنع ، والفلاح في الحقل » ، « ماذا يفعل الجندي ، وغير ذلك » ، وهذا يمثل ركيزة هائلة لبناء شخصيته .

وهكذا ، يكون النشاط المسيطر ـ هو ذلك النشاط الذي يضمن نموه تحقيق تلك التغيرات الهائلة في العمليات النفسية ، وفي خصائص شخصية الطفل في مرحلة بعينها من مراحل النمو .

ولا تتميز مراحل النمو ، رغم ذلك ، بمضمون محدد للنشاط المسيطر لدى الطفل **فحسب ، ولكن أيضا** بتتابع زمني محدد ، اي بعلاقة محددة بعمر الاطفال . ومع ذلك ، لا يمثل **مضمون المراحل ولا** تتابعها في الزمن شيئا معطى **لا يتكرر ولا** يتغير .

فكل جيل جديد ، وكل فرد ينتمي الى هذا الجيل ، تتهيأ امامه شروط معينة للحياة ، وبالتالي مضمون معين لنشاطه . لذا فبالرغم من تحديد المراحل معلومة في نمو الحياة النفسية لدى الطفل ، الا ان مضمون المراحل لا ينفصل ابدا عن الشروط التاريخية والثقافية الحية ، التي ينساب فيها نمو الطفل . وينسحب تأثير هذه الشروط سواء على مضمون هذه المرحلة او تلك من مراحل النمو ، او على كل مسار عملية النمو النفسي برمتها . **فبالرغم من ان مراحل النمو تتوزع بشكل محدد في تتابع الزمن ، ولكن حدودها العمرية ترتبط بمضمونها الذي يتحدد بدوره بتلك الشروط التاريخية ـ الثقافية التي تتم فيها العملية النمائية** ، وهكذا لا يحدد عمر الطفل مضمون مرحلة النمو ، ولكن ترتبط الحدود العمرية ذاتها بمضمونها وتتغير مع تغير الشروط الاجتماعية ـ التاريخية . ويبدأ الطفل ، في سياق النمو ، في ان يعي بأن الموقع السابق الذي كان يحتله في عالم العلاقات الانسانية المحيط به كما لو انه لا يتفق مع امكاناته ، ويسعى الى تغييره . **وبالتالي ينشأ تناقض صريح بين نموذج حياة الطفل وامكاناته الفعلية . ومن ثم يخضع نشاطه لاعادة البناء ، وبالتالي تتحقق الانتقالية الى مرحلة جديدة من نمو حياته النفسية .**

ونسوق مثالا لذلك من تطور نمو الطفل في سن ما قبل المدرسة . في البداية يشترك الطفل من طيب خاطر في حياة الجماعة بدار الحضانة ، يشارك الاطفال الآخرين لعبهم ، ويعرض رسومه ، ويقص الحكايات ويردد الاناشيد ، ويحكي عن الاحداث التي صادفته في تجولاته . وكثيرا ما يستجيب له الكبار بابتسامة راضية وباستحسان يعضد ما يقوم به . وبعد فترة من النمو ، تتسع معارف الطفل ، وتزداد مهاراته ، وتنمو قواه ، وبالتالي يفقد النشاط في دار الحضانة مغزاه السابق بالنسبة له . حقيقة يحاول ان يجد في حياة دار الحضانة مضمونا جديدا ؛ فهو يبدأ في

ان تكون له مجموعات من الاطفال تعيش حياتهـا وما قد يشيع فيها من خصوصيات واسرار ، وهي ليست ابدا بحياة ما قبل المدرسة ؛ لقد صـار الشارع والفناء وجماعة الاطفال الاكبر سنا اكثر اجتذابا له . وقد تؤدي هذه التغيرات الى احداث خلل في انتظام عملية النمو . وهذا ما يسمى بأزمة العلم الســادس من النمو .

وعادة ما ترتبط ازمات النمو ـ ازمة العام الثالث ، ازمة العلم الســادس ، ازمة المراهقة ، ازمة الشباب ـ بانتقالة الطفل من مرحلة لاخرى. وهي تكشف بشكل صارخ عـن وجـود ضرورة داخلية لهذه الانتقالات من مرحلة لاخرى ، ولكن هل هذه الازمات حتمية الوقوع في نمو الطفل ؟

في الحقيقة لا تمثل ازمات النمو ابدا احداثا حتمية في مسـار العملية النمائية . فالذي لا مفر منه ليس الازمات ، ولكن التحولات والتنقـلات الكيفية في النمو ، وعلى العكس ، والازمة دليل على انتقالة لم تتحقق في وقتها المواتي . الازمات قد لا تقع اطلاقا ، اذا ما تواتر النمو النفسي للطفل بطريقة غير عفوية ، وتحقق كعملية احسن ادارتها وتوجيهها ـ بالتربية رشيدة التوجيه .

ويجب تحول النمط المسيطر لنشاط الطفل وانتقاله من مرحلة نمائية لاخرى ، في الحالات السوية ، على الحاجة الداخلية الناشئة ، ويعني هذا بدوره ان الطفل يضع التعليم امـام مهـام ومطالب جديدة تتفق مع امكاناته المتغيرة ووعيه الجديد .

نمو الطفل في النشاط :

الشخصية تتشكل في النشاط . فـكل السمات والقدرات والاهداف والميول والمطامح والانماط السلوكية تتكون في الاشكال المختلفة للنشاط التي ينخرط فيها الطفل ، تلك الاشكال التي تؤلف حياة الشخصية ووجودها الاجتماعي. ففي النشاط خاصة تتكشف اهدافه ودوافعه ؛ نزعاته ورغباته ، وخصائص شخصيته واسلوبها في مواجهة المواقف وحل المشكلات .

فارتباطا بما يفعله الطفل (مضمون نشاطه) ، وكيف يعمل (طرق النشاط) ، وبتنظيم وشروط هذا النشاط وبما يستدعيه هذا النشاط لدى الطفل من علاقات واتجاهات ، تتكون لديه ميول وقدرات وخصال معينة ، وتتدعم معارفه وخبراته .

خلال النشـاط الذى يتحقق بالشخصيـة وبالاشتراك مع الاشخاص الآخرين ، يعرف الطفل ذاته ، يتكون وعيه في النشاط الذى يشترك فيه مع الاطفال الآخرين ، يعرف ذاته في الآخر ، يفهم الآخرين ونفسه ، ويوجه ذاته ويقيم تصرفاته وافعاله ، **ولعلنا لا نجانب الصواب حينما نقرر انه يمكن اماطة اللثام عن قوانين النمـو النفسـي ودينامياته بدراسة الاشكال المختلفة لنشـاط الاطفال في كل الانتقالات النمائية .**

اللعب : نشاط ينطوى على أشكال مختلفة :الالعاب الحركية ، الالعاب التعليمية ، الالعاب التمثيلية ، الالعاب التركيبية . ويحتل اللعب بالادوار ، او الالعاب الابداعية ، ان صح هـذا التعبير ، مكانة هامة في نمو الاطفال من سن ٢ ـ ٧ سنوات . ويمثل هذا النمط من اللعب النشاط المسيطر في طفولة ما قبل المدرسة خاصة وفي المرحلة الابتدائية عامة . واللعب بالادوار ينشأ

ويوجد فى ارتباط مع الانواع الاخرى من الممارسات الطفلية ، وخاصة مع ملاحظات الحياة المحيطة به والاستماع الى القصص والحكايات والاحاديث مع الكبار .

واللعب فى الطفولة وسيط تربوى يعمل بدرجة هائلة على تشكيل الطفل فى هذه المرحلة التكوينية الحاسمة من النمو الانسانى . ولا يرجع مصدر هذه الاهمية الى ان الطفل يقضى جل وقته فى اللعب الذى يستثير اهتمامه والى انه قليلا ما ينغمس فى النشاط العملى للكبار ، وانما الى **ان اللعب يتمخض عن تغيرات كيفية فى التكوين النفسي للطفل ، وفيه تكمن اسس النشاط الدراسى الذى سيكون نشاطا مسيطرا على حياته فى سنوات المدرسة .**

فلا يمكن أن يتم اشباع نزعة الطفل الى الحياة المشتركة مع الكبار على أساس من العمل المشترك ، ولكن يبدأ الطفل فى اشباع هذه الحاجة فى سياق اللعب ، حيث لا يمارس الحياة العملية فحسب ، وانما يتشرب ايضا اتجاهات معينة نحو الذات وفى علاقتها بالآخرين ، متخذا لنفسه ادوار الكبار . لذا يصير الموقع الخاص الذى يحتله الطفل فى المجتمع ركيزة لنشأة اللعب بالادوار كشكل متميز من نشاط الطفل يدخل به الى عالم الكبار . فى اللعب تتفتح أمام الطفل ابعاد العلاقات الاجتماعية القائمة بالفعل بين الناس ، ويبدأ فى ان يتفطن الى ان الاسهام فى اى نشاط يتطلب من الشخص الوفاء بالتزامات محددة والتمتع نظير ذلك بحقوق معينة ، وهو ما يعكسه ايضا فى نشاط لعبه . ويتعلم الطفل من اللعب الجمعى « الضبط الذاتى » — Self - Control و « التنظيم الذاتى » Self - regulation ، خضوعا للجماعة وتنسيقا لسلوكه مع الادوار المتبادلة فيها .

واللعب ايضا مدخل اساسى لنمو الطفل عقليا ومعرفيا ، وليس لنموه اجتماعيا وانفعاليا فقط . ففى اللعب يبدأ الطفل فى التعرف على الاشياء وفرزها وتصنيفها ، وبالتالى فى تمام مفاهيمها والتعميم بينها على أساس لفظى لغوى . وهنا يلعب نشاط اللعب دورا كبيرا فى نمو الكلام لدى الطفل وفى التعبير الرمزى وفى تكوين مهارات الاتصال الكلامى .

واذا كان الطفل يتغير ارتقائيا فى اللعب ، فان مضمون اللعب ذاته يخضع لتغيرات كيفية مع تطور العملية النمائية . فالمضمون الاساسى للعب الطفل فى العامين الاولين حركات جسمية حسية غير منظمة ، فلا يدرك الطفل مثلا خطورة تناول بعض المواد او الادوات التى تستثير شغفه . وفى حوالى العام الثالث يمارس الطفل بمواد اللعب تلك الاداءات التى يأتيها الكبار مع المواد الحقيقية ، فالطفل مثلا يقوم بمسح المنضدة او تنظيف الارض او الاحذية او تقطيع الخبز او اطعام العروسة ، الخ . فهو يسترجع الاداءات الواقعية ، كما يلاحظها فى دنيا الكبار ، فى العابه وموادها وادوارها ويمارسها فى نشاطه بصورة خيالية ورمزية . وفى الفترة من سن اربع الى سبع سنوات ، يأخذ لعب الطفل فى ان يخضع تدريجيا بدرجة كبيرة لاعتبارات الواقع الموضوعى ، فتصير مسايرة القواعد والاجراءات التنظيمية هى المضمون الاساسى لنشاط لعبه ، وبالتالى يبدأ لعب الطفل فى ان يصبح بشكل اكثر نظامية وهادفية ، ويأخذ فى التخفيف التدريجى من نزعته الى التمركز حول الذات وفى التوحد المتزايد مع الجماعة ، ومن ثم فى تكوين صورة اكثر واقعية عن الذات النامية .

العمل : يحتل العمل في نمو الطفل مكانةبالغة الاهمية . لكن الدور الذي يلعبه هنا في حياة الطفل يختلف عن الدور الذي لعبه في تطورالمجتمع الانساني . فالطفل يشب في عالم جاهز الصنع ، عالم العمل وادواته ونواتجه . وهو يتعلم على ايدي الكبار ، العاملين انفسهم . وتمثل اداءاتهم بالنسبة للطفل نموذجا للتقليد ، اما مايباشره الكبار من أوامر ونواهي وضبط وتوجيه وتفسير ومساعدة فانه يحرر الاطفال من الكثير من المحاولات عديمة الجدوى ويجنبهم الاخطاء الفادحة التي وقعت فيها الاجيال السابقة .

يؤكد تحليل الاشكال المختلفة لنشاط العمل لدى الاطفال ، خصائصه وتغيره في المراحل العمرية المختلفة ، ان العمل ينطوي على امكانات تربوية وتعليمية هائلة في عملية النمو . فنظام الاداءات العملية يمثل مضمون نشاط العمل ، تلك الاداءات التي توجه نحو تحقيق هدف ينشده الطفل . ويحمل هذا الهدف دائما قيمة اجتماعية محددة .

والحاجة الى العمل ـ احد الحاجات الحياتية المتعاظمة لدى الانسان المعاصر. فنشاط العمل يشبع في الطفل حاجة اصلية الى الممارسات السديدة الفعالة . وبقدر ما يكون نتاج النشاط ملموسا وواقعيا ، يصير في حد ذاته هدفا يسعى اليه الطفل . وتتقوى جاذبية العمل بما يحتمل في الطفل من مشاعر السرور المرتبطة بالنشاط المشترك مع الكبار والاطفال الآخرين .

الا ان الاتجاه الناضج نحو العمل والتوجه الى انجاز هدف مفيد اجتماعيا لا يصير على النو دائما محركا لنشاط العمل لدى الاطفال . فالاطفال الصغار ، بقيامهم بمهام عملية منفردة توكل اليهم ، توجههم اليها في البداية دوافع ضيقة تتسم بالمركزية حول الذات . يعملون لكي يستجلبوا استحسان الوالدين والكبار . وبالتدريج تأخذ دوافع العمل في التغير لدى الاطفال . بالنسبة لطفل الثالثة من العمر تكون عملية العمل ذاتها اكثر اجتذابا واستثارة . واذ يقوم الطفل بالاداءات المطلوبة بالاشتراك مع الكبار وينجز ما هو مطلوب منه ، يشعر بنفسه كشخص « كبير » . فهو باهتمام يضع الملاعق على المائدة ، ويناول بعض الادوات مع الام . ولا يختلف هذا العمل كثيرا عن اللعب ، ولكن دوافعه مختلفة . فكلما تطور نمو الطفل ، تكتسب نتائج العمل اهمية كبيرة ، اي الفائدة التي يمكن ان يجلبها ما يقوم به من مهام عملية واعية .

تأخذ دوافع العمل لدى اطفال السادسة والسابعة والثامنة من العمر في ان تكتسب اكثر واكثر مغزى اجتماعيا واضحا . الاطفال يشتركون معا في العمل لكي تتهيأ المدرسة جيدا لاستقبال الآباء في حفل مدرسي . وينغمس الاطفال بهمة ، في تنظيف المدرسة او في مباراة رياضية مثلا ، لكي تفوز مدرستهم بالمكانة الاولى .

ويستدعي الوصول الى نتيجة حقيقية للعمل لدى الطفل شعورا بالترقي الانفعالي . وينشأ هذا الشعور لان الاطفال :

أ ـ يرون أن قواهم وطاقاتهم لا تذهب هباء .

ب ـ يبدأون في معرفة قواهم (« هذا ما استطيع عمله ») .

جـ ـ يبداون فى الاحساس بلذة العمل الجماعى ، وتاخذ عملية العمل ذاتها فى اجتذابهم .

د ـ يتشجعون بتقدير واستحسان الكبار . ومن شأن الانفعالات الايجابية فى عملية العمل ان تؤدى الى نمو حب العمل لدى الاطفال والى الثقة فى قواهم .

يقول ابو علم النفس العربى الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى :

« لقد شاهدت بنفسى الاشخاص الذين طالعوا واكتفوا بالمطالعة وهضموا ما طالعوه ، شاهدتهم انهم يظلون فى عقولهم كالاطفال الى ان يمارسوا الواقع ممارسة فعلية ، فرايتهم ينضجون ويكتمل نموهم ، لا فى علمهم فحسب ولكن فى شخصياتهم ، ولنا أسوة فيما قاله لنا الاستاذ الغزالى حيث نصحنا بان نعمل بما نعلم لينكشف لنا ما لا نعلم » (٦) .

بالعمل تنمو الخصائص الجسمية والعقلية والخلقية المعنوية لدى الاطفال . العمل يؤدى الى نمو وتحسين العمليات النفسية ، وخاصة دقة الادراك والقدرة على الملاحظة وتنظيم الادامات . ويمثل اتساق حركة العينين والذراعين فى العمل (الاتساق الحسى ـ حركى) وانتظام حركة الاصابع مؤشرا اساسيا على تهيؤ الطفل للعمل المدرسى ، للدراسة ، الكتابة والخط ، للرسم ، لاعمال الورش بالمدرسة وغير ذلك . والاطفال بتوجيههم لاداماتهم نحو انجاز هدف واضح ، يتدربون على الانتباهية ، على التركيز الانتقالى للانتباه الذى يصير اكثر ثباتا وارادية ، اى يكتسب خاصية التوجيه والادارة الواعيين .

ويتطلب العمل من الطفل استخداما متعدد الجوانب لخبرته . فلكى يقوم الاطفال بالعمل من طيب خاطر ، ينبغى ان يتهيأ لهم فهم مغزى العمل فى حياة الناس واهميته للمجتمع . ينبغى اثراء تصورات الاطفال عن : اين وكيف ولماذا يعمل الناس باختلاف تخصصاتهم ، وان نحكى لهم من ادوات ووسائل وآلات ومواد العمل التى يعملون بها ، وان نبصرهم بالفائدة الاجتماعية للعمل كما تقوم به جماعات مهنية كاملة (عمال نسيج ، عمال نفط ، مزارعون ، خبازون ، صيادون وغير ذلك من جماعات العمل) ، وان نوقفهم على مدى السرور الذى قد يمنحه العمل وفيما تكمن صعوبة عمل الطبيب والعامل والمعلم والسائق والمهندس وغير ذلك . واذ نبرز للاطفال تلك العلاقات المتبادلة بين العاملين يحمل نشاط العمل مغزى تربويا تعليميا هائلا بالنسبة للاطفال . فعلى سبيل المثال :

« السائق يقود الاوتوبيس ، عمله هام بالنسبة للجميع : وفى الاوتوبيس حشد من الناس ، فهذا رجل ذاهب الى عمله وذاك الى الطبيب ، وثالث الى كليته ، هؤلاء ذاهبون لزيارة بعض الاصدقاء ، وآخرون الى المتحف او حديقة الحيوان ، او الى محل لبيع الملابس ، وغيرهم ذاهب الى محطة السكة الحديدية . لكن السائق نفسه يعتمد باستمرار على ما يقوم به الآخرون من اعمال . فهو يرتدى ملابس يعدها العمال فى مصنع النسيج والترزى يفصلها له . وهذه الملابس مصنوعة من القطن الذى يزرعه الفلاح فى الحقل او من الصوف الذى نحصل عليه من

---

(٦) دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم التكرى فى مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .

تربية الاغنام . واذا مرض السائق يتوجه الى الطبيب للعلاج ، والى الصيدلى لشراء الادوية ، اولاده يذهبون الى المدرسة ، حيث يعمل المعلم . فكل انسان يستخدم عمل الآخرين ، ولا يمكن ان يعيش انسان وحده او يعمل لنفسه فحسب » .

وللعمل قيمة كبيرة فى نمو المهارات اليدوية والقدرات العقلية ، فالطفل بتقليده للكبار وبتنفيذه لتعليماتهم ، يستطيع ان يستخدم مايتوفر له من ادوات مثل ادوات المائدة وادوات المدرسة واستخدامها . الا ان الطفل ينبغى ان يتعلم ليس استخدام هذه الادوات استخداما آليا فحسب ، وانما ايضا اتقان بعض المهارات العقلية . فينبغى ان يتعلم كيف ينتقى الادوات والوسائل والمواد الملائمة لعمل وهدف معينين ، ان يتمكن من تحديد اى الاداءات يأتى بها وفى اى تتابع ينبغى تحقيقه .

ويتضمن نشاط العمل اربعة عناصر اساسية :

١ ــ استخدام المعلومات .

٢ ــ الوعى بالهدف .

٣ ــ تدبر اداءات العمل .

٤ ــ مراجعة وتقييم نتائج العمل .

٥ ــ الانجاز العملى للاداءات المطلوبة .

وهذه العناصر اللازمة لتحقيق نشاط العمل تتطلب من الطفل القيام بعمليات عقلية . لذا فان فاعلية الطفل فى العمل (ليس فقط الفاعلية الجسمية ، ولكن ايضا العقلية) تؤدى الى تفتح امكانات نمو التفكير والتخيل لدى الطفل . ولا ينفصل نمو التفكير عن تكوين الميول المعرفية لدى الاطفال .

والعمل ، بجانب ذلك ، مجال لتنمية الارادة لدى الاطفال ، فالطفل يتدبر مواقف العمل ، يخطط لتحقيق الاهداف ، يحاول التغلب على الصعوبات والمعوقات . وفيه تنمو اتجاهات الزمالة والصداقة وتبادل الادوار ، وغير ذلك من معالم النمو الاجتماعى والعاطفى للطفل .

وهكذا ، ينطوى العمل المنظم تربويا على امكانات هائلة للنمو المتعدد الجوانب للطفل : حركاته واحساساته ، ذاكرته وتخيله ، الملاحظة والانتباه والتفكير ، وفى نشاط العمل تتهيأ امكانات كبيرة لنمو الفرضية فى السلوك والمثابرة والارادة والمشاعر الانسانية الراقية والخصال الخلقية السامية ، كالحب والوفاء والمودة والتضحية وغير ذلك . وتستلزم عملية البناء البشرى هذه من المعلم موالاة تجسيدها فى الممارسات التربوية اليومية . وفيما يلى نعرض للمتطلبات الاساسية اللازمة لتنظيم نشاط العمل لدى الاطفال .

١ ــ ينبغى ان يتفق العمل ، كأى نشاط ، مع القدرات العقلية والجسمية للاطفال . فعملية النشاط ذاتها تجتذب طفل الثانية والثالثة من العمر ، فلا يتيسر للاطفال الصغار انجاز عمل

وفقا لهدف مقترح ، وحتى هدف قريب . اما طفل الخامسة والسادسة ، فيستطيع ان يرنو الى المستقبل ، فتشده اليه اهداف ودوافع معينة ، وان كانت غير كافية . ويستطيع الاطفال الاكبر سنا ان يذهبوا الى تحقيق اهداف بعيدة اكثر تعقيدا ، يتطلب تحقيقها اسهام مجموعة كاملة من الاطفال وتنظيم للادوار والاداءات المختلفة .

٢ ـ لكى يؤدى العمل المنظم تربويا الى اشباع الاطفال ، ينبغي ان يتضح امامهم ليس الهدف (اى النتاج النهائي للعمل) فحسب ، ولكن ايضا القيمة الاجتماعية لهذا العمل .

٣ ـ لكى تتكون لدى الاطفال اتجاهات ايجابية نحو العمل من الضرورى ان نغرس فيهم قيمة تقدير كل عمل نافع ، من ذلك مثلا تقدير العمل اليدوى والاعمال الشاقة التي لا غنى عنها لحياة الناس .

٤ ـ لكى يخبر الطفل شعورا بالرضا من نشاطه في العمل ، ينبغى ان يكون قادرا على العمل ، اى يتقن نظاما من الخبرات والمهارات التى يستطيع استخدامها بنجاح في مواقف متعددة يحقق فيها ذاته .

النشاط الدراسى : كلما تطور نمو الطفل اخذ نشاط آخر ـ النشاط الدراسى ـ في احتلال مكانة متزايدة في حياته ويلعب دورا اكبر في نموه .

وترتبط الدراسة ارتباطا وثيقا بالعمل ، لان اى عمل يستلزم دراسة ، فالدراسة تسبق العمل ، ولكن الدراسة ذاتها عمل فريد ونشاط سواء من جانب الطفل او المعلم .

يمثل استيعاب الاطفال لنظام محدد من المعرفة مضمون النشاط الدراسى . وتؤلف هذه المعارف الخبرة المتجمعة من اجيال عديدة عاشت في بلاد العالم المختلفة وفي فترات تاريخية متعددة . ويتلقى كل جيل جديد من الاسلاف معلومات متجمعة في شكل جاهز ، وهو مطالب باستيعاب واتقان هذه المعلومات وطرائق استخدامها ، ذلك هو هدف ودافع النشاط الدراسى .

ويمكن ان نحدد خصائص النشاط الدراسى على النحو التالى :

١ ـ تنظيم النشاط الدراسي لدى الاطفال مهمة المعلم ، ارتباطا بمتطلبات المجتمع كما تحددها البرامج الدراسية . ويتعين في البرامج ان تسعى بفاعلية الى توظيف ذلك المحتوى الذي ينبغي تحقيقه في كل مرحلة من مراحل نموهم ، حيث يتحدد في البرنامج مستوى وحجم المعلومات والخبرات والمهارات التي على الاطفال اكتسابها .

٢ ـ يمثل استيعاب الطفل للمعلومات مضمون النشاط الدراسي ، وباستيعاب الاطفال للمعلومات وتطبيقها في اشكال مختلفة لنشاطهم ، يتقن الاطفال خبرات معينة ومهارات عقلية ، اي يتقنون طرائق مختلفة للاداء .

٣ ـ الفاعلية العقلية دالة لفاعلية الطفل في النشاط الدراسي . وبالرغم من ان اداءات الاطفال تعتمد بدرجة كبيرة على اداءاتهم الجسمية (عد الاشياء في متناول يديه ، الكتابة) ، فان هذه

الاشكال من الاداءات تحمل طابعا مساعدا . وكلماكونت أداءات عقلية ، يخضع معظمها لعملية استدخال ، (٧) ويتحول من مضمون النشاط الى طرائقه . فتعلم كتابة الحروف ، على سبيل المثال ، في بداية العام الاول من الحياة التعليمية النظامية يمثل المضمون الاساسي لدروس اللغة القومية ، في حين يصير في نهاية هذا العام الدراسي وسيطا لانجاز مجموعة من الانشطة والممارسات .

والمعلم يوجه فاعلية التلاميذ للاستماع الى الشرح ، وفهم النصوص المقروءة ، واتقان مواد الرياضيات والنحو . ويتطلب النشاط الدراسي المنظم فاعلية في التفكير ، التحليل ، والتعميم ، ومقارنة الجديد بالقديم ، والاستنتاج ، تجسيد القواعد والعمليات المعروفة بطريقة حسية لكي تضمن فهم المادة الدراسية . وييسر هذا ايضا عمل الذاكرة .

ودور الذاكرة في النشاط الدراسي بالغ القيمة . ففي دور الحضانة يعمد المعلم الى اثراء ذاكرة الاطفال بتصورات جديدة عن الحيوانات والنباتات ، عن المدينة وظاهرات الحياة الاجتماعية ، اطفال الرابعة والخامسة من العمر يحفظون الاناشيد والاشعار ، يحكون عن امهم ، يرسمون وفقا لتصوراتهم ، يسترجعون ما يرونه في الحياة من اشياء وموضوعات : الناس ، الترام ، البقرة ، الشجرة ، بل ويسترجعون احداثا كاملة فيما بعد : شجرة عيد الميلاد ، على شاطئ البحر وغير ذلك . وبالتحاق الاطفال بالمدرسة يستوعبون مجموعة من المفاهيم المتخصصة : النحوية (اصوات ، حروف المبتدأ ، الاسم ، الحسابية (المجموع ، ناقص ، يساوي ، الجمع ، الضرب) ، والمفاهيم المتعلقة بالطبيعة والحياة الاجتماعية . وهذه المفاهيم بدورها تؤدي الى مزيد من ترشيد وانماء الحياة العقلية للاطفال .

والنشاط الدراسي المنظم جيدا يثري خيال الاطفال ويصقله ، والمعلم اذ يقدم للاطفال صورا من حياة الناس في الوطن العربي وبلاد العالم المختلفة ، ينمي الخيال الابتكاري لديهم بما يحكيه ويقرأه ويقدمه من مادة حية تؤدي الى تكوين صور حية عن حركة التطور والتقدم وتصورها ومستلزماتها .

وفي النشاط الدراسي تأخذ كل العمليات النفسية طابعا اراديا . وبالرغم من انه يتشكل في اللعب التفكير والخيال ، وتتكون الظروف لاثراء الذاكرة ، فان في العمل الدراسي يتم كل النشاط النفسي (نشاط التفكير والذاكرة والادراك والخيال والحركة وغير ذلك) في اطار نشاط انضباطي ملتزم منظم . فالطفل في مرحلة المدرسة لا بد وان يوجه ذاته لكي يدرك المادة الدراسية سواء في الفصل او في المنزل ، وان يركز انتباهه ويشغل تفكيره ويستعيد ذكرياته عن قصد لاستيعاب نص او لحل مسالة اوللتعبير عن انطباعات وتخيلات في لوحة فنية .

فالدراسة ذاتها تصير منذ البداية عملا جادا ، مسئولا ملتزما . لذا يستلزم النشاط الدراسي من الاطفال فاعلية ارادية ، وتماسكا ، وانضباطا ذاتيا ، الاطفال ينصتون باهتمام

---

(٧) « الاستدخال » Interiorization يطلق على عملية الانتقال من الاداء الواقعي الخارجي الى اداء مثالي داخلي ... عملية تحول ما هو خارجي موضوعي الى داخلي ذاتي .

والتركيز لكل ما يشرحه ويعرضه المعلم ، ولمايكلفه بهم من واجبات ومهام عليهم ان يضطلعوا بها كما طلبها منهم . وهم مطالبون باستمرار ان يتحكموا في نزواتهم : ان ينتظروا في صفوف امام المعلم في الفناء ، ان يتوجهوا لفصولهم في نظام ، الا يحدثوا شوشاء في فترات الفسحة ، ان تكون احاديثهم مهذبة وعلاقاتهم طيبة كل هذا يتم في اطار من الضبط والتوجيه الذاتيين.

بقول آخر ، في النشاط الدراسي تتكون الانتظامية والاستقلالية والالتزامية كانماط سلوكية لدى الاطفال ، أي الخصال الارادية .

٤ ـ النشاط الدراسي ، كشكل من اشكال العمل الجماعي لدى الاطفال ، يفتح امام المعلم امكانات هائلة لتكوين سمات الروح الجماعية ، والزمالة والصداقة والتعاون والتواد والمسئولية المتبادلة بين الاطفال في المدرسة .

٥ ـ النشاط الدراسي ، كأي نشاط يعيشه الاطفال ، يتغير مع تغير عمر الاطفال . بالتحاق الاطفال بالمدرسة يتغير النشاط الدراسي ليس من حيث المضمون وطرق التنظيم فحسب ، ولكن ايضا من حيث المعنى الذي يحتله في حياة الاطفال . فهو يصير النشاط المسيطر الذى يوجه ليس كل نظام حياة الطفل فحسب ، ولكن ايضا سلوكه ووضعه في الاسرة وموقعه الاجتماعي الحياتي .

يتغير مضمون واشكال النشاط الدراسي تتغير اشكال المساعدة التي يقدمها المعلم . الاطفال في سن ما قبل المدرسة محتاجون الى تبين كل الدوات وطرائق العمل : كيف يمسكون الملعقة والشوكة والسكين ، كيف يلونون قصقص وحي صورة ، كيف يميزون بين الرقم ٢ ،٦ مثلا . اما الاطفال في سن المدرسة ، فهم بحاجة الى مساعدة من نوع آخر : ينبغي استثارة فاعليتهم العقلية ، تعليمهم كيف ينتقون القواعد والعناصر اللازمة لحل المشكلة ، كيف يراجعون ويصححون وينقدون ما توصلوا اليه من حلول ؛ كيف يستوعبون افضل المعلومات الجديدة ، كيف يحصلون على المعرفة بانفسهم ، وهكذا .

النشاط الحياتي : ينخرط الاطفال في المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة في علاقات وممارسات مع غيرهم من الاشخاص ، يقلدونهم ، ويتعلمون منهم ، ويتوحدون مع حالات انفعالية مختلفة ، ويأتون بانماط سلوكية تحقق لهم توافقا مع الجماعة وتجتلب استحسان اعضاءها. لذا ينبغي ان نضع في الاعتبار دور النشاط الحياتي في نمو الطفل ، الذي تتكون فيه الظروف الملائمة لتكوين عادات ملائمة : عادات صحية ، عادات الاستخدام الواعي للاشياء الموجودة في البيئة المحيطة ورعاية الصالح العام والممتلكات العامة في الشارع والحدائق والمواصلات ، المعاشرة الحضارية مع الكبار والاقران والاصغر سنا ، وعادات الاتباع لنظام محدد .

الطفل في مجالات النشاط الحياتية وغيرها من اشكال النشاط يتعلم حسن توزيع وقته لما ينبغي ان ينجزه في ممارساته اليومية (النوم ، الدروس ، التجول ، اللعب ، الطعام ، النظافة ..) . ومراعاة هذا النظام يضمن ليس توازنا محددا للحياة الفسيولوجية للاورجانزم (في وقت

محدد يقبل الطفل على تناول الطعام والنوم ،والعمل ، والراحة) فحسب ، ولكن أيضا تكوين عادات مفيدة (بعد دروسه في وقتها المناسب ، النزعة الى النظام والدقة ، ومراعاة الوقت وقيمته ، الوعي الصحي) . وهذه العادات والممارسات تنطوي على معنى مباشر لتكوين السمات الراقية في الخلق او الطابع ،مثل التنظيمية والانضباطية والالتزامية والاستقلالية .

وغرس قواعد السلوك في الاطفال يحمل اهمية كبيرة في توجيه فاعلية الطفل في المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة . وهذه القواعد السلوكية يمكن ان تنضوي في ثلاث مجموعات : « ينبغي » ، « ممنوع » ، « ممكن » ، وبقدرما تقدم هذه المتطلبات الى كل الاطفال في المجموعة او في الفصل المدرسي او في الاسرة ،وبقدر ما تقدم بعطف وحزم وحكمة ، وبقدر موالاة تنفيذها ، تتكون عادات السلوك الحضاري .وتصير القواعد السلوكية المتجسدة في هذه العادات ، بالنسبة للطفل ، محكا اساسيا لتقييم سلوك الاخرين وسلوكه ذاته .

يلاحظ ان الاطفال كثيرا ما تصدر عنهم شكايات من بعضهم الآخر . وتعني الشكايات اللجوء الى احد الوالدين او الكبار او المعلم طلبا للمساندة : « هشام اخذ كرتي » ، « زينب اوقعتني على الارض » ، « كريمة لم تجعلني اشتري معها الخضار » ، وغير ذلك من الامثلة. وهناك صورة اخرى من الشكايات ، حينما ينقل الطفل الى المعلم او الوالدين حدثا لم يمسه شخصيا : « سميرة كسرت الزهرية » ، « جمال لم يغسل يديه قبل الاكل » ، .. الخ . والطفل بهذه الشكايات ، التي هي من قبيل « الابلاغ » ،كما لو كان يعمد الى مراجعة فعالية واهمية تلك القواعد ، وينتظر من المعلم او الوالد تأييدا وتأكيدا على ضرورتها والالتزام بها . ولا شك ان الشكايات تختفي بسرعة مع المعلم الواعي والوالد الحكيم ، وبالتالي يتعلم الاطفال حسن العشرة والسلوك .

لذا ينبغي ان يعرف الاطفال بدقة تامة :ما الذي ينبغي ان يعملونه ، وباي نظام ، وكيف يعدون دروسهم ، كيف يسلكون حينما يخرجون لرحلة او نزهة او حينما يتواجدون في الشارع او في حديقة او في محل . ومن الاهمية بمكان مواصلة توجيه وضبط سلوك الاطفال ، وايقافهم بوعي على ما يصدر منهم : « حسنا كنت منظما لانك ... » (ويذكر الطفل ما قام به من تصرفات تستحق الاستحسان) ، او العكس من ذلك حينما يخرج الطفل عن قواعد النظام والسلوك السليم . ومن شان هذه الموالاة لقواعد السلوك ان تضمن تحقيق نتائج مرغوبة :

١ ــ تتكشف القواعد وتصير بالنسبة للاطفال « علامات واضحة » لسلوكهم .

٢ ــ يستخدمها المعلم كوسيط لتوجيه سلوك الاطفال .

٣ ــ تصير المتطلبات محكات لتقييم سلوك الطفل اولا بواسطة المعلم ، ثم تصير اساسا لاتجاهات الطفل نحو تصرفات زملائه ، وفي النهاية نحو افعاله ذاتها .

فنظام حياة الطفل في المدرسة ، العمل الدراسي في الفصل ، متطلبات عمل الواجب

المنزلي ، ضرورة مراعاة قواعد النظافة والمظهر الحضاري للاطفال ، العناية بالادوات المدرسية، احضار ملابس التربية الرياضية في أيام محددة،وكراسات الرسم او الموسيقى ، وهكذا ـ كل هذه قواعد تستلزم موالاة دقيقة ومستمرة في التوجيه والتنفيذ .

ويلعب التقليد والمحاكاة دورا هائلا في المباشرة الحياتية المعيشية . الطفل يقلد الكبار « بنسخة طبق الاصل » تقريبا ، وخاصة القريبين منه : الوالد ، الام ، المعلم . الطفل يستوعب في البداية بطريقة لا ارادية ثم بعد ذلك عن قصد ، نبرة صوت المعلم او الاب ولهجته واسلوبه في التكلم ، كلماته المحببة ،ايماءاته وحركاته المميزة ، مسلكه في المعاملة والاقبال على الآخرين ، وغير ذلك كثير ، ومما يحمل اهمية الخصائص السلوكية المرغوبة : رعاية الغير ، والتوادد ، واحترام المسنين والمقعدين ، والحضارية في التعامل والعمل .

ومما يكون له قيمة تهذيبية عظيمة :اسلوب الحياة (منظم ، هادىء او عاصف ، مضطرب) الذي يعيشه الكبار ، مظهر الملبس الذي يبدون به ، مراعاة النظام في المنزل او في الفصل والمدرسة ، اسلوب التكلم والحديث ،والضحك والدعابة ، التشاؤمية او التفاؤلية ، التصرف بازاء الافراح والاتراح ، وغير ذلك من دقائق الحياة والوجود . فتنظيم الحياة اليومية للطفل واثراء مضمونها واسلوبها يشكل والطفل نظاما كاملا من العادات والالتزامات نحو الوسط الذي يعيش فيه .

ومن المعروف ان الجهاز العصبي للطفل مرن للغاية ، في حين ان الوسط المحيط به دائم التغير . لذا تتطلب العادات المتكونة ضبطا وممارسة مستمرتين ، والا تعرضت للانطفاء والتحلل . ومن الامور التربوية ذات الدلالة البالغة في هذا الصدد الاتساق بين اسلوبي المنزل والمدرسة،وهذا من شأنه ان ييسر ويعمق تكوين نظام من العادات والقيم الراقية الراسخة .

• • •

وهكذا ، يكشف تحليل الاشكال الاساسية للنشاط وظروف الحياة اليومية للاطفال ان اي نشاط منظم يتضمن امكانات هائلة للنمو المتوازن ، المتعدد الجوانب للاطفال . ووعي المربي بهذه الامكانات والاستخدام الامثل لها عن طريق تنظيم حياة الطفل ونشاطه في الاسرة وفي جماعات الاطفال والمرافق المدرسية يمثل شرطا حاسما لادارة وتوجيه نمو الطفل . وهنا ينبغي ان يكون المعلم ، كما يقرر عالم التربية « ا . ماكارينكو » ، قبل كل شيء منظما لحياة الاطفال .

بالتعلم ينشط النمو الانساني :

يذخر علم النفس بالعديد من الدراسات التجريبية حول قضية العلاقة بين النمو والتعلم، والوزن النوعي لكل من النضج والتعلم في النمو ، تلك مشكلة ليست بالسهلة اليسيرة ، خاصة وانها قد درست من زوايا مختلفة ،واستنادا الى طرق عديدة ، كما انها تنطوي على مغزى هائل بالنسبة لقضية تنشيط نمو الاطفال ، والاسراع به . ويمكن تصنيف اهم

الدراسات والطرق التي استخدمتها في تفهم حقيقة العلاقة بين النمو والتعلم على النحو التالي :

١ ـ دراسات طريقة العزل Method of Isolation

طبقت هذه الطريقة خاصة على الحيوانات، ويستند المبدأ الاساسي لهذه الطريقة على عزل الفرد الصغير من الاعضاء الاكبر من نفس النوع، لتحديد ما اذا كانت سمات معينة السلوك مميزة لهذا النوع سوف تظهر بدون ما ان تخبر فرصة للتعلم من جانب الحيوان ، اما الدراسات على الانسان فقد كانت قليلة الغاية بسبب الصعوبات العملية والاعتبارات الانسانية (دينيس ، ١٩٢٧ ؛ ١٩٣٨) .

٢ ـ الدراسات التي استخدمت طريقة ضبط التوائم المتحدة Method of Co-twin Control:

يعتبر (جيزل تومسون ، ١٩٢٩) أول من استخدم هذه الطريقة لدراسة الاهمية النسبية للنضج والتعلم في نمو الطفل . في هذه الطريقة تستخدم التوائم المتحدة كمفحوصين : يعطي احد التوائم تدريبا في تعلم وظائف مختلفة ، بينما لا يلقى التوأم الآخر اي تدريب ، وبعد فترة تقارن نتائج التدريب لتحديد مدى فاعلية التدريب (هيلجارد ، ١٩٣٢ ، ماكجرو ، ١٩٣٩، تومسون ، ١٩٤٣ ، وبالرغم مما تتميز به هذه الطريقة من دقة وضبط علميين ، الا انها مشوبة بصعوبات عملية من حيث تطبيقها وخاصة بعد السنوات الاولى من الطفولة .

٣ ـ الدراسات التي استخدمت طريقة المجموعات المزاوجة : Matched-Group Method

وفيها يستخدم الباحثون مجموعتين متماثليتين على اساس المزاوجة بينهما في السمات المتعلقة بما يتشدون دراسته من انماط سلوكية . وهذه الطريقة اشبه بالطريقة السابقة، حيث تدرس الاثر النسبي للنضج والتعلم عن طريق تدريب احدى المجموعتين ، في حين تترك المجموعة الاخرى وشأنها بدون أن تتلقى اى تدريب (جيتس وتيلور ، ١٩٢٩ ، جيرسيلد ، ١٩٣٢ ؛ ويلز وآرلر ، ١٩٢٩) .

٤ ـ الدراسة التطورية لمجموعات كبيرة ، The Genetic Study of Large Groups

تقوم هذه الطريقة على استخدام مجموعات عديدة من الاطفال كمفحوصين للوقوف على ما اذا كان نموذج النمو يظهر بصرف النظر عن الاختلافات في البيئة . واذا ابدى الاطفال من بيئات مختلفة، والذى تعرضوا لفرص مختلفة من التعلم ، سلوكا يتشابه في اساسياته (بالرغم من اختلافه في تفاصيل ضيقة) ، فمن الواضح أن هذا السلوك ليس بمتعلم . وهنا اعتبروا ان السلوك ينبغي ان يعزى الى التفتح الطبيعي للسمات المتوفرة كامكانات كامنة او الى النضج (تيرمان ، ١٩٢٥ ؛ ١٩٤٧ ؛ شيرلى ، ١٩٣١) .

تؤكد نتائج الدراسات التي عولت على هذه الطرق اهمية التفاعل بين النضج والتعلم في عملية النمو . يعنى النضج Maturation نمو او تفتح الخصائص الكامنة في الفرد المرتبطة بمعطيات

وراثية .. بتنظيم يعتمد على مؤثرات موجودة في البيئة الداخلية للخلايا ومستقلة عن تأثير البيئة الخارجية والظروف الحياتية . وبذلك « يمكن تعريف النضج ــ كما يقول جيزل (١٩٥٢) ــ بأنه مجموع آثار الجينات (المورثات) التي تتحقق في دورة حياتية محدودة ذاتيا . وهنا يكمن مفتاح هام للفردية التكوينية للفرد Constitutional Individuality والنضج يزود الفرد بالاساسيات اللازمة للتعلم ، ولكن بدون ممارسة وتدريب لا يتم النمو من خلال النضج وحده . يشير « دينيس » (١٩٤١) : « النضج في حد ذاته وبذاته نادرا ما ينتج مظاهر نمائية جديدة ، ولكن نضج البنى Structures حينما يصاحب بنشاط موجه ذاتيا Self-Directed activity يؤدى الى استجابات طفلية جديدة » .

وبالنسبة للوظائف النوعية Phylogenetic Functions ، او الوظائف العامة في الجنس البشري مثل الحبو والزحف والجلوس والوقوف ، يكون التدريب ذات فائدة ضئيلة . أما بالنسبة للوظائف المميزة للطفل الفرد Ontogenetic Functions ، مثل السباحة او قيادة الدراجة او السيارة ، والتزحلق على الجليد ، يكون التدريب ضروريا ؛ فبدونه لا يتم النمو (ماكجرو ، ١٩٣٥ ، ١٩٤٠) .

يقول (جيزل ، ١٩٥٢) :

« ليس ثمة ضرورة لان نقيم حدا فاصلا جامدا بين عوامل النضج والبيئة . فالعطاء الجسمي والبيئة الثقافية في تفاعل متبادل . وهناك دلائل قوية عن وجود اساس متين للنمو محكوم بالتكوين المورفولوجي الوراثي الدينامي Inherent dynamic morphology الذي يفرضه خليط من الوراثة المرتبطة بالجنس البشري وبالعائلة . ولهذا السبب يميل الطفل ذو الاصل المعين في حضارة معينة الى ان يأتي مستويا في مستويات متقدمة من سمات النضج لمميز الجماعة بدرجة اكبر او أقل ويمثل ذاته الكونية constitutional self.

واذا كان النمو متوقفا على كلا النضج والتعليم ، فانه بالتالي يتصف بالتنوع والتغاير ولكن اذا اعتبر النمو متوقفا على النضج وحده ، كما هو الحال لدى الكثير من الانواع الحيوانية ، لن يكون هناك تفرد في النمو . ومن ناحية اخرى ، بالرغم من ان هناك تجانسا وانتظاما للنمو بين **الكائنات الحية الانسانية** ، هناك ايضا تغاير « غير عادي في النموذج النمائي » (وينيك ، ١٩٥٠) . فلكل طفل ــ كما يقرر جيزل ١٩٥٢ ــ نموذج فريد للنمو يعبر عن نفسه ، من حيث التطور النمائي الفردي للطفل ، في خصائصه السلوكية . فالمسار الكلي لهذا التطور مشدود بالمحددات الداخلية للنضج » .

وهكذا ، كما يقرر البعض ، يفرض النضج ، الذي يتوقف على المعطيات الوراثية للفرد ، حدودا لا يستطيع النمو ان يتجاوزها . يقول « جيزل » (١٩٤٩) :

« تتوقف كل القابلية للتعلم educability على القدرات الفطرية للنمو . هذا النمو الداخلي هو هبة الطبيعة ، وهو يمكن ان يوجه ، ولكن لا يمكن ان يخلق : ولا ان يتجاوز بالوسائط التربوية » .

ومن ناحية اخرى ، تتوقف قابلية التعلم على النضج ، فلا يستطيع الطفل ان يتعلم الا اذا

كان مستعدا للتعلم ، فينبغي ان يتوفر النموالجسمي والعقلي اللازم قبل ان نسعى لبناء مهارات وقدرات جديدة على هذه الدعامات .

يطلق (بلوم ، ١٩٥٢) على ذلك مصطلح« **الاستعداد النمائي** » Developmental Readiness ويحدده على النحو التالي :

« الاستعداد النمائي هو حالة التهيؤ لدىالفرد فيما يتعلق بمجال او اكثر من التوظيف . ويبدو الاستعداد النمائي ، وهو مرادف للنضوج،متأثرا اساسا بقوانين او مبادىء تميل الى ان تكون من جانب الطبيعة اكثر من ان تعتمد علىعوامل التربية والرعاية التي يتلقاها الطفل . لذا يمكن اعتبار حالة الاستعداد او التهيؤ على انهاتتحقق بدرجة كبيرة خلال استجابات الطفل للمثيرات الداخلية التي تدفعه نحو النمو ..والعامل الذي ينبغي ان يوضع بالضرورة في الاعتبار ، مع ذلك ، هو التوقيت ، مع الاعترافبان التعلم سواء في المجال الذهني او الاجتماعي او الحركي يتحقق على نحو افضل حينما يكون ماتقدمه للطفل من الناحية التربوية موقوتا بحالة الاستعداد او النضج لدى الطفل » .

اما (روبرت هافيجهرست ، ١٩٥٢) فيطلق على هذا مصطلح « **اللحظة الموائية للتعليم** » Teachable moment

« حينما ينضج الجسم ، ويتطلبه المجتمع ، وتكون الذات مستعدة لانجاز عمل معين ، فان اللحظة الموائية للتعليم تكون قد اتت . لذا تضيع جهود التعليم سدى اذا جاءت في فترة مبكرة قبل الاوان ، في حين انها تأتي بنتائج مجزية حينماتاتي في اللحظة الموائية للتعليم ، حينما ينبغي ان يتم تعلم مهارة او اداء معين » .

ووفقا لهذا ، اذا كان التعليم والتعلم ان يتحققا بفاعلية ينبغي ان يرتبطا بمستويات النضج لدى الطفل . ومع ذلك ، غالبا ما لا يتم ذلك لسببين :

اولا ـ ان السن الذي يتم فيه نضج الوظائف العقلية والجسمية المختلفة غير محدد كلية . فبسبب التغايرات الفردية ، يكون من الصعب ان لم يكن من المستحيل حقيقة ، اقرار اي سن معين نوقن بانه ينطبق على كل الافراد .

ثانيا : هناك تصورات خاطئة اثرت نموذجيا لتربية الطفل وتعليمه . ففي حالة القراءة ، على سبيل المثال ، افترض للاجيال ان كل الاطفال مستعدون لتعلم القراءة حينما يدخلون المدرسة ، في حين ان بعض الاطفال حقيقة مستعدون لذلك قبل دخولهم المدرسة وآخرين في غير ما استعداد لذلك بدرجات متفاوتة من الوقت بعد دخولهم المدرسة . وغالبا ما يتجه المربون الى سوء التقدير والاقلال من قدرات الطفل ، ومن لم يرجئون تعليم المواد « الصعبة » (وكسلر ، ١٩٥٠)

والسؤال : كيف يمكن ان نحدد متى يكون الطفل مستعدا للتعلم ؟

هنالك ثلاث محكات تستخدم بصفة عامة لايضاح حالة الاستعداد عند الطفل :

(١) ميل الطفل الى التعلم .

(٢) كيف سيبقى ميله مستمرا الى فترة طويلة من الوقت .

(٣) اى تقدم يمكن ان يحرزه بالممارسة .

وحينما يأخذ ميل الطفل الى التلاشي بسرعة او حينما لا يبدى تحسنا ملحوظا ، بالرغم من الممارسة المستمرة ، لنا ان نتساءل ونتشكك في استعداده للتعلم .

• • •

تلك ما تواتر من دراسات ونتائج وبيانات تقليدية حول قضية التعلم والنمو ، والعلاقة بين النضج والتعلم في النمو ، لكن ذلك لا يعني ان الفكر السيكولوجي قد استقر على تلك التصورات النظرية وما وسلتاليه العلاقات المتبادلة من نتائج ، وانه ظل يتهج على دربها بحكم القصور الذاتي .

وقضية كهذه ليست بالبساطة التي قد يتصورها البعض ، لان تناولها بالحل يعني الى اى حد تتيح للناشئة الفرص الملائمة لكي يتحقق لها التفتح الامثل لامكاناتها الكامنة ارتباطا بمنجزات العصر الهائلة ، بالانفجار المعرفي ، بالثورة العلمية التكنولوجية الفريدة ؟ كيف يمكن تنشيط المسار النمائي للطفل ؟ كيف يمكن استثارة امكانات التطور النمائي لدى الناشئة بما يضمن عدم ضياع او الاقلال من طاقاتهم الكامنة الاصلية ويضمن تحقيق تكامل انسانيتهم وفرديتهم ؟

ليس بمستغرب اذن ان تحتل هذه القضية مكانة كبيرة في اعمال ومناقشات المؤتمرات الدولية لعلم النفس ليشترك فيها الثقات في الميدان في العالم املا في الوصول الى حلول اكثر رصانة وقبولا .

خصص « المؤتمر الدولي الثامن عشر لعلم النفس » ، الذى نظمه « الاتحاد الدولي لعلم النفس العلمي International Union of Scientific psychology بموسكو في اغسطس ١٩٦٦ ندوة Symposium بعنوان «التعلم كعامل في النمو العقلي» Learning as factor in mental development

تكرست لتناول هذه القضية الحاسمة ، تصدرها وادار مناقشاتها ١٢ عالما من بلاد مختلفة (امريكا، روسيا ، رومانيا، بولندا ، المجر ، تشيكوسوفاكيا، النرويج ، هولندا ، المانيا الغربية) برئاسة « جيروم برونر » (امريكا) و « مينشينسكايا » (روسيا) (*) ، وبالرغم من ان هناك ندوات اخرى تناولت هذه القضية ايضا ، مثل : ندوة« تكوين المفاهيم والاداء الداخلى Concept Formation and inner action برئاسة « برونر » (امريكا) وجالبيرن (روسيا) و « انهيلدر (سويسرا) وندوة الدراسات الطويلةفى نمو الاطفال » Longitudinal studies in child development برئاسة « ر. زازو » R. Zazzo (فرنسا) ، وندوة « الدراسات الحضارية المقارنة فى النموالعقلى » Cross-Cultural Studies in Mental Development. برئاسة « تاجفيل » H. Tajfel (بريطانيا) و « كلينبيرج » O. Kleineberg (فرنسا) .

---

* J.S. Bruner (USA). Learning and development.

— G.S. Kostyuk & N.A. Menchinskaya USSR). Introductory remarks : „Learning and mental development"

— N.F. Taylsina (USSR). The theory of stage by stage formation of mental actions and the problem of development of thinking.

— R. Ojeman (USA). Guided learning and the concept of experience.

— P. Lenard (Hungary). Developing of production thinking in school-lessons.

— E. Fleszner (Poland). An attempt to develop the ability of abstracting in the courses of teaching.

— A. Roshka (Roumania). Development of flexibility and creativity of thinking.

— G.A. Kohnstamm (Holland). Teaching thought operations and developmental psychology : two different attitudes (with special attention to the position of Jean Piaget).

— J. Smedslund (Norway). Children's experiences and the acquistion of logical structures.

— I. Linhart (Czechoslovakia). Learning and mental development.

— H. Aebli (FRG). Does „Egocentrism" as described by Piaget reflecte a stage of cognitive development or is it „situationally determined"?

— B. Inhelder (Switzerland). Development and learning.

وبالرغم من ان الاعمال المقدمة والمناقشات المحتدمة ، باختلاف اتجاهاتها ومدارسها ، قد انطلقت من احساس عام بالمشكلة ، الا انها تدارست فى دروب ومسالك متعددة ، ووصلت بالتالى الى نتائج متباينة . لذا يمكن ان تتعدد محاولاتنا لتصنيف الاتجاهات الاساسية التى سادت هذه الندوات ارتباطا بالمحك الذى يمكن ان ناخذه كاساس للتصنيف .

يتحدد المحك الاساسى ، الذى يحمل اهمية اكبر ، بالسؤال التالى : **« كيف يمكن تقييم دور التعلم فى النمو ؟ هل يعطى للتعلم الاهمية المسيطرة ام يفترض انه يستخدم بطريقة تلقائية فحسب (اى بدون ما ارتباط بمؤثرات خارجية، ولكن فقط بتاثير القوانين الداخلية) ما يظهر من بنى** Structures **النشــاط العقلــى** ؟ وفقا لهذا المحك ، انقسم علماء النفس الى معسكرين :

اولا : يمثل المعسكر الاول اتجاه مدرسة جنيف (بياجيه ، انهيلدر ، وآخرون) . يذهب هذا الاتجاه الى تقييد دور التعلم ، معتبرا ان التعلم « يخضع لقوانين النمو » . يعتبر بياجيه (٨) النمو على انه « تتابع للاشكال المختلفة من السلوك ، وخاصية للانتقال من اشكال معينة للنشاط النفسى الى اشكال اخرى » .

ومن المعروف ان مدرسة بياجيه تقر ثلاث مراحل اساسية للنمو العقلى : المرحلة الحسية الحركية Sensory-motor (التفكير الذى يعتمد على الادراك والاداء بتناول الاشياء) ، مرحلة العمليات العقلية الحسية Concrete operations ، ومرحلة التفكير التجريدى . ويتمثل الشرط الجوهرى لافراد هذه المراحل فى وجود تغيرات كيفية محددة فى عملية النمو ، خلافا للتحسن التدريجى غير المنقطع .

وتتميز المراحل ذاتها ، وفقا لبياجيه ، بخصائص محددة :

١ ــ هذه المراحل ينبغى ان تظهر فى مسار النمو فى نسق دائم غير متغير .

٢ ــ متغير ، تدخل البنى Structures (اشكال النشاط المعرفى) المميزة للمراحل المبكرة ، فى اشكال النشاط المميزة للمراحل التالية .

٣ ــ ينبغى ان تؤلف الخصائص الكيفية ، التى تحدد المرحلة الحالية من النمو ، نظاما ثابتا هادفا .

وفيما يتعلق بالعمر ، الذى تميزه هذه اولك من مراحل النمو ، يتخذ بياجيه الحيطة ضد الربط المفرط للمرحلة النمائية بالعمر ، ويقرر ان ما توصل اليه من حقائق يقدم فى احسن

(٨) J. Piaget. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feed-back regulatory mechanisms. **Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology**, 1966.

الحالات تقييما تقريبيا لذلك العمر المتوسط Average age الذى يحقق فيه الطفل هذه او تلك من المراحل . وهكذا فان العمر ، الذىتظهر فيه كل مرحلة نمائية ، يمكن أن يتغاير بدرجة كبيرة .

وفيما يتعلق بالعلاقة المتبادلة بين التعلم والنمو العقلى ، يقول بياجيه بصدد دراسته السابقة عن تكوين المفاهيم الرياضية : « من الخطا الفادح ان تعتقد ان الطفل يكتسب مفهوم العدد وغيره من المفاهيم الرياضية بطريقة مباشرفى التعلم . وعلى العكس من ذلك ، ينمو لديه الى حد كبير بطريقة مستقلة ، تلقائية . واذاحاول الكبار فرض المفاهيم الرياضية على الطفل قبل الاوان ، فانه سوف يتعلمها فقط بطريقةقائمة على اللفظية ، فالفهم الحقيقى يتأتى مع نموه العقلى فحسب » .

وهكذا ، تعتبر المراحل الثلاث السابقة ،وفقا لبياجيه ، مراحل للنمو الفردى للنشاط العقلى ، تعكس الميكانزمات الداخلية للنمو .وقد تكرست نظرية بياجيه لاثبات الدور المسيطر لهذه الميكانزمات الداخلية التلقائية غير المرتبطةبالتعلم (٩) . فالتعليم ، كتعلم من الخارج ، يعطى الطفل مضمون ما يستوعبه فقط ، اماطريقة الحل من الخارج ـ بواسطة المعلم ، او شخص كبير ـ فلا تنتقل اليه . فالطفل ذاتهينبغى ان يبنى الطريقة ويجدها على اساس تلك الاشكال من النشاط التى يتقنها بالفعل . لذا لا تقوم تجارب بياجيه على تعليم الطفل طرق الاداء ، ولا ينظمونها ، وانما يوفرون الشروطالمادية فحسب ، شكل توجيه التعليمات ، وتتابع تقديم المسائل او المشكلات . وهنا ينزعون الىابعاد الاطفال المشتركين فى التجربة عن اى تعلم يتعلق بما يمثل موضوع البحث .

وقد انعكست وجهة النظر هذه على الدراسة التى قدمتها « انهيلدر » زميلة بياجيه امام المؤتمر المذكور . وهى تؤكد ان « التعلم خاضعلقوانين النمو ، وليس العكس » . وتقرر اعتمادا على بحث اتقان العمليات Operations انه« بالرغم من الايقاع الفردى للنمو لدى كل طفل ، يظل نسق تتابع المراحل والمراحل الفرعية ثابتاولا يخضع لمغايرات جوهرية » . وفى اكثر من موضع تؤكد هذا الموقف : ... « باى درجةيرتبط التعلم بمستوى وميكانزمات النمو ؟ وهل توجد قوانين للتطور ، اشبه ببعض القوانين فىعلم الاجنة ، تفسر السرعة النسبية للتعليم ؟ » .

تقرر انهيلدر ، بتوصيفها لنتائج الاجابةعلى هذا السؤال انطلاقا من بحث طبقت فيه عناصر للتعلم ، ان هذه النتائج يمكن ان تتباينبدرجة هائلة ارتباطا بمستوى الاطفال الذى انطلق منه البحث . لذا استندت الباحثة الىاختبارات خاصة لاقرار هذا « المستوى المنطلقى » Initial Level : فى اى مرحلة اومرحلة فرعية يوجد الطفل .

فى هذا البحث تصدت انهيلدر لدراسة :كيف يصل الاطفال الى فهم الحجم والى مفهوم بقاء الحجم ؟ استخدمت فى تجاربها جهازا يتالفمن ثلاثة آنية شفافة . فى بعض التجارب كانت

---

(٩) لمزيد من التفصيل فى نقد نظرية بياجيه فى هذاالصدد ، انظر : ل . فيجوتسكى : التفكير واللغة . (ترجمة : د . طلعت منصور) ، مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة ، ١٩٧٥ .

تستخدم ازواجا من الآنية متشابهة في الشكل ،وفي تجارب اخرى كانت الآنية مختلفة ـ الاناء « ب » أوسع من الاناء « ب ١ » ، وفي تجارب غيرها العكس. وبمساعدة معايير معينة يستطيع الاطفال تنظيم مقدار السائل المنساب من اناء الى آخر .

تنوه انهيلدر ، بصدد تناولها لنتائج التجارب ، الى انه لم يستطع اى طفل ، يقع بالفعل في مستوى ما قبل العمليات Preoperations (اى ما قبل التفكير التجريدى) ، ان يتوصل الى فهم العمليات المنطقية اللازمة لمفهوم البقاء الاولى للكميات الفيزيائية (الوزن ، الحجم وغير ذلك) . لقد كان اطفال هذا المستوى يحكمون على تساوي وعدم تساوي كمية السائل في الآنية على اساس فقط مستوى السائل في الآنية، ولم يستطيعوا ان يفهموا انه في حالة الاحجام المختلفة للآنية يمكن ان تكون هناك علاقة متبادلة عكسية بين حجم وارتفاع مستوى السائل ، اى لم يتقنوا بعد ما هو عكس العملية (التناول العكسي للاشياء reversibility) .

« لقد كان الموقف مختلفا تماما مع الاطفال ، فيه تحدد وضع الانطلاق Initial position لديهم بمستوى وسيط يؤهل الى مستوى العمليات . لقد ظل ٢٣٪ من الاطفال فقط بدون ان يتقدموا الى التعلم ، في حين استفاد ٧٧٪ من الاطفال بدرجات مختلفة من تلك التدريبات (بهدف اكتساب مفاهيم بقاء الكميات) التي تلائم بالفعل مستوى العمليات .. »

« الا انه ـ كما تقرر انهيلدر بعد ذلك ـ اذا قارنا بحالة التعلم ، الذى اكتسبه الاطفال اثناء التعلم ، بالاستدلالات التي جرت خلال العملية التلقائية الطويلة ، نرى ان هذه الاستدلالات العقلية لا تتفق تماما » .. فالاطفال ، الذين خضعوا للتعلم في هذه التجارب ، لم يستطيعوا كلية اتقان العلاقة العكسية للعمليات المميزة لمرحلة العمليات الشكلية (التجريدية) . وقد اتضح ذلك في هذه التجارب من ان الاطفال يلقون بعد صعوبات في فهم ما هو اساسي تماما (الاناء المرتفع والضيق قد يتساوى مع الاناء الواسع والمنخفض) .

وفي ختام دراستها تتناول انهيلدر الانتقالات من مرحلة الى مرحلة ، وتتكلم عن المبدأ الاساسي في نظرية النمو عند بياجيه ـ مبدأ تتابع المراحل . فالاطفال ، الذين بدأوا بمستوى ما قبل العمليات لم يستطيعوا كلية تعلم العمليات المنطقية او ان يحققوا مستوى وسيطا ، اما الاطفال الذين كانوا في المستوى الوسيط ، فقد اقتربوا من مستوى العمليات ، في حين ان الاطفال الذين بدأوا بهذا المستوى ابدوا تقدما سريعا في نمو العمليات الشكلية المنطقية .

ثانيا : خلافا لاتجاه مدرسة جنيف ، يقر اصحاب الاتجاه الثاني (وهم كثيرون) بالدور المسيطر للتعلم في النمو ، ويعتبرون ان التعلم يوسع من امكانات النمو ، وقد يسرع به ، ويباشر تأثيرا بالغا ليس فحسب على تتابع المراحل في تفكير الاطفال ، ولكن ايضا على نفس طبيعة هذه المراحل .

تقوم هذه البحوث على دراسة النمو في ظروف وشروط ومواقف متغيرة للتعلم . وهنا يعمد علماء النفس من اصحاب هذا الاتجاه الى تنويع هذه الشروط بهدف استيضاح كيف ان طبيعة النمو العقلي للطفل تتغير في هذه الحالات.

وينتمي اصحاب هذا الاتجاه الى بلادمختلفة (امريكا ، روسيا بولندا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، رومانيا ، النرويج ، هولندا،المانيا الغربية وغيرها) . وبالرغم من ان اصحاب هذا الاتجاه يعترفون بالدور المسيطر للتعلم في النمو ، ولكنهم ينقسمون بدورهم الى مجموعات فرعية ارتباطا يتباين فهم محكات النمو . ويتحددالتباين بين هذه المجموعات الفرعية اساسا بالاجابة على السؤال التالي : ما هو المنحى الذييختارونه لبحث مشكلة التعلم والنمو ؟

يقيم بعض العلماء بحوثهم في هذا الصددعلى اساس اجراء التجارب مع التلاميذ والمادة الدراسية . ويعمدون الى تغيير محتوى التعلموطرقه ، بهدف تنشيط التدريس باساليب مختلفة ، وتعليم الاطفال عادات التفكير وغيرذلك . ويعترفون بأن التعلم بطرق مختلفة يساعد على النمو ويدفعه ، ويقوده ارتباطا بالكيفية التيبنى بها التعلم . وحول هذا المنحى ، الذي ينشد رفع زيادة تأثير التعليم على النمو العقلي ،تكرست بحوث ومناقشات عديدة .

يعرض « ج . كوستيول » لاتجاهـــاتونتائج بحوث (معهد علم النفس بكييف باوكرانيا) ويقرر أن الاطفال في سن ما قبل المدرسة يحققون،في شروط التعلم المبينة بطريقة خاصة ، مستويات اعلى بكثير مما هو معروف في تمييز دلائل الاشياء،كاللون والشكل والحجم . وسرعان ما ينتقلون من تجميع الاشياء وفقا لاي دليل واحد الىتقسيمها لمجموعات وفقا لعدة دلائل ، من تشكيلها الادراكي Perceptual configuration الى تصنيف قائم على المفاهيم . وفي مواقف التعلم التي تتطلب تنظيما للاشياء وفقا لطولها(اي ترتيبها في سلاسل) نجح الاطفال في سن ما قبل المدرسة في اتقان هذه العملية . واستطاع الاطفال في سن ٥ ــ ٦ سنوات اكتساب مهارة الانتظام وفقا لكل الدلائل الاساسية لسلسلةمن الاشياء ، ومنها الانتظام في نسبية حجم كل عنصر في المجموعة او السلسلة (هذا عنصر اكبرمن العنصر السابق وفي نفس الوقت اصغر من العنصر التالي) . ومن الاهمية بمكان ، كمايشير كوستيوك ، تعميم هذه المهارة ، وابرز دليل على ذلك انتقالها الى تنظيم العناصر فينماذجمختلفة modalities اخرى (الضوء ، الصوت) ويستطيع الاطفال في سن٦ ــ ٧ سنوات اتقان البنية المنطقية للعملية ، اي اتقان عملية ترتيب الاشياء وفقا لمبدأ التزايداو التناقص . وفي شروط اخرى للتعلم يتكون لدى الاطفال في سن ٥ ــ ٦ سنوات بنجاح مفهوم العدد ، حيث يتجرد الكم عن الدلائل الاخرى للاشياء ، وخاصة عن تشكيلها المكاني . وتاثيرتعلم من نوع خاص يتقدم الاطفال بدرجة اسرع في نمو القدرة على تضمين فئات فرعية subclasses للاشياء في فئاتها classes في نمو القدرة على استخدامالتعميمات المتكونة لديهم في استنتاجاتهم الاستدلالية عن خصائص الاشياء وعلاقاتها . . . في نمو السعي الى اثبات حقيقة استنتاجاتهم .

اما التجارب التي اجريت على الاطفال فيالمدرسة الابتدائية ، فقد اثبتت امكانية تحقيق مستويات اعلى بكثير (مما هو معروف) لاستيعابالمعلومات والنمو العقلي (نمو الادراك ، والملاحظة، والذاكرة ، والتفكير ، والكلام ، والتخيل) . ففي شروط جديدة للتعلم خضع التفكير لدى الاطفال لتطور نمائي هائل : فالانتقالية من التفكير الحسي الى التجريدي قد تمت بدرجة اسرع ؛ وهم في ذلك قد تكونت لديهم الاداةالعقلية اللازمة لاستيعاب المفاهيم العلمية (المقارنة ، التجريد ، التعميم ، التصنيف وغيرذلك) . ويستطيع الاطفال اتقان المهارات المعممة

في حل المسائل الحسابية (باستخدام رموز من الحروف) ، والامكانية الهائلة على نقلها الى انماط مختلفة من هذه المسائل .

يقول « كوستيوك » :

« يتحدد التأثير النامي للتعلم المدرسي بمضمونه وطرقه . فالبناء التركيبي للمضمون ، واستخلاص المفاهيم الاساسية فيه ونظمها ومايرتبط بها من عمليات ، يخلق امكانات ملائمة هائلة لاستيعابها الكامل لدى التلاميذ مع المادة الدراسية ، وبماهية خصائص وعلاقات الاشياء التي يعرفونها بواسطة هذه الاداءات (الادراكية، التذكرية ، التفكيرية ، العملية وغيرها) .. فضل التعلم في نمو التلاميذ يتعاظم ، اذا كان يعلمهم نفس عمليات الاستيعاب .

« فالتعلم ـ كما يقول كوستيوك ـ لا يسرع فحسب من انتقالات الاطفال من المستويات الادنى من بنية النشاط العقلي الى المستويات الارقى . فهو يمثل شرطا ضروريا لتكوين هذه البنى . وهنا لا تأتي البنى الجديدة ببساطة من الخارج ، ولكنها تتشكل في عملية التعلم من البنى المتكونة في مراحل مبكرة . وتعمل الاستثارة الخارجية في هذه العملية دائما من خلال الفاعلية الداخلية للتلاميذ » .

وفي دراسة « فليزلر » (بولندا) عن « محاولة انماء القدرة على التجريد في سياق التدريس » ، يبين كيف ان التنظيم الانمائي للعملية التعليمية يقوم بتأثير فعال على نمو التفكير التجريدي . في هذه الدراسة استخدم احدى اشكال التجريد : التجريد في عملية استخدام المعلومات ، حينما يتطلب من التلاميذ التعرف على مبدأ معروف لديهم (او قانون ، او تركيب) في ظروف جديدة محددة للمسألة او المشكلة . اجريت هذه التجربة النفسية ـ التربوية مع تلاميذ صفين دراسيين متناظرين في سن من ١٤ ـ ١٥½ سنة . وقام بتعليم الهندسة معلم واحد في كلا الفصلين ، ولكن في الفصل التجريبي استخدم على نطاق واسع ما يسمى بحل المسائل ببيانات زائدة ، وهو ما لا يستخدم عادة في الممارسات المدرسية . وهنا يكون من الضروري بالنسبة للتلاميذ ، لكي يتمكنوا من حل هذا النوع من المسائل بنجاح ان يتجردوا من العناصر الزائدة غير اللازمة في حل المسألة . وقد ابدت الاربع سلاسل من التجارب (اجريت السلسلة الاولى في بداية التعلم ، وسلسلتان في سباقة ، والرابعة في نهاية العام الدراسي) الفرض الذى بناه الباحث عن تأثير شكل معين من التعلم على نمو التفكير التجريدي : فقد تفوق الفصل التجريبي وفقا لكل المحكات على الفصل الضابط . وبدت منجزات تلاميذ الفصل التجريبي ومستويات نموهم العقلي ـ المعرفي اقرب الى مستويات التلاميذ في سن ١٦ ـ ١٧ سنة . كما اوضحت هذه البحوث انتقال القدرة المتكونة على التجريد (الى مواد قريبة من الهندسة كالحساب وغيره) . ومن ناحية اخرى تؤيد هذه البحوث الفرض الذى يذهب الى ان تحسين القدرة على التجريد تنعكس بايجابية على العمليات العقلية الاخرى وخاصة على عمليات التحليل والتركيب Analysis-Synthesis Operations .

وقد توفرت بحوث « اوجيمان » (امريكا) و « كونستام » (هولندا) و « سميدسلوند » (النرويج) و « آيلى » (المانيا الغربية) على تبين تأثير التعلم على النمو . وهي بحوث

معملية تناولت اساسا مفاهيم مدرسة جنيف في هذا الصدد . وتذهب هذه البحوث الى ان التمركز حول الذات Egocentrism وهو مفهوم اساسي في نظرية بياجيه ويعني تقييم الوسط المحيط بالطفل من وجهة نظره الذاتية فحسب ، ليس بمفهوم صحيح ، وينبغي استبداله بمفهوم آخر هو « اللاتمركزية » Decemberism ، ويعني المقدرة على تبني وجهة نظر الآخرين ، ومن هذا الموقع يأخذ الطفل في تقييم الوسط المحيط به . وفي هذا الصدد تلعب « المؤثرات الاجتماعية دورا هائلا » (سميد سلوند) ويظهر التمركز حول الذات في مواقف معينة ، حيث لا يستطيع الطفل ان يستعلم عما يقدم له من مسائل — اي يحدد ما هو غريب عليه — وبالتالي يحدد بدلا من ذلك موقفه ذاتيا . اي حيث تنعدم مواقف المؤثرات الخارجية ، يظهر التمركز حول الذات ، وهنا « يتحدد التمركز حول الذات موقفيا » (ايلي) .

ويتضح من هذا العرض ان اصحاب المعسكر الاول (معسكر جنيف : بياجيه اساسا) اقرب الى « التشاؤمية » في النظر الى امكانات التطور النمائي لدى الناشئة ، في حين ان ممثلي الاتجاه الآخر (وهو الاغلب في معظم دول العالم) يؤمن ، بالتجربة ، باننا نستطيع ان ندفع هذه الامكانات الى آفاق لا يتوقعها احد اذا احسنا توفير الشروط الملائمة للتعليم والتعلم .

بقول آخر : تمثل « **قضية الاسراع بالنمو** » الفلسفة التي تدور حولها وتنطلق منها دراسات النمو ، او ان شئنا « **دراسات الانماء** » . ومع ذلك ، فلا زالت جد قليلة قياسا الى اهميتها المتعاظمة في عالم اليوم .

• • •

الخلاصة :

يؤكد التصور العلمي الانساني في تناول قضايا علم نفس النمو على ان **الوظائف العقلية العليا والخصائص النفسية توجد وتعمل هكذا في حركة ، في نمو ، في صيرورة .** واذا كانت لا تتبدى بصفة عامة كقدر او كم غير متغير ، واذا كانت لا تتوفر بالتالي كمزايا تعطى « مرة لا تتكرر » وبالتالي « لا تتغير » — فليس ثمة اساس لان تفترض ثباتها وتنمطيها لدى الاطفال في المراحل التي يختطها مسار عمرهم النمائي .

ومن هنا نرى ان علم نفس النمو ، خاصة في مجتمعاتنا العربية النامية ، مطالب بان يتبنى تصورا ومفاهيم وممارسات جديدة لتناول ليس النمو بطبيعته ومبادئه وعوامله ومظاهره فقط ، ولكن بدرجة اكبر — وارتباطا بتطور الفكر السيكولوجي المعاصر ، خاصة في علم النفس العلمي والانساني — مقومات استثارة النمو ، لتنشيط امكانات النمو ، لتحقيق التفتح الامثل والتوظيف الامثل لهذه الامكانات ....

ومن ثم ، ينبغي ان تنطلق دراسات النمو من « **فلسفة انمائية** » (*) « انماء الذكاء والقدرات » ، « انماء الانضباط السلوكي » ، « انماء الخلق » ، « انماء الشخصية » ، وهكذا من منجزات العملية النمائية .

(*) يمكن الرجوع في ذلك الى دراسة المؤلف بتضمنها المرجع التالي : د . طلعت منصور : التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية (دراسات جديدة في علم النفس ؟) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

المراجـــع

أولا : باللغة العربية

١ ـ د . ب . فان دالن : مناهج البحث في التربية وعلم النفس . (ترجمة نبيل نوفل ، سليمان الخضري ، طلعت منصور ـ تحت اشراف دكتور سيد عثمان) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٢ ـ دكتور فؤاد ابو حطب : القدرات العقلية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .

٣ ـ ل.س. فيجوتسكي : التفكير واللغة . (ترجمة : دكتور طلعت منصور) مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٤ ـ دكتور طلعت منصور : دراسة ارتقائية لتكوين فاعلية التذكر لدى الاطفال والراشدين . الكتاب السنوي الثاني للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٥ ـ دكتور طلعت منصور : الطفولة بين الحرمان والاشباع الثقافي . المؤتمر الاول لثقافة الطفل ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ .

٦ ـ دكتور طلعت منصور : التربية وتنمية الابتكارية عند الاطفال . ندوة العمل مع الاطفال ـ جامعة عين شمس ، القاهرة ، مارس ١٩٧٨ .

٧ ـ دكتور طلعت منصور : التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

٨ ـ دكتور عبد العزيز القوصي : مستقبل التعليم الفكري في مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .

٩ ـ دكتور محمد الهادي عفيفي ، دكتور محمد احمد الشامي : الصحة الثقافية ، صحيفة التربية ، العدد الرابع ، مايو ١٩٦١ .

١٠ ـ دكتور محمد عماد الدين اسماعيل ، دكتور نجيب اسكندر ابراهيم ، دكتور رشدي فام منصور : قيمنا الاجتماعية وأثرها في تكوين الشخصية . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ثانيا ـ باللغة الافرنجية :

11— Anderson, J.R. Dynamics of development; System in process. In D.B. Harris (Ed.), **The concept of development.** Minneapiois, Univ. Minnestoa Press, 1957.

12— Berelson, B. & Steiner. **Human behavior : An inventory of scientific findings.** New York, New York, Harcourt, Brace & World, Inc., 1964.

13— Blum L.H. Pediatric practice and the science of child development **Nerv. Child,** 1952, 9, 233-241.

14— Bossard, J.H. & Carter, W.T. **The sociology of child development.** New York, Harper & Bros., 1960.

15— Bribram, K.H. Neocortical functions in behavior. In H.F. Harlow & C. W. Woolsey (Eds.), **Biological bases of behavior.** Univ. Wisconsin Press, 1958.

16— Dennis, W. A biography of baby-biographies. **Child Developm.**, 1937, 7, 71-73.

17— Dennis, W. & Dennis, M.G. Infant development under conditions of restricted practice and a minimum of social stimulation : a preliminary report. **J. Genet. Psychol.**, 1938, 53, 49-157.

18— Dennis, W. Infant development under conditions of restricted practice and minimum social stimulation. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1941, 23, 143-189.

19— Erikson, E.H. Growth and crises of the healthy personality. In Hung-Min Chiang & A. Maslow Eds), **The healthy personality**, New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.

20— Gates, G.S.& Taylor, G.A. An experimental study of the nature of improvement resulting from practice in a motor function. **J. Educ. Psychol.**, 1952, 27, 226-236.

21— Gesell, A. & Thompson. Learning and growth in identical twins : an experimental study by the method of cotwin control. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1929, 6, 1-123.

22— Gesell, A. Growth potentials of the human infant. **Sci. Mon.**, N.Y., 1949, 68, 252-256.

23— Gessel, A. Developmental pediatrics. **Nerv. Child.**, 1952, 9, 252-57.

24— Havinghurst, R.J. **Human development and education.** New York, Longmans, 1953.

25— Hebb, D.O. **The organization of behavior.** New York, Wiley, 1949.

26— Hilgard, J.R. Learning and maturation in preschool children. **J. Genet. Psychol.**, 1932, 41, 36-56.

27— Horney, K. The neurotic personality of our time. New York, 1939.

28— Jensen, A.R. Individual differences in concept learning, Ch. 9 in H.J. Klausmeier & C.W. Harris(Eds.), **Analyses of concept learning**New York and London: Academic Press, 1966.

29— Jensen, A.R. Varieties of individual differences in learning, Ch. G. in **Learning and Individual differences (Ed. R.M. Gané)**. Columbia, Ohio : Merrill, 1967.

30— Jersild, A.T. Training and growth in the development of children. **Child Developm. Monogr**, 1932, 10, 1-73.

31— Kluckhohn, **C. Mirror for man.** New York, Mc Graw-Hill, 1949.

32— Luria, A.R. **Higher cortical functions in man.** New York, Basic Books, 1966.

33— Luria, A.R. **Human brain and psychological processes.** New York, Harper & Row, 1966.

34— Mc Graw, M.S. **Growth : a study of Johny and Timmy.** New York : Appleton Cent. Grofts., 1935.

35— Mc Graw, M. B. Later development of children specially trained during infancy. **Child Deve- lopm.**, 1939, 10, 1-19.

36— Mc Graw, M.B. Neural maturation as exemplified in achievement of bladder control. **J. Pediat.** 1940, 16, 580-590.

37— Mead, M. **Sex and temperament in three primitive societies.** New York, Morrow, 1935.

38— Parker, S. & Kleiner, R. **Mental illness in the urban negro community.** New York, 1966.

39— Piaget, J. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feedback regulatory mechanisms. P**Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology**, Moscow, 1966.

40— Shirely, M.M. **The first two years.** Mineapolis : Univ. Minnesota Press, 1931, vol. 1.

41— Szasz, T. **The myth of mental illness.** N.Y., Harper & Row Pub., 1961.

42— Terman, L.M. **Genetic studies of genius,** Stanford : Stanford Univ. Press, 1925, 1926, 1930, 3 vols.

43— Terman, L.M. & Oden, M.H. **The gifted child grows up.** Stanford, 1947.

44— Thompson, H. The modifiability of play behavior with special reference to attentional character- istics. **J. Genet. Psychol.**,1943, 62, 62, 165-188.

45— Wechsler, D. Intellectual development and Psychological maturity. **Child Developm.** 1950, 21, 45-50.

46— Wells, J. & Arthur, G. Effect of foster-home placement on the intelligence ratings of children of feeble-minded parents. **Ment. Hyg.** N.V., 1939, 23, 277-285.

47— Wishik, S.M. The importance of „timing" in child heatlh supervision. **Child Developm.**, 1950, 21, 51-60.

48— White, R.W. Adult growth and emotional maturity. In Hung-Min Chiang & A. Maslow (Eds.), **The Healthy Personality,** New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.

جان جاك روسو والعقد الاجتماعي

محمود أبو زيد

مقدمة :

قرنان من الزمان مرا حتى اليوم على وفاة جان جاك روسو J. - J. Rousseau ، وان شئت الدقة فقد مات الفيلسوف الفرنسي العظيم في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ (*). وكان موته بعد أيام من الذكرى السادسة والستين لمولده ، وقبل سنوات قليلة فحسب من الثورة الفرنسية التي اعتبر ملهمها .

وبين اللحظات الاولى لمولده عام ١٧١٢ وتلك اللحظات الاخيرة التي جاد فيها بانفاسه ، امتدت حياة روسو ليضيف بفكره وبشعوره الثورى الفياض ما أثرى الفكر الاوروبي عامة ، وربما بشكل قل أن يكون له مثيل حتى من بين الشوامخ الذين أنجبهم القرن الثامن عشر من أمثال فولتير Voltaire ومونتسكيو Montesqiueu ودالمبير D'Alembert

---

(*) كتب هذا المقال في يوليو/١٩٧٨ ـ التحرير .

وجعلوا منه ـ حقا ـ مايعرف **بعصر العقل او عصر التنوير** كما يقولون . ويكفى روسو انه قدر لـه ان يكون ثالث أشهر ثلاثة مفكرين ارتبطت اسماؤهم بنظرية العقد الاجتماعي Social Contract ، ونعنى **بهؤلاء توماس هوبز** Hobbes وجون لوك Locke فى انجلترا ، ثم مفكرنا الفيلسوف فى فرنسا . فنتيجة لكفاياتهم سادت نظرية العقد الاجتماعى التفكير السياسى فى القرن الثامن عشر ، ونجحت فى ان تؤثر تاثيرا بالغا فى كل من انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية ، بل وفى ان يكون لها دور مباشر لا فى تطوير النظم الديمقراطية بهذه الدول فحسب ، ولكن ايضا فيما تفجر من ثورات غيرت كثيرا من وجه الاحداث .. بعدما انزلوا بفلسفاتهم السلطة من السماء الى الأرض ، واحلوا العلاقات المدنية محل العلاقات الطبيعية ، فاتاحوا بذلك للفرد مكانة ممتازة فى عملية تطور المجتمع ، باعتبار ان **الفرد هو الوحدة التى ينبنى عليها العقد** . وفى ذلك كله كان روسو بصفة خاصة ابرز دعاة هذه النظرية وأوسعهم صيتا وابعدهم اثرا فى تاريخ الفكر السياسى (١) بما اثارته كتاباته من مظاهر المساندة والتأييد وكذلك موجات الانتقاد والتجريح .. والواقع انه بين هذه المساندة القوية من ناحية ، والانتقاد العنيف من ناحية ثانية تبدو عظمة روسو كمفكر لتميز افكاره بجدة وطرافة اصيلتين .

وعموما فانه لكى نفهم فلسفة جان جاك روسو فهما شاملا ، **فيجب ان نلقى بالضوء اولا** على ظروف النشأة والتكوين وما كان لهذه الظروف من تأثيرات تدخلت فى تحديد افكاره وآرائه ، ثم نحاول **ثانيا** ان نتعرف على اصول فلسفته السياسية والاجتماعية **وانعكاسات ذلك فى مواقفه** وتصوراته التى ضمنها نظريته فى العقد ، ثم نتلمس **ثالثا** بعض مظاهر الاتفاق او الاختلاف بينه وبين صاحبيه هوبز ولوك ، وذلك تمهيدا لكى نتمكن **رابعا** من رؤية مدى أصالة فكر روسو بما قد يتيح لنا تقديم فكرة لتقويما شاملا ، تتبين من خلالها جدارة هذا المفكر الفيلسوف بالشهرة الفائقة التى تمتع بها واستمرت قرنين من الزمان بعد وفاته .

• • •

هناك قاعدة اساسية يتفق عليها الجميع مؤداها ان اعمال المفكرين وليست حياتهم الشخصية هى مايوجه الانتباه اليهم ويجعلهم احياء فى عقول الناس حتى بعد مرور قرون عديدة على وفاتهم . ومع ذلك فان جان جاك روسو يعتبر فى راى الكثيرين استثناء ملحوظا لهذه القاعدة ، حيث تجد مايشبه الاجماع على ان شخصيته تمثل منعطفا من اخطر المنعطفات التى واجهتها العقلية الغربية وارتبط بذلك طابع الحياة المثيرة التى عاشها هذا المفكر الفيلسوف ، وجعلت منه انسانا مضطرب الروح زائد الحساسية ، وهما صفتان انعكستا بوضوح فى كتاباته ، لدرجة اننا نجده احيانا متحاملا قاسيا على المجتمع بكل مافيه من تقاليد على مايظهر فى « رسالة عن منشأ عدم المساواة بين الناس Discourse on the Origin of Inequality واحيانا اخرى ممجدا لشأن المجتمع ومعليا لمكانة الجماعة على مانجد فى كتابه « العقد الاجتماعي » على وجه التحديد .

ومع انه يسهل ملاحظة ذلك فى اماكن كثيرة من كتاباته ، الا ان الطابع المميز لشخصية روسو يظهر كاوضح مايكون فيما سجله هو نفسه فى « الاعترافات » بالذات ، خاصة وهو يصف الكيفية التى جاء بها الى الوجود ، فيقول « كنت ثمرة عودة امي الى أبى بعد

(١) Robert K. Woetzel: The Philosophy of Freedom, Popular Library, N. Y. 1966.

انفصال فرق بينهما وقتا ... وبعد عشرة اشهر ولدت انا ... ضعيفا ... مريضا ... وكلفت امي حياتها . اما مولدي فقد كان اول خطوات حظي العاثر الشقي » .. (٢) . ثم بعد ذلك وهو يحاول تحديد الغرض من كتابته لهذه الاعترافات فيقول « وهدفي هنا هو ان اقدم الى الناس انسانا يعيش كل طبيعته بصدق وهذا الانسان هو انا ... انا وليس احدا آخر غيري . حقا انني اعرف الكثيرين من الناس ، ولكني لم اخلق مثل اي منهم لدرجة انني اكاد اعتقد انه لايوجد انسان آخر يشبهني ... واذا لم اكن افضلهم فانا على الاقل اختلف عنهم » (٣) .

ولو شئنا ان نستخلص بعض الخصائص **من تحليل هذه السطور** لكان ابرزها في رأيي **خاصيتين رئيسيتين هما اللتان تميزان حياة روسو الى حد بعيد** . فمن الواضح ــ وهذا من ناحية ــ ان روسو كان رومانتيكيا مغرقا في الرومانتيكية كما كان حساسا بالغ الحساسية . والواقع ان الحياة الخاصة ذاتها كانت مرآة صادقة لهذه الروح بكل ما يعتلج فيها من غموض ومتناقضات واضطراب . ويؤكد ذلك ان يده امتدت الى السرقة ومع ذلك لم يتورع ان يلقي بالتهمة على فتاة بائسة ، وهجر صديقا له كان يعاني شدة المرض لا لشيء الا انه شعر بثقل عبء من رعايته وتمريضه ، كما عاش فترات من حياته على كدح من كن يقعن في حبه من النساء ، وعمل في اكثر من وظيفة فشل فيها جميعها . وحتى عندما تعرف في عام ١٧٥٤ على الفتاة التي اقترن اسمه بها الى ان فرق بينهما الموت وهي **تيريز ليفاسير** ، وانجبت له عدة ابناء كان يودعهم الواحد بعد الآخر في ملجأ اللقطاء متذرعا في ذلك بمختلف الاسباب والمعاذير .

ومن الناحية الثانية كان لهذه الصورة وجهها الآخر مثل الرومانتيكية تماما . فما ان أخذ روسو يشرع قلمه ، حتى بدأت كتاباته تلفت الانظار ، وأخذ يحتل موضع القمة بين عمالقة المفكرين والفلاسفة الذين ساندوا الاعتقاد في الديمقراطية الحديثة ، وآمنوا بقدراتها اللامحدودة في تنشئة الافراد وتطويرهم . والواقع ان ذلك ايضا قد عكس احد المفارقات الغريبة التي تمتلىء بها حياته . فالى جانب ايمانه الراسخ بطيبة الطبيعة البشرية ونقائها فقد كان يؤمن كذلك بمساوىء المجتمع الانساني وشروره ، ومن هنا فقد كان عليه ان يقدم انتقادا عنيفا للنظم السياسية والاجتماعية ، ذلك على اعتبار ان هذه النظم هي التي انحرفت بالبشرية ومنعت الناس من ان يعيشوا كما ارادت لهم الطبيعة . (٤) ومن ثم فلم يكن غريبا ان يتبلور كل هذا فيقدم لنا مؤلف « اميل Emile » و « هيلويز الجديدة La Nouvelle Heloise » كتابه الفذ « العقد الاجتماعي » الذي توج به دفاعه المجيد عن حقوق الانسان ونضاله المتصل ضد الديكتاتورية لا في قلب فرنسا وحدها ولكن في كل مكان في العالم ... فانهم

---

(٢) Rousseau, J. J., : Œuvres Complète, 13 Vols. Hachatte, 1911. Les Confessions, Vol. III. p.1.

(٣) Ibid, p. 5.

(٤) Lillie, W; Introduction to Ethics, Methuen & Co., Ltd.,London, 1948. pp. 57-58.

(*) نشر « العقد الاجتماعي » في عام ١٧٦٢ تحت عنوان طويل هو :

Du Contract Social ou Principes du Droit Politique

وهو يتضمن ٤ كتب اساسية عالج روسو في اولها الميثاق الجماعي وفي الثاني حقوق السيادة وحدودها ، اما الكتاب الثالث فقد عرض فيه للحكومة واشكالها المختلفة بينما خصص الكتاب الرابع لمعالجة بعض الجوانب الهامة في الحكومة . ويعد كتاب « العقد الاجتماعي » اضخم آثاره السياسية كما يتميز من دون آثاره كلها باسلوبه الفلسفي المجرد .

بسبب أفكاره ووجهت اليه ابشع التهم ، وبدأت حكومة فرنسا وحكومة جنيف تضطهدانه وتطاردانه من مدينة الى اخرى ، كما احرقت كتبه ومؤلفاته ، فلجأ الى انجلترا في عام ١٧٦٦ حيث نزل لفترة ضيفا على صديقه **دافيدهيوم** ليتركه بعد نزاع نشب بينهما ، ولم يسمح له بالعودة الى وطنه فرنسا الا في اخريات ايامه حيث مات عجوزا محطما في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ كما قلنا .

ومن الطريف حقا ان تثير وفاة روسو الكثير من الروايات والاقاصيص التي تمتليء بالظن وبالشكوك . فما ان ذاع خبر وفاته حتى قيل انه مات منتحرا برصاص مسدسه ، كما ردد البعض انه قتل بيد احدى عشيقاته . وعلى الرغم من ان الكشف على جثته بعد ذلك في عام ١٨٦٧ قد اثبت عدم صحة ذلك ورجح انه مات نتيجة تسمم في الدم نتج من مرضه المزمن بالمرارة ، فقد شاء القدر ان يتسع في مفارقة اخرى لاتقل غرابة عن المفارقات التي اكتنفتها حياته، فقد اصدرت حكومة La Convention قرارها في عام ١٨٩٤ بنقل رفاته من جزيرة الحور التي كان قد دفن فيها الى البانثيون حيث رقدت هناك رقدتها الاخيرة ... الى جانب فولتير عدوه اللدود .

ولسنا نريد في الوقت الحالي ان نبحث في مدى الاتساق او عدم الاتساق الذي تعكسه هذه الظروف في حياة روسو . ولكن من المهم على اي الاحوال ان نشير الى ان هناك من العوامل مايمكن ان يعتبر مسئولا عن طبيعة الحياة التي عاشها وبالتالي لتشكيل فكره وآرائه . ولعل اول هذه العوامل ان جان جاك روسو لم يتلق في حياته تعليما نظاميا ، لان طبيعة تكوينه الذهني والنفسي لم تمكنه من احتمال مايفرضه هذا النوع من التعليم من قيود. وتؤكد الكتابات الكثيرة التي الفت عن حياة روسو ان ثقافته كانت مزيجا غريبا من القراءات والمطالعات التي كان ابوه يضعها في طريقه ويدفعه اليها . فقد قرأ روسو وهو لم يزل في السادسة بلوتارك والكثير من القصص وكتب الادب والروايات . وفي الفترة مابين عامي ١٧٢٨ – ١٧٤٠ تجده يلتهم بنهم زائد كل ما يقع تحت يديه من اعمال الأدباء والفلاسفة والمفكرين ، فقرأ لابروبير وموناتس وبوسويه ولوك وفولتير ، وقد تأثر بصفة خاصة بهذين الاخيرين ، الامر الذي ظل لاصقا به في كل فترات حياته الفكرية . وعلى الرغم من ان معرفته بالقدماء كانت ضئيلة نسبيا ولا تتجاوز بعض كتابات تاسيت وسينكا وبعض آراء افلاطون وارسطو ، فان المؤكد ان معرفته الوثيقة بعد ذلك لكونديلاك ودالمبير وديدرو قد ساعدته كثيرا في بلورة فكره وتكوينه كمفكر اجتماعي وسياسي ، وكفيلسوف طبقت شهرته الافاق . وان كان من المهم مع ذلك الاعتراف بان شخصيته الذاتية كانت موجودة دائما وتفرض نفسها بشكل واضح ايا كانت ضخامة وقوة المصادر التي التقى بها واثرت في تفكيره .

لم يكن من قبيل المصادفة ان يسمي روسو كتابه الضخم في السياسة «العقد الاجتماعي» ، فقد كان من الطبيعي ان يتحرك فكره في الاتجاه العام للتطورات التي سيطرت على الفكر السياسي آنذاك ، والتي اعتبرت العلاقة بين الافراد الاحرار هي الاساس الوحيد السليم للتنظيم السياسي .

وعلى الرغم من ان القول بالعقد كان قد عكس من قبل عبقرية هوبز ، وارتبط ايضا بنظرية لوك ، على اعتبار ان العقد كان محور فلسفتيهما ، الا انه من الصعب ان نتصور تماما كيف امكن لعقل روسو ان ينتهي بفلسفته الى نتائج اختلفت تماما عما انتهى اليه هذان ، خاصة جون لوك الذي قلنا ان روسو قد تأثر بكتاباته الى حد ملحوظ ، مع ان نقطة البدء كانت متماثلة عند الفيلسوفين .. ومع اننا لسنا هنا في معرض المقارنة – تفصيلا بين

الاثنين ، فمن الجدير بالذكر ان فلسفة كل منهما كانت انعكاسا في آخر الأمر لطبيعة كل منهما وتكوينه العقلي ، خاصة من حيث ان فلسفة روسو كانت تفتقر الى الوضوح الذى ميز كتابات لوك، بالاضافة الى انها كانت مبهمة الى حد بعيد ومليئة بالغموض والمتناقضات . والواقع انه اذا كان لنا ان نقول بوجه عام ان « **المقالة الثانية في الحكومة المدنية** » كانت انعكاسا لبساطة حياة لوك وتقدميته ، فانه بالقياس نفسه يمكن القول ان «**العقد الاجتماعي**» كان انعكاسا لاتجاهات روسو واهتماماته المعقدة . ويرجع هذا الى ان عقلية لوك كانت اكثر وضوحا ومنطقا من عقلية روسو ، بل وايضا لأن روسو حاول ان يقطع في بضعة مسائل شائكة تضمنتها فلسفة لوك دون ان يدرك هو نفسه ذلك بوضوح كاف . وفي مقدمة هذه المسائل مسألة **القبول** على فيها من تشابك زائد وتعقيدات .

ان المسألة الاساسية التي شغلت اذهان الفلاسفة السياسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تتمثل في تأكيد سلطة الحاكم وسيادته ؛ وهي المسألة التي ظهرت بدرجة واحدة عند كل من هوبز وبودان . ومع ان هذه المسألة ـ اقصد السلطة السيادية او ذات السيادة ـ كانت قد استقرت تماما الى جانب **دعمها وتقويتها واطلاقها بما يعني القضاء على كل مظهر من مظاهر** الحرية الفردية ومراقبة المحكوم للحاكم وكل مظهر من مظاهر مسئولية الحاكم أمام المحكومين ، الا أن جون لوك وغيره من الفلاسفة كانوا قد بدأوا يدركون حقيقة ان الخطر لايزال ماثلا ، ولم يكن هذا بسبب أن السيادة لم تكن قوية بما فيه الكفاية ، وانما لأن الحكام كانوا ـ على العكس من ذلك ـ اقوياء بمالا يقاس ، وينظر اليهم على انهم ذاتيه منفصلة مميزة

تخضع لها كل ماعداها . وهو وضع كان خليقا على اى الاحوال بان يدفع لوك الى الاصرار على ضرورة موافقة الرعايا وقبولهم .

وقبل أن نمضي قدما في متابعة تحليل مسألة القبول هذه التي شغلت فكر لوك ، فمن المهم ان تتضح في الذهن تماما النظرة العامة التي عالج لوك المسألة كلها من خلالها . فالقبول كان يمثل بالنسبة اليه أساس الدولة، بل وما يجعلها شرعية واخلاقية وعادلة .

وما من شك في ان احدا لا يستطيع ان يختلف في ذلك . ولكن المتمعن في موقف لوك(٦) سوف يلحظ على الفور ان تحليله للمسألة لم يكن كافيا تماما . ونتيجة لذلك فهو لم يستطع ان يرى شيئين بذاتهما ؛ هما اولا عدم كفاية القبول طالما ان افعال السيادة لا تكتسب شرعيتها الا اذا كان هذا القبول تاما وشاملا ودائما . **وثانيا** ان نسبة كبيرة من الديمقراطيات في مقدورها بالفعل أن تمارس شتى انواع الضغوط ضد الاقليات تماما مثلما يقدر شخص واحد ان يمارس هذه الضغوط ضد شعب باكمله . وبمعنى آخر فان ما نريد ان نقوله هو ان لوك قد فشل في ادراك تلك الحقيقة البسيطة وهي ان الاتفاق او القبول قد يمثل في الدولة الديمقراطية مشكلة اساسية مثلما هو الحال في اكبر الدول اتصافا بالديكتاتورية واشدها ممارسة للقهر والطغيان .

والواقع ان روسو نجح في ادراك هذه المشكلة بوضوح . ومن هنا فقد كانت محاولة حلها شغله الشاغل في العقد الاجتماعي . ولكن اذا كان بمقدورنا ان نقول من الان ان هذه المحاولة لم تكن ناجحة تماما ، فانها لمفارقة عجيبة ان تنطوي كذلك على نظرة استطاع غيره من المفكرين الذين جاءوا بعده ان يذهبوا

(٦) انظر في ذلك اساسا :

John Locke ; **Two Treatises** . ‎ٴ **Government**, Cambridge University Press, 1960.

بها الى موقف يختلف كلية عن الاساس الذى التقينا به سواء عنده هو نفسه او عند لوك . ونعنى بذلك ان تكون فكرة القبول هذه وسيلة للانتقال الى تصور الدولة الشمولية كما سيتضح لنا فيما بعد ، وهو تصور لم يكن روسو يعتقد بحال فى امكان الوصول اليه او حتى تخريجه من موقفه .

على ان هذه النظرة حتى الى المدى الذى قطعه روسو تشير الى حدوث تحول راديكالي يبعد عن التصور الذى بدأ منه لوك . ولو امعن المرء النظر فى هذا التحول لتمكن من تفسير الاختلاف الذى يلمسه قارئ روسو بين بعض كتاباته المبكرة مثل رسالته فى نشأة عدم المساواة ، وبين العقد الاجتماعي وهو الاختلاف الذى ركز عليه الكثيرون ممن كتبوا عن روسو لدرجة انهم اكدوا وجوده كذلك بين الطبعة الاولى « للعقد الاجتماعي » والطبعات المتأخرة ، حيث انتفت تلك الطيبة ومعها مغالاته على وصف حالة الطبيعة بأنها ظرف خيالي ، فتجاوزت بذلك تفاؤلية لوك ، وخاصة عندما اكدت السيرة المثالية التى رسمها روسو للطبيعة البشرية وهو ينظر الى الانسان الاجتماعي على انه ملاك هابط .

وايا ماكانت وجهات النظر التى سبقت لتبرير هذا التحول ودوافعه ، فان من الواضح ان روسو فى تلك الفترة المتأخرة من حياته العقلية لم يكن مجرد المصلح الاجتماعي الذى يرفع صوته ضد مساوئ المجتمع الذى يعيش فيه وينادى بالتخلص من قيوده والعودة الى الطبيعة ، ولكنه ذلك المفكر الناضج الذى يكرس نفسه لمهمة تبرير الدولة ومنظماتها المختلفة . وان كان هذا لا يمنع من القول ان نجاحه لم يكن تاما او كاملا لانه ظل مرتبطا بموقفه الاصلى الذى كان كثيرا ما يكتفى فيه بوصف اى موقف عملى بانه سيء وشرير .

ومع هذا فمن الانصاف لروسو ان نعترف بان ثمة تغيرا حقيقيا قد حدث على يديه فى مسألة القبول هذه ، ذلك انه كان يشعر دائما بضرورة تقويم الحل الذى ساقه لوك للمسألة ، حتى وان كان الامر قد تادى به الى تصور « الارادة العامة » الذى قاده بدوره الى تصور العلاقة بين الافراد بطريقة اوشحت مذهبا فى الحياة يناقض مباشرة تلك النزعة الفردية التى طالما ميزت كتاباته الاولى .

واذا كان من السهل على قارئ روسو ان يطلس فى كتبه ، باستثناء كتب العقد الاجتماعي ، تعلقه الشديد بالطبيعة ورغبته الجامحة فى التخلص من قيود المجتمع ، فانه سوف يلحظ على الفور ايضا ، ان العقد الاجتماعي ذاته ، يؤدى الى جماعة مطلقة يئن فيها الفرد تحت نيرسيادتها ،لانه يحاول فى ذلك الكتاب ان يشيد مجتمعا متماسكا تسود الجماعة فيه وتعلو على الفرد . وبذلك نجد ان روسو الذى طالما اكد عدم شرعية الجماعة وكذب لادعواها الدائمة فى مطالبة الفرد بالتضحية من اجلها ، هو نفسه الذى ينتهى فى « العقد » الى مجتمع **حبكت اطرافه وتمكنت** سيادته ، ويروج لمبدأ ان الافراد يدينون للجماعة ، وذلك الى حد ان يقول بانه ما من حق للافراد الا حقها (٧) .

• • •

اذا اعتبرنا العبارة الشهيرة التى قدم بها جان جاك روسو كتابه « **العقد الاجتماعي** » لقد ولد الانسان حرا ولكنه مكبل بالاغلال فى كل مكان .. كيف حدث ذلك ؟ لست ادرى ! « وضح لنا مدى التغيير الذى طرأ على معنى هذه العبارة التى تضمنتها الطبعة الاولى من

---

(٧) يمكن الوقوف على تفاصيل اكثر لمنهج روسو فى كتابه « العقد الاجتماعي » فى العديد من الكتب والدراسات، ارجع بصفة خاصة الى :

Felix Ponteil ; **La Pensee Politique Depuis Montésqui u**, Sirey, Paris. 1960.

العقد الاجتماعي ليصبح معناها متسقا مع موقفه العام الذى تبناه متأخرا .

ان اول ما يطرأ على الذهن هو ان كلمات روسو فى الطبعة الاولى لم تكن تحمل من المعانى اكثر من ان الانسان يجب ان يكون حرا فهذه أفضل صور المعيشة بالنسبة اليه، وذلك فى الواقع تعبير صريح عن الاتجاه العقلى الذى اطلق عليه **البدائية الرومانتيكية اوالحنين الى حياة الطبيعة** وبساطة العيش الاولى التى كانت سائدة فى العصر الذهبي Golden Age والتى فصلتنا عنها الحياةالمعقدة التى اصبحنا نحياها فى العصر الحديث .

على أننا اذا اردنا ان تقرب بين هذا المعنى وبين وجهة النظر التى قلنا ان روسو قد اعتنقها فى الطبقات المتأخرة من العقد الاجتماعى ، فسوف يظهر ان القول بان الانسان قد ولد حرا ولكنه مكبل بالاغلال فى كل مكان يبدو وكانه بمثابة تأكيد لمعنيين ، او بالاصح حقيقتين اثنتين هما :

اولا : ان الانسان يجب ان يكون حرا ومستقلا .

ثانيا : ان الانسان نادرا ما يكون هكذا فى الحياة الواقعية ،

واذا اعتبرنا ذلك فينبغى ان ندرك ان الحرية التى يتحدث عنها روسو قد اصبحت شيئا اكثر من مجرد الفراغ او السلوك الفردى المتحرر من كل قيد ، ذلك لان ما يبدو من قول روسو ، انه يهدف الى نوع من المشاركة فى حياة اكثر اتساعا يسهم فيها جميع الاعضاء بقيامهم بوظائفهم فى توافق وانسجام يحفظ استمرارها ودوامها .

ومن الواضح ان ذلك يمثل خروجا على روحه الفردى يكاد يذهب الى حد التناقض .

وعلى الرغم من أن ذلك كله يبدو صحيحا فى جملته ، فانه يثير مع ذلك تساؤلا عن الكيفية التى تم بها هذا التحول فى موقفه .

ان الشيء الغريب ان روسو ، على الرغم من انه قد تساءل فى جملته الافتتاحية عن كيفية حدوث ذلك التحول من مرحلة الحرية الى الحالة التى وصفها بان الانسان أصبح فيها مكبلا بالانحلال ، الا انه تجاهل الاجابة على ذلك ، وحاول ان يجيب على تساؤل آخر بصدد الاسباب التى دفعت الى حدوث التحول وبالتالى مدى شرعيته . ونراه يقول فى ذلك « ان الاقوى لا تصل قوته ابدا الىالدرجة التى يصبح بها سيدا على الدوام الا اذا تحولت هذه القوة الى حق Right تصبح الطاعة معها واجبا Duty . ولكن من الناحية الثانية ، حيث انه لم تعد لانسان ما سلطة حقيقية على غيره . . . ومادامت القوة لاترتب حقا ما . . فانه لا يبقى غير الاتفاقات Conventions اساسا لكل سلطة مشروعة Legitimate Authority بين الناس . . . ومنذ البدء تقدسعى الناس الى شكل من اشكال التجمع يحمى شخص ومتاع كل عضو فيه ويدافع عنه بقوته المشتركة ويتحد فيه كل واحد بالكل فلا يطيع الا نفسه . . . ومن لم يبقى حرا مثلما كان من قبل . . . (٨) .

هكذا يقرر روسو ان العقد قد حقق كل هذا . ولكنه لا يكتفى بذلك وانما يعود فيقرر ثانية ان كل فرد فى هذا التجمع قد تنزل عن شخصيته وحقوقه للجماعة ، وكان ذلك هو السبيل لايجاد تلك الهيئة المعنوية ـ والجماعية التى يعتبر الشعب اعضاءها مجتمعين ، ولكنهم مواطنون ومساهمون فى السلطة العامة اذا ما كانوا متفرقين .

(٨) Contract Social. I. I. (23-24)

والملاحظة التي ينبغي ان نلتفت اليها هنا قبل ان نستطرد في توضيح متضمنات موقف روسو ، هي ان تصوره لفرد حر يشارك في الارادة العامة على ما عكست جملته الافتتاحية يبدو امرا متناقضا تناقضا صريحا والقول بالعقد على ما يظهر في كتاباته المتأخرة . ذلك ان العقد يقوم هنا – مثلما عند لوك – على اساس وجهة نظر في الطبيعة البشرية اعتبرت الانسان مستقلا وتلقائيا تماما . وقد يكون صحيحا ان العقد يمثل هدفا مطلوبا في ذاته باعتبار انه يجمع الناس معا بدلا من ان يعيشوا كوحدات مستقلة متفرقة ، ولكن الصعوبة هنا هي في مقارنة تصور الطبيعة البشرية الذي ارتبطت به فكرة روسو في الارادة العامة ، **بالزعم القائل بان الناس** كانوا في الاصل مستقلين بعضهم عن بعض . وحتى اذا نحن رجعنا الى مفكر مثل ارسطو لوجدنا ان النظرة العضوية قد تضمنت اعترافا صريحا بان الناس قد تعاونوا دائما ، وانهم قد اعتمدوا بعضهم على البعض ، لانهم كانوا يجدون في الاجتماع وسيلة تتكامل بها شخصياتهم .

لقد قلنا من قبل ان روسو كان متأثرا تأثرا ملحوظا بجون لوك . ولكن الذي يبدو لنا هنا هو ان اصطلاح الارادة العامة يظهر معارضا لعقد لوك . وصحيح ان هناك خصائص ذاتية مميزة لهذا التصور الجديد الذي يسوقه روسو وللتصور القديم للعقد عند لوك ، وان **كلا من التصورين قد اكد على ضرورة التبرير** الاخلاقي لوجود الدولة وشرعية ممارستها للقهر والالزام كما حاول كل منهما بالتالي ابراز هذا التبرير حتى انتهى الامر بلوك الى تقرير اهمية قبول الافراد وموافقتهم الحرة الكاملة . ولكن الصحيح ايضا هو ان كافة الصعوبات التي انطوت المسألة عليها ، قد دفعت بروسو الى ان يطور مفهوم الارادة العامة في خط مغاير مما يترتب عليه حدوث تحول في التصور القديم للانسان وعلاقاته بالاخرين ودون ان يغير ذلك شيئا من حقيقة ان المحاولة الجديدة قد تطلبت ، مثلها مثل الموقف السابق تماما ، **تقديم التبرير الشرعي لممارسة القوة** والسلطان . ان القوة في راي روسو « هي القوة الطبيعية وما الاستسلام لها سوى نوع من الخضوع .. او امر من امور الضرورة لا الارادة الذي يستحيل ان تكون نتائجه اخلاقية .. فباي معنى من المعاني اذن يمكن ان يصير هذا واجبا اخلاقيا ؟ » (٩)

ولا شك في ان روسو هنا كان امام واحدة من اكثر متناقضاته الفكرية غرابة . وليس لهذا التناقض الا تعليل واحد هو ان المشكلة لم تكن صيانة الحرية الفردية على ما كان يظهر في كتاباته الاولى ، بقدر ما اصبحت **صيانة الحرية الاجتماعية . اضف الى ذلك** ضرورة الاعتراف بالتنظيم الاجتماعي وبالسلطة القائمة . واذا كان تاريخ الفكر السياسي قد حفل باسماء الكثيرين ممن عارضوا شرعية ممارسة السلطة دون سند من الاتفاق ، ونذكر هنا جروتيوس على سبيل المثال الذي اكد ان الناس يتنازلون برغبتهم عن حريتهم للسلطة القائمة عليهم ويقصد بذلك واقعة العبودية Slavery بالذات ، فذلك بالضبط هو مالم يقبله روسو ورفضه رفضا قاطعا ، **ذلك لان التنازل عن الحرية تنازل عن** الانسانية ، وهذا امر لا يتمشى مع طبيعة الانسان باعتبار ان كلمة حق وكلمة عبودية متناقضتان ، وكل منهما مانعة للاخرى .

وبصرف النظر عما تثيره هذه القضية من جدل ونقاش فان الذي يعنينا هو روح المنطق الذي قاد روسو في بحثه عن تفسير آخر للسلطة يتفق ووجهة نظره في الاتفاق العام .

ولو امعنا النظر في الموقف لوجدنا ان هناك ناحيتين يربط روسو بينهما ربطا موضوعيا :

(٩) Ibid, I. 3. (26-27)

الاولى انه لا يعترف بالسلطة النابعة من القهر والارهاب . والثانية انه اعتبر القبول امرا ضروريا لتبرير السلطة وممارستها لوظائفها .

ومع ذلك فينبغي ان نذكر ان هذا القبول كان له معنى خاصا بالنسبة اليه ، فهو ليس امرا مطلقا يرجع الى القبول الاصلي ، ولكنه بالاحرى قبول تتضمنه الارادة العامة التي تعبر عنه باستمرار . ولعل ذلك هو ما قصد اليه عندما اكد « انه مادام اى انسان ليس له سلطة طبيعية على اى انسان آخر .. وما دامت القوة لاترتب حقا ما .. فانه لاينبغي غير القبول او الاتفاق العام اساسا لكل سلطة مشروعة تقوم بين الناس (١٠) .

وهكذا فاننا نجد انفسنا وجها لوجه امام النظام الاخلاقي الذى يقول به ، فما هي اذن **خصائص هذا النظام وما** هي مقوماته الاساسية ؟ **الواقع ان روسو نفسه** قد عبر عن ذلك تعبيرا صريحا فقال « اننا لو فهمنا عبارات العقد فهما سليما لوجدنا انها تشير الى شيء واحد هو التحالف الشامل للمجتمع باسره .. ان هذا التحالف يستتبعه في المحل الاول ان تصبح الظروف واحدة بالنسبة الى الكل حيث ان كل فرد قد وهب نفسه كلية ... ثم انه لما كانت الظروف متساوية ، فلن تكون هناك مصلحة لاى فرد في ان يغيرها بالنسبة الى الآخرين ... بل ان هذا التحالف او الاتحاد لما كان قد تم بدون اكراه او شطط ، فهو اقرب الى الكمال ، وبالتالى فلن يكون هنالك مطالب او امتيازات خاصة لاية جماعة دون اخرى ، لانه اذا بقيت مثل هذه المطالب او الامتيازات كانت النتيجة ان كل فرد وقد اصبح في هذه الحالة الحكم الوحيد فيما يتعلق بحالته ، سوف يطالب ايضا بان يصبح حكما في كل الحالات ، ومن ثم تستمر حالة الطبيعة ويصبح الاتحاد اما عديم الجدوى او مؤديا الى الطغيان .. وعلى الفور فانه بدلا من الشخصية الخاصة المتفردة لكل طرف متعاقد .. ينتج من هذه العملية الاتحادية هيئة ، او كيان معنوى وجماعي تتوامه عدد من الاعضاء بقدر ما في المجتمع من اصوات .. (١١)

العلاقة اذن ، التى رأى روسو وجوب قيامها بين الناس ، ليست مجرد تحالف لا يتغير حال انضمام المرء اليه او تحالف دائم السلطة والنفوذ باعتبار انه لا يتغير ، ولكنها على الارجح علاقة مشاركة دائمة تتصف بالحرية وبالتلقائية والمثابرة ، كما انها تتطلع باستمرار تجاه شيء نموذجي يصبح بمثابة الخير الحقيقي للمجتمع كله . ويقدم روسو تاكيدا لهذا المعنى في اكثر من مكان فهو يقول « ان التحول من مرحلة الطبيعة الى المرحلة المتمدينة يخلق تغيرا ملحوظا ومميزا في الانسان ، انه يحل في تصرفاته تحكم العدالة (العقل) بدلا من حكم الغريزة .. كما يكسب افعاله شخصية اخلاقية كانت تفتقر اليها بمعنى ان الشهوات تفسح الطريق لاول مرة امام الحق ، كما يفسح الدافع الطبيعي البحت الطريق الى صوت الواجب ... اما الانسان الذى لم يكن يرى من قبل سوى مصلحته الشخصية ، فسوف يجد من الضرورى ان يستشير العقل وفق مبادىء جديدة ، وقد كان من قبل لا يستمع الا لصوت نزعاته ورغباته ... واذا نحن وضعنا هذه الكلمات في صيغة ابسط نسبيا استطعنا ان نقول ان ما يفقده الانسان بالعقد الاجتماعي هي حريته الطبيعية وحقه المطلق في الحصول على كل ما يستطيع الحصول عليه ... اما ما يكسبه من العقد الاجتماعي

---

(١٠) Ibid, I. I. (24)

(١١) Ibid, I. 6 (33-34)

(وانظر في ذلك ايضا مقال الدكتور يحى الجمل « الحرية في المذاهب السياسية المختلفة » ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد الرابع ـ يناير فبراير ـ مارس ، ١٩٧١ ، ص١٤٥ ومابعدها .

فهى حريته المدنية وحقه فى ملكية كل مايملك وحريته المعنوية التى تجعل منه سيد نفسه **بالمعنى الحقيقى ... » (١٢)**

• • •

هذه النقطة الاخيرة تساعد الى حد كبير فى توضيح بعض الخصائص الاساسية التى تميز تفكير جان جاك روسو . **واول هذه الخصائص** هى ان روسو يميز تمييزا واضحا بين الحرية الطبيعية التى تتعين حدودها بواسطة الافراد انفسهم وبين الحرية المدنية التى تحددها الارادة العامة . فالحرية الطبيعية التى يفقدها الانسان ليست سوى حرية زائفة بل هى اسم آخر للعبودية ، ذلك ان خضوع الانسان لنوازعه وشهواته لا يعدو أن يكون ضربا من العبودية . بينما الحرية الحقيقية هى التى تقوم فى طاعة القانون الذى نصنعه بأنفسنا ونشارك فى تقريره .

اما الخاصية الثانية فتتمثل فى التمييز بين الملكية باعتبارها نتيجة السيطرة والقوة وباعتبارها نتيجة للحق ومترتبة عليه . ومع ان القضية هنا لا تزال تحمل طابع جون لوك بشكل ملموس حتى فى الاسلوب التى صيغت فيه(١٣) ، فليس من السهل ان ننكر أن روسو قد تبنى وجهة نظر مختلفة اختلافا عميقا عما نجده عند لوك .

فالواضح ان القضية تشوبها النغمة النفعية وفى ذلك يبدو روسو متأثرا بلوك من حيث ان كلا منهما قد مال الى ابراز المزايا والفوائد التى تنتج عن العقد ولكن الواضح ايضا ــ ان روسو قد عاد فحاول انكار ذلك كله ، او على الاقل التخفيف من وطأته . ويظهر ذلك عندما ركز على وصف العقد الاجتماعى بأنه مشاركة فى الارادة العامة التى وصفها بأنها تتجه دائما الى الخير الاجتماعى . وعلى هذا النحو فهو يجعل الانسان كائنا ذكيا يتصرف فى ضوء من الدراسة والتخطيط على العكس من الحيوان الذى يندفع اندفاعا اعمى ولا تقوده سوى شهواته ونزعاته . او بتعبير آخر ، يمكن القول بأن العقد الاجتماعى عند روسو هو بالذات ما يجعل الانسان نوعا من المخلوقات التي تأخذ فى اعتبارها لانفعها الخاص فحسب ولكن نفع الاخرين كذلك . بل انه لا يجعل الانسان مخلوقا عاقلا فحسب ولكن مخلوقا اخلاقيا بالدرجة الاولى . وهذه نقطة يختلف فيها روسو عن لوك اختلافا واضحا من حيث ان الاخير قد اعتبر الانسان اخلاقيا بالعقل حتى قبل ان يوجد العقد كأساس للدولة . وربما كان ذلك هو السبب الذى جعله ينشىء العقد الذى لا يقدم له سوى الحماية والضمان لبعض الاشياء كالملكية الخاصة على سبيل المثال .

ولعل العامل الحاسم فى هذه الاختلافات جميعها هو تلك الفائدة التي يحققها العقد للانسان باعتبار انه يتيح الفرصة له لان يظهر شخصيته ويطورها .

ومع ان هذا الموقف يبدو أقرب الى هوبز منه الى لوك ، الا انه يتضمن بدوره اختلافا جوهريا : فعلى حين كانت نظرة روسو الى الطبيعة البشرية كما اتضحت فى العقد الاجتماعى تتصور انسان ما قبل العقد كحيوان يستخدم قوته لكى يحافظ على حياته ، فان العقد باعتباره مشاركة فى الارادة العامة هو ما ايقظ طبيعة الانسان بشكل عميق وحوله الى كائن اخلاقى يعرف قانونا آخر غير قانون الغاب . فكان الانسان اذن ، اذ يمتثل للقانون

---

(١٢) Ibid, I, 8 (36-37) II,4 (46)

(١٣) راجع كتاب « الحكومة المدنية » لجون لوك ، الترجمة العربية . سلسلة «اخترنا لك» ، العدد ٨١ وبخاصة الفصل الخامس الذى يتناول قضية الملكية .

يظل مستقلا ومتمتعا بذاتيته وبحريته لان **القانون هو في النهاية من صنع الافراد** المتعاقدين انفسهم ، ومن ثم تكفل لهم نصيبهم في السلطة والسيادة . زد على ذلك انه لما كانت الارادة العامة تتمتع بالقدرة الصائبة دائما ، فيكون ذلك ضمانا لتحقيق المساواة الشرعية أمام القانون وبصرف النظر عن عدم التكافؤ الطبيعي بين الناس في القوة اوالمقدرة **أو الذكاء ، وكله مما يمثل عند روسو خطوة** واسعة الى الامام في طريق التطور البشري ارتقى بها الانسان من حالة الفطرة الى الحالة المدنية وكان العقد الاجتماعي هو وسيلتها الوحيدة .

اذا كان ذلك هو ما انتهى اليه روسو فيما يتعلق بتصور الارادة العامة ، فينبغي أن نرى الكيفية التي استخدم بها هذا التصور لكي يتم بناء نظريته السياسية .

ولعل القضية الحاسمة التي اشتملت على ذلك هي ما انطوت عليه كلماته التي تقول بان الارادة العامة هي الاسمى « فكل فعل تقوم به السيادة ... أي كل فعل للارادة العامة انما **يرتبط بالتساوي بمصلحة المواطنين ويهدف** اليه . » (١٤) فما هو اذن فعل السيادة بالضبط ؟

لقد لخص روسو في « العقد الاجتماعي » تعريفه للسيادة فذكر انها ممارسة الارادة العامة او افعال ارادة المجموع . ووصف هذه الافعال بانها ليست اتفاقا بين الاسمى والادنى، ولكنها بالاحرى ارتباط بين الجسم ككل وبين كل عضو من اعضائه . كما قرر ايضا ان هذا الارتباط هو ارتباط عادل لانه يقوم على العقد ومن ثم فلا يمكن تجنبه او التهرب منه ، لان الكل يعترف به ويرضى عنه بالاضافة الى كونه مفيد اذ لا يستهدف شيئا سوى النفع العام .

والواقع اننا نلتقي هنا بكافة الخصائص التي يقررها روسو للسيادة . ولعل في مقدمة هذه الخصائص ان السيادة مطلقة وغير محدودة . ومع ان هذا الوصف للسيادة يجعل روسو يقترب كثيرا من هوبز الا ان هناك فارقا جوهريا يقوم بينهما . فمن الواضح ان السلطة عند روسو لا تقوم على عقد سيكولوجي أو تاريخي مثلما الحال بالنسبة الى هوبز ، ولكن على القبول العام بمعنى روح الاتفاق الحر المرهون برضا الافراد عن ممارسة القوة من كل الجماعة التي يعتبر العضو جزءا فيها . أما فيما يتعلق بالمبرر الذي يسوقه لمنح الحاكم مثل هذه السلطة المطلقة فهو ان الشعب قد سبق وعبر عن قبوله لها ورضائه عنها .

ولكن لما كانت السيادة مطلقة وبلا حدود، فيلزم أيضا أن تكون كلية وشاملة . وقد صاغ روسو هذا المبدأ ، أو هذه الخاصية الثانية بوضوح اذ يقول « ولما كانت السيادة هي ممارسة للارادة العامة فلا يمكن من ثم الا ان تكون شاملة ... ومن الناحية الاخرى فانه لما كانت السيادة كائنا جمعيا كذلك ، فيتحتم الا تمثل الا بذاتها فحسب ... ان السلطة يمكن تحويلها transfer او نقلها ولكن الارادة ليست كذلك ... ولاجل السبب نفسه الذي اعتبرت السيادة شاملة فانه يستحيل تجزئتها ايضا ... ان **الارادة اما ان تكون عامة او ان تكون غير عامة ، بمعنى اما ان تكون ارادة الشعب باكمله او ارادة جزء منه** ... وفي الحالة الاولى تصبح الارادة التي يعبر عنها من قبل السيادة قانونا، اما في الحالة الثانية فلا تعدو

(١٤) Ibid. II, 4 (45-48)

ان تكون ارادة متخصصة ، او فى عمل من اعمال الحكم او وسيلة من وسائل تطبيق الاوامر التى يصدرها الشعب صاحب الحق فى صنع القوانين » (١٥) .

ويقود ذلك بشكل طبيعى الى **الخاصية الثالثة** التى تتمتع بها السيادة . فعند روسو ان الحاكم هو اصل القانون ومصدره بمعنى ان القانون لايكون صحيحا الا اذا صدر عن الارادة العامة اى منبثقا من الشعب ومنصبا فى الوقت نفسه على الصالح العام .

وفى وسع المرء ان يلمح هنا نقطة اساسية . فالقرارات التى تاتى عن غير هذا الطريق مثل تلك التى قد تصدرها هيئة ما او مصلحة او ما الى ذلك من المؤسسات والتنظيمات لاتمثل قانونا او عملا من اعمال السيادة ، وانما هى عمل او وسيلة فحسب من وسائل الحكم والادارة . كما انها فى اعلى حالاتها لاتعدو ان تكون اعلانا او قرارا من القرارات . وهذه مسالة تعكس المدى الذى اقتربت فيه افكار روسو فيما يتعلق بالقانون من الافكار الحديثة الخاصة بالقانون الدستورى الذى ينظم طرائق اداء الادارة لوظائفها .

على ان هذه النظرة للسيادة باعتبارها مقدسة ولا تقبل التصرف يترتب عليها امر خطير . فاتساقا مع هذه الخصائص التى عرضناها يبدو روسو منطقيا مع نفسه عندما اعتقد ان السيادة لابد وان تكون مثالية وواقعية فى ان واحد معا . فاذا اضفنا الى ذلك اعتقاده الراسخ ان « القانون لايصدر الا عن ارادة مجموع الشعب اى الارادة العامة » **وانه ميز فى ذلك بين هذه الارادة وارادة** المجتمع من حيث انهما لاتتطابقان ابدا، فيكون من الطبيعى الان ان ينتهى الى الموقف الذى انتهى اليه وهو **تفضيله للديمقراطية المباشرة التى اعتبرها افضل اشكال الحكم قاطبة(١٦).**

وتتضح لنا هنا فى تفكير روسو حقيقة اساسية . فهذا التمجيد للديمقراطية المباشرة يدل فى نظرنا على امر له دلالته وهو ان روسو كان يضمر سوء ظن بالغا بالنظام النيابي . وصحيح انه كان يشك كثيرا فى وجود الديمقراطية المباشرة أو حتى فى امكان وجودها بالمرة ، ولكن الصحيح ايضا انه لم يحاول ابدا ان يخفى تهجمه على النظام النيابي الذى كان يعتبره دليلا على الفساد السياسي وابعد مايكون عن الكمال الديمقراطي، وذلك لدرجة ان اعتبره نقيضا للديمقراطية . (١٧) ففي اعتقاده ان المجلس النيابي الذى يعين اعضاؤه بالانتخاب فينظر لهم على انهم ممثلين للأمة صاحبة السيادة لايمثل صاحب السيادة فى شيء ، لانه نزولا على الخاصية القائلة بان السيادة لايجوز التصرف فيها ، فان نواب الشعب لايستطيعون أن يكونوا ممثلين بحق له ، لانهم ليسوا اكثر من نواب فحسب .

---

(١٥) Ibid, II, I. (49) and II, 2 (40-41)

(١٦) يصنف الكتاب عادة الديمقراطية فى نوعين :الاول الديمقراطية المباشرة او المحضة ، والثاني الديمقراطية النيابية او التمثيلية . وفى الديمقراطية المباشرة نظام للحكم يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه عن طريق الاجتماع فى جمعيات عمومية او اجتماع عام مثلما كان الحال فى المدن الاغريقية . ولا يتحقق هذا النظام الا فى الجماعات السياسية الصغيرة باعتبار ان تحققه امر مستحيل فى الدولة الحديثة المترامية الاطراف . اما الديمقراطية النيابية او التمثيلية كما يطلق عليها عادة فهي النظام السياسي الذى تصاغ فيه ارادة الدولة ويعبر عنها بواسطة وكالة هيئة صغيرة نسبيا من الاشخاص المنتخبين ليكونوا ممثلين للشعب . (انظر فى ذلك Ford, .H J; Representative Government, 1934. p. 3.

وانظر ايضا : محمد طه بدوى . فلسفتنا السياسية الثورية، منشأة المعارف . ١٩٦٤ . صفحة ١٢٤ ومابعدها .

(١٧) G, Peter ; The Dilemma of Democratic Socialism. E. Bernstein's Challange to Marx, Columbia University Press N. Y. 1954. P. 247.

وليس من شك فى انه يرجع لروسو جانب كبير من الفضل فى انتباه كثير من الفلاسفة والمفكرين الى هذه الناحية . فعلى الرغم من ان الحياة الدستورية قد أصبحت اليوم تقليدا عميق الجذور ، فلم يمنع ذلك ـ حتا ـ بعض المفكرين من امثال لاسكى Laski وولاس Wallace وج.د.هـ.كول G. D. H. Cole وغيرهم من ان يظهروا عدم ثقتهم بالاساس التى تتبنى عليه الديمقراطية النيابية (١٨) باعتبار أن هذا الأساس يشوبه الكثير جداً من النقص الذى يجعل الديمقراطية ـ على الاقل فى مفهومها الغربى الحديث ـ عاجزة حقيقة وعملا عن حل قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم أو بمعنى ادق قضية التناقض بين السلطة والحرية (١٩) .

• • •

اذا كنا قد وصلنا الى هذا المدى فى اختبار آراء روسو فانه يبقى لكى نفهم طبيعة نظريته فى الاجتماع السياسى ان نرى عن كثب مفهومه للحكومة والصفات التى يخلعها عليها. واول ما يلزم ان نؤكد عليه بهذا الصدد هو ان دولة روسو هى من غير شك دولة الشعب باعتبار انه وضع السيادة فى يد الكل . واذا **اخذنا منه ذلك فى الاعتبار فلا بد ان يستتبعه** بالضرورة ان يكون صاحب السيادة شيئا والحكومة شيئا آخر .

ولقد كان هذا التمييز بمثابة الركيزة التى بنى عليها روسو تصوره للحكومة . واذا اردنا ان توضح ذلك بطريقة أسهل لامكن القول بأن الحكومة بالنسبة الى روسو ليست اكثر من **كونها وكيلا بين الشعب باعتباره صاحب** السيادة ، وبين الشعب باعتباره موضوعا او رعية . اى انها اداة اتصال او هى العضو **الذى يعبر به الشعب صاحب السيادة** عن ارادته ويصنع بواسطته التغيرات التى يريدها فى العالم الخارجي او بتعبير روسو نفسه هى جسم أو وكيل لتامين الاتصالات الحيوية الدائمة .. انها المسئولة عن تنفيذ القوانين وتامين الحرية السياسية والمدنية .. وهكذا فان الحكومة او الادارة العليا ، كما اود ان اعبر عنها ، هي الممارسة الشرعية للسلطة التنفيذية ، سواء تحمل مسئوليتها الحاكم نفسه او ثانية ، فردا كان او جماعة .. (٢٠) وهو تحديد ساعده على اى الاحوال فى تصنيف اشكال الحكومة كما رآها. وفى رأيه ان الحكومات ايا كان تنوع اشكالها فيمكن ادراجها تحت ثلاثة انواع : **هي اولا** حكومة يضطلع فيها الشعب او الغالبية العظمى من الشعب باعباء الحكم ، بمعنى ان يصبح المواطنون او غالبيتهم حكاما يتولون المناصب والوظائف العامة التي تقوم الحكومة بها وهي ما اطلق عليه الحكومة الديمقراطية. **وثانيا** الحكومة الارستقراطية حيث تكون شئون الحكم فى ايدى عدد قليل من المواطنين الذين يصلون الى السلطة عن طريق الانتخاب او طريق التمييز اما فى الثروة او النفوذ او المولد . **وثالثا** فقد تتركز الحكومة ـ او عملية الحكم بمعنى ادق ـ فى يد حاكم واحد يعتبر الامر الناهى والمرجع الوحيد فى توزيع كل السلطات والمسئوليات على الاخرين وهذه هى الحكومة الملكية .

ومع ذلك فينبغي ان نشير الى ان روسو لم يتردد فى توكيد ان الفيصل الاخير فى شرعية

---

(١٨) انظر مقالتنا عن « جراهام ولاس » مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الثانى ، يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر ، ١٩٧٧ ص ٢٢٥ ـ ٢٥٥ .

(١٩) Laski, H; **Liberty in the ModerJ State**, New Edition, George Allen & Unwin, Ltd., London, 1948.

(٢٠) Contract Social, III. I. (64-65)

الحكومة او عدم شرعيتها انما يقوم في الطريقة ذاتها التي تجيء بها كان تكون منتخبة او غير منتخبة . وغني عن البيان ان اسوأ انواع الحكومة ماكان وراثيا لأن صفة الشرعية تنتفي تماما من مثل هذا النوع .

وهكذا ادان روسو كل أنظمة الحكم التي كانت قائمة في ايامه ودمغها بالخديعة والزيف وعدم الشرعية . وكان قوله بالعقد بمثابة الدعوة او الطريق للخلاص . والحقيقة ان مظاهر الجرأة التي تضمنتها فلسفته وايضا الروح الفياض الذي عبر به عن افكاره كانت كلها عوامل ساعدت على أن تجد هذه الآراء صدى في العقول وفي القلوب . وعلى الرغم من كل العنت الذي لقيه في حياته فلم يمنع ذلك ابدا ان مثلت افكاره عالما جديدا يتطلع اليه الذين يسعون الى حياة افضل ، وان تظل نظريته في العقد محتفظة بشبابها وبنفوذها وقتا طويلا بعد وفاته ، حتى ان كثيرا من الدول خاصة الولايات المتحدة استلهمت بعض جوانبها وبعض روحها وهي تخطط لسياساتها . كما اعتبرت النظرية كذلك الروح المحرك للثورة الفرنسية التي تغنت بشعارات الحرية والاخاء والمساواة .

ولكنا نلاحظ ، من جهة أخرى ، ان نظرية روسو لم تسلم مع ذلك ـ مثل اي عمل آخر عملاق ـ في اي وقت من الاوقات من النقد والهجوم والتجريح .

ولعل اول ما يطرأ على الذهن ونحن نحاول الحديث في هذا هو ما وجه الى الاساس السيكولوجي نفسه الذي بنى عليه روسو نظريته . ومن المسلم به ان القول بصحة نظرية ما او بعدم صحتها لا يعدو أن يكون في آخر الامر مسألة نسبية محضة ويعتمد الى ابعد حد على ما اذا كانت نظرة المفكر الى الطبيعة البشرية صائبة .

ولسنا نقصد بذلك الى القول بان كل ما ذهب اليه روسو في الطبيعة البشرية كان خاطئا او غير صحيح ، وانما نحن نعتقد فحسب ان روسو لم يستطع بوضوح ان يضع الانسان في مكانه الصحيح لا من حيث ما ابنه في الطبيعة البشرية ، ولكن فيما الكره بالنسبة اليها وذلك عندما اكد تاكيدا زائدا على طهارة الانسان وطيبته ونقائه . فهنا لم يفعل روسو في الحقيقة سوى ما فعله مفكر اخر مثل هوبز عندما اعطى صورة للطبيعة البشرية اقل ما توصف به انها صورة مقيتة ، وكان ذلك عندما راى الانسان مخلوقا شريرا وفاسدا . واذا كانت نظرة هوبز هذه قد جانبها الصواب الى حد بعيد لانها تجاهلت غرائز التعاطف والاجتماع وغيرها من الميول الفطرية التي تدفع الانسان الى المشاركة والحوار ، فانه يمكننا بالقياس نفسه ان نقول ان روسو قد وقع في الخطأ ذاته وانما من الناحية المقابلة عندما عجز عن ان يرى في الانسان الا انه مخلوق طيب متجاهلا ما يعتمل في اعماقه من غرائز حب الذات ومجموعة الميول والدوافع المتعلقة بنزعات الكفاح والعدوان وما اليها ..

غير أن روسو اضاف من غير شك عناصر جديدة لنظرية العقد . ولا جدال في أن تصور الارادة العامة كان اهم هذه الاضافات جميعها ليس لكونه التصور المحوري في نظريته فحسب ، ولكن ايضا لانه التصور الاكثر اصالة والاكثر اثارة في كل ما افاد به النظرية السياسية بوجه عام .

ان ماهية العقد الاجتماعي تتمثل في أنه ما يحدد الواجبات المتقابلة وما يقوم بين الافراد من صلات ونظم وعلاقات تتضمن في جوهرها فكرة العدالة . ولكن هل صحيح أن العقد قادر على انجاز ذلك وتحقيقه وبالتالي حفظ الكيان السياسي وحمايته ؟

ومن الواضح ان هناك صعوبة حقيقية امام هذا التساؤل لانه يمس مسا مباشرا كل جوانب

المشكلة الاجتماعية . ومع ذلك فهنالك حقيقة أساسية يجب الالتفات اليها ، وهى ان مفهوم العقد وان كان قد قام كحجة لحماية الفرد والوجود الفردى ضد المجتمع، فمن الممكن استغلاله فى الوقت نفسه ، وربما بالقوة ذاتها لخدمة الغاية المضادة . واذا نحن ربطنا ذلك بفكرة العدالة تبدت لنا المشكلة فى كيفية التوفيق اذن بين آثار مبدأ الجماعة الذى يدعى العقد انه يعبر عنها ، وبين مبدأ الحكم الصالح الذى يتضمنه مصطلح العدالة بما ينتج اكبر قدر من الخير العام .

• • •

وباستعراض **المواقف**المختلفة لفلاسفة العقد **من هذه القضية نجدها** متمايزة بشكل**ملحوظ .** فعلى حين آمن البعض بالسلطة المطلقة بكل ما يترتب عليها من انتفاء كامل لحقوق الافراد، فقد عارض البعض الآخر ذلك بكل قوة ووقف ضد اى تسلط او تدخل على اية صورة من الصور ، بينما اكتفى آخرون باتخاذ موقف وسط فسلموا بامكانية وجود ازدواجية فى الارادة دون أن يعرض ذلك الخير العام للخطر، بمعنى انهم تركوا فى المجتمع مجالا لكل من حرية الافراد وارادتهم الحرة من ناحية ولفاعلية الدولة وتدخلها من أجل تحقيق الخير من ناحية ثانية . وفى الوقت الذى نجد هوبز **يدافع عن السلطة المطلقة** بكل ما يتضمنه ذلك من اهدار للحرية، ولوك ينادى بالسلطةالمقيدة تاركا بذلك مكانا للحرية فى المجتمع الانساني ، **نرى روسو يمضى فى نص الحرية الفطرية التى** اضاعتها الملكية الخاصة وما يرتبط بها من نظم وعلاقات ، ويتصور انه بدعوته الى عقد يوجد بين الحكام والمحكومين واقامة نوع من الارادة **العامة يودع لديها كل الحقوق انما يعيد الى** الانسان هذه الحرية الضائعة .. فالى اى مدى يمكن لذلك ان يكون صحيحا وصادقا !

لا شك انه على الرغم من كل مايمكن ان يقال من تقديس روسو الرائع للحرية ، فان وصفه للسيادة فى الشعب فى كل الظروف انما يتجه بالدولة لان تصبح دولة شمولية تطغى على الكيان الفردى وتخنقه (٢١) ، وقد يبدو هذا القول غريبا. ومع ذلك فالحقيقة هى أن روسو عندما قال بحق السيادة فى قوة السلطة كان يهرب من المشكلة كلها ، وذلك لسبب بسيط هو ان الاعلاء من شان الارادة العامة لايعنى سوى القول بانها القوة النهائية ، اى انه قد اشهر بذلك جانبا وايده على حساب الجانب الآخر . ومن المسلم به تماما انه حيثما كانت الارادة هى الارادة الحاكمة فان النتيجة المنطقية لذلك لابد وان تكون القوة ، بمعنى أن اصطدام الارادات لايمكن حله فى الواقع الا بانتصار الارادة الاقوى مما يجعل اى مذهب فى الارادة ينتهى الى مذهب فى القوة .

ومن جهة اخرى ، فقد يكون من الصعب التسليم تماما بامكانية ربط هذه الارادة العامة بالدولة الكبرى والكيانات العظيمة . ويرجع ذلك الى انه كلما كانت الدولة اكبر كان دوام الارادة العامة واستمرارها واستقرارها اقل ، حتى ليصبح من المشكوك فيه القول بما اذا كانت مثل هذه الارادة موجودة بالفعل فى الدول الكبرى الحديثة . وذلك بالاضافة الى انه كلما كبرت الدولة واتسع نطاقها ظهرت صعوبة اقامة علاقات عضوية تربط الاجزاء بعضها ببعض والاجزاء بالكل ، مما يشكك بالتالى فيما اذا كان يربط بينهم جميعا اى نفع او خير عام .

وقد يمكن القول فى ذلك ان روسو قد بنى فكرته عن الديمقراطية متاثرا بفكرة **المدينة الدولة** عند ارسطو خاصة عندما اسر الاخير

---

(٢١) Vedel, G : Manuel Elementaire de Droit Constitutionnel, Paris, 1949. PP. 191-193)

على أن الدولة الصغيرة هي الاقدر على الوفاء بمتطلبات اعضائها واحتياجاتهم » (٢٢) بل قد نستطيع الذهاب أبعد من ذلك فنقول ان روسو كان لابد متأثرا بمدينته الاولى ومسقط راسه جنيف مما انعكس في تفكيره وجعله يرتبط سواء شعوريا أولا شعوريا بتصور الدولة الصغيرة التي لم تتسع حدودها بعد .

ولكن هل يكون معنى ذلك ان المشكلة سوف تحل فور ازالة هذا التحديد لحجم الدولة ؟

ان الارجح في رايي هو ان المشكلة ستظل قائمة ؛ لانه سيتعين علينا في هذه الحالة ان نتساءل : وكيف يمكن اذن لهذا التصور ان يخدم كاساس للتنظيم السياسي الديمقراطي؟ او بتعبير آخر الا يصبح ضروريا من ثم العثور على شكل آخر من اشكال التمثيل الديمقراطي ينبني على تصور آخر غير تصور الارادة العامة ؟

ان انصاف روسو يقتضينا ان نقرر انه لم يعتقد في وجود اساس آخر للديمقراطية وانه لم يفكر في امكانية مقارنة التمثيل بوجود الارادة العامة . ومن هنا فقد يبدو منطقيا ذلك الموقف الذى اصر فيه على استبعاد الدولة العظيمة من حسابه وان يجعل الدولة صغيرة الحجم لدرجة تكفي لاقامة ديمقراطيته المباشرة ، وان يمكن هذا التصور مما لايستطيع احد ان ياخذ به الآن على اى الاحوال .

● ● ●

ومهما يكن من امر فمن الضروري ان ننتبه تماما الى هذه الصعوبات جميعها التي تحيط بفهمنا للارادة العامة عند روسو لكي نكون اقدر على انصافه . وايا ما كانت درجة الاتفاق او الاختلاف في الراى فمن الواجب كذلك ان نقترب من فكره دون ان نكون متأثرين بأى تداخل او خلط ميتافيزيقي . او بتعبير آخر نريد ان نقول ان مدخلنا لدراسة فكر جان جاك روسو ينبغي ان يكون من خلال تلك النظرة التي شارك بها جون لوك والقائلة بان الدولة أيا كانت طبيعة تصورنا لاصلها ونشاتها انما توجد لاجل ان تجعل الحياة شيئا طيبا وممكنا لكل البشر الذين يعيشون في ظلها .

★ ★ ★

(٢٢) ذهب ارسطو صراحة الى ان الدولة خلق طبيعي أسبق في الظهور من الفرد والعائلة باعتبار ان الكل أسبق بالضرورة من الجزء ، ومن هنا دحض ارسطو المذهب السفسطائي القائل بان نظم المجتمع نتيجة للعرف والاتفاقات كما حاول ارسطو منذ البداية ان يوضح مفهوم الدولة على أساس ان هذا يساعد في فهم العلاقة سواء بينها وبين افرادها او بين الدول وبعض ، وفي هذا فقد أكد ان الجماعة التي يصل عدد افرادها الى مائة الف نسمة لا تمثل دولة ، مثلها في ذلك الجماعة التي لايزيد عدد افرادها على عشرة آلاف ـ فاقليم الدولة عند ارسطو يجب ان يكون مرئيا لكل عين واحدة . وقد استخدم ارسطو تاكيده ذلك على أساس من الحقائق التي يمكن قياسها من حواس الانسان والذاكرة البشرية . وواضح هنا على اية حال انه كان يؤمن بضرورة صغر حجم الدولة لتكون اقدر على الوفاء بغاياتها واهدافها .

في ذكرى روسو

بقلم : موريس كراستون
ترجمة : بدرية محمد احمد

خلال المائتي عام التى انقضت على وفاة روسو ، أو بالاحرى خلال الـ ٢٢٧ عاما التى مضت منذ نشر مقاله الاول ، خلال كل تلك الاعوام ثار كثير من الخلاف الحاد بين القراء حول ما كان يقصده روسو من كتاباته .

والواقع ان روسو نفسه اعترف بوجود كثير من التناقضات فى كتاباته ، ولكنه كان يشعر بانه لم يكن فى الاستطاعة التعبير عما كان يريد ان يقوله طبقا لقواعد العرض الواضح الصريح التى كان يتبعها فولتير Voltaire وغيره من فلاسفة عصر الاستناره .

* نشر هذا المقال فى الاصل فى عدد ديسمبر ١٩٧٨ من مجلة Encounter تحت عنوان Remembering Reusseau ; A Bicentennal Essay ومؤلف المقال هو الاستاذ موريس كراستون مدير معهد الجامعة الاوربية European University Institute فى فلورنسا ، وكان يشغل منصب استاذ علم السياسه فى مدرسه لندن للاقتصاد London School of Economics فى الفترة بين عام ١٩٦٦ وعام ١٩٧٨ . ومن اهم مؤلفات الاستاذ كراستون **Rousseau's Social Contract** (Peng..in, 1976) ; **Politics and Ethics** (1972) and **the Mask of Politics** (Allen Lane, 1973
وقد راجع الترجمة الاستاذ الدكتور احمد ابو زيد

وقد كان لروسو اتجاهات ومواقف معقدة ازاء ما كان يعتبره قضايا معقدة ومتشابكة ، وربما كان اشد هذه القضايا والمشكلات تعقيدا ، حسب رايه ، المشكلات السياسية.

ويعتبر موقف روسو من المشكلات السياسية في وطنه الأصلي « جمهورية جنيف » احد الالغاز المحيرة .

فعلى الرغم من انه هرب من المدينة وهو في سن السادسة عشرة وانه لم يعد اليها بعد ذلك لأكثر من ايام معدودة في كل مرة ، فانه كان يصف نفسه دائما بكثير من الفخر والاعتزاز بانه « مواطن من جنيف » دون ان ياخذ في الاعتبار انه اسقط حقه في هذه المواطنة حين اعتنق الكاثوليكية في تورينو . وقد كان نموذج الدولة المدينة المتمثلة في جنيف يهيمن على تفكيره في موضوع السياسة ، ومع ذلك فليس بكتاباته سوى القليل الذي يذكره من سياسة جنيف ، سواء في كتاباته المنشورة او غير المنشورة .

وفي عام ١٧٣٧ تفجر الصراع الحزبي في جنيف حتى كاد يصل الى حد الحرب الاهلية ولقد كان روسو الذي كان يناهز الخامسة والعشرين من العمر حينذاك موجودا في جنيف وشاهد بنفسه تلك الاحداث ، ولكن الغريب في الأمر هو ان استجابته لذلك الصراع كان الحياد المطلق ، وكان سبب النزاع هو الصراع الطويل بين الحكومة (التي كانت تسيطر عليها العائلات النبيلة) وبين المعارضة الشعبية التي كانت تسعى لاثبات حقوق المواطنين في مواجهة الامتيازات التي كانت تتمتع بها العائلات الكبيرة ، وقد كان المتوقع من روسو (الذي طالما عبر بقوة وصراحة عن ارائه الجمهورية) ان يقف بصلابة الى جانب الشعب ولكن ذلك لم يحدث على الاطلاق .

ففي الرسائل التي كتبها في ذلك الوقت لم يعبر الا عن شعوره بعدم الرضا عن الفوضى المدنية التي ادت الى منعه من جمع ايراد ارث له . بل وحين عاد بذاكرته الى تلك الاحداث بعد ذلك باربعين سنة حين كان يكتب « الاعترافات Confessions » لم يتكلم الا عن رؤيته لصديقيه صاحب المكتبة جاك باريو Jacques- Barillot وابنه جاك فرانسو باريو ـ Jacques François Barillot وهما يخرجان من نفس المنزل ليحاربا في جبهتين متضادتين ، الاب يحارب الحكومة والابن مع الثوار . « وقد ترك هذا المنظر المفزع انطباعا سيئا للغاية في نفسي بحيث اقسمت الا اشترك ابدا في اية حرب اهلية » .

ثم عقد روسو بعد ذلك في الفصل الذي يتكلم فيه عن الانتخابات في كتابه «العقد الاجتماعي» مقارنة بين جنيف وفينيسيا ليخرج منها بانه لم يكن ثمة اختلافات كثيرة بين الجمهوريتين .

ويقول في ذلك « من الخطا ان نعتبر حكومة فينيسيا ارستقراطية حقيقية ، فعلى الرغم من عدم اشتراك الشعب في الحكومة ، فان النبلاء الفينيسيين يؤلفون هم انفسهم شعبا ، ان اعداد اكبيرة من اتباع الكنيسة البرنابية الفقراء لم يكونوا يرقون ابدا الى مناصب الحكم ، بينما لم يكن « نبلهم » يتضمن شيئا اكثر من لقب « الفخامة » الاجوف الى جانب حق حضور اجتماعات المجلس الاعظم .

ولكن لما كان عدد اعضاء ذلك « المجلس الاعظم » يماثل عدد «المجلس العام» في جنيف فان اعضاءه الموقرين لم يكونوا يتمتعون باية امتيازات اكثر مما يتمتع به مواطنونا العاديون، ولهذا فعلى الرغم من التفاوت الواضح بين حجم كل من الجمهوريتين فان نواب جنيف يماثلون تماما نبلاء فينيسيا ، كما ان مواطنينا يقابلون السكان الحضريين هناك ، وفلاحونا هم بعينهم عمال الاراضي عندهم ، وباختصار فانه باستثناء فارق الحجم فان حكومة فينيسيا

ليست أكثر ارستقراطية من حكومتنا من اية وجهة . والفرق الوحيد هو انه لايوجد عندنا رئيس للدولة يتولى منصبه مدى الحياة ، وبالتالي فاننا لا نحتاج لنفس طريقة الانتخاب الجماعي The Social Contract, Penguin 1968,

هذه الفقرة هي التي اطلق عليها فولتير Voltaire عبارة « الكذبة المنحطة fausseté révoltante بل انه يمكن ان نتخيل مدى السخط الذى اثاره هذا الكلام في نفوس اهالي جينيف ذوى الكبرياء . فاذا كان فولتير دهش لما قاله روسو من ان فينسيا لم تكن اكثر ارستقراطية من جينيف فلا شك انهم دهشوا لما قاله من ان جينيف لم تكن اقل ارستقراطية من فينسيا .

وقد يكون من الخير ان نذكر هنا ان ذكريات روسو عن النظام الاجتماعي في جينيف لم تكن بالسعيدة .

• • •

ولقد ولد روسو لعائلة لها جذورها البرجوازية العميقة وقد وصفها هوبان «اسلوب سلوكها كان يميزها عن سلوك العامة » ولكن والده الذى كان قد تزوج بمن تعلوه في الطبقة الاجتماعية اخذ يتدهور بسرعة، وانتقل بالفعل من المنطقة العالية في جينيف « حيث تقطن عائلات الطبقة الراقية » الى دائرة ابرشية سانت جرفية St. gervais المنخفضة والتى تسكنها الطبقات العاملة .

اما جده دانيل روسو Daniel Rousseau فكان سياسيا مشاغبا وكان يؤيد المعارضة الشعبية ضد احتكار النبلاء للحكم ، والظاهر انه كان يشعر بالارتياح بين جماعات الحرفيين الراديكاليين، وذلك يعكس ابيه اسحاق روسو Isaac Rousseau الذى كان يعتبر نفسه ارستقراطيا سلبت منه حقوقه . ولكنه بدلا من ان ينضم الى الراديكاليين في تبرمهم من ظلم الحكومة عكف على تنشئة ابنه كاحد النبلاء حتى يستمتع بمبادىء ومثل الحكم الجمهورى التي كان المفروض ان جمهورية جينيف تشارك روما القديمة فيها وان يصبح مواطنا بطلا وقد بلغ تعليم الصبى روسو مداه عندما درس على ايدى والده كتابات بلوتارك Plutarch عن حياة الابطال ، ويقول لنا عن ذلك في اعترافاته «لقد اصبحت انتمى لروما قبل ان ابلغ الثانية عشرة » . والواقع ان قراءاته في آمال بلوتارك كانت قد توقفت وهو في سن العاشرة حين اضطرابوه لترك جينيف بعد ان تحدى شخصا اعلى منه في المرتبة الاجتماعية ، ودعاه الى المبارزة ، ولذلك فلم يكتف بالالتجاء الى السيف كما يفعل « السيد المهذب » بل انه استخدمه ببراعة ومهارة حين قيل له بانه لا ينتمي الى فئة « السادة المهذبين » . وترتب على نفى ابراك روسو من جينيف وخروجه بالتالي من حياة ابنه ان اصبح جان جاك روسو مسئولا مع خاله الكولونيل برنار Bernard حيث تربى مع ابن خاله ابراهام Abraham تحت رعاية راعي كنيسة كالفاني في قرية خارج اسوار المدنية .

ومضت الامور على ما يرام حتى حان موعد تحديد مستقبلهما ، وتقرر ان يكون ابراهام ضابطا بالجيش كوالده ، بينما ارسل جان جاك روسو الى حى سان جرفيه البروليتارى ليتدرب على الحفر مع عامل شرس الطباع « كان ابراهام يعيش في الاحياء الراقية اما انا فلم اعد اكثر من ولد بائس يتمرن في سان جرفيه ، وبذلك لم تعد هناك اى مساواة بيننا رغم مولدنا ، اصبح استمرار علاقتنا امرا يحط من قدره » .

(pléiad, vol I, p. 42)

• • •

وكما حدث لوالده فقد غدرت به الدنيا ، وكما حدث لوالده ايضا لم يعد يحتمل الوضع، فهرب هو الآخر من جينيف ، وكان المخرج

الوحيد أمامه هو ان يغير مذهبه الديني ، وقد فعل ذلك في دوقية سافوى على حدود جينيف ، حيث كانت الحركة المضادة للاصلاح الديني لا تزال نشطة على أيدى المبشرين الكاثوليك الذين كانوا يبحثون عن الشبان الهاربين من سويسرا الكالفانية ، ليعملوا على تحويلهم الى الكاثوليكية .

وكانت سافوى لا تزال مجتمعا اقطاعيا ، ولقد لجأ روسو الى الطبقة الارستقراطية هناك ، فذهب في اول الامر الى اسقف كونفنيون Confignon (على ما يذكر هو نفسه لنا) لانه كان يعرف انه يحمل دماء نبيلة .

واثناء تنقلاته بين كونفنيون وانيسي Annecy كان روسو يقترب من اسوار قصور الاقطاعيين وهو يحلم بامكان تكوين صداقات مع صاحب وصاحبة القصر والزواج من ابنتهما ، ويقول روسو انه لم يشعر بأى ميل جنسي نحو فتيات الطبقات الدنيا ، ولم يكن يعجبه الا اللائى يرتدين الملابس الانيقة ويصففن شعرهن بعناية ويمتلكن بشرات رقيقة ، ولقد اساء وصف جميع الفتيات العاملات بل اللائى تعرض لهن في «الاعترافات» وحتى بنات الطبقة الوسطى ايضا لم يحركن فيه اى مشاعر او عواطف طيبة ، وانما كانت احلامه تدور دائما حول فتيات الطبقة العليا ولذا فقد كان من الغريب ان ينتهي به الامر الى ان يعيش مع عشيقة امية تعمل في احدى المغاسل .

ومع ذلك فلم يضع بحثه عن المجتمع الارستقراطي في سافوى ويبدون هباء ، ففي تورينو استخدمه كونت جوفون Comte de gouvon في قصره كتابع ، ثم اتخذه ابن الكونت سكرتيرا له ، وبدأ يعلمه كيف يتذوق الادب .

وعندما عاد الى سافوى استقربه المقام مع المرأة التي احسنت له ومدت اليه رعايتها بحيث اصبحت اماله بالتبنى ، وهى البارونة دى وارين Baronne de Warens وصحيح ان مدام دى وارين لم تكن تشغل مركزا مرموقا في الارستقراطية الاوروبية ، فاللقب الذى تحمله كان حماها قد اشتراه لزوجها مع ضيعته في فود Conton de vaud وقت زواجهما ، ولكن اللقب سقط عنها حين باع زوجها الضيعة بعد ان هجرته وحطمته ماديا، ولم يعد يطلق على نفسه لقب البارون، الا ان التظاهر بانها بارونة كان امرا هاما بالنسبة للدور الذى كانت تلعبه في دوقية سافوى باعتبارها سويسرية مرتدة تساعد في تحول الاخرين الى الكاثوليكية بتعضيد مالي من ملك سارديننيا واسقف انيسي .

وقد كان لمدام دى وارين سمعة سيئة . اذ كانت امرأة مغامرة بغير شك ، كما ان اخلاقياتها الجنسية كانت تتعارض مع وقار الطبقة الوسطى ، ومع ذلك فقد كانت سيدة كريمة جدا وعلى درجة عالية من الثقافة . لقد علمت روسو والواقع انها هى التي زودته بالتكوين العقلى الذى ساعده على ان يصبح الكاتب الذى نعرفه . ولكنها مع ذلك لم تسهم كثيرا في اعداده السياسى ، اذ كان تصورها للسياسة محدودا للغاية ، ولم تكن السياسية بالنسبة لها اكثر من مجموعة من المؤامرات ؛ ومن هنا فقد عملت على كسب المزيد من ثقة ملك سردينيا عن طريق الانغماس في عمليات التجسس ، وعلى اى حال فخلال المدة التى عاشها مع مدام دى وارين في سافوى ، تلك الدوقية التى اصبحت مجرد مقاطعة من مملكة سردينيا يحكمها البيروقراطيون والنظار الايطاليون، كان روسو بعيدا كل البعد عن اى شيء يمكن ان يطلق عليه كلمة سياسة » .

وعلى اى حال فحين بلغ روسو السابعة والعشرين انتقل ليقضى عاما في مكان اكثر

اثارة الفكر ، وهو مدينة ليون فى فرنسا ، وهناك ساعده الحظ فى ان ينخرط مباشرة فى حركة التنوير الفرنسى The French Enlighten ment فقد اصبح المعلم الخصوصي لعائلة مسيودى ما بلى M . de Mably الذى كان له أخان هما ابية دى كوندياك Abbé de condillac الفيلسوف الشهير ، الذى كان يعتبر من اتباع فلسفة لوك Lock وآبيه دى ما بلى Abbé de Mably احد رواد النظرية الاشتراكية . وعندما ذهب الى باريس بحثا عن المال والشهرة وهو فى الثلاثين من عمره اصبح صديقا حميما لدنيس ديدرو Denis Diderot ناشر الانسيكلوبيديا Encyclopédie .

• • •

وقد تحدد تفكير روسو فى السياسة بعد ذلك فى نطاق نوعين من المؤثرات هما خبرته فى الحياة فى احدى الممالك الكبيرة ، واستفادته بالآراء السياسية لفلسفة التنوير ، وان كان ينبغي ان نتذكر انه كان قد درس ايضا فى مكتبه مدام دى وارين اعمال كثير من الفلاسفة السياسيين من امثال هوبز Hobbes ولوك Locke وبوفندورف Pufendorf وبيرلا ماكى Burlamaqui ولكنه ادرك اتجاهاته « الجمهورية » ، وشعر بكيانه كاحد مواطنى جينيف ، وبغربته عن عالم الملوك والامراء اثناء اقامته فى بيت مسيو ما بلى فى ليون .

وقد عبر عن هذا كله فى قصيدة كتبها لاحد اصدقائه فى ليون وهو الجراح باريسو Pairsot وفيها (Pléiade, Vol, pp1136-44) يصف نفسه بانه ولد حرا وانه بفضل مولده كمواطن فى جنيف ، له الحق فى ان يشارك فى السلطة العليا ، وان يكون عضوا فى الهيئة التى تحكم تلك الجمهورية ، ثم يتطرق الى اشياء اخرى كثيرة مثل قوام « لقد تعلمت احترام النباله اللامعة ، وانه ليس ثمة خير فى مجتمع يتضاءل فيه عدم المساواة بين مختلف المستويات » ولكنه يضيف بعاطفة مشبوبه خليقة بالتقدير بانه « بينما ينظر بتواضع الى هؤلاء الذين يعلونه فى المرتبة او نبل المولد فانه يأمل على الاقل فى ان يتساوى معهم فى الفضيلة » .

وبالطبع فليس هناك من يلتزم بالصدق والامانة عند كتابة الشعر ، ولكن هذه الابيات تعطينا فكرة عما كان يشعر به اثناء فترة اقامته المبكرة بفرنسا مصادقا نبلاء ليون . وفى باريس التقى بالنظرية السياسية لجماعة الموسوعيين ، ومن المؤكد ان جميع هؤلاء الموسوعين لم يكونوا يعتنقون نفس الاراء السياسية ، وان كانت النظرية الاساسية التى تميزهم جميعا هى تلك التى عبر عنها فولتير بطريقة معتدلة ، بينما عبر عنها بارون هولباخ d. holbach فى كثير جدا من التطرف ، وهى نظرية الاستبداد المستنير ، وقد تأثر الموسوعيون كثيرا بيكون Bacon (صحيح انهم تكلموا كثيرا عن لوك ، ولكن بطلهم الحقيقى لم يكن لوك ودعوته الى النظام الدستورى المتحرر ، وان كان بطلهم هو بيكون بخطته الجذرية للقضاء على الدين والفلسفة التقليدية واستبدال حكم العلم والتكنولوجيا بهما بقصد تحسين حياة الانسان على الارض ، كان العلم يعتبر هو مخلص البشرية ، وكانت خطه بيكون هى ان يجعل جيمس الاول حاكما مستبدا يسخر قواه المطلقة للحكم باسلوب علمي حسب ارشادات بيكون نفسه ، وكانت هذه هى « البضاعة » التى حاول فولتير وهو لباخ ود يدور بيعها للملوك الآخرين ، مثل فريدريك الثانى فى بروسيا ، وكاترين

العظيمة في روسيا . ولم يصادف بيكون اى نجاح في انجلترا حيث كان الناس يتمتعون بعقلية سياسية متمسكة بحقوقها المدنية وبالقانون والبرلمان ، لدرجة يستحيل معها التحول الى اى نظام استبدادى . اما في فرنسا حيث لم تكن هناك هيئات انتخابية ولا حريات فقد كان لمبدأ الاستبداد المستنير خاصة جاذبيته الشديدة بالنسبة للعقلية البورجوازية ، وقد كانت سياسة الاستبداد المستنير في نظر فولتير على اية حال تتفق اتفاقا تاما مع مصالح البورجوازية ، كما انه كان يعتبر الكنيسة وطبقة النبلاء اكبر اعدائه .

• • •

عندما وصل روسو لباريس اول مرة عام ١٧٤٢ يحدوه الامل في كسب الشهرة والثروة وكان في الثلاثين من عمره ، وقع هو وصديقه ديدرو في هذا الفيضان من ايديولوجية التنوير والتطلعات البورجوازية ، والتي لم يلبث ان ابتعد عنها ورفضها كجزء مما اسماه « بالاصلاح » ثم بمرحلة هامة جدا في تكوينه السياسى ، وذلك حين عمل لمدة سنة بين سن الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين سكرتيرا للسفير الفرنسى في فينيسيا الكونت دى مونتاجى Comte de Montaiqu ومع انها لم تكن تجربه سعيدة بأى حال الا انها كانت مفيدة للغاية .

وقد كان السفير الفرنسى ضابطا كبيرا متقاعدا، ولكن لم تكن له اى مؤهلات أو قدرات دبلوماسية ، وكان روسو يتصف بالكفاءة وسرعة الخاطر والذكاء ، كما كان يجيد اللغة الإيطالية ، ولذا القيت عليه اعباء سكرتارية السفارة ، وذلك في فترة كان يتطلع فيها الى النجاح ويسعى الى المجد والثراء .

اشترى روسو لنفسه ملابس باريسية انيقة ، وتخيل نفسه احد رجال السلك الديبلوماسى ، وانه يمارس مهنة ارستقراطية في خدمة اعظم ملك في اوروبا ، ولكن لم تكن هذه هي نظرة السفير اليه ، اذ كان يعتبره « كاتب » خاص له لا يعلو مركزه الا قليلا عن مركز الوصيف .

ولم يكن « صاحب السعادة » بالرجل السهل الهين ، ولذا كان يتملكه الغيظ حين كان روسو يتصرف كما لو كان زميلا له بالسلك الديبلوماسى ، كان يمد جسمه بعظمة على مقاعد السفارة او يطلب ان يوضع قارب (جندول) السفارة تحت طلبه . ولقد تبادل الرجلان الكلمات اللاذعة ، وقبل أن يمر عام كان روسو قد طرد من عمله بطريقة مهينة للغاية ، ولكنه كان على اى حال قد امضى من الوقت ما يكفى لمعرفة كيف كانت فينيسيا تحكم ، وليبدأ في تاليف كتابه عن « النظم السياسية » وهو الكتاب الذى ادى الى نشر كتابه « العقد الاجتماعى » فضلا عن توفير الوقت له للتعرف على الاوبرا الإيطالية وتذوقها .

ومن ناحية اخرى ، فان حظ روسو تبدل تماما بمجرد عودته الى باريس ، فقد وجد وظيفة طيبة كسكرتير عند عائلة اقطاعى واسع الثراء يدعى دوبان Dupin عاش معهم في اجمل قصور فرنسا على الاطلاق وهو قصر شينو نصو Chenononceaux وقام بنشر عدة اعمال عن الموسيقى ، كما الف بعض الاوبرات والباليهات ، وكتب عددا من المسرحيات ، بل انه قام باعداد احد اعمال فولتير للمسرح . والواقع انه كان يسير قدما في طريقه لتحقيق المجد والثراء اللذين كان يامل فيهما بوصفه احد مفكرى عصر التنوير ، وانه يعيش في كنف المجتمع الباريسى البورجوازى الثرى الذى فتح له ذراعيه .

• • •

وحين بلغ روسو السابعة والثلاثين اعتراه ذلك « الالهام » الشهير الذى جعله يغير اسلوب حياته تماما ، فكل من قرأ « الاعترافات » لابد وان يتذكر القصة التى سردها عن زيارته لديدرو فى قانسيه Vincennes حيث كان ديدرو مسجونا انذاك واكتشافه اثناء الطريق اعلانا عن جائزة تمنح فى ديجون Dijon لمن يكتب مقالا حول اذا ما كان احياء العلوم والفنون قد اسهم فى تحسين اخلاقيات الانسان ، وادراك روسو بسرعة ان هذا التقدم قد ادى على العكس من ذلك الى افساد هذه الاخلاقيات . ولم يكن روسو يستطيع عند هذا الحد ان يسيطر على نفسه ، فضلا عن ان يواصل السير فجلس تحت شجرة واخذ فى البكاء .

وكانت النتيجة كتابة « مقال » عن الموضوع نال عليه جائزة ديجون التى اكسبته شهرته الخالدة . وقد شجعه ديدرو على دخول المنافسة ، ولكن المقال كان هجوما مدعما بالاسانيد على كل ما كان ديدرو يؤمن به ، وعلى كل ما كانت « الموسوعة » تهدف الى نشره والارتقاء به . ولم يخرج ما قاله روسو فى هذا المقال عما كان غيره قد قالوه من قبل ، ولكن ليس بمثل بلاغته ، وذلك فضلا عن تزمتهم ورجعية آرائهم بينما كان هو احد اعضاء جماعة « الانسكلوبيديين » ومن اهم الذين اسهموا فى ذلك العمل الذى اشرف ديدرو عليه .

• • •

كان شيئا ملحوظا ان يهاجم احد الراديكاليين افكار بيكون ، اذ ذهب روسو الى ان العلم سيؤدى الى دمار الانسانية ، وليس الى انقاذها . وان التقدم ما هو الا مجرد وهم ، او ان تطور الثقافة الحديثة لم يجعل الانسان اكثر سعادة ولا اكثر شرفا . فالفضيلة ، حسب رايه ، لا توجد فى المجتمعات البسيطة حيث يعيش الناس حياة البساطة البعيدة عن التعقيد ، بينما افسدت الثقافات الاكثر تعقدا حياة الانسان ، فكلما زاد التعقيد زاد الفساد ، وقد استعان روسو بآراء افلاطون ليعضد قضيته أو لم يكن افلاطون هو القائل بان المعرفة العلمية ليست معرفة على الاطلاق ، وانه هو الذى نفى الشعراء والفنانين من الجمهورية الفاضلة؟

وكانت كل هذه الحجج فى نظر ديدرو — وهو رجل مرح ومتسامح — مجرد مناقضات مسلية ، ولا ينبغى اخذها بجدية تامة ، ولكن كان من الواضح ان اى شخص يأخذ هذه الامور مأخذ الجد لم يكن يستطيع ان يستمر فى نفس الوضع الذى وضع روسو نفسه فيه كاحد منظرى حركة التنوير من ناحية ، وكباحث عن المجد والشهرة من الناحية الاخرى . ولذا لم يكن ثمة مناص من حدوث تغيير جذرى فى حياته ، وبخاصة بعد فوزه بجائزة ديجون وذيوع افكاره بين الناس . وكانت اول خطوة اتخذها هى الاقلاع عن طموحه فى تكوين ثروة ، وترك الوظيفة التى كان يشغلها فى مكتب صديقه الثرى دوبان دى فرانكرى Dupin de Francueil وهى وظيفة كانت ستضمن له انتفاخ جيوبه بالمال ، ولابد ان روسو كتب اثناء هذه الفترة واحدا من اقل مقالاته شهرة ، واكثرها امتاعا وهى « مقال عن الثروات Discours sur les richesses » .

وتوجد هذه المقالة ضمن مخطوطات روسو فى المكتبة العامة بنيوشاتل Neuchâtel فى سويسرا ، حيث قام بجمع اجزائها احد امناء المكتبة السابقين ويدعى فليكس بوفيه

Félix Bovet مع الذى قام بنشرها عام ١٨٥٣ مع حذف بعض العبارات من طريق صاحب مكتبة صغيرة فى باريس ، ولكن لم يعد طبعها بعد ذلك حتى فى الطبعات التى تدعى أنها تضم أعمال روسو الكاملة ، أما المقال فهو حديث موجه لشخص يدعى كريسوفيل Chrysophyle (وهو روسو نفسه بدون شك)ويقوم على محاولة اقناعه بالتنازل عن مشروعاته لتكوين ثروة ، ونعلم من المقال ان كريسوفيل هذا يرغب فى ان يصبح غنيا لتكون لديه الوسيلة للعمل على مافيه خير العالم ، اى انه سيستخدم ثروته لتخفيف الام اخوته فى البشرية الذين كانوا اقل منه حظا فى الحياة ، ويدعى الكاتب ان هذا المشروع هو من المشروعات التى لا يمكن تحقيقها بحال ، اولا لان الانسان الفقير سيجمع ثروته عن طريق ادخار كل مليم يحصل عليه ، وهو ما يتمى فيه صفة البخل ، وهذا معناه انه لكى يستعد للمستقبل البعيد ، حيث يعطى بغير حساب ، فانه يتعين عليه ان يكون غليظ القلب ولا يسمح بالجود والعطاء ، وحين يقترب فجر هذا المستقبل البعيد ، ويصبح هذا الشخص ثريا ، فانه لن ينظر للعالم من منظور الرجل الفقير .

فالانسان الفقير يدرك شرور الفقر لانه فقير ، ولكن حين يصبح غنيا فلن يكون هناك ما يجعله يشعر بهذه الشرور والمتاعب . ، ثم ما هى الوسائل التى سوف يتمكن بها من تكوين تلك الثروة ؟ فقد يمكن للرجل الفقير أن يكون امينا ، كما يمكن للشخص الذى ولد غنيا ان يكون امينا ، ولكن من الصعب جدا ان يظل المرء امينا اذا كرس حياته لجمع الثروات ، لان اسهل الطرق للحصول على الربح هى فى العادة اقلها اعتمادا على الاخلاقيات وعليه توصل روسو الى ان فكرة ان يصبح المرء ثريا ليعمل الخير هى فكرة مستحيلة ،لان المجهود الذى سيبذل فى تكوين الثروة سيحرم الشخص من الرغبة فى الاحسان ، بمجرد اكتسابه القوة الكافية لفعل ذلك .

ومن المهم ان نلاحظ ان هذا المقال ليس هجوما على الثروة الموروثة ، ولا على قيم الارستقراطية ، بقدر ما هو هجوم على البورجوازية الطموحة ، التى تميل الى الاستيلاء على كل شىء وعلى الناس الذين صاحبهم روسو فى سنوات حياته الاولى فى باريس من امثال عائلات دوبان وبوبلينير Poplinères وبالطبع على مفكرى البورجوازية الاغنياء ، امثال هولباخ وفولتير والذى يدعونا الى الاعتقاد بان روسو كان يوجه المقال لنفسه هو ، انه كان حتى ذلك الحين يعتبر محاولات لجمع المال على انها وسيلة تهدف فقط الى تقديم المساعدة المالية للسيدة التى رعته من قبل ، وهى مساعدة السيدة الفاضلة مدام دى وارين . وذلك فى سنوات مرضها وحاجتها ، فلم يكن روسو يرغب قط فى جمع المال لنفسه .

ويذكر لنا روسو فى الاعترافات انه فى فبراير ١٧٥١ ، نبذت الى الابد كل افكارى من الثراء والتقدم فى العالم » Pléiade, Vol. 1, P. 362 » ولكن مما يدعو للسخرية انه بمجرد ان نبذ تلك الافكار عن جمع الثروة اكتسب شهرة واسعة ، ولم يكن هذا بسبب كتابته لمقال الفنون والعلوم الذى نال عليه الجائزة ، بقدر ما ترجع الى كتابته فى الموسيقى او بالاحرى الى قيامه بالدور الرئيسى فى الجدل الذى ثار حول الموسيقى ، والذى الهب باريس فى اوائل الخمسينات من القرن الثامن عشر 1750 وكان غريمه هوجان فيليب رامو Jean- Ph lpe Rameau .

• • •

ولد رامو في ديجون Dijon عام ١٦٨٣ وبهذا كان اكبر من روسو بنحو ثلاثين عاما . وبعد ان درس الموسيقى في ايطاليا وتنقل في عدة مناصب كعازف أرغن في الكنيسة في مناطق مختلفة من فرنسا حتى بلغ التاسعة والثلاثين ثم استقر في باريس ولمع اسمه مع مؤلفه عن « دراسة في تناسق الالحان » وقد جذب هذا الكتاب اهتمام عائلة بوبلنيير Poplinière وهم من اغنى رعاة الفنون من البورجوازيين ، وقد ساعدت هذه الرعاية رامو على ان يكرس كل وقته للتأليف . وكان رامو رجلا يثير الضجر والنفور ، ولكن عبقريته كانت من النوع الذى يفرض الاحترام على الجميع ، فقد كان مؤلفا موسيقيا عظيما وناجحا ، وقد كتب نحو ست اوبرات عرضت كلها في باريس في بحر اثنى عشر شهرا (١٧٤٨ — ١٧٤٩) الى ان نجحت مدام دوبو مبادور Madame de Pompadour (التى كانت تكرهه) في قصر اخراج اوبراته على اثنين في السنة . ولا تزال اعمال رامو تعرض بالطبع حتى الآن وتثير كثيرا من المتعة ، وفضلا عن ذلك فقد كان رامو عازفا وعالما موسيقيا ، وقد وضعته كتاباته عن الهارمونى والجوانب الاخرى من النظرية الموسيقية على راس المتخصصين في هذا العلم في اوروبا ، اذ كان على درجة من التعليم والمهارة الفنية اعلى من جميع علماء الموسيقى في عصره .

والواقع ان روسو نفسه اشار اشارات قوية جدا الى اعمال رامو في المقالات التى كتبها عن الموضوعات الموسيقية «الموسوعة» تماما مثلما اعتمد على الاعمال المنشورة لهذا الاستاذ الفرنسى العظيم ، في محاولةالتعليم أصول النظرية الموسيقية . بيد ان الاحترام بينهما لم يكن متبادلا ، اذ كان رامو يعتبر روسو مشعوذا دجالا وجاهلا باصول الموسيقى ، ولما كان رامو لا يعرف اصول اللباقة فانه لم يكن يتردد في ان يعلن هذا الرأى بصراحة .

الا ان رامو وجد في روسو خصما اكثر عنادا مما كان يتوقع ، فعندما اشتبك الاثنان في ذلك الجدل حول الموسيقى كان يبدو لاول وهلة انهما غير متكافئين ، على اعتبار ان رامو كان عالما بارزا بينما كان روسو هاويا علم نفسه الموسيقى بنفسه ولكن النزاع لم يكن موسيقيا فحسب بل كان ايضا أيديولوجيا ، ولذا فقد استطاع روسو ان يصمد بكفاءة امام رامو ، واذا كان هناك فائز فقد كان هو روسو بالتأكيد .

بل وحتى في مجال الموسيقى فقد اثبت روسو انهمنافس حقيقىلرامو فعندما عرضت اوبرا روسو «عراف القرية le Devin du village » في فونتنبلو Fontainebleau في اكتوبر ١٧٥٢ رغم كل محاولات رامو لاسقاطها لقيت كثيرا من الحظوة والمكانة لدى الملك والبلاط ، ثم اصبحت فيما بعد ذات شعبية جارفة في اوبرا باريس . الا أن العمل الذى ثبت اقدام روسو كمنافس رئيسى لرامو في تلك المساجلة الموسيقية في الخمسينات من القرن الثامن عشر كان مقال بعنوان « خطاب عن الموسيقى الفرنسيه Lettre sur la musiqufrançaise » الذى ظهر في عام ١٧٥٣ ، وقد اثارت هذه المساجلة الموسيقية ، التى كانت تسمى احيانا « معركة المهرجين La querelle des Bouffons » لانها كانت بين عملاقين يمثلان مدرستين مختلفتين للاوبرا .

والواقع ان روسو يزعم في (الاعترافات) ويكثير من الجراة ان ذلك النزاع حول الموسيقى ساعد على تحويل اذهان الناس عن الازمة الدستورية الناشبة بين الحكومة الملكية

وبرلمان باريس ، وبالتالى منع نشوب ثورة .

وقد ظهر رامو فى هذا النزاع مدافعا ومؤازرا للاوبرا الفرنسية ؛ بينما وقف روسو فى صف الاوبرا الايطالية ، ولم تكن الاوبرا الفرنسية فرنسية فحسب ، وانما كانت اوبرا ملكية واكاديمية وعقلية وعلى درجة عالية من الرقى ، ويرجع ذلك التعقد الى تاثرها بالتقليد الديكارتى عن سمو الرياضيات والتنظيم العقلانى ؛ كما انها كانت تعكس قيم النزعة الكلاسيكية الفرنسية فى القرن ١٧ ، كما كان التناسق هو اهم عنصر فى تكوينها الصعب المعقد . كما كانت بالاضافة باهتمامها باظهار المثاليات البوربونية تهتم بابراز المثل البوربونية من المجد ، وهي المثل التى تصدق فى اظهار عظمة الملوك كما لو كانوا آلهة ، فكانت الكائنات العليا تصور على المسرح فتستقبلها الموسيقى الرائعة التى تخاطب العقول السامية ، او التى كانت تثير بضربات الطبول والنحاسات الاحاسيس العسكرية ، باختصار كانت الاوبرا الفرنسية تخاطب الاذن بنفس الطريقة التى يخاطب بها قصر فرساى العين . وعلى اية حال فاننا نتكلم هنا عن عام ١٧٥٢ عندما كان اسلوب فرساى الفخم قد بدأ يفقد سيطرته على مشاعر الفرنسيين وقد كان رامو نفسه مجددا مبدعا ؛ وقد اضفى حياة جديدة على الاوبرا الفرنسية خلال الثلاثينات من القرن الثامن عشر ، وذلك عن طريق ادخال قدر كبير من الرشاقة (والحبكة) على مؤلفاته وبزيادة عناصر الرقص التي كانت تنقص الاوبرا الفرنسية قبل ذلك ، وبصفة عامة عن طريق نقل الموسيقى الفرنسية من القرن ١٧ الى ١٨ وحين اتم هذا كله اصبح المدافع المتحمس الاول عن التقاليد الموسيقية التى طورها بمثل هذا النجاح .

ولقد ساعد تصدى روسو للدفاع عن الاوبرا الايطالية ضد الاوبرا الفرنسية على أن يكتسب درجة من الدراية بالموسيقى الايطالية لم تكن تتوفر لمعظم الفرنسيين ، وذلك لانه كان قد سمعها وهو مازال صبيا فى السابعة عشرة من عمره ، اثناء تجوله فى تورينو حين كان ملك سردينيا يشجع على عزف روائع الموسيقى الايطالية كوسيلة لتجميل عاصمة ملكه ، وفتح أبواب كثير من الحفلات امام الجميع وحين كان روسو يعمل بالسفارة الفرنسية فى فينيسيا كان له حق الدخول بالمجان لمعظم دور الاوبرا ، وكان هناك فى ذلك الوقت اثنتا عشرة دارا للاوبرا فى فينيسيا ، مقابل واحدة فقط فى باريس .

• • •

ولكن كيف كانت الاوبرا الايطالية تختلف عن الفرنسية ؟!

اولا : وقبل كل شيء بينما كانت الاوبرا الفرنسية تكشف عن درجة عالية من السمو والفخامة كانت الاوبرا الايطالية ذات طابع شعبى واضح ، اذ كانت موسيقاها حالمة وبسيطة ؛ يمكن لاى شخص أن يتغنى بنغماتها ؛ بل الواقع ان الناس كانوا يتغنون بها بالفعل فى كثير من الاماكن مثل فينيسيا ونابولى ؛ كما كانت موضوعاتها متواضعة ومألوفة . فالاشخاص الذين كانوا يظهرون على المسرح كانوا افرادا عاديين اكثر منهم آلهة . مثال ذلك اوبرا « السيدة الخادمة La serva padrona لبر جوليزى Pergolesi التى أعدها روسو بنفسه للنشر فى باريس .

فقد عرضت أولا فى نابولى عام ١٧٣٢ فى الوقت الذى لم يكد مسرح باريس يكف

تجديدات وابداعات رامو . وتدور هذه الاوبرا الرقيقة على شخص اعزب من نابولى يقع نتيجة للخداع فى حب خادمته ، ولكن الامر ينتهى نهاية سعيدة بالزواج منها . والمغزى من هذه القصة هو ان الخادمة ، ليست اقل من سيدتها فى شىء ؛ ولكن الامر يحتاج من الرجل ان يفتح عينيه .

هذه الرسالة التي تدعو للمساواة ، والتي تحملها اوبرا بيرجوليزى ، اثارت الفرع بين الاوساط المحافظة فى باريس . والواقع ان طرق النزاع فى « معركة المهرجين » اتخذا موقفهما منذ البداية على اسس ايديولوجية متمايزة ، بحيث نجد الفريق الذى كان يدافع عن الاوبرا الايطالية كان يضم معظم العناصر الليبرالية والتقدمية،ومن بينهم«الموسوعيون» وكان هؤلاء جميعا على استعداد لان يتقبلوا كل ما هو جديد ، واكثر ديمقراطية ، وكل ما من شأنه ان يساعد على الابتعاد عن الميتافيزيقا الديكارتيه ،ومن تقديس البوربونيه لفكرة المجد ، التى يدافع عنها المحافظون .

ومما يدعو للسخرية ان يبدو روسو رئيسا للصف فى جماعة التقدميين ، فى نفس اللحظة من حياته التى كان مقاله عن الفنون والعلوم يعلن رفضه ونبذه لكل الفلسفة التقدمية . ولكن يجب أن نتذكر انه بينما كان روسو يعارض رامو على اسس ايديولوجية ، وكذلك على اسس موسيقية بحتة ، فانه لم يكن يصدر فى ذلك من موقف « **ليبرالي** » بل من موقف رومانسى ، ولابد لنا بذلك من ان نأخذ فى الاعتبار ما كان روسو يقوله بالفعل وليس ما نعتقد انه كان يقوله .

وكان رامو يجادل حسب الاسلوب الديكارتى بأن هناك قواعد ثابتة يمكن تطبيقها على كل التعبيرات الموسيقية ، **بينما كان روسو يرى** ان التوزيع الموسيقى يجب ان يتنوع حسب ما تعبر عنه ، وبهذا فهو يدافع عن الحرية الرومانسية فى الفن ضد الاصرار العقلانى على وجود قواعد جامده . ومن ناحية اخرى فبينما كان رامو يزعم ان « الهارمونى » هو العنصر المركزى فى الموسيقى ، وانه يعكس مبادىء التناغم والتناسق **فى الطبيعة ذاتها** كان روسو يؤكد ان الميلوديا Melody هى ما يهم فى الموسيقى ، بينما لا يعدو الهارمونى ان يكون تكوينا مصطنعا ، بل وايضا «مخيفا» من صنع ذهن المؤلف نفسه .

وهنا تواجهنافكرتان مختلفتان عن الطبيعة، فحينما كان رامو يتكلم عن الطبيعة فقد كان يفكر فى الطبيعة كما تبدو فى الفيزياء النيوتونية وايضا الفيزياء الديكارتيه : اى تناسق العوالم والنظام الثابت المرن ، اما الطبيعة ، بالنسبة لروسو ، فهى ما نراه **فى الحقول والغابات** من تغريد الطيور وغناء الفلاحين ، فهى الطبيعة من حيث هى تقابل الثقافة اكثر مما هى الطبيعة (كما يراها رامو) التى هى اعظم نتاج لله ، وكما يفهمها العقل الفلسفى ، فآراء روسو وحججه كانت موجهة فى المحل الاول ضد العقلانية الديكارتية ، كما كان يعتنقها رامو ، واذا كنا نتكلم عن هذه المواجهة على انها ايديولوجية اكثر منها فلسفية فان ذلك راجع الى ان العقلانية الديكارتيه كانت فى تلك الفترة فى التاريخ الفرنسى تأخذ شكلا ايديولوجيا كنسق للقيم الثقافية ، يستخدم فى تدعيم **سلطة الكنيسة والتنظيم الجامد** للنظم الملكية ، والتدرج الطبقى فى المجتمع .

وكان الموسوعيون الاخرون منهمكين فى مهاجمة العقلانية الديكارتية لاغراض اخرى ، مستعينين فى ذلك ببعض الافكار الفلسفية المستمدة اساسا من الفلسفة التجريبية

البريطانية . فهجوم فولتير واصدقائه على ديكارت كان هجوما سياسيا يكاد يكون سافرا . وقد تدخلوا في « معركة المهرجين » لمجرد مهاجمة ركن آخر من اركان الثقافة الديكارتية ، ليس بسبب عقلانيتها ولكن بسبب نزعتها المحافظة ، وكانوا يكتبون كأحرار ليبراليين على العكس من روسو . ولا سبيل الى ان نخطىء في ادراك ذلك لو اننا القينا نظرة على احد المنشورات التي اسهمت في ذلك الصراع الفكري ، وقد كتبها المحرر المشارك للموسوعة وهو دالمبير D' Alémbert بعنوان De la liberté de la musique « عن حرية الموسيقى » وفيها يقول : « ان الحرية في الموسيقى تعني حرية الشعور ، وحرية الشعور تعني حرية التفكير ، وحرية التفكير تعني حرية الفعل ، وحرية الفعل تعني دمار الامم ، واذا اردنا ان نحافظ على المملكة فيجب علينا ان نحافظ على الاوبرا على ما هي عليه ، كما ينبغي علينا ان نضع قيودا على الترخيص بالغناء اذا اردنا ان نتجنب وضع القيود على الترخيص بالكلام

(D. launay, ed., La querelles des Bouffons, genève, 1973, vol. III,pp. 2216-7)

لقد كان المتكلم هنا هو دالمبير وليس روسو . فلقد كان الفيلسوفان يقفان على نفس الجانب في « معركة المهرجين » ولكنهما كانا هناك لاسباب مختلفة . لقد كان الاثنان يدركان البعد السياسي للمعركة . ويكتب روسو في « الاعترافات » : « لقد انتهى بي الامر الى ان ارى ان كل شيء مرتبط بالسياسة ارتباطا وثيقا ، واننا مهما حاولنا فلن تكون اية امة شيئا اكثر مما يصنعه نظام حكومتها »
(Pléiade, vol. I. p. 404) .

• • •

ولكن ماهي بالضبط وجهة النظر السياسية التي يريد روسو ابرازها ؟ من المهم ان نقارن هنا نص الاوبرا التي حققت له كل هذا النجاح في باريس سنة ١٧٥٢ وهي اوبرا « عراف القرية » باوبرا بيرجوليزي « السيدة الخادمة » ففي اوبرا روسو نجد راعية الغنم كوليت collette حزينة لان خطيبها كولان Colin هرب مع سيدة ارستقراطية فتلجا كوليت الى عراف القرية فيشير عليها بالطريقة التي تكفل لها مودة حبيبها . وتتبع نصيحته ويعود الراعي الى حبيبته الراعية في آخر الامر ليعيشا في هناء . فهذه قصة تختلف تماما عن « السيدة الخادمة » التي تظهر الخادمة على انها العروس التي تناسب سيدها ، فالقضية الاساسية في اوبرا روسو هي ان المرء يجد الحب بين من هم على شاكلته ، وانه من الخطأ ان يحاول المرء تجاوز حدود طبقته فهل يستغرب اذن ان نجد ان « عراف القرية » اصبحت احدى الاوبرات المفضلة لدى الملك ومدام دي بومبادور ذلك ان الملك لم يكن يستمتع كثيرا بسماع الموسيقى بينما كانت مدام دي بومبادور تكره موسيقى رامو لانها كانت رفيعة المستوى للغاية ، ومن هنا كان اسلوب روسو (التطريبي) اقرب الى نفسيهما .

وقد نجم عن ذلك موقف آخر غريب اذ كان المحافظون يريدون اوبرا تقليدية لانها هي « الاصوب » بينما كان الملك واصفياؤه يفضلون الاوبرا italiamte المتأثرة بالطابع الايطالي الجديد لانها اكثر امتاعا .

ولم يكن موقف روسو اقل تناقضا ، فهو يقدم في « عراف القرية » موسيقى ليبرالية ان صحت هذه التسمية ـ مع « نص محافظ واستطاع بذلك العمل ان « يغزو » جمهورا » لم يكن من المستطاع اقناعه عن طريق الحجة

والجدل ، ولكن هذا الغزو الذى لم يكن يرغب فيه سبب له كثيرا من الحرج ، لان روسو لم يمل الى الملوك ، كما لم يكن يرغب فى ان يصبح من « موسيقى البلاط » وان يكون فى خدمة الاستبداد الملكى .

ولقد جلبت له موسيقاه الشهرة ، ولكنها لم تكن نوع الشهرة الذى يتمناه . فقد رفض فرصة كسب المزيد من الشهرة تحت رعاية الملك ، مثلما رفض قبل ذلك بنحو عام فرصة كسب الثروة تحت رعاية احدى العائلات البورجوازية . واضطر مرة اخرى لان يتخذ قرارا جذريا فلم يكتف برفض قبول (معاش) من الملك عن كتابه الموسيقى كلية ، ورغم هذا فقد كان ما كتبه عن الموسيقى كافيا لان يدفع الموسيقى الاوروبية نحو قنوات جديدة ، فبعد روسو اخذت الموسيقى اسلوب موتسارت Mozart والذى تعد مقطوعة Bastien and Bastieme نسخة معدلة من عراف القرية ، ثم ياتى بعد ذلك كل ما تعرفه عن الموسيقى الرومانسية ، ولقد تبين ان رامو كان نهاية لطراز معين من مؤلفى الاوبرا ، ولكننا لا نستطيع ان نقول ان روسو كان بداية لطراز جديد ، لانه كان مدينا بالكثير لبرجوليزى ولغيره من المصادر الايطالية ، ومع ذلك فقد كان تاثيره حاسما فى اعادة التركيب الموسيقى .

ولقد تخلى روسو عن التاليف الموسيقى وعن باريس فى وقت واحد ، وكرس كل وقته بعد ذلك للكتابة بينما كان يحيا وحيدا فى مونت مورنيس Montmorency ولكنه لم يكن وحيدا بالفعل فاذا كان قد هجر مجتمع الاصدقاء الاغنياء (آل دوبين وال بوبلير) فانه وجد اصدقاء جددا فى مارشال دوق لوكسمبورج وكونتيسه اوديتو houdetot وكونتيسه دى بوفلير Bouffiers التى وقع فى حبها بطبيعة الحال . فهل كان من التناقض واللامنطقى ان يجد السعادة والرضى بين العائلات النبيلة العريقة بعد ان ادار ظهره للبورجوازية والملك ؟ لا اظن ذلك .

ولروسو شهرة بانه يتبنى الديمقراطية والمساواة ، ولكنه كان يفضل عليها الارستقراطية ، وان لم يكن هذا واضحا للعيان فى معظم الاحيان . وتقوم شهرته كاحد الدعاة للمساواة على مقاله (الثانى) عن « اصول عدم المساواة » ولكنه يفتتح ذلك العمل باهداء الى جمهورية جنيف يتضمن هذه الجملة الطريفة interesting

« لما كان من حسن حظى ان اولد بينكم لم يكن ثمة مفر حين افكر فى المساواة التى اوجدتها الطبيعة بين البشر وفى عدم المساواة التى انشأوها هم انفسهم فيما بينهم ، من ان الاحظ كيف تمتزج الاثنتان معا بطريقة رائعة فى هذه الدولة ، وترتبطان بطريقة تقربهما من القانون الطبيعى قربا شديدا ، بحيث يفيد منهما المجتمع اكبر فائدة مما يؤدى الى المحافظة على النظام العام والى سعادة الافراد

(Pléiade, vol. III. p. III)

ولمة ميل طبيعى لتجاهل هذه المقدمة واعتبارها مجرد اطناب لا معنى له ، لانها كتبت اثناء المحاولات المستمرة التى كان يقوم بها روسو فى صيف ١٧٥٤ كى يسمح له بالعودة الى الكنيسة الكالفينية الراسخة فى جنيف ، ويسترد بالتالى حقوقه كمواطن فى تلك الجمهورية . ومن العسير تقبل ان روسو كان يؤمن حقا فى كمال النظم السياسية والاجتماعية فى جنيف ، خاصة . وانه هو نفسه قد قاسى الامرين منها . الا ان هذه العبارة التى اقتبستها تكفى لتوضيح آرائه من

المساواة ، فقد كان ينكر مظاهر عدم المساواة التي تسود معظم انحاء العالم ، ولكنه لم يكن يرغب في ان تحل المساواة المطلقة محلها ولذا كان يبحث عن ذلك المزيج الصحيح من « المساواة الطبيعية واللامساواة الوضعية » اي ذلك التدرج الذي يقترب من القانون الطبيعي قربا شديدا . وكانت هذه الصيغة في نظر روسو تعني المثال الافلاطوني القديم ، الذي يقضي بان يحتل كل شخص المكان الذي يجب ان يكون فيه ، وهذه هي الارستقراطية بادق معانيها حيث قد نبذ الديمقراطية بغير مناقشة ، ففي الكتاب الثالث من « العقد الاجتماعي » يقول : « اذا كانت هناك أمة من الالهة فانها كانت تحكم نفسها حكما ديمقراطيا ، وهذه حكومة اكثر كمالا من ان تصلح للبشر » .

وفي الفصل التالي يعتبر روسو ان الارستقراطية هي افضل الحكومات ، موضحا انه انما يستعمل كلمة « ارستقراطية » بمعنى ضيق محدود . ويميز روسو بين ثلاثة انواع من الارستقراطية ، يسمي الاولى بالارستقراطية « الطبيعية » ويضرب لها مثلا بالمجتمعات البدائية ، حيث يذعن الصغار للسلطة الابوية التي يمثلها رؤساء العائلات كما هو الحال عند الهنود الحمر ، ولكنه لا يقصر وجود (الارستقراطية الطبيعية) على المجتمعات البدائية دون غيرها ، ولكنه يقول انها « تناسب فقط هذه المجتمعات » ثم يتكلم روسو ثانيا عن الارستقراطية « الانتخابية » او « الارستقراطية بالمعنى الصحيح للكلمة » وبينما يذهب الى ان هذه هي افضل الحكومات الممكنة فانه يعلن بصراحة انها « مثال » يصعب تحقيقه في عالمنا الواقعي . واما النوع الثالث فهو الارستقراطية الوراثية او المتوارثة التي تقوم على تراكم الثروة في ايدي عائلات معينة بالذات ويصفها بانها « اسوأ الحكومات » .

ويذهب روسو في جدله الى ان الارستقراطية الانتخابية تستمد قوتها ليس من طريقة الانتخاب وانما من الاعتقاد بان الذين ينتخبون هم الحكماء الاتقياء ، وانهم سوف يظلون كذلك وهذا هو ما يجعل من الصعب تحقيق ذلك في الواقع .

ولعل الصعوبة التي يؤكدها روسو هنا هي ان هؤلاء الحكماء المنتخبين سوف يتصرفون في سلوكهم وافعالهم عن ارادتهم هم وليس عن الارادة العامة ، ومن هنا يعدل روسو عن رأيه في ان الارستقراطية الانتخابية هي افضل الحكومات ، بان يقول ان ذلك لا يصدق الا اذا احترم الحكام الارستقراطيون حرية وسيادة الشعب ، ولكن من سوء الحظ ان جميع الحكام يطأون باقدامهم حرية شعوبهم وسيادتها ان عاجلا او اجلا .

●●●

وهذا يمثل تناقضا آخر في نظرية روسو السياسية ، فهو لا يؤمن بامكانية تطبيق ما يدعو اليه ، ففيما يتعلق بالشعب فانه يريدهم ان يحكموا انفسهم بانفسهم ويقوموا بسن القوانين الاساسية الخاصة بدولتهم ، لان هذه هي الطريقة الوحيدة التي تضمن لهم حريتهم ، مع خضوعهم للحكم ، او بقول اخر هي الطريقة الوحيدة التي تتيح لهم ان يحكموا انفسهم . ولكن بما ان روسو يؤمن بان الاشخاص العاديين لا يملكون من الذكاء والحكمة ما يمكنهم من وضع قوانين مناسبة فهم يحتاجون بالضرورة لمن يتولى عملية التشريع ووضع القوانين لهم ، على ما كان

كان يفعل Solon او ليكورجوس Lycurgus والاغلب ان يتمكن هذا المقنن من التغرير بالعامة الاغبياء ويوهمهم بانه تلقى تلك القوانين من السماء .

وهذا معناه فى نهاية الامر ان قيام نظام يضمن السيادة الحقيقية للشعب امر معقد ويستحيل تحقيقه ، واما فيما يتعلق بالحكومة الارستقراطية الحكيمة المنزهة من الاغراض ، وان كان يؤمن فى الوقت ذاته بعدم امكان احتفاظ اى حكومة بهذه الصفات لمدة طويلة ، وعلى ذلك فان الارستقراطية المتصابية محكوم عليها بالفشل فى اخر الامر . ان حكم العامة انما يولد فى حالات الفوضى وعدم الاستقرار بينما حكم الارستقراطية ينحدر الى مهاوى الاستبداد والطغيان . ويتفق روسو مع ارسطو فى ان الانسان حيوان سياسى ، وان طبيعة الانسان لا تحقق ذاتها الا من حيث كونه مواطنا ، ولكن الله لم يعط الناس جميعا ما يكفى من العقل او النقاء الخلقى لمساعدتهم على ادراك امكانياتهم وقدراتهم كمواطنين ، كما ان الحضارة الحديثة ، افسدت الناس بدلا من ان تصلح احوالهم كما قد تفعل الحضارات البسيطة . واما فيما يختص بالانسان الصالح حقا ــ ولقد كان روسو يعتقد فى نفسه انه انسان صالح حقا ــ سوف يجد نفسه مرغما وسط كل هذا الفساد الذى يشيع فى العالم الحديث لان يصبح ناسكا لالشىء الا لانه يعجز عن تحقيق طبيعته كمواطن . وكان روسو يعتبر حياته فى مونت ميرنسى Montmorency حياة راهب ، وان كان هذا بالطبع لا يخلو من مبالغه ، فقد كان يقضى كثيرا من الوقت مع جيرانه من ذوى المكانة الاجتماعية العالية ، وكان يشعر معهم بارتياح اكثر مما كان يشعر به مع جماعة الموسوعيين المثقفين المتقدمين ، او مع اصحاب الملايين البورجوازين فى صالونات باريس ، ومن السهل علينا ان نفهم سبب ذلك .

فالفرنسيون النبلاء الذين ينحدرون من عائلات قديمة مثل دون لوكسمبورج كان يمكنهم ان ينظروا خلفهم الى فرنسا كما كانت قبل ان يدخل اسرة البوربون Bourbon الملكية الاستبدادية ، وقبل ان يدمر ريشليو Richeley قصورهم الحصينة . فقد كانوا يذكرون فرنسا الاقطاعية حين كان الملك النبيل سيدا لاتباعه ، وحين كان لا يدين الا بقليل من الولاء للملك . وبالطبع فان دون لو كسمبورج وامثاله كانوا اصغر من ان تكون لديهم ذكريات من تلك الايام . ولكن مخيلتهم التاريخية كانت ترتكز على معلومات اكيدة ، ونصاحبها مشاعر قوية بالنفور والاستياء من الملكية المطلقة ، والازدراء لاقاربهم من النبلاء الذين سمحوا لانفسهم بان يصبحوا من رجال الحاشية فى قصر فرساى ، والبورجوازيين الذين تملكوا الكثير جدا من ثروات الامة .

وكانت مواقفهم فى الحياة ضربا من الرومانسية ، فقد كانوا يعرفون ان الالقاب الارستقراطية التي يحملونها هي القاب جوفاء ، لأنها تمنحهم بعض المزايا ، ولكن بغير قوة او سلطة .

كانوا يحتلون مكانة اجتماعية عالية ، ولكنهم كانوا اقل اهمية فى المجالات السياسية حتى من الموظفين والكتبة الذين يخدمون الملك . فحين عرف دون لو كسمبورج مثلا ان صديقه وربيبه روسو قد كان عرضه لالقاء القبض عليه لم يملك اكثر من ان يساعده على الهرب من باب خلفي فى حديقة القصر ، ويزوده بعربة تعود به الى سويسرا .

كان للفوق وامثالهمن نبلاء السيف احلامهم عن فرنسا « لا وجود لها » حيث كانت مثاليات الفروسية تقضي بالا يقود الشعب ويحميه الا اشخاص من اصحاب الخلق الرفيع . وقد وجدت احلامهم صدى لها عند روسو في احلامه عن قيام عالم لا يتولى مناصب الحكم والمسئولية فيه الا افضل الرجال ، ولقد كانوا يعرفون ان عالمهم قد مات وراح الى الابد ، كما كان هو يعرف ان عالمه لن يستمر في الوجود لمدة طويلة اذا جاء على الاطلاق .

لقد سيطر عليهم جميعا نوع من العجز المظلم الحزين، وهذا عنصر آخر من الرومانسية توحي به اعمال روسو ، وان كان لم يذكرها صراحة ، لان من الصعب ذكر هذه الاشياء . لقد ساعدته نشأته في جينيف على تكوين رؤية عن المجتمع المثالي يعيش فيه القانون مع الحرية جنبا الى جنب . ولكن الصدمات التي تلقاها في جينيف ثم في غير جينيف قد علمته ان تلك الرؤية كانت رؤية فحسب ، وان الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها هي العيش في عالم من صنع الخيال وترك عالم الحقيقة الواقع لمن يمكنهم الاستمتاع به ، مثل ذلك الصديق الذي اصبح عدوه الاكبر الماكر العنيف الجذاب الذي لا يحاسب نفسه على شيء : فولتير .

* * *

مطالعات

عبدالواحد لؤلؤة

ادب الرحلات والمغامرات

- ١ -

باستثناء قصص (الف ليلة وليلة) ومغامرات السندباد ، وبضعة قليلة من الكتب في أدبنا القديم ، يستطيع المرء ان يزعم ، وهو آمن ، ان أدب الرحلات والمغامرات لا يحظى بحقه من الاهتمام في ادبنا العربي المعاصر ، كما هو الحال في آداب الامم الاخرى . ومثل ذلك ادب السيرة ، والسيرة الذاتية بخاصة . ثمة شعور غامض لدى القارىء العربي والكاتب العربي ، ان الحديث عن الذات ينطوي على شيء من التفاخر ، وهو ماينتكر له الدين ، وتحيد عنه قوانين الاخلاق الموضوعة عبر العصور . قليون هم الكتاب العرب الذين استطاعوا ان يخرجوا للناس كتابا في الادب يتجاوز الحديث عن الذات بصورة مباشرة ، ويخرج عن ذلك بالحديث عن العصر والاحداث ، وعن الآخرين ممن تركوا اثرا في نفس الكاتب واعطوا صورة للعصر . من السهل علينا نحن العرب ان نتحدث عن الآخرين ، وقد نتحدث عن امور لا يحسن التحدث عنها ، ولكننا ندرجها في باب السيرة ، واخبار الامم والملوك ، زاعمين ان في ذلك صورة العصر ووصف الزمان واهله .

وقد يشمخ فوق ذلك كله كاتب معاصر دون سواه هو الدكتور طه حسين . ففي كتاب (الايام) نجد سيرة ذاتية من حياة الكاتب نفسه ، ولكن الحديث دائما عن « الفتى الضرير » تجنبا للحديث عن الذات ، وجريا على عادة الحديث عن « الغير » حتى ولو كان هذا « الغير » هو « الانا » .

اما في كتابة سيرة الآخرين ، فلا اكاد اجد كاتبا عربيا ، في القديم والحديث من ادبنا ، يكتب كتابا في السيرة الا عن ملك او امير او سلطان او طاغية او كاتب مشهور جدا او مكروه جدا . وهو في كل ذلك ، يبالغ في المدح والقدح ، ويستعمل الصفات بأفعل التفضيل ، صيغة وبناء . وان هو اصطنع الموضوعية تجده يغوص في تفصيلات الحسب والنسب والتاريخ .. والجغرافيا ان شئت ، وتكون الحصيلة صورة للعصر مهزوزة في احسن الاحوال . من يستطيع ان يقيل على انه صحيح وواقع كل الذي نقرأ عن هارون الرشيد مثلا ، وعن قصور البرامكة ، وعن مباذل الخلفاء في الشرق والغرب ؟ كيف تسنى لخلفاء المسلمين ان يفتحوا البلاد وينشروا الدين ويقيموا حفلات واعراسا متواصلة بين الحرب والحرب ؟ بل ما هي نسبة ما حدث فعلا مما نقرأ عن تاريخ العرب في الاندلس من المهرجانات ورخاء العيش الى جانب كل الحروب وكل الحملات منهم وعليهم ؟ كم من هذا حدث على الطبيعة وكم منه من نسج خيال الشعراء والكتاب ؟ ولكن التراث مقدس ويجب الا يصاب بمكروه ، حتى ولو كانت هذه الاصابة من باب الغربلة والتصفية ، وليذهب الزبد جفاء ويمكث في الارض ما ينفع الناس .

ولم تكن الحال افضل من ذلك بكثير في الآداب الاوروبية حتى بواكير القرن التاسع عشر . وقد نستثني في الادب الانجليزي مثلا (سير الدكتور جونسن) التي كتبها في اواخر القرن الثامن عشر صديقه ومرافقه (بوزول) . فهذا الكتاب الضخم يعده الباحثون مرجعا جوهريا عن الشاعر الناقد الاكبر في ادب القرن الثامن عشر الانجليزي ، قد لا يفوقه سوى (سيرة الشعراء) الضخمة التي كتبها جونسن نفسه عن عدد من شعراء لغته ، ما كان لنا ان نعرف منهم الكثير لولا ما فعل « دكتاتور » الادب الانجليزي في القرن الثامن عشر .

وقد ازدهرت كتابة السير واخبار المغامرات في الادب الانجليزي ، والفرنسي ، في القرن التاسع عشر بخاصة ، ذلك القرن الذي كان يقدس حياة البيت ، ويحترم الثقافة وسعة الاطلاع ، فيحتال على ليالي الشتاء الطويلة بجلسات طويلة الى جانب المواقد في صحبة « كتاب » هو في الغالب « رواية » باجزاء ثلاثة . وهكذا ازدهر ادب (تشارلز ديكنز) ومن تبعه من كتاب الرواية . وفي عصر كانت فيه القراءة فضيلة وبخاصة في العهد الفكتوري (١٨٣٧ ـ ١٩٠١) تجد الكثير من الصور الشخصية لسيدات ذلك العصر تؤكد على وجود « الكتاب » في يد السيدة الانيقة ، الى جانب المروحة . وكان من عادات العصر الفكتوري ان يجمع الاب ، او الام ، اولاد الاسرة حول مواقد الشتاء ، ليستمعوا الى « قراءة » من كتاب فيه المتعة والفائدة . كل ذلك طبعا كان ممكنا قبل ان يدخل البيوت الراديو او التلفزيون .

في هذه الكتب الثلاثة التي اقدمها للقارئ العربي ثمة خيط يجمعها معا ، وهو انها كتب سيرة ، ومغامرة ، ورحلات ، فيها جميعا متعة من نوع او آخر . وهي الثلاثة كتب تصور الشخص ، والعصر ، والزمان ، والمكان ، من خلال تصوير اشخاص آخرين يجمعهم جامع مع

موضوع الكتاب او مع كاتبه . في بعض هذه الكتب اشارات او تفسيرات قد تكون مفاجئة للقارىء الذى لديه سابق معرفة بموضوع الكتاب من مصادر اخرى . وفي بعضها تصحيح لافكار سابقة عن الكاتب او العصر . ولان هذه الكتب الثلاثة قد نشرت عام ١٩٧٧ (واحد منها نشر اول مرة عام ١٩٤٣ ، ولكن اعادة النشر تتضمن قبول الناشر بصحة ما جاء فيه وبقاء المتعة او الاهمية على ما كانت عليها عند اول نشر) فانها تشكل اهمية في نظرى ، لانها الى جانب حداثتها وطراوتها ، تحمل القارىء على اعادة النظر في بعض آرائه عن العصر او الكاتب بما تنقل من صور حية ، ممتعة ، مثيرة في كثير من الاحيان .

الكتاب الاول (كونن دويل : حياته وفنه) يتحدث عن كاتب انجليزى (١٨٥٩ — ١٩٣٠) يعرفه قراء العربية ، وكثير من قراء الانجليزية ، على انه مؤلف مغامرات شرلوك هومز) دون سواها . وهذا يمكن تبريره الى حد كبير ، فهذه المغامرات قد شغلت قراء الانجليزية على جانبي الاطلسي قرابة نصف قرن من الزمان ، واحسبانها ما تزال تثير تعجب الكبار والصغار على حد سواء . ولكن ثمة ما يثير ويعجب في حياة سرآرثر كونن دويل الى جانب مغامرات شرلوك هومز ورفيقه دكتور واتسن . لقد قيل في المجالات النقدية ان شخصيات دويل تأتي في الشهرة بعد شخصيات شكسبير مباشرة ، وان مغامرات هومز مع الدكتور واتسن تذكر القارىء بمغامرات (دون كيخوته) وتابعه (سانتشو بانزا) على اختلاف طبيعة المغامرات في الحالين ، ولكن ثمة في حياة دويل وسيرته من المتعة ما يفوق ما نجده في حياة سرفانتس عبقرى اسبانيا ومعاصر شكسبير .

والكتاب الثاني (رديارد كبلنج وسيرته العجيبة : حياته وآثاره) يتحدث عن حياة اديب انجليزى آخر (١٨٦٥ — ١٩٣٦) يعرفه قراء العربية على انه « شاعر الامبراطورية » البريطانية وداعية الاستعمار . ولكن مؤلف الكتاب يقدم لنا في ضوء آخر هذا الادب المخضرم ، الذى عاش نصف سنواته السبعين في القرن التاسع عشر والعصر الفكتورى ، وعاش النصف الثاني في القرن العشرين الذى ابتدا بحرب البوير في جنوب افريقيا (اللفظ « بور » بضم الباء ومد الواو الساكنة ، وهي كلمة هولندية تعنى « فلاح ») اذ تمرد الفلاحون الهولنديون الذين استوطنوا جنوب افريقيا على سلطة الامبراطورية البريطانية في ١٨٩٩ وكانت الحرب التي ما زالت تستعر في جنوب افريقيا بعد ان تطورت وانتشرت في شعاب شتى . يرى الكاتب هذه المشاعر « الامبراطورية » لدى كبلنج على انها مغالاة في « الوطنية » وانها لا ترقى « الاستعمار » و « الامبريالية » بالمعنى المعاصر . ويظهر الكاتب هذا الاديب على انه كان ينتقد بشدة موقف السياسة البريطانية من الهند والمستعمرات ، كما انه كان يخاصم السياسة الامريكية في بواكير القرن العشرين ، اضافة الى انه كان يحذر بلاده والعالم ايضا من خطر ظهور القوة الالمانية على شكل « قومية نازية » اعتدائية ، وبخاصة عندما وصل هتلر الى زعامة الحرب النازى عام ١٩٣٣ . توفي كبلنج عام ١٩٣٦ قبل ان يدرك الحرب الاوروبية الثانية عام ١٩٣٩ ، مما جعل الكثير من الانجليز يدرك ان في نبوءات كبلنج ما كان يبررها ، فرفع ذلك من سمعته كاديب ، رغم ان آراءه السياسية لم تكن من التفتح والوضوح بما يجعله في عداد السياسيين ، فضلا عن ادباء السياسة .

اما الكتاب الثالث (كان الاهالي كرماء ... فاقمنا الليلة) فهو لصحفي بريطاني معاصر ولد عام ١٩٠٦ وما زال يكتب وهو في السبعين .لا احسب ان (نويل باربر) مؤلف هذا الكتاب يحمل مشاعر حية تجاه العرب ، ولكن يحسرنا نحن العرب ان نقرأ للصديق الكريم (فثلث لها ان الكرام قليل) كما نقرأ للعدو اللئيم (قالت ايهم ؟ فهم كثر) . في هذا الكتاب لا اجد سوى « نهشة » سريعة من الكاتب لعربي في شمال افريقيا « طعنه من الخلف طبعا » يوم كان العشرات بل المئات من الفرنسيين يقتلون اثناء حرب التحرير في شمال افريقيا العربية ، كما يضيف الكاتب في تبرير خجول . وما عدا ذلك ، فان الكتاب يطفح بمغامرات غريبة واقاصيص طريفة حدثت جميعها في الاربعين السنة الاخيرة ، ومايزال ابطالها على قيد الحياة في الغالب ، ومن غاب منهم عن الحياة فهو ما يزال ماثلا في ذاكرة الجيل المعاصر من القراء . هذا رجل بدأ مغامراته قبل سن الخامسة ، يوم اخذه الالمان اسير حرب عام ١٩١٤ مع جميع ركاب السفينة الدانمركية المتجهة الى بريطانيا . في السادسة عشرة نشر اول مقالة وما زال يكتب عن مغامراته بين القطبين ، في امريكا خلال الحرب الثانية ، في جزر البحار الجنوبية الفاتنة ، سنغافورة والهند والشرق الاقصى ، في مجاهل افريقيا ، فضلا عن البلاد الاوروبية وما خبر من الحياة في باريس منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . هنا نقرأ كتابا اشبه بشريط سينمائي يمتد على مدى الكرة الارضية خلال اربعين عاما ، ونرى عشرات من المشاهير يتحركون امامك ونسمعهم يتكلمون .. اناس مثل تشرشل ، مارلين ديتريش ، علي خان ، ريتا هيوارث ، الدالاي لاما ، الملك حسين ، دوق وندزور ، اناسيس ، مكاسور ، مونتغمري ، شتمان ، رى ، ايان سمث ، وقائمة طويلة من رجال السياسة والحرب والفن ، كل ذلك باسلوب غاية في الفكاهة ، واذا بدا عليه شيء من الجد عرفت ان مفاجأة تنتظرك ، ولا تلبث ان تواجهك حكاية او حادثة او طرفة لم تكن تتوقعها في الغالب .

في الوقت الذي يكون فيه الكتابان الاولان من كتب سيرة الادباء بالدرجة الاولى فانهما لا يخلوان من القيمة الاكاديمية ، لانهما في الاساس يناقشان « الرجل وآثاره الادبية » ، بمعنى ان الكتابين الاولين يتطلبان من القارىء احيانا يقظة ومعرفة اساسية باعمال المؤلف الى جانب ذلك تلمس خصائص اسلوب الكاتب ، وهو اديب معروف في الحالين . لذلك تجد تأنقا في الاسلوب لا تغيب عنه الرصانة والجدية . اما في كتاب (نويل باربر) فاننا امام مراسل صحفي يمتاح البحور ويجوب البلاد ويكتب على عجل ، ولكن اسلوبه في غاية الطرافة والطراوة ، اعلى منزلة من التقرير الصحفي ، ويكاد يضارع اسلوب الاديب الذي تلمسه في الكتابين الاولين .

ويجمع الكتب الثلاثة كذلك ولع خاص بالفن ، والرسم بخاصة . ففي حالة دويل نجد والده وجده من الرسامين ، وكان والد كبلنج مدرس الرسم والفن الزخرفي في مدرسة الفن بمدينة بومباي بالهند . اما نويل باربر ، فعلاوة على معرفته الواسعة برسامي المونمارتر والحي اللاتيني بباريس فقد كان هو يرسم كذلك . وثمة ظاهرة اخرى تجمع الكتب الثلاثة وهي ان الكتاب الثلاثة بدأوا حياتهم في العمل الصحفي ، وازدهرت كتاباتهم في صحف بلادهم وصحف بلاد اخرى حيث نشرت اهم اعمالهم اللاحقة . واذا كان اعتلال الصحة قد اقعد نويل باربر عن التطواف في ارجاء العالم فانه ما زال يكتب عن العالم الذي عرف .

١ ـ هيسكت بيرسن : كونن دويل ، حياته وفنه ،لندن ١٩٧٧

عندما نشر بيرسن هذا الكتاب عام ١٩٤٣ كتب مقدمته الكاتب المعروف جراهام جرين يعبر فيها عن اعجابه بالكتاب وباسلوب كاتب السيرة . تقول المقدمة ان ابرز ما في اسلوب الكتاب ان بيرسن يحمل القارىء على الوقوف في صف المؤلف موضوع الكتاب على حساب كاتب السيرة نفسه ، وتلك صفة لا نجدها الا عند مشاهير كتاب السيرة ، وعلى راسهم دكتور صامويل جونسن . وربما كان في ذهن جرين (سيرة الشعراء) الذى سبق ذكره في هذا المرشد . وارى ان جرين لا يحيد عن الحق في هذا القول . فانت تجد كاتب السيرة لا يتنازل عن حقه في ابداء راى او نقد لا يكون « في صالح »دويل نفسه ، ولكنه يفعل ذلك باسلوب يجعلك تتحزب الى جانب دويل وتلتمس من كلام الكاتب ما يساند رايك . وفي هذا ما يزيد متعة القراءة ويجعلك اقرب الى شخصية المؤلف واعماله ، ويحدو بك ان تقرا او تعيد قراءة ما سبق لك ان خبرته من مؤلفات دويل . ولعمرى ذلك احسن نجاح يحققه كاتب سيرة : ان يحملك على الاهتمام بموضوع سيرته .

لقد زاد ما كتبه بيرسن اليوم على عشرة كتب في ادب السيرة ، منها كتاب عن سيرة شكسبير وآخر عن برنارد شو وثالث عن اوسكار وايلد . ولعل افضل سمة في هذا الكتاب ان اسلوبه يجرى « طبيعيا » دون حماس او تشنج . فهو يسوق الاحداث والتواريخ في هدوء العارف المحيط بما يكتب عنه . وعلى صفحة العنوان تقرا عبارة بسيطة قالها كونن دويل بعد ان بلغ من الشهرة مبلغا اوصله لقب « سير » . يقول دويل « انا الرجل الذى في الشارع » بمعنى انه ابعد ما يكون عن اوصاف افعل التفضيل التي تعاني منها اغلب الكتابات العربية بشكل او بآخر .. فنحن قوم اذا راينا عشقنا ... بالطيف . واذا كرهنا ... بالطيف ، ايضا .

يقع هذا الكتاب في ١٨٨ صفحة من القطع المتوسط ، يتوزعها اثنا عشر فصلا ، تزينها اربع عشرة صورة للمؤلف في مراحل شتى من حياته ، وبينها صور لبعض الشخصيات الادبية ممن عرف

الفصل الاول هو فصل الحسب والنسب وسنوات الطفولة وايام الدراسة . ولكنك هنا لا تجد الا ما يعين على تحديد المهاد والنشاة الاولى . فتجد ان هذا « الرجل الذى في الشارع » لم يكن يختلف عن الالوف من امثاله الا في كونه يمتلك موهبة عرف كيف يسير بها في درب هو غير الدرب الذى يختطه الاهل في الغالب ، او المدرسة ، او مطالب المجتمع مما تعارف الناس عليه . كان يمكن ان « ينخرط » دويل في سلك الكنيسة بحكم نشاته الفقيرة التي تحمله على دراسة لا تكلف الاسرة مالا . وكان يمكن ان يصبح دويل طبيبا مثل الالوف الذين تخرجوا في جامعة ادنبرة العريقة في دراسة الطب . ولكن الموهبة الادبية والقدرة على الكتابة و « نسج الاقاصيص » جعلت من ذلك الفتى اعظم كاتب مغامرات (واعتذر عن افعل التفضيل هذه) عرفته الانجليزية .

يرجع نسب ارثر كونن دويل الى اصول ايرلندية ، مثل برنارد شو واوسكار وايلد . فقد نزح جده لأبيه من دبلن الى لندن عام ١٨١٥ ، واشتغل بالرسوم الساخرة (الكاريكاتير) وخلف اربعة اولاد عمل جميعهم في الرسم . كان اصغرهم ، والد آرثر ، موظفا حكوميا يعالج الرسم ولا يربح

اكثر من ٥٠ باون فى العام ، اضافة الى دخله من الوظيفة الذى لم يزد على ٢٤٠ سنويا . ولد آثر فى ادنبره باسكتلندا عام ١٨٥٩ ، وهو العام الذى نشر فيه بالانجليزية كتابين تركا ابلغ الاثر فى ثقافة العصر وتفكير الجيل وهما كتاب دارون : (اصل الانواع) وترجمة فتزجيرالد (رباعيات عمر الخيام) . وسنرى ان الكتاب الاول حمل الكثير من الناشئة والشباب فى انجلترا على الابتعاد عن الدين وما تعلم الكنيسة والكتب المقدسة ، دون الوقوع فى الالحاد غالبا ، بل باتخاذ ما دعي بالمذهب « العلمانى » اى اعتناق العلم مذهبا يخاطب العقل ، وعدم التنكر للدين الذى يخاطب الروح ، وكان دويل الى جانب جذوره الايرلندية ونشأته الاسكتلندية انجليزيا بالاختيار . يقول الكاتب ان دويل قد جمع بذلك ما فى الطبع الايرلندى من فروسية وشهامة وحماس ، وما فى الطبع الاسكتلندى من عزة واحتمال ، وما فى الطبع الانجليزى من عناد وروح فكاهة .. فى السابعة من عمره ذهب الفتى الى المدرسة ، وكان عنيدا مقاتلا مما جعله يحتمل عقوبات المعلمين الذين كانوا « يضربون بالمطاط الهندى تسع ضربات على كل كف حتى لا يطيق الفتى ان يفتح الباب لدى خروجه بعد اخذ العقوبة » . وفى المدرسة اظهر ميلا شديدا الى قراءة كتب الادب ، مما جعل لجنة المكتبة تتخذ قرارا « بعدم تجديد اعارة اكثر من ثلاثة كتب فى اليوم الواحد » وفى تلك السن المبكرة اظهر الفتى ميلا شديدا آخر نحو الشعر ، فحفظ قصيدة طويلة من نظم (ماكولي) بقى قادرا على « تلاوتها غيبا وهو فى الخمسين من العمر » . وفى التاسعة دخل المدرسة الاعدادية فكره الاغريقية ونفر من اللاتينية والتربية اليسوعية والحياة الصعبة فى اسلوب الطعام ، وحتى فى اثناء اللعب . ولكنه يذكر باعتزاز انه فى الرابعة من عمره جلس الى الكاتب الكبير (ثاكرى) مؤلف رواية (معرض الخيلاء) وان الكاتب الشهير (جورج ميريدث) كان من اصحابه . وفى السادسة عشرة انهى الفتى الدراسة الثانوية بتفوق وقضى سنته الاخيرة فى النمسا برعاية الآباء اليسوعيين . ورغم انه لم يفد كثيرا من تلك السنة لكنه استطاع زيارة عمه فى باريس فى طريق العودة الى انجلترا ، وكان يسير على مقربة من قوس النصر وليس فى جيبه غير قرشين . وعندما غادر المدرسة الثانوية ودعه مدرسه المشرف بقوله : « دويل ، انك لن تصلح لشىء » ! .

الفصل الثاني بعنوان : « اعمال متفرقة » يتحدث عن دخول الفتى آرثر كلية الطب بجامعة ادنبرة عام ١٨٧٦ بتشجيع من الوالدة المدبرة ، التى رفضت لابن الاسرة الفقيرة ان يعمل اعمالا دون قابلياته الفكرية ، فى سبيل كسب العيش لاسرة تتكاثر عددا برعاية اب « هائم بين غيوم الفن » لا يكسب اكثر من مرتبه من الوظيفة بكثير . وكان ان دخل آرثر كلية الطب . ولكن دراسة « النبات والكيمياء والتشريح والفسلجة » لم تمنعه من التهام اعمال ثاكرى ، ميريدث ، واشنطن ارفنج ، اديسون سويفت وغيرهم من المشاهير . كان كل كتاب يشتريه يعنى التضحية بثمن وجبة غداء . لقد شغله (ماكولي) الذى « يعرف كل شىء » كما شغله ادجار آلن بو الذى « يعالج كل شىء » . وكان من بين اساتذة الطب فى ادنبره اثنان ممن ظهروا فى قصص دويل ومغامراته : الاول « دكتور بل » الذى ظهر فى شخصية (شرلوك هومز) نفسه ، والثانى « البروفسور رذر فورد » الذى ظهر فى شخصية (تشالنجر) وكان ثمة غيرهم ممن ظهروا فى شخصيات المغامرات امثال « موريارتى » و « ماراكوت » . فى الجامعة تطور تفكير دويل باتجاه اليقين الجديد الذى اشاعه كتاب دارون ، فوجد فى العلمانية مهربا من تزمت اليسوعيين

الذين ارعبه قول احدهم بان « من كان خارج كنيسة روما فنصيبه اللعنة الابدية » . وبعد سنتين من الدراسة الجامعية فكر دويل بالالتحاق بالجيش ، وكانت الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٨ فرصة لذلك . ولكن تطوعه فى الخدمة الطبية فى تلك الحرب لم يدم طويلا ، فعاد الى لندن يواجه الفقر . وما لبث ان حصل على وظيفة لمدة اربعة اشهر بدلا عن طبيب ريفي ، حصل لقاء ذلك على ٢ باون فى الشهر فاحس بانفراج كبير . وفى ضواحي مدينة برمنجهام اثناء العمل بديلا عن الطبيب ، بدأ يكتب اولى قصصه ، وقد شجعه صديق آنس فيه براعة فى كتابة الرسائل . ولما عرض قصته الاولى على مجلة معاصرة ادهشه ان يتلقى مكافأة قدرها ثلاثة جنيهات ، اى اكثر من مرة ونصف مرتبه الشهرى كبديل طبيب . ولكن هذا التحسن الطفيف فى الوضع المادى قابله سوء فى صحة والده ، واضطراره الى التخلى عن العمل ؛ ولم ينقذ الموقف ما كانت تساهم فيه شقيقاته الثلاث من مرتباتهن . وفى اوائل ١٨٨٠ عرض عليه ان يكون طبيب سفينة صيد لقاء ٢١٠ باون شهريا اضافة الى ٣ شلنات عن كل طن من زيت الحيتان التي تصطادها السفينة . كانت الحياة قاسية فى البحار الشمالية ولكن دويل عاد وفى جيوبه « خمسون قطعة ذهب ادخلت السعادة الى قلب امه وهى تفتش عنها فى ملابس الطبيب العائد من سفينة صيد الحوت » . وفى سنته الاخيرة فى الجامعة تعرف دويل على « جورج بد » الشاب العجيب الذهن الخصب الخيال ، الذى لا ينفك يأتى بالاختراع تلو الاختراع ، يدافع عنها فى لغة سيالة عجيبة ، الهبت خيال دويل وتركت اثارها فى مغامراته . وفى ١٨٨١ تخرج دويل طبيبا وحصل على وظيفة فى سفينة اخرى تتجه نحو الاقاليم الدافئة فى غرب افريقيا هذه المرة بدل القطب الشمالي . كان مرتبه كطبيب متخرج ١٢ باونا هذه المرة . ويبدو من المقارنات الحسابية ودراسة نفقات المعيشة التي يذكرها هذا الكتاب ان الاجور والاسعار هذه الايام تعادل عشرين ضعفا عما كانت عليه قبل قرن من الزمان عندما بدأ دويل يكسب اولى نقوده ، وبذلك تكون الاثنا عشر باونا تعادل ٢٤٠ باونا هذه الايام ، وهو مبلغ غير قليل بالنسبة لفتى كان يصارع الفقر حتى تخرج طبيبا برغم الصعاب . ولكن رحلة القطب ورحلة غرب افريقيا لم تترك عليه اثرا مفيدا فى تطوره الادبي والذهنى . انه يذكر ان « مقالات مكولي » كانت ترافقه فى الرحلتين ، ويذكر باعتزاز ان فرنسيا كان يصارع الحمى فى رحلة غرب افريقيا اعطاه كتابا فرنسيا بعنوان « الجو » . كان هذان الكتابان امتع ما يذكره دويل عن الرحلتين ، هذا الى جانب « المغامرة » بمعناها العام مما رافقه فى الحالين .

الفصل الثالث يدور حول صديقه « دكتور بد » . كان والد « بد » طبيبا عريقا فى مدينة برستول ، واليها جاء ليفتح عيادة بعد تخرجه . ويبدو ان هذا الصديق المغامر لم يفلح فى اجتذاب المرضى . « لا احد يثق بك فى مدينة يعرفك الجميع فيها يوم كنت طفلا تسرق الفاكهة من اشجار الجيران » وكانت النتيجة ان « بد » اصبح على حافة الافلاس وصار يحلم بمخترعات تعود عليه بثروات طائلة . وكان ان تسلم دويل برقية من صديقه بد يدعوه فيها للحضور فورا الى برستول ، وفى محطة القطار وجد دويل صديقه العاصف فى انتظاره ، وبدأ من رصيف المحطة يشرح له تفصيلات اختراع جديد من دروع الحديد التي يحملها الجندى فلا ينفذ منها الرصاص ، ويبيع ذلك الاختراع الى الحكومة ليربح منه الملايين . كان بد يتدفق بالتفصيلات ، ودويل يصغى اليه ويكتنز فى ذهنه افكارا سوف تظهر فى خلق شخصيات مغامراته فى قصص

المستقبل . وفي الختام لم يقتنع دويل بتصرفات صديقه وقفل راجعا الى برمنجهام حيث كان يعمل مع طبيب . وما لبث ان تسلم برقية ثانية من بد ، وقد انتقل الى بليموث وفتح عيادة سار يكسب منها الكثير بأنواع الحيل والالاعيب في مدينة لا يعرفه فيها احد . استطاع بد ان يقنع دويل بترك برمنجهام والالتحاق به في بليموث ليساعده في عيادته التي كان يكسب منها اكثر من ٣٠ باون يوميا (٦٠٠ باون هذه الايام !) . واقتنع دويل ولحق بصاحبه . ولكن وجد بد انه قد اعلن عن الكشف مجانا ، ولكن على المريض ان يشتري منه الدواء الذي كانت زوجته تعده بلا انقطاع . لم يكسب دويل اكثر من باونات قليلة لفترة طويلة ، ولكنه انقطع الى الكتابة . كان بد يسيء معاملة المرضى ويتعالى عليهم ، « لان احترام المريض لا يدفعه الى احترام الطبيب » كان بد يريد « ان تنتشر الامراض وتعم الاوبئة ليزداد ربح الطبيب » . مرة كان بد يسير على شاطىء البحر فوجد فتى يصطاد السمك فرفسه في قفاه فسقط الفتى في البحر . وما كان من بد الا ان قفز وراءه وانتشله من الماء ، وخلق بذلك مشهدا مسرحيا أمام جمهور ليستطلع ما حدث ، فكسب الدكتور بد شهرة المنقذ الانساني في تلك المدينة التي جاءها ليكنس ما فيها من نقود» .

ولكن دويل لم يستطع الانسجام مع هذه الاحابيل ، فما لبث ان انفصل عن صاحبه ، مسجلا فشله كطبيب محتال ، ولكنه بدا يشق طريقه في كتابة القصص وعالم التاليف ، فترك بليموث وفيها صاحبه الدكتور بد .

يتحدث الفصل الرابع عن « دكتور دويل » الذي جاء ليفتح عيادة في « ساوثسي » من اعمال مدينة بورتسموث ، وكان ذلك في تموز/يوليو ١٨٨٢ . كانت البداية في غاية الصعوبة ، بين البحث عن منزل يقيم فيه عيادته ، ولم يكن في يده من النقود ما يجعل البداية سهلة . ولكنه اطلع في ذلك بتقتير شديد على نفسه . كان ينام على سرير حديد وهو يرتدي معطفه وتحت راسه كتاب « مبادىء الطب » . كان اول زواره كاهن المدينة ، يريد ان يكسبه للكنيســة ، فانقلب مذعورا من طبيب يعتقد ان « المسيح بشر فان مثلنا » . وكان ثاني زواره موظف من شركة الغاز يطالب بمبلغ لم يدفعه المستاجر السابق . ولم تكن ذكرى عمله مع صديقه بد مما يدخل السرور على نفسه في تلك الوحدة والفقر . فقد اكتشف دويل ان بد وزوجته كانا يفتشان ملابس دويل ويقرآن رسائل والدته ، التي لم تكن راضية عن تلك الشراكة بين ابنها وبد المحتال . وفي اواخر الثمانينات توفي بد ولم يترك لزوجته من المال ما يقيم الاود ، فانطبق عليه المثل العراقي السائر « الذي يعيش بالحيلة يموت بالفقر » . كان على دويل ان يواجه الحياة وليس في جيبه اكثر من باون واحد . فسارع بالكتابة الى محرر مجلة « مجتمع لندن » حيث سبق ان نشرت بعض قصصه غفلا من الاسم ، وعرض قصة جديدة ، راجيا المحرر ان يرسل له دفعة على الحساب . ولما وصلت « العشرة باون » ارتفعت معنويات الطبيب المؤلف ، لان المبلغ ضمن ايجار العيادة للاشهر الثلاثة القادمة . ولما اشتهر اسم دويل سارع محرر المجلة الى نشر قصصه تحت اسم المحرر نفسه ، فاقتصد بذلك « معروفه » السابق بارسال الباونات العشرة . مرة كل يومين او ثلاثة كان الدكتور دويل يستقبل مريضا لا يستطيع دفع اكثر من شلن ونصف . وبعد اسابيع وصل اخوه الاصغر ليقيم معه في بورتسموث ، فكان خير عون للطبيب في تنظيف الدار ، رغم انه كان

يقتسم كسرة الخبز اليابس مع اخيه الطبيب . مرات عديدة اضطر دويل ان يرهن ساعته لقاء بعض المال يعبر به ازمة من الازمات الكثيرة . كل هذا لم يجعله يحاول بعض احابيل دكتور بد ، فقد كانت اخلاق دويل من معدن اخر . ولما اوصلته رسالة توصية من عمه مدير متحف دبلن الى مطران المدينة الكاثوليكي رفض دويل استخدام تلك الرسالة لتحسين مدخوله في العمل فمزق الرسالة ولم يذكرها لاحد . ومرة رمى القدر في طريقه صاحب دكان اغذية مصابا بالصرع ، استطاع دويل ان يخفف من نوبته ، وكانت النتيجة ان دويل حصل على مصدر من الزبدة والخضار واللحم كلما اصيب الرجل بنوبة . وعندما يتعافى يعود دويل الى الخبز اليابس . ولكن العمل ما لبث ان تحسن قليلا ، فصار دويل يخرج الى نوادي المدينة ويساهم في النشاطات الرياضية مما اكسبه الكثير من المصارف . ولكن دخله من العيادة لم يصل ارقاما كبيرة قط . فبين ١٨٨٢ — ١٨٩٠ لم يستطع ان يتدرج الى اكثر من ٣٠٠ باون في السنة . ولكن القدر هذه المرة ارسل اليه فتاة تزوج منها ، كان لها دخل سنوي بحدود ١٠٠ باون . وفي عام ١٨٨٥ ، عاد اخوه الى يوركشا ير وحصل دويل على دكتوراه الطب ، وتزوج ليبدأ حياة على شيء من الراحة المادية .

« **اثناء الانتظار** » هو عنوان الفصل الخامس . كان على دكتور دويل ان ينتظر طويلا بين زيارة مريض وآخر ، وما كان له ان يضيع وقته في الانتظار سدى . كان مشغولا « بحوك الحكايات » ويكسب من نشرها اكثر مما يكسب من عيادة الطب . فبين ١٨٧٨ — ٨٣ نشر عددا من القصص الغريبة التي استهوت الصغار والاحداث على نطاق واسع . كانت الحكاية تعود عليه بثلاث او اربع جنيهات ، وفي عام ١٨٨٣ نشرت له مجلة « كورنهل » حكاية لقاء ٢٩ جنيها (اكثر من ثلاثين باونا ، وهو مبلغ محترم في تلك الايام) . اثارت تلك الحكاية اهتماما بالدكتور دويل ، عندما ظهرت في مجلة اسسها الروائي الكبير (ثاكري) . قالت صحيفة مسائية تصدر في لندن ان الحكاية « تجعل ثاكري يتقلب في قبره » . ولكن آراء نقدية اخرى قالت ان اسلوب دويل يذكر القراء باسلوب روبرت لويس ستيفنسون . ولكن القصص اللاحقة لم تنل نفس الاهتمام ، فكان محرر « كورنهل » يرفض خمس قصص من كل ست . ولكن دويل لم يفقد حماسه فاندفع في كتابة « رواية جون سمث » التي ضاعت في البريد بين ناشر وآخر . ولم يؤثر ذلك في دويل ، لانه بعد فترة من الزمن الحقها برواية اخرى بعنوان « شركة جردلستون » . كانت الرواية الاولى سيرة ذاتية ، وكانت الثانية ملأى باوصاف محيطه وجامعته والناس الذين عرفهم . ومرة اخرى لم يفلح دويل في اقناع احد الناشرين بهذه الرواية ، ولم يفقد الامل ، فراح يقرأ كثيرا من قصص المغامرات ويدرس شخصيات الامريكي ادجار آلن بو ، مطورا بعض تلك الشخصيات لتناسب الدكتور بل في جامعة ادنبرة ، فكان اول ظهور لشخصية (شرلوك هولمز) في روايته التي انجزها عام ١٨٨٦ بعنوان « دراسة بالاحمر » . ولم تفلح هذه الرواية على الفور ، اذ لم يدفع بها اي ناشر اكثر من ٢٥ باون فصدرت في السنة اللاحقة . وكان عليه ان يفيد من الانتظار فراح يقرأ في شغف تاريخ الحركة البيوريتانية (فرقة المتطهرين من القرن السابع عشر) اضافة الى (مقالات ماكولي) فاستغرقه ذلك سنة من

القراءة وخمسة اشهر حتى كتب رواية (ميخاكلارك) فانجزها في اوائل عام ١٨٨٨ . في هذا الوقت بدأت قصة شرلوك هومز تشتهر ، ولكن ذلك لم يساعد في ضمان ناشر لروايته الجديدة ، لان « اغلب شخصياتها تعود الى القرن التاسع عشر دون القرن السابع عشر » . وفي هذا الوقت ارتفع دخل دويل من الكتابة الى ٥٠ باون سنويا، وبدأ الحظ يبتسم له ، اذ افلح ناشر امريكي في تهريب نسخة من (دراسة بالاحمر) ونشرها في امريكا فحازت رواجا كبيرا ، فجاء ناشر امريكي اخر الى لندن يبحث عن مؤلفين بريطانيين ، وكان ان دعي دويل الى عشاء مع عدد من الادباء الايرلنديين بينهم اوسكار وايلد . كان وايلد قد قرأ (ميخا كلارك) وتحمس لها ، مما شجع دويل وكانت حصيلة ذلك العشاء الادبي ان اتفق وايلد مع الناشر الامريكي على كتابة (صورة دوريان جراي) كما اتفق دويل على كتابة (علامة الاربعة) حيث ظهر فيها شرلوك هومز للمرة الثانية . وبعد ان ظهر اهتمام النقاد برواية (ميخا كلارك) وتحمس دويل وقضى سنتين في كتابة رواية تاريخية جديدة بعنوان (الفرقة البيضاء) قرأ لها اكثر من مئة مجلد بالانجليزية والفرنسية من تاريخ الملك ادوارد الثالث « اعظم الحقب في التاريخ الانجليزي ... لان تلك الفترة شهدت ملوك فرنسا واسكتلندا في سجون لندن » . كان دويل شديد الاعجاب بالمعرفة الموسوعية لدى ماكولي ، فراح يقلد اسلوبه في كثرة التفصيلات وغزارة المعلومات في رواية (الفرقة البيضاء) . وربما كان ذلك اكبر ما يؤخذ على الرواية كما يؤخذ على روايته الاخرى (سرنايجل) . هنا يحار المرء وهو يقرأ ان كان الكتاب تاريخا ام رواية تاريخية . والفرق ان على الروائي ان يمزج الحقائق بشيء من الخيال كي يخلق روح العصر فيلمس القارىء مظاهر الحياة فيه ، وذلك ما لم يفلح دويل في بلوغه في رواياته التاريخية . ولكن دويل كان شديد الاعتزاز برواياته التاريخية ، ولم يكن ينظر نفس النظرة الى القصص والمغامرات التي « يحوكها » في سهولة ويسر . ولكن الواقع اثبت ان تلك القصص هي التي خلدت ، رغم ان الفنان لم ينفق عليها من الجهد ما انفقه على رواياته التاريخية . واذ كان يحسب تلك القصص دون براعته الفنية ، فقد كان جلبرت وسليفان من نفس الرأي حول الاوبرات التي خلدت اسميهما وطبعت العصر بطابعهما . في قصصه ومغامراته كان دويل يعبر عن ضمير العصر ويعكس رغبة القارىء العادي . فقد كان من « اوساط الناس » وهو الذي يقول عن نفسه انا « الرجل الذي في الشارع » . لقد كان العصر يتفجر بحثا عن المغامرة وعن كل ما يبعده عن القوالب الفكتورية في « السلوك المحترم » فكان دويل يكتب لمثل هذا الجمهور بين ١٨٨٥ ـ ١٩٠٠ . ومثل غالبية الناس في فترة « نهاية العصر » ممن لم يكتمل تطورهم الروحي ، كان دويل شديد الولع بالروحانيات والتنويم المغناطيسي وما يقع خارج حدود الخبرة المألوفة ، فاستهوته البوذية زمنا وكتب عن ذلك بعض القصص التي ظهرت في اواسط التسعينات . وكان دويل طيلة حياته مولعا بالمغامرة ، فبلغه في عام ١٨٩٠ ان (الدكتور كوخ) في برلين اعلن عن طريقة لمعالجة مرض السل ، فقرر ان يزور برلين ويقابل الرجل ، وهكذا فعل ، ولكنه لم يفلح في المقابلة . وفي الطريق تعرف على طبيب ناجح في لندن اقترح عليه دراسة طب العيون في النمسا لمدة ستة اشهر ليعود ويفتح عيادة في لندن بدل الاقامة في الاقاليم .

واستهوته الفكرة ، فشد الرحال الى فينا في اول العام ١٨٩١ ولكنه برم بالدراسة في اول ثلاثة اشهر فعاد الى لندن ، وفتح عيادة لطب العيون ،واثناء الانتظار ، كان يشغل وقته بكتابة القصص.

الفصل السادس يدور عن «شرلوك هومز». هذه المغامرات اشغلت قراء الانجليزية في اواخر القرن الماضي اكثر مما اشغلتهم قصص ديكنز في اوائل القـــرن . كان الكاتب الشـــهير ج.ك تشيسترتن يرى لو ان ديكنز قيض له كتابة مغامرات هومز لجعل كل شخصية في شفافية هومز نفســه . ولكن كاتب هذه السيرة يرى ان ذلك كان سيفسد القصص جميعا ، لان دويل كان يقدم شخصيات بارعة اخرى ولكنها تزيد من تألـــق شخصية هومـــز الاساسية . وفي الوقت الحاضر نجد تسعين بالمئة من القراء يعرفون ثلاث شخصيات ادبية شهيرة الى جانب هومز ، اثنتان منها من صنع شكسبير وهما روميو ، رمز الحب، وشايلوك رمز الجشع ، والشخصية الثالثة هي روبنسن كروزو رمز المغامرة . امـــا الشخصية الرابعة الشهيرة لدى القراء فهي شخصية هومز ، رمز الروح الرياضية المغامرة . ويضاف الى ذلك ان شخصية هومز وتصرفاته تصور حياة لندن في اواخر القرن الماضي وبخاصة شارع بيكر . وقد تكون تفصيلات الحياة وشارع بيكر غير دقيقة تماما ولكن القارىء لا يلتفت الى ذلك تجاه المتعة التي يقدمها الخيال شخص هومز الذي يريد ان يتقمصه كل انسان ، تماما مثل شخصية هاملت ، او مثل دون كيخوته الذي يدافع عن المظلومين ويقف وحده تجاه قوى الظلام ، ومعه تابعه سانشو بانزا ، كما يفعل هومز ومعه تابعه دكتور واطسن . وليس غريبا ان يكون دويل متأثرا من قراءاته الواسعة سواء في ادب فولتير او في قصص بو ، او في بناء شخصياته على نماذج عرفها في الحياة العامة . ولكن طابع شخصيات المغامرات يبقى متفوقا على ذلك جميعا ، ويختلف عنها قدر ما تختلف شخصية دكتور واطسن عن شخصية دويل نفسه . في عيادة طب العيون في حي معروف بلندن كان ثمة « غرفة فحص وغرفة انتظار » ، يخبرنا دويل : « في غرفة الفحص كنت انتظر ، وفي غرفة الانتظار لم يكن ثمة من ينتظر ».

ولكن الوقت كان يستخدم في كتابة القصص ، وراح دخله يتزايد حتى بلغ ٥٠ باونا للقصة الواحدة في عام ١٨٩١ ، ولم تكن تستغرق كتابة الواحدة اكثر من اسبوع واحد . وفي نهاية عـــام ١٨٩٣ وضع حدا لحياة ذلك المخبر البوليسي ، بعد ان احس انه قد كتب عنه ما فيه الكفاية ، ولم يفكر باعادته الى الحياة قبل مرور سنوات عديدة . وبالفعل ، في ختام عام ١٩٠٣ بدأ دويل سلسلة جديدة من مغامرات هومز . واذ اصبح متحررا من عاقلة الفقر صارت قصصه اكثر نضجا وادق هندسة ، كما يشير في مذكراته وكما يعرف من قرأ تلك القصص . وكانت القصـــة الستون هي الاخيرة في مغامرات شارلوك هومز ، وقد نشرت في مجلة (ستراند) في نيسان / ابريل ١٩٢٧ ختم بها دويل فترة طويلة من الزمن في امتاع القارىء « باخذه بعيدا عن متاعب الحياة ، الامر الذي لا يتم الا عن طريق الخيال » .

يتحدث الفصل السابع عن « الاصدقاء والشهرة » . كان من يزور دكتور دويل في منزله يدهش لمرأى رجل رياضي متواضع ودود سرعان ما ينسجم في اية جماعة . ولم يكن يشبه قط

سورة الفنان في اواخر القرن الماضي ، رجل عليه سيماء التخنث والخفر ، وهو ما سخر منه اوسكار وايلد . كان دويل يحق « الرجل الدقيق الشارع » كما قال عن نفسه ، و « الرجل الذي كتب كتبا جيدة ولكن لا يبدو عليه انه قد سمع بشيء اسمه كتاب » كما قال عنه انتوني هوب مؤلف رواية (سجين زندا) التي اشتهرت تسعينات القرن الماضي . عرف دويل عددا من مشاهير عصره من الكتاب امثال جيروم ك. جيروم ، روبرت لويس ستيفنسن الذي توفي قبل ان يكمل روايته الاخيرة (سانت ايفز) وطلب الورثة من دويل ان يكملها ولكنه « لم يجد في نفسه الكفاءة » . وقد طلب الكاتب جرانت آلن في وصيته ان يطلب من دويل اكمال اخر فصلين من روايته (هيلدا ويد) . وكان دويل يعتز بصداقة ميريدث ، اشهر كاتب في اواخر القرن الماضي كما جمعته صداقة مع توماس هاردي . وفي اثناء ذلك كله كان دويل يكتب باستمرار حتى بلغ دخله من القصة الواحدة ١٥٠ باونا ، فجمع في عام ١٨٩١ اكثر من ١٥٠٠ باون . وفي عام ١٨٩٤ طلب اليه القيام برحلة في اميركا لتقديم قراءات من قصصه فذهب بصحبة زوجته واخيه وحقق نجاحا كبيرا ، وعاد الى لندن وقد حصل من جولته الف باون ، وقام بزيارات عديدة ابرزها زيارة روديارد كيبلنج الذي كان يقيم في فيرمونت . والجدير بالذكر ان دويل كان هو اول من ادخل لعبة الجولف الى اميركا ولم تكن معروفة هناك حتى ذلك الوقت .

في **الفصل الثامن** نجد مؤلف هومز يقتبس من « مذكرات باربون ده ماربو » من ايام نابليون ، ويصنع منها (مغامرات البريجادير جيرارد) وهي قصة تفيض بالخيال والمغامرات صنعها الكاتب على النقيض من رواياته التاريخية السابقة . كان نجاح هذه المغامرات الجديدة بعد الفراغ من مغامرات هومز ، وبعد عودته من رحلته الاميركية . وكان اهم سبب في نجاح تلك القصص ان القارىء الانجليزي يتساهل في قبول الفرنسي يقوم بدور البطل اذا كان ذلك البطل مبعثا للضحك ، وهو ما فعله دويل معتمدا على الاصل الفرنسي ، محاذرا ان يبدو على تلك القصص ملامح البحث والتقصي والجهد التاريخي .

«الرجل النشاط» هو موضوع الفصل التاسع : اضافة الى ادخال لعبة الجولف الى اميركا ، كان دكتور دويل اول من ادخل رياضة التزحلق على الجليد الى سويسرا . كان ذلك في اوائل ١٨٩٥ ، وبشطحة من شطحات خياله الخصب استطاع تحويل استعمال الزلاقات في القطب الشمالي وجرينلند الى زلاقات تربط بالقدمين وتستعمل للرياضة في ثلوج سويسرا . ولكن احدا لم يعترف له بالفضل ماديا او معنويا . وبعد ان انجز مغامرات جيرارد عام ١٨٩٥ بدأ دويل في كتابة (رودني ستون) اول رواية تدور حول الملاكمة . لم يكن غير دويل من يمتلك الجرأة على التحدث عن الملاكمة كفن ، فاستطاع اقناع مجلة (ستراند) بنشرها على حلقات استهوت القراء بما فيها من تفصيلات ومغامرات . وفي اواخر عام ١٨٩٥ سافر دويل الى مصر لتفيد زوجته العليلة من الشمس والمناخ الدافىء ، فاقاما في فندق ميناهاوس قرب الاهرامات . كان اول ما سمع في مصر ان مغامرات شرلوك هومز قد ترجمت الى العربية وفرضت كتابا مقررا في مدارس الشرطة

بمصر . وفي أوائل عام ١٨٩٦ قام برحلة الى اعالي النيل حتى وادى حلفا ثم قام برحلة الى البحيرات المالحة في عربة مزركشة كانت قد جهزت لاستقبال نابوليون الثالث الذى كان ينتظر لافتتاح قناة السويس . في ١٨٩٧ كان دويل قد عاد الى انجلترا ليقيم في دار شيدها في (سرى) . في ذلك الوقت كان دويل يميل الى الدعوة للسلام ونبذ الحروب فساهم في دعوة قيصر روسيا لاقامة مؤتمر سلام في لاهاي . وفي أوائل ١٨٩٩ حضر اجتماعا لهذا الغرض وحضر معه جاره برنارد شو الذى بدا كأنه يساند الحرب اول الامر ولكنه اعلن عن مساندته مؤتمر السلام . ولكن دويل ما لبث ان نبذ الدعوة الى السلام عندما اصبحت بريطانيا تحت تهديد رجال (كروجر) في جنوب افريقيا وتطوع للخدمة الطبية في حرب البور . وابحر الى جنوب افريقيا في شباط / فبراير ١٩٠٠ ، ليشهد فظائع الحرب ، ويشهد خمسة الاف من الجنود يتسممون بعد أن شربوا من مياه الابار هناك . وبعد ان عاد الى انجلترا دفعه حماسه الوطني الى كتابة كراس يشرح فيه موقف بريطانيا امام الراى العالمي وجند لذلك تبرعات ومترجمين الى عدد من اللغات الاوربية . وجاءت نتيجة انتشار ذلك الكراس بالر طيب على سمعة بريطانيا في اوربا وامريكا ، فكرمته الدولة بمنحه لقب فارس ، واصبح (سر آرثر كونن دويل) عام ١٩٠٢ .

غرق الباخرة « تايتانك » هو موضوع الفصل العاشر : شأن الكثير من الناس كان دويل يحس برغبة شديدة للقيام بعمل يفيد الآخرين . وفي اغلب الحالات يتضح انه كان من الافضل ترك مثل تلك المحاولات . كانت اولى محاولات دويل لكي يحسن من احوال ابناء جلدته هو ان يخوض غمار السياسة ، فرشح نفسه للبرلمان في « الانتخابات الخاكية » عام ١٩٠٠ ولم يحالفه التوفيق . وحاول ثانية عام ١٩٠٥ وانتهى الى نفس النتيجة ، فوصل الى قناعة ان السياسة لا تأتيه منقادة اليه لجرر اذيالها فلا هي تصلح حتما له ولا هو يصلح حتما لها . واذا كان دويل لا يصلح للسياسة فيظهر انه كان يصلح للرياسة . فقد اسس وترأس « نادي الرماية » الذي اصبح مثلا في الاقاليم التي صارت تقلده فظهرت اهمية فعاليات تلك النوادي عندما قامت الحرب العظمى . ودعا الى حفر نفق تحت القنال الانجليزي يربط انجلترا بفرنسا ، وظهرت اهمية خيالاته الهومزية عندما قامت الحرب العظمى كذلك . والجدير بالذكر ان مشروع نفق القنال الانجليزي كان يتصدر الاخبار البريطانية قبل بضعة اعوام (ولا ادري ما تم بشأنه اليوم) . ثم ترأس رابطة الكشافة في منطقته كما ترأس « اتحاد اصلاح قانون الطلاق » . وشرع يدافع عن الكونغو في كتاب حمل الحكومة البلجيكية على اصلاح سياستها في تلك المستعمرة الافريقية . ثم تولى حملة للدفاع عن عاملات اوتيل متروبول في مدينة برايتن بجنوب انجلترا واستعاد لهن حقوقهن . كثير هم الناس الذين يتجردون للدفاع عن قيم معنوية ويستشهدون في سبيل عقيدة او راي . ولكن دويل كان يدافع عن امور ملموسة واشخاص بعينهم . مرة تولى الدفاع عن محكوم بتهمة باطلة ووقف في وجه البوليس والادعاء العام وكسب الدعوى . ومرة وقف يدافع عن كاهن في كنيسة . وكانت اشهر حادثة دفاع تجرد لها دويل هي مأساة السفينة

« تايتانك » التي غرقت في اول رحلة لها من ساوثهامبتن في ١٩١٢/٤/١٠ وكان على ظهرها ٢٢٠١ من الركاب . فبعد اربعة ايام من الابحار اصطدمت السفينة بجبل من الثلج الطافي وغرق حوالي ثلثي الركاب . وتجردت الصحافة تنهال بالائمة على قبطان الباخرة ، وكان اشهر المهاجمين برناردشو . ولكن دويل تجرد للدفاع عن القبطان قائلا انه كان يؤدي واجبه وينفذ التعليمات على ادق وجه . وكانت مناقشة حامية على طرفي الاطلسي ، دخل فيها المنطق والقانون وكثير من العواطف والتفصيلات الفنية . وكانت مقارعة شهيرة بين دويل وبرناردشو كسب فيها منطق الاخير ولغته اللاذعة . ولكن عواطف الجماهير برغم الفاجعة كانت مع دويل ، حتى قيل « ان ٩٩٪ من الناس يفضلون ان يكونوا على خطأ مع دويل على ان يكونوا على صواب مع شو » .

« الرجل الذي في الشارع » هو عنوان الفصل الحادي عشر . في هذا الفصل يستعرض كاتب السيرة الاسباب التي جعلت سر آرثر كونن دويل محبوبا من جميع الناس الذين عرفوه او قرأوا قصصه ورواياته . كان دويل ، كما سبق القول ، رمز الروح الرياضية المغامرة التي يتعشقها الفرد الانجليزي العادي . وكانت شخصيات قصصه تمثل هذه الروح بالدرجة الاولى ، وهذا سر نجاح قصصه ، وهو كذلك سر نجاح اي كاتب يعطي القارىء ما يريده ويحلم به في الحياة . فقد كان دويل يرغب في تجربة كل شيء في الحياة . ففي عصر البالون حاول دويل ان يهبط بالمظلة من البالون « حبا بالمغامرة » مثلما سبق له ان تسلق الاهرامات وتحدث عن مراقبة الآخرين وهم يعانون مخاطر الصعود والانزلاق . ولكنه في مغامرة البالون اقتنع بالصعود الى ارتفاع ستة آلاف قدم فوق « القصر البلوري » في قلب لندن . كان يعارض الرماية من اجل الصيد والقنص ، ولكنه لا يمانع في صيد السمك « لان السمك من ذوات الدم البارد ، ولا يحس بالالم الذي يحسه الارنب البري او الغزال » . كانت قصص دويل تشبع رغبة « الشخص العادي » في البحث عن المغامرة والغموض والدهشة . ولكنه احيانا كان يخلط بين الخيال والتصور . فالتصور يعتمد المثيرات كما يفعل « الكاري في طعام غير شهي » . ولكن الخيال يعالج امور الحياة اليومية ولا ينزلق نحو التافه المبتذل ، وهو ما نجده في « خيال » شكسبير ولا نجده في « تصور » ديكنز . كان اعجابه « بتصورات » بو قد جعل من بعض قصصه ما يفوق قصص بو في اثارة الرعب احيانا ، فيعطي القارىء « صدمة جسدية » بدل ان يعطيه « رعشة فكرية » وكان اعجابه بقصص الفرنسي موباسان في نفس الطبيعة ، ولكن ولع الفرنسي بالجنس يقابله ولع الانجليزي بالرياضة . ومن امثلة الطبيعة الانجليزية « في ادب دويل هذا الولع الانجليزي بتقليل اهمية الذات واعطاء الانجاز الشخصي اقل مما يستحق من التقدير . وهنا تذكرنا هذه الصفة في ادب دويل بصفة مشابهة لدى اول واهم شاعر انجليزي : جفري تشوسر ، الذي كان لا يقلل من التقليل من قيمة « حكايات كانتر برى » وهي الحكايات التي تطفح بالمتعة والبراعة . كان دويل يقول : « اذا كنا نحن اصحاب الحكايات لا نتمتع بعقول عظيمة

فبوسعنا في الاقل ان نقدم ما يريح عقول الاخرين الذين يقومون باعمال اكثر اهمية مما نقوم به نحن . كان في مقدور دويل ان يتحدث عن كل شيء من الرياضة الى الادب الى الحرب الى التعذيب الى السياسة الى العلوم الى القتل.... كل ذلك بما يظهر اهتماما متساويا في جميع المسائل . وقد جرب دويل حتى المسرح والسينما منذ بداية الافلام الصامتة . لقد شكلت العديد من قصصه اسسا لمسرحيات وافلام نجحت بدرجات متفاوتة ، وكان كريما مع المخرجين والمنتجين ، بحيث ان احدهم ادعى انه يخسر ل انتاج مسرحيات تستند الى قصص دويل ، وبلغت خسارة المؤلف من جراء ذلك اكثر من ثمانية آلاف باون . ولكن ذلك المنتج المحتال انتهى الى الانتحار ، فاستحصل دويل ما خسره عند تصفية الحساب . وفي عام ١٩١٢ طفح خيال دويل فكتب رواية (العالم المفقود) التي تتحدث عن عالم في اعالي الامازون يعج بالتنانين والمخلوقات العجيبة ، مما دعا جامعة بنسلفانيا بامريكا ان تجند حملة الى اعالي نهر الامازون البحث عن ذلك العالم المفقود ! كانت شعبية دويل قد عبرت من امريكا الى كندا ، فقبل دعوة لزيارة كندا مع زوجته وكانت الحفاوة به تليق بالملوك . ولما عاد الى انجلترا نشبت الحرب العظمى ، فراح يملأ الصحف البريطانية بمقترحات لوقاية الجنود ، منها دروع الحديد التي بلورها في ذهنه صديقه دكتور بد في اول عهده بالطب . وجدد دعوته لبناء نفق تحت القنال الانجليزي ، واضطر البحرية الى اتخاذ اطواق المطاط والقوارب المحصنة التي انقذت حياة الكثير من البحارة في الحرب العظمى . ولكن جميع اقتراحاته ، مثل ادخال التزحلق على الجليد في سويسرا ، لم تجد من يعترف بها او يشكره عليها .

« **الوجه الاخير » هو الفصل الثاني عشر والاخير في هذه السيرة** . في الحقبة الاخيرة من حياة دويل ، بدأ يميل نحو الروحانيات . وقد كان ذلك تطورا طبيعيا في ذهن رجل لا يستطيع التخلي عن يقين يملأ عليه روحه . ففي شبابه نفر من المذهب اليسوعي والتفسيرات الكنسية ، وشغفه مذهب داروين واليقين المادي الذي يؤمن بالاشياء الملموسة . لقد قضى دويل حياته يدرس ويبحث ويطلع على كل زاوية من زوايا المعرفة ، كان آخرها الشغف بالارواح والعالم الاخر . لقد كانت بعض نتائج تلك الاستقصاءات تظهر في قصص المغامرة التي كان يحوك . وكانت الاشباح بعض مكونات قصصه . وكان دويل الى ذلك يؤمن بوجود عالم بعد الموت ، ولكن ايمانه يأتيه عن طريق مادي منطقي . « فاذا لم تكن ثمة حياة بعد الموت ، فلماذا يسعى الانسان الى اصلاح نفسه ؟ » هذا هو اليقين الذي كان يشغل دويل ، وراح يجمع حوله الاتباع ، كما يفعل كل صاحب يقين . وبدأ اصحابه الكثيرون يلاحظون هذا التطور في شخصيته في آخريات ايامه ، وبخاصة بعد الحرب العظمى . لقد كان يشعر ان عليه واجبا يؤديه في نشر هذه الاراء . مرة كان عليه ان يحاضر عن الموضوع في نوتنجهام ، وكان ابنه كنجسلي يحتضر ، فرفض ان يؤجل المحاضرة قائلا ان الجمهور قد تعلم ان يثق به ، وهو لا يريد ان يخيب املهم ، ولا امل ابنه المحتضر في ان يكون الاب امينا على مواعيده مخلصا « للقضية » . كان يضحي بكل شيء في سبيل « القضية » .

ففي اسفاره الكثيرة مع اسرته في زيارة استراليا عام ١٩٢٠ ، وامريكا عام ١٩٢٢ ، وثانية عام ١٩٢٣ ، وفي زيارة جنوب افريقيا عام ١٩٢٨ ، كان يجمع دخله من محاضراته ، وبعد ان يستقطع نفقات السفر والاقامة ، كان يتبرع بالباقي من اجل « القضية » . وبرغم ذلك كله لم يفقد ما لديه من روح الدعابة . مرة كان يزور لوس انجيليس في ضيافة « رجلي » ملك الطلك « الليان » فقال : « اذا طلكت فينوس بدت مبتذلة ، واذا طلك شكسبير بدا من الاجلاف . . . ليس من عادة الـ احتراما من الطلك . فقد يشرب الرجل خمرا ويبدو ملكا بين الملوك ، وقد يدخن فيبدو جذابا ، ولكن الرجل الذي يطلك ينقلب حيوانا في الحال ، والاسوا من ذلك ان المرأة تنقلب الى بقرة بالتمام والكمال » .

ولكن شعبية دويل بدات تضمحل منذ بدأ في مزاولة الروحانيات . ومع ذلك فقد ظهرت آخر رواياته العجيبة عام ١٩٢٩ بعنوان (اعماق ماراكوت) هنا يتحدث دويل عن احفاد حضارة منقرضة يعيشون في اعماق المحيط الاطلسي . ولكن الكتاب صورة عن انجلترا في عشرينات هذا القرن : « لم يعد ثمة حياة اسرة هادئة ، ولا عناية بالذهن ، وليس غير شعب قلق ضحل ، يتراكض خلف اللذائذ فلا يدركها . . . لقد نشأت طبقة مترفة الغنى لا تحفل بغير اشباع الرغبات الحسية ، تقابلها طبقة مترفة الفقر تسعى لتلبية مطالب السادة ، مهما تكن تلك المطالب شريرة » .

كان دويل في آخر ايامه يقلل برمه بشخصيات هومز وقصص المغامرت مفضلا عليها رواياته : (رودني ستون) و (اللاجئون) و (الفرقة البيضاء) و (سرنايجل) . ولكن الايام اظهرت ان القارىء الذي يلتفت الى هذه الروايات التاريخية يقابله مائة قارىء مشغوف بقصص هومز وجيرارد ، تلك القصص التي لا ينافس دويل فيها من الكتاب احد .

توفي دويل في ١٩٣٠/٧/٧ . وقبل وفاته بثماني عشرة سنة ، كان قد كتب ابياتا من الشعر يقول فيها :

اكون قد بلغت ما سعيت اليه	لو قدرت ان اعطي ساعة من البهجة
للفتى الذي نصفه رجل	والرجل الذي نصفه فتى .

ـ ٢ ـ

انجوس ولسن : ردبارد كبلنج وسيرته العجيبة لندن ، ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب اديب انجليزي « نصف جنوب افريقي » كما يقول عن نفسه . وقد نشر الى جانب هذا الكتاب خمسة عشر كتابا آخر في الرواية والسيرة والدراسة الادبية . والكتاب ضخم ، يقع في ٣٤٣ صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق ، تتوزعها سبعة فصول ، تزينها ٨٥ صورة وتخطيطا ، تتناول حياة كبلنج في مراحل شتى . لقد اعتمد الكاتب اسلوب

الدراسة الادبية الرصينة ، التي تستند الى الكثير من المراجع والمقابلات والاحاديث مع من عرفوا كبلنج في مناسبات عدة . يتتبع الكاتب سيرة الرجل منذ ان ولد في مدينة بمباي بالهند في ١٨٦٥/١٢/٣٠ حتى وفاته في فندق براون في لندن في ١٩٣٦/١/١٧ ، قبل يوم من ذكرى زواجه ، وهو في طريقه الى مدينة (كان) بجنوب فرنسا . ولأن الكتاب يتناول الرجل في « حياته وآثاره » فاننا نجده يمتلىء بتفصيلات دقيقة ، قد يكون من المتعب ملاحقتها ، ولكنها تشكل من الصورة الظلال والاعماق والابعاد ، وتعود على القارىء دوما بنوع من المتعة ، وقد تثير كثيرا من القصص والاشعار التي الفها كبلنج ، كما انها ـ وهذا مهم ـ تفسر الكثير من مواقف كبلنج ، سواء في الحياة العامة ، او في مواقفه السياسية التي لا يسهل على المرء ان يخرج بصورة واضحة عنها دائما . ولكن التفصيلات والدقائق تفيد القارىء احيانا ازاء موقف سياسي بعينه ؛ يتضح لدى اطالة النظر انه لم يكن سوى رد فعل شخصي في غالب الاحيان ، لا يستند الى وضوح فكر او فلسفة سياسية بعينها .

ويبدو ان الكاتب يريد ان يؤكد الناحية الفنية في اعمال كبلنج ، مشيرا في مناسبات عدة ان من الخطأ محاولة قراءة افكار الفنان في اعماله الفنية . وكأن الكاتب يريد ان يقول لنا ان عامة الناس لا يعرفون عن كبلنج سوى انه شاعر الامبراطورية ، وانه كان يعني بالسياسة بالدرجة الاولى ، وانه كان يريد ان يرى بريطانيا امبراطورية لا تغيب الشمس عن ارجائها . ويوحي الكاتب ان في ذلك كله مبالغة لا مبرر لها ، وان كبلنج اديب وشاعر وفنان ، يحب وطنه ويحب اوطان الآخرين كذلك ، طالما ليس في نية الآخرين ان يعتدوا على وطنه او على من يحب . ولكنه يحتفظ بكراهية خاصة للألمان والروس ، لم يسلم منها الاميركان ، رغم انه تزوج باميركية وعاش اكثر من اربع سنوات في مدينة فيرمونت . ومن اجل ذلك كله يصف الكاتب سيرة كبلنج بانها « عجيبة » واكاد اقول « غريبة » لان القارىء لا يخرج من الكتاب براى واضح للرجل في السياسة ، او بموقف بعينه من حزب او حكومة . فقد يكون مع صاحب راى بعينه تارة ، ولا يلبث ان ينقلب على الراى وصاحبه اذا بدا انه ضد « بريطانيا » .

يحمل الفصل الاول عنوان « الفردوس والسقوط » ويتحدث الكاتب عن مدينة بومباى على انها فردوس كبلنج الذى سقط عنه عندما اعاده والده الى انجلترا وهو في السادسة من عمره ، ليقيم ست سنوات بعيدا عن الوالدين ، وعن الفردوس . يتصدر الفصل بعض ابيات من قصيدة نظمها كبلنج بعنوان « الى مدينة بومباى » عام ١٨٩٤ ، يقول فيها ان بومباى بالنسبة اليه « ام المدائن جميعا ... ولدت عند بابها ، بين النخيل والبحر ، حيث العالم والمراكب في انتظار » . محبة الهند ومحبة الاطفال يشكلان الاساس في كل ما كتب كبلنج من قصص وشعر ، وقد بقى ذلك طابعه المميز طيلة حياته . فقد كان يجالس الاطفال ويصغي اليهم ويراقب تصرفاتهم ويتعلم منهم الكثير . ومن طبيعة الطفل ان « المكان » لديه يكبر حتى يصبح هو العالم . وهكذا كان شعور كبلنج نحو بومباى : فقد كبرت المدينة في عينه حتى

اصبحت الهند برمتها ، ثم اصبحت العالم اجمع . فهذا الحس بالمكان ، بألوانه واصواته ، هو الذى جعل قصصه عن الهند من اروع ماكتبه كاتب عن « مكان » ولا يضارعه فيها الا ما كتبه (بيير لوتى) الفرنسي عن الشرق الاقصى .

ينحدر كبلنج من سلالة تعتنق فى الدين مذهب « اصحاب الطريقة Methodist » ولكنه كان علمانيا ، مثل غالبية ابناء جيله ـ من الادباء ، لا يؤمن بما تعارف عليه الآخرون من التفسيرات الكنسية للدين . ولكن صفة « الوعظ » لدى اصحاب الطريقة تركت ميسمها فى ادبه ، فنجد شعورا يجرى فى تضاعيف ما كتب من شعر وقصص ، ان الرجل يريد ان يقول لك شيئا بعينه ، ويكاد يشير باصبعه او يرفع صوته ليقول ذلك . وكان يعارض اصحاب الطريقة لانهم يعارضون الجندية والحرب ، وكان كبلنج مع الاثنين بحكم دراسته فى مدرسة (ويستوارد هو) التي تخرج فيها قبل التحاقه بالعمل الصحفى فى الهند . وكان فى طبع كبلنج كثير من الاطراق الحزين والقلق النفسي ، يفسر هذا النزوع الى الهرب من الطرق المألوفة والخروج الى العالم الاوسع وكثرة التجوال . عمل والد كبلنج فى الفن الزخرفى والنحت فى لندن ثم حصل على وظيفة لتدريس ذلك الفن فى (مدرسة الفن) فى بمباى ، التي تعنى بتدريب الاحداث على الفنون المفيدة فى البلد ، فاصاب الوالد وزوجته سمعة طيبة فى الهند كانت خير عون لابنهما عندما جاء الى لاهور ليعمل كمراسل صحفي وهو فى السادسة عشرة من العمر . عندما بلغ (رديارد) السادسة من العمر وشقيقته (تريكس) ثلاث سنوات ، اضطر الوالدان الى العودة بهما الى انجلترا وايداعهما لدى ضابط بحرى متقاعد فى مدينة (ساوثسي) لاسباب مادية بحتة ، ولخوف الوالدين من الامراض التى كانت تتسبب فى نسبة عالية من وفيات الاطفال فى تلك الايام . اقام الصبي (رديارد) ست سنوات لم تكن سعيدة بحال ، وهو بعيد عن والديه ، فى رعاية عجوز غريب ، فظهرت لدى الصبي بوادر اضطرابات عصبية وضعف فى البصر ، مما اضطر الوالدين الى نقل الفتى الى مدرسة تعد الفتيان للخدمة البحرية ، ولم يكن الفتى سعيدا فيها قط . ولكنه فى هذه الفترة كان يقيم مع شقيقته لدى زوج خالته الفنان (برن جونز) الذى كان يعنى بالرسوم الساخرة ، مما جعل رديارد يهتم بهذا الفن كما تظهر قصصه الاولى وكثير من رسائله . وفى الثالثة عشرة اظهر رديارد كذلك ميلا الى السخرية مما ظهر فى شعره المبكر . واصابه الارق فى تلك السن المبكرة كذلك ، مما جعله يسير فى الليالي ، وهى عادة لحقته فى ايام عمله فى الهند بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الارق مما انهك صحته ، ولكن الارق كان يغذى خيال ديستويفسكى وديكنز من قبله فى تأليف القصص والحكايات . فى عام ١٨٩٤ القى رديارد خطبة فى توديع احد مدرسيه قال فيها ان « كل ما يريده المدرس والمدرسة هو صناعة الرجال الذين يصنعون الامبراطوريات ويحافظون عليها » . وبذلك اثبت كبلنج على نفسه صورة « الامبريالية » قبل ان يبلغ الثلاثين . وبسبب من اعتلال الصحة وعدم وجوده فى مدرسة مناسبة ، لم يستطع كبلنج دخول

كمبردج او اكسفورد مثل بعض اقاربه واصدقائه ، وقد ترك ذلك في نفسه شعورا بالغيرة ، انعكست في الصورة الهازئة التي يرسمها في قصصه لرجل اكسفورد مثل (جلال الدين ماكنتوش) في بعض قصصه الهندية .ولكن جامعة اكسفورد كرمته عام ١٩٠٧ بمنحه شهادة فخرية ، الى جانب مارك توين الساخرالاميركي ، فكانت تلك من اسعد اللقاءات في حياته . بقيت ذكريات المدرسة ماثلة في ذهن كبلنج ، خلال اقامته في أميركا بعد زواجه ، فكان يكتب عددا من القصص تستند شخصياتها الى عدد ممن عرف في ايام دراسته . اما شعره فهو يعكس اهتماما بالغا بالمكان وتفصيلاته ،وكان الشعر اهم ما كتب في ايام الدراسة في (ويستوارد هو) شخصية المدير (كوم برايس ،صديق والده اذ قضى الفتى مع مدير المدرسة اول اجازاته ، مما جعله يحس بشيء من السعادة لتغير جو المدرسة اثناء الاجازة . ثم وصل والده من الهند واصطحب الفتى الى باريس ، فكانت تلك الزيارة اول ما الهب حماس كبلنج لكل ما هو فرنسي ، كما يبدو في الكثير من قصصه واشعاره وزياراته لتلك البلاد . وفي ربيع ١٨٨٢ كان كبلنج في احدى الاجازات المدرسية فتعرف على محرر (المجلة العسكرية والمدنية) الذي توسم في الفتى قابليات ادبية جمة ، فرأى ان يسرع في تمرينه على العمل الصحفي تحت اشرافه ، بناء على توصية من المدير (كوم برايس) . وهكذا كان على الفتى ان يذهب الى (لاهور) ليعمل في (المجلة) ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد في ايلول/سبتمبر ١٨٨٢ . كان الفتى يفضل البقاء في لندن ومحيطها الادبي ، ولكنه كذلك كان يريد الابتعاد عن انجلترا ، فبقي موزع المشاعر ، واختار الذهاب الى حيث والديه ، ليبدأ حياة من الادب الصحفي ويشق طريقه نحو الشهرة .

« **عودة الى الفردوس للعمل » هو عنوان الفصل الثاني** ، حيث يستعرض الكاتب السنوات السبع من حياة كبلنج في الهند بين ١٨٨٢ – ٨٦. كان هذا الشاب الضعيف البصر المصاب بالارق يدعو (لاهور) « مدينة الليل المرعب » واحيانا : مدينة الموت » . فقد كان يسير الليالي ساعات بطولها ، يراقب ويسمع ويكتب عن خبرته قصصا وتقارير صحفية عن « بوابة دلهي » ومقاهي الحشيش التي يديرها صينيون يتاجرون بالمخدرات والرعب ... عن المآذن والجوامع التي بناها سلاطين وفاتحون ، عن البشر المعذب على قارعة الطريق بين الفقر والامراض ، عن الالوان الصارخة والموسيقى الصاخبة برغم كل ما حول البشر المعذبين في تلك الارض . يجد المراقب المدقق في مدينة لندن ملامح في قصص ديكنز ، ويجد في باريس ملامح في قصص بلزاك واميل زولا ، ويجد في لينينغراد ملامح في قصص ديستويفسكي ، ولكن مدينة لاهور لم يبق فيها ما يكتبه الاخرون ، لأن كبلنج قد كتب كل شيء وخبر كل شيء في المدينة ، واودع تلك الخبرة في « قصصه الهندية » وفي « كتاب الادغال » . وكان في ذلك كله يعبر عن محبة عميقة للهند واهلها ، ولا ينظر باحترام الى موقف « اليوراسيويين »وهم الانجليز المقيمون في الهند ، لأن اقامتهم كانت تتميز بنظرة متعالية نحو « الاهالي » ولكن كبلنج كان يرفض « الروح السياحية » لاولئك

الاوربيين فى الهند . كان يقول : يجب ان تكون الهند حياتك جميعا او لا شيء غير ذلك . وقد خبر كبلنج حياة الهند فى المدن المجاورة لمدينة لاهور وكذلك المدن البعيدة عنها مثل (سيملا) و (الله آباد) (مدراس) التي مر بها عاجلا فى رحلة بين سيلان ولاهور . كانت هذه الملاحظات والانطباعات تشكل « هند الخيال » فى ذهن كبلنج ، الهند التي كتب عنها اجمل قصصه واشعاره . اما « هند الواقع » التي عرفها بين اواخر عامه السادس عشر واواسط عامه الثالث والعشرين فتبدا فى وصوله بومباى ، مسقط راسه ، فى آخر تشرين الاول / اكتوبر ١٨٨٢ ، حيث استقل القطار الى لاهور فوجد والديه مع محرر (المجلة العسكرية والمدنية) ستيفن ويلر ، الذى سبق ان قابله فى لندن . كان محيط الوالدين والاصدقاء فى لاهور محدودا ، وكان دخل الادب لا يشجع على التوسع فى العلاقات الاجتماعية . وبرغم ذلك فقد كان الوالدان على صلة طيبة باثنين من كبار المحررين فى المجلة ، الى جانب محرر جريدة (الرائد) شقيقة (المجلة) فى مدينة (الله اباد) . وكان وصول رديارد ليعمل فى تلك السن المبكرة ويكسب دخلا اضافيا مما انعش حياة الوالدين فى لاهور ، وشجع على استقدام شقيقة رديارد (تريكس) من انجلترا بعد وصول رديارد بسنوات قليلة . وقد تحسن الوضع الاجتماعى للوالدين حتى اصبحا من اصدقاء نائب الملكة فى الهند .

راح الفتى رديارد يعمل بحماس فى المجلة ، ولما مرض المحرر تولى الصحفى الشاب تحرير المجلة وادارة العاملين فيها ولما يبلغ السابعة عشرة . وكان اهم عمل صحفى هو ترجمة الصحف الروسية الصادرة بالفرنسية عن المناوشات على حدود الافغان ، وكانت معرفته بالفرنسية خير عون له فى هذا المجال ، مما اعطى المجلة طابعا مميزا فى لاهور . كان يبحث دائما عن المغامرة ، وقد شهد مرة احداثا فى اهالى البنجاب تتميز بالقسوة والرعب ، نجدها فى تضاعيف قصصه اللاحقة عن حروب جنوب افريقيا او الحرب العظمى . ولانه كان يفضل مراقبة الاحداث على الطبيعة فانه لم يكن يرتاد (نادى لاهور) برغم الاحاديث التي كانت تدور فيه عن حياة الانجليز فى الهند . كان يفضل المشي ليلا بعد تعب المجلة نهارا ليشهد حياة الليل فى تلك المدينة الخرافية . ولا يستطيع احد ان يجزم كم من حياة الليل خبر الفتى وفى الواقع ، ولكن الاكثر قبولا انه كان يستخدم تلك الوقائع ليحولها فى خياله قصصا مثل « دون امتيازات رجال الدين » وهى القصة التي تتحدث عن مغامرات (هولدن) و (اميرة) . وفى عام ١٨٨٦ بدا كبلنج يكتب قصصا لصحيفة (الرائد) جمع ٣٩ منها بعنوان (حكايات بسيطة من التلال) . ومهما يكن راى النقاد فى تلك القصص الهندية المبكرة فان « نسبة عالية من قراء تلك الصحف قد نجحوا فى امتحانات المسابقة بما يفوق قراء المجلات الانجليزية فى لندن فى تلك الايام » .

وفى خريف ١٨٨٧ انتقل كبلنج لتحرير الملحق الاسبوعى لصحيفة (الرائد) فنشر فيها الكثير من القصص التي اشتهر بها خارج الهند ، رغم ان اغلب تلك القصص كانت دون مستوى الجودة ، سوى واحدة بعنوان « كوميديا عرضية » وفى عام ١٨٨٩ سار بوسع الشاب رديارد ان

يقف على قدميه في عالم الكتابة دون مساعدة الغير، فأقام في (الله آباد) وهنا تعرف على أستاذ في الزراعة وصل الى الهند مع زوجته الاميركية : البروفسور هل . كانت صداقة كبلنج مع هذه الاسرة الجديدة متنفسا له من القوانين المفروضة من الانجليز على حياة الهنود ، وقد سبق للصحفي الشاب ان اشتبك في مناقشة حول اسلوب التعليم المفروض على الهند من اناس يحسبون أنفسهم أعلى منزلة في مجال الحضارة . وفي هذا الوقت بدأت المجالات الادبية في لندن تلفت النظر الى اعمال كبلنج ، مما جعل رحلته الى انجلترا مع أسرة هل ممتعة جدا ، اذ بدأت من كلكتا الى بورما الى سنغافورة الى اليابان ثم الى سان فرانسيسكو حيث وصلوها في آذار/مارس ١٨٨٩ ومنها بعد اقامة قصيرة في اميركا ، الى لندن . ولم يعد كبلنج الى زيارة الهند سوى زيارة قصيرة لوالديه في لاهور عام ١٨٩١ . وعندما أقام في لندن بعد هذه السفرة الطويلة والابتعاد عن الهند راح يعبر عن اشمئزازه من الحياة في لندن من خلال قصص نشرها على لسان شخصيات هندية خيالية . بقيت محبة الهند تطغى على قصص كبلنج حتى عند زيارته جنوب افريقيا ، حيث كان يكتب قصصه عن تلك البلاد ، ولكن شخصياته كانت هندية في الاساس . في عام ١٩٠٥ رفض كبلنج ان يرافق (امير ويلز) في زيارته الهند ، كما رفض ان يقيم مع (اللورد كرزن) نائب الملك في الهند عام ١٩٠٧ قائلا انه لا يريد ان يرى الهند وقد تغيرت عما كان يعرف في أيامه الاولى وفي شبابه في العمل الصحفي . وهذا الجانب من معرفة الهند في ادب كبلنج يجب ان يبقى الاساس في تقويم انجازه في الشعر والقصة القصيرة الى ان تمه ؟ رواية (كيم) . ففي تلك الاعمال المبكرة نجد التفرد الذي يميز اسلوب كبلنج في نظرته الى البلاد واهلها ، وهذه هي الصفة التي تجعله مختلفا عن غيره من الكتاب . ففي تلك القصص يجمع عالم الطبيعة مع عالم الحيوان الى جانب العالم البشري . وثمة جانب « وعظي » في تلك القصص حول « القانون » يحمل الى القارئ احتراما لأسلوب الحياة في الهند الى جانب اسلوب الحياة الاوروبية وينتهي الى القول ان عقيدة الغرب حول اهتمامات الانسان سوف تسود في النهاية ، وبخاصة في الازمات . بدأ كبلنج يفكر في كتابة (كيم) في اول عهده بالحياة الزوجية عندما اقام في فيرمونت ، ثم اكمل الرواية عند والديه ، مستغرقا في ذلك أطول وقت قضاه في انجاز أي كتاب . في هذه الرواية نلمس محبة كبلنج المغامرة والتجربة وفي تقليد عبارات الناس مفرداتهم . وفي هذه الرواية نجد ملامح من « الوعظية » في الفن ، ولكن عالم « كيم » لا يختلف عن العالم المألوف بخيره وشره .

« **معرض الخيلاء** » **هو عنوان الفصل الثالث** ، الذي يتحدث عن زيارته الاولى لاميركا عام ١٨٨٩ ، حيث أحب البلاد ولكنه لم يحب الناس فيها ، وكأنه لم يقدر له أن يحب من البلاد والناس الا الهند الهنود . كذلك كان حاله في لندن حيث لم يكن يحب الانجليز الذين عرفهم في المحيط الادبي في لندن ، ولا هو كان معجبا بالملكة فكتوريا نفسها « امبراطورة الهند » وقد ظهرت كراهيته لخيلاء بعض البشر يوم غرقت الباخرة « تايتانك » فوجد في غرقها نموذجا رمزيا

لما يمكن ان تؤديه خيلاء الانسان ولغته الزائدة بنفسه . كان عليه خلال رحلته الطويلة من الهند الى لندن عن طريق الشرق الاقصى واميركا ان يراسل صحيفة « الرائد » ويوافيها بمقالات عن مشاهداته . ولانه كان قد ترك قلبه في الهند ، فقد كان عليه خلال الرحلة « ان يدافع عن الهند ضد ما لا يقل عن ثلاثة ارباع سكان العالم » . في الرابعة والعشرين من عمره بدا يتشكل في ذهنه « الحلم الامبراطوري » عندما مر بسنغافورة في اول مراحل تلك الرحلة الطويلة . صار يقول ان المناخ الاستوائي لا يصلح لاقامة الانجليز فترات طويلة ، لذا يتوجب على المستعمرات ان تبقى معتمدة على الحكومة المركزية في لندن ، والا انطلقت في سبيل حريتها . وفي هذا الشعور كان كبلنج دائم الخوف من « العدو الخارجي » وهذا هو الاساس في مشاعره « الامبراطورية » .

وعندما وصل لندن قادما من اميركا ، كان على وشك ان يتم خطبته لكارولين ، شقيقة السيدة هل ، بعد ان زار اهلها في بنسلفانيا ، وكانت هي في طريق العودة مع شقيقها الى (اله اباد) وهنا صار كبلنج وحيدا في لندن ، وصار له جماعات في الهند يحن اليهما ، والده واسرة هل . ولكنه اقتحم الحياة الادبية في لندن وكسب الرهان ، برغم ان سلاحه التحضيري لم يكن سوى تحضير لمعهد مدرسة وسط عاصمة تعج بالجامعيين وكبار الكتاب . وكاد ان يكسب الى ذلك عداوة وغيرة بعض المشاهير . وفي اواخر القرن كان كبلنج قد عرف في الاوساط الادبية وكانه ليس اكثر من صورة للحلم « الامبراطوري » . ولكنما زاد جمهور قرائه ، اصبح ادب كبلنج اوسع من ذلك الحلم ومن تلك الاراء السياسية الشابة ، فقد اصبح افضل من نقل صورة صادقة عن الهند والهنود ، وكان ذلك هو الجديد في المحيط الادبي في اواخر القرن الماضي في انجلترا .

بعد اقامة سنتين في لندن ، تزوج كبلنج من كارولين في ١٨٩٢/١/١٨ ، وفي الشهر اللاحق ابحر العروسان الى اميركا . جاء كبلنج الى اميركا بمشاعر مختلطة ، منها ما كان قد جمعه من قراءاته لمشاهير الكتاب الاميركان في شبابه ، ومنها ما جمعه من زيارته الاولى لاميركا بعد ترك الهند عام ١٨٨٩ . كان كبلنج قد خلف في اميركا سمعة اديب لاذع العبارة في نقد الاميركان ، اكثر مما وصف به ديكنز والسيدة ترولوب (والدة انتوني ترولوب ، التي كتبت تسعين رواية) قبل ذلك بنصف قرن . وكانت شهرته الادبية قد سبقته الى اميركا قبل وصولها هذه المرة ، وذلك من تهريب ما نشر من مقالاته عن الرحلة الاولى في مجلات الهند وبخاصة صحيفة (الرائد) . هذه المرة كان كبلنج يامل ان تستطيع اميركا بمعاونة بريطانيا القيام بتنظيم العالم بما لدى الدولتين من قدرات فائقة وتضحيات . ولكن هذا الحلم كان خطوة اخرى نحو فشل التحقيق عندما بدات الدولتان ، وبخاصة بعد الحرب العظمى ، تصطرعان على نفوذ مستقل لكل منهما . ويبدو هذا الشعور بالفشل في كتابات كبلنج منذ ذلك التاريخ حتى اخريات ايامه . ونراه ينحاز نحو اليمين المتطرف في السياسية على امل ان برامج اليمين ستحقق له احلامه . ولكن كتاباته اللاحقة اثبتت انه كان فنانا بالدرجة الاولى ، اما في السياسة فقد كان رومانسيا حالما .

فى اميركا عرف كبلنج « ارضا بلا اسوار »فيها من الحرية ما لا يوجد فى العالم القديم . ولكنه لم يكن معجبا بأخلاق الاميركان انفسهم وعاداتهم الشخصية مثل التفاخر ، البصاق ، وقاحة موظفي الجمارك والفنادق ، تدخـــل **الصحفيين فى ما لا يعنيهم من شؤون الآخرين** ، فساد السياسة ... وهى مسائل سبق ان لاحظها ديكنز قبله بنصف قرن ، ولعل أكثر ما اغضب كبلنج عدم احترام الناشرين فى اميركا لحقوق المؤلف .

يستعرض الفصل الرابع موقف كبلنج من حرب البور وما سبقها ورافقها مـن الاوضاع السياسية فى بريطانيا ، حيث نجد صورة اخرى لفكر الفنان فى آرائه السياسية الرومانسية ، وغلوائه الوطنية التي لم تتبلور فى رأى سياسي متزن ، يمكن تحديد ملامحه وآثاره فى التطبيق . فقد عاد كبلنج من اميركا ليقيم فى فندق براون بلندن ، ملتقى الاثرياء الاميركان ومشاهير المحيط الادبي فى لندن . وهنا يبدو موقف كبلنج من انجلترا وقد تغير بعد اقامته الاميركية . فقد بدأ يساهم فى جميع المناسبات والمواسم الادبية فى العاصمة وكأنه يريد الانسجام مع هذا المحيط ويحس بالعائدية اليه ، وليس من فنان لا يربد حسا بالارتباط بمكان بعينه ومجتمع بعينه . كان عام ١٨٩٧ عام الاحتفال بالذكرى الستين لتتويج الملكة فكتوريا ، وقد جلب له هذا العام اعترافا من جامعة اكسفورد ، تنامى حتى منحته الجامعة شهادة فخرية بعد عشر سنوات ، وفى عام ١٩٠٨ منحته كمبردج شهادة مماثلة . وفى عام الاحتفال قبله (نادى التايم) عضـــوا بارزا ، وهـــذا اعتراف من الوسط الادبي بتميزه وشهرته . وفى هذا الوقت تعرف على (سيسيل رودس) و (الفريد ملنر) اهم شخصيتين فى « السياسة الامبراطورية » . وفى هذا الوقت بـدأت آراؤه السياسية فى التطور بشكل مضطرب ، فنشر فى (التايمز) قصيدة بعنوان « انحسار » ينعى فيها على بريطانيا تقاعسها عن القيام بدورها فى العالم بنشر النظام والحضارة . وبعد ذلك بسنة ، نشر فى (التايمز) كذلك قصيدته التي اشتهر بها اكثر من سواها فى آرائه « الامبراطورية » وهى بعنوان « عبء الرجل الابيض » . ففى عام ١٨٩٨ كانت اميركا ما تزال أملا يراوده فى الوقوف مع بريطانيا فى تحمل عبء الرجل الابيض لنشر الحضارة . ولما قامت الحرب فى تلك السنة بين اميركا واسبانيا حول كوبا ، وجد كبلنج فى هذه الحرب مناسبة لاجتماع البلدين بتراثهما الانجلو سكسونى لوضع حد لاستعمارية اسبانيا وآرائها السياســـية التجارية العتيقة . كانت قصيدة « عبء الرجل الابيض » تمثل الجانب الايجابي للدور المنتظر من اميركا فى تعضيد بريطانيا ، مثلما كانت قصيدة « انحسار » تمثل الجانب السلبى فى موقف بريطانيا من مسؤولية التمدين والتحضير . وكان كبلنج فى الحالين مدفوعا بخوف من عدو مشترك للحضارة الانجلو سكسونية ، فراح يدعـو الـى « سلام بريطانـــى » منظم ، او « سلام انجلوسكسونى » او فى « سلام فرانكو ـ بريطانى » . كانت مشاعر كبلنج ومخاوفه بين ١٨٩٧ ـ ١٩٠١ تردد أصداء مماثلة عند عامة الناس فى بريطانيا . ومن هنا جــاءت شهرته كداعيـــة للـــروح « الامبراطورية » فى مقارعة « الاستعمار » القديم . وفى عام ١٨٩٨ كذلك قام كبلنج برحلة بحرية فى القنال الانجليزى جعلته على مقربة مـــن ضباط

البحرية البريطانية وقوت من آرائه حول دورالبحرية في نشر آرائه عن دور بريطانيا في العالم . وفي هذا الوقت كان كبلنج ما يزال على مخاوفهمن « العدو الخارجي » المتمثل في القوة البحرية الالمانية وفي « الدب الروسي » برغم آراءبلانقمن زعماء سياسة اليمين بامكان الوصول الى تفاهم مع ذلك « العدو » . ولما قامت المظاهرات في بريطانيا تطالب بزيادة القوة البحرية (رغم معارضة تشرشل) وجد كبلنج في ذلك مصداقاً لمخاوفه على المستوى الشعبي. وكان ثمة « عدو » آخر امام بريطانيا يتمثل بالفلاحين الهولنديين في جنوب افريقيا بزعامة « كروجر » وهنا بدا اهتمام كبلنج بجنوب افريقيا في الفترة ١٨٩٨ ـ ١٩٠٨ . فقد اعلن كبلنج صراحة ان « البور في اقليم الترانسفال قد يتمردون على السلطة البريطانية في جنوب افريقيا ، مدفوعين بعون من احدى القوى الاوربية، عندئذ يجب القضاء عليهم » . كان تشمبرلن ورودس وملنر قادة اليمين في معالجة الوضع في جنوب افريقيا ، ولكن كبلنج كان يراهم جميعا مقصرين في النهوض بأعباء الرجل الابيض . لقد شهد كبلنج جانبا من حرب البور ، وعمل بجد كمراسل صحفي ، وخرج بعدد من القصص عن ذلك الجنوب الافريقي ، ولكنها بأبطالها ومحيطها تبدو نسخة اخرى عن تجربته الهندية. لم تكن تلك القصص من المستوى الجيد، غير انها كانت تفصح عن مشاعره السياسية . كانت تمتلىء بالكراهية والحقد ، لا على « اعداء » بريطانيا الظاهرين ، بل على اعدائها غير المعلن منهم : المحايدين ، الاجانب الذين ساندوا البور لاجل الدولة الحرة في الترانسفال ، والمثقفين الامريكان الذين وقفوا الى جانب (كروجر) برغم ولائهم الظاهر لبريطانيا . وكان حصيلة ذلك قصتان نشرهما في « التايمز » الذي عودته الى لندن من جنوب افريقيا في نيسان/ابريل ١٩٠٠ ، وليس فيهما من القيمة الادبية قدر ما فيهما من الهجوم السياسي على « خونة الدولة الحرة » وخونة (الكاب) . وفي ١٩٠١ استدعي ملنر الى لندن فترك ادارة (الكاب) وفي ١٩٠٢ توفي رودس فجاة ، فخسر كبلنج اثنين من ابطاله في الحلم « الامبراطوري » في « جنوب افريقيا انجلو سكسونية » . وبدات آراؤه السياسية في هذا المجال تضمحل تدريجيا مع الايام . وفي ١٩٠٣ بدات احاديثه وقصصه تفصح ان بريطانيا كانت تخوض معركة خاسرة في جنوب افريقيا . رغم انه لم يستطع الاعتراف بذلك علنا . وراح يهاجم ساسة اليمين ويتهم « الطبقات العليا » في بريطانيا في سياسة الجنوب الافريقي ، ويدعو الى سياسة تخلو من « النظرة الطبقية » . وفي ١٩٠٣ لم يبق امام كبلنج في حلمه « الامبراطوري » سوى (جوزف تشيمبرلن) الذي ذهب في زيارة الى (الكاب) فراح كبلنج يكتب المقالات التي تقول ان رئيس الوزراء البريطاني وقع في حبائل (جروجر) وزعماء البور . وفي ١٩٠٩ قام (اتحاد جنوب افريقيا) وكان كبلنج في ذلك التاريخ قد نسي او كاد ينسى كل علاقة له بجنوب افريقيا ، وشغلته احداث اوربا ، فراح « يبحث عن وطن جديد لحبه » وجاء هذا الوطن في شكل فرنسا . وعندما نشر قصصه عن التجربة الافريقية ، كانت قصصا يقصد بها « ان تقرا بصوت مسموع . . . للاطفال » تمتلىء بأحاديث وصور عن ادغال افريقيا وحيواناتها ، وفي ذهنه دوما خبرته الهندية .

« الحماقة وسوء الحكم » : انجلترا بين ١٩٠٢ ــ ١٩١٤ « هو ما يقدمه لنا في الفصل الخامس . ففي آذار/مارس/١٩٠٥ كتب كيلنج من جنوب افريقيا الى صديقته مسز هل ، اخت زوجته ، قائلا ان قصصه الافريقية التي ظهرت قبل ذلك بسنة بعنوان (مشاغل واكتشافات) كان المفروض فيها أن تظهر تحت عنوان احدى القصص « جيش الحكم » وتكون بمثابة كراسة سياسية . ولكن تبرير فشل تلك القصص البحرية لم ترتفع الى مستوى الجودة ، يستثنى من ذلك قصتان : « لاسلكي » و « هم » اضافة الى قصة واحدة ممتازة بعنوان : « تحت سدة الطاحون » . في هذه القصة تعبير عن خوف كيلنج وخيبة امله عن فشل انجلترا في مهمتها التحضيرية التمدينية واخفاقها في الاستعداد للمستقبل . والقصة في اطارها هجوم سياسي على حكومة المحافظين عام ١٩٠٢ . ومع مجيء حكومة الاحرار عام ١٩٠٦ زادت مخاوف كيلنج على مستقبل بريطانيا بما انطوت عليه سياسة تلك الحكومة من « غوغائية وفوضى وفساد تحت اسم « الاشتراكية » وفي عام ١٩٠٨ نشر كبلنج قصة تنطوي على هجوم سياسي على حكومة الاحرار بعنوان « الخلية الام » . ليس في القصتين من القيم الادبية ما يجعلها موضوعا يرجع اليه ، لأن الهجاء السياسي في الادب موقوت بزمان ومكان ، حتى هجاء شاعرين كبيرين مثل وزن درايدن وبايرن . ولا يمكن مقارنة الهجاء السياسي عند كبلنج بكتابات جورج اورويل مثلا ، فضلا من جوناثان سويفت في (رحلات جليفر) . ولكن اشعاره السياسية امتدت بين ١٩٠٢ ــ ١٩١٢ ، تتبنى قضية الجنود العائدين من جنوب افريقيا » وترسم لهم مستقبلا وحلولا على شكل : الامبراطورية ، الهجرة ، الاستيطان في استراليا . في هذه الفترة راح كبلنج يجاهر بعدائه السياسي لنقابات العمال والاشتراكيين وعشاق الديمقراطية والطبقات التجارية ، قائلا ان ذلك كله لن يصمد عندما يداهمنا « العدو » . كانت السياسة الداخلية ابرز نقاط الضعف في حكومات اليمين المتطرف ، الذين كانوا يرون بناء الامبراطورية متصلا بالتغير الاجتماعي في الداخل ، وهو ما يذكرنا بآراء ديكنز ورسكن وتسون من الادباء في وجوب اخماد التمرد في جمايكا . وذلك التغيير يحتاج الى معرفة دقيقة باوضاع المستعمرات وأوضاع بريطانيا ، مما لم يكن في مقدور اى سياسي او فئة حاكمة في تلك الايام ، رغم ان الحديث عنه كان بمقدورهم جميعا ، ولكنهم كانوا يقصرون لدى التطبيق ، بما في ذلك كبلنج نفسه . واذا كانت قصة « جيش الحلم » التي اراد لها كبلنج ان تكون عنوان هجائه السياسي ، ليست سوى دعاوة سياسية محكومة بظروفها الآنية ، فان اهميتها للناقد الادبي تكمن في انها بداية الاضمحلال في قواه القصصية . اما هجومه على حكومة الاحرار في قصة « الخلية الام » فهي تقول ان أعداء الامبراطورية الجدد هي افكار « التقدم ، الفردية المتحررة ، مذهب السلام ، العالمية ، المساواة . . . وامثال ذلك مما يحول بين الامبراطورية وبين **مواجهة الخطر الالماني المتعاظم ضد رسالة التمدين » . ومن اجل بلوغ تلك الرسالة ، وجد ان اسلوب التطوع للجيش كان قليل الفائدة وكان من الضروري لذلك اتخاذ اسلوب « الخدمة الوطنية » الالزامي . ولكن ذلك لم توافق عليه حكومة الاحرار ، ولما قامت الحرب العظمى وجد كبلنج نفسه يلقي الخطب في الحث على التجنيد الالزامي . وفي عام ١٩٠٧ ذهب كبلنج في زيارة**

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٥٥٦١ ارتفاع ١٢ سم قطر اللوحة ١٠ سم » .

ومن عصر المماليك ، في مصر أيضا من القرن ٨ هـ (١٤ م) ، سلطانية من الخزف (شكل ٢٤) في وسطها رسم زهرة اللوتس على شكل رنك ، يحيط بها شريط عريض به كتابة دعائية بالخط النسخي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٢٧٤٣ ارتفاع ٥ر١٢ سم قطر ٢٤ سم » .

●●●

واحيانا نجد هذين النوعين أساسيين في الكتابة العربية : الكوفي والنسخي مجتمعين على تحفة واحدة امعانا في زيادة التأثير الزخرفي .

ومثال لذلك تركيبة من الخشب وجدت في القبر للمشهد الحسيني في القاهرة يظن انها صنعت في عصر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب في أواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) وعلى الجزء الذي يظهر في (شكل ٢٥) نرى ثلاثة أشرطة ، عليها كتابات قرآنية ، الاوسط منها عريض وبالخط الكوفي المزهر ، ويحده من أعلاه وأسفله شريطان بالخط النسخي . والكتابات في الاشرطة الثلاثة محفورة باتقان ودقة على أرضية من فروع نباتية مورقة تلتف برشاقة وتناسق في أعماق ومستويات متعددة ، وقد استعمل الفنان كلا النوعين بمهارة ودقة ليزيد من جمال الزخارف .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٢٥ »

كما نجد هذين النوعين من الكتابة : الكوفي والنسخي مجتمعين في ابريق من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٦) وهو من صناعة ايران في القرن ٦ هـ (١٢ م) تزخرفه أشرطة بها كتابات دعائية بالخط الكوفي أو بالخط النسخي ، وعلى الرقبة بالبارز أشكال سباع .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٣١٩٢ ارتفاع ٧ر٣٧سم »

وبالخط الكوفي وبالخط النسخي أيضا نرى كتابات على محراب من بلاطات الخزف من صناعة قاشان (شكل ٢٧) وعليه تاريخ سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦) ، وتوقيع الحسن بن عرب شاه وتتألف الزخارف من عناصر زخرفية عربية وأشرطة من كتابات كوفية أو نسخية.

« متحف الفن الاسلامي ، من متاحف الدولة في برلين ارتفاع ٢٨٤ سم » .

ومثال آخر نراه في سطح كرسي من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٨) ، في وسطه اسم « محمد » بالخط النسخي تحيط به كتابة دعائية بالخط الكوفي الزخرفي باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون والقابه. وتتكرر هذه الكتابة مرة أخرى على الحافة ، ولكن بالخط النسخي ، وتتخللها في الاركان رسوم بط طائر ، ورسوم البط الطائر نراها على عدد التحف باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ويظهر انها كانت ترمز اليه . وعلى هذا الكرسي توقيع الصانع محمد بن سنقر البغدادي ، وتاريخ سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٣٩ ارتفاع ٨١ سم قطر ٣٠ سم » .

والمقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب (شكل ٢٩) على قاعدتها من الداخل كتابة دعائية بالخط النسخي باسم السلطان المملوكي المنصور محمد بن قلاوون ، الذي حكم مصر حوالي السنتين في النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وعلى الغطاء كتابة بالخط الكوفي الزخرفي ذات حروف أطرافها مجدولة ومتناسقة ، ويحيط بالكتابة زخارف نباتية دقيقة من وردات وزهرات لوتس صينية .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٤٤٦١ طول ٢٢ سم عرض ٩ سم ارتفاع ٨ سم » .

• • •

وفي خلال القرن ٧ هـ (١٣ م) تطور الخط العربي في ايران ، واصبحت الحروف تنساب الى اليسار والى اليمين وسمي « خط التعليق » . وفي القرن ٩ هـ (١٥ م) ازداد التنميق والتعديل في « خط التعليق » الى ان وصل الفنانون والخطاطون الى اصول خط « النستعليق » . وهذا اسلوب رشيق لحروف فيها استدارة ، تجمع بين ملامح خط النسخ وخط التعليق .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٣٠) من صناعة ايران في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، نرى عليها اشرطة بها من كتابات بالاسلوب الايراني للخط النسخي وهذه القطعة محفوظة في فيرونا ، في ايطاليا .

• • •

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٩٩٦ » « فيرونا ، ايطاليا عرض ٨٫٩ سم » .

واحيانا لم يكتف الفنانون باستخدام اساليب الكتابة العربية في اشكالها البسيطة ، بل حاولوا ان يتفننوا في اللعب في اشكال الحروف المفردة ، وذلك برسمها في اشكال تنتهي برسوم مجدولة ، كما رأينا على غطاء المقلمة في (شكل ٢٩) .

وهذا هو الحال في كتابة نراها على بدن شمعدان من النحاس (شكل ٣١) عليه كتابة دعائية باسم السلطان الاشرف قايتباي وتنتهي حروفها الطويلة باشكال مجدولة تشبه القصات .

وعلى حافة هذا الشمعدان شريط ضيق فيه سطر من كتابة نسخية ، يقرأ منها ان السلطان الاشرف قايتباي قد أوقف هذا الشمعدان على الحجرة النبوية الشريفة في سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .

متحف الفن الاسلامي في القاهرة رقم السجل ٤٠٧٢ ارتفاع ٤٨٫٥ سم قطر القاعدة ٥٧ سم .

« متحف الفن الاسلامي في القاهرة رقم السجل ٤٠٧٢ ارتفاع ٤٨٫٥ سم قطر القاعدة ٥٧ سم » .

• • •

ومرة اخرى يسبح الفنان في افق الخيال ، ويجعل حروف الكتابة تنتهي بصور اشخاص في مناظر صيد وموسيقى وطرب ، ويرسم بدلا من نقط الحروف رؤوس حيوانات وطيور .

ومثال لهذا الاسلوب الفني ، نراه على رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب (شكل ٣٢) ، تزخرف الشريط العريض منه كتابة دعائية من هذا النوع ، وعلى القسم العلوي من هذه التحفة سطر كتابة نسخية باسم السلطان العادل كتبغا المنصوري الذي تولى الحكم في مصر لفترة قصيرة في سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٤٤٦٣ ارتفاع ١٤ سم قطر ٨٫٥ سم » .

• • •

واتخذ الفنانون ، في جميع البلاد الاسلامية الكتابة العربية ببراعة فائقة كوسيلة للربط بين الوحدات الزخرفية ، او بملء مناطق وجامات بكلمات ، او بأبيات من الشعر .

وعلى قطعة من النسيج (شكل ٣٣) من صناعة مصر في القرن ٢ هـ (٨ م) ، نرى عليها العناصر الزخرفية مرسومة بخطوط هندسية ، تمثل وحدة زخرفية تتألف من فارسين على الجياد في اسفل كل منهما



(شكل ١) مجموعة من ست بلاطات من الخزف ، آسيا الصغرى ، القرن ١١ هـ (١٧)



(شكل ٢) طراحة من الحرير محفوظة في كنيسة مريم العذراء بمدينة دانزيج ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



(شكل ٣) عباءة التتويج ، محفوظة في متحف مدينة فينا ، صقلية ، سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٢)





(شكل ٤) صورة تتويج العذراء للمصور فراليبو ليبي ، محفوظة في متحف مدينة فلورنسا ايطاليا ، سنة ١٤٠٦ - ١٤٦٩



(شكل ٥) صورة السيدة اليزابيث جونزاجو زوجة الدوق اوربينو ، للمصور فرانسيسكو كاروتو ، محفوظة في المتحف بمدينة فلورنسا ، ايطاليا ، سنة ١٤٧٨ ـ ١٥٥٥



(شكل ٦) صفحة من مصحف مكتوب على الرق ، محفوظة بدار الكتب في مدينة جوتا ، مصر ، القرن ٢ هـ (٨)



(شكل ٧) لوح من الرخام ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٨) قنينة من البلور الصخري، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٩) محراب صغير متنقل من الخشب . مصر ، القرن ٥ هـ (١١)



(شكل ١٠) ورقة من مصحف، العراق ، القرن ٦/٧ هـ (١٢/١٣ م) .

(شكل ١١) صحن من الخزف ، ايران ، القرن ٤هـ (١٠)





(شكل ١٢) صحن من الخزف ذي البريق المعدني ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١)



(شكل ١٣) شريط من الحرير ، سابقا في مجموعة دور ، ايران ، القرن ٦ هـ (١٢) ،



(شكل ١٤) شمعدان من النحاس المكفت بالفضة ، محفوظ في متحف فرير جاليري بمدينة واشنطن ، ايران ، النصف الثاني من القرن ٦ هـ (١٢) .



[illegible]



(شكل ١٦) صفحة في بداية مصحف السلطان الاشرف شعبان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة ، مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ١٧) حشوة من الرخام ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ١٨) شريط من الحرير ، مصر ، القرن ٦/٧ هـ (١٢/١٣)



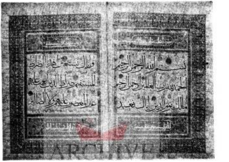
(شكل ١٩) شمعدان من النحاس المكفت بالفضة ،الموصل،اوائل القرن ٧ هـ (١٣)



(شكل ٢٠) قنديل من الزجاج المموه بالمينا للأمير الخشقا ، مصر ، أواخر القرن ٧ هـ (١٣) .



(شكل ٢١) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، للسلطان الناصر محمد بن قلاون ، مصر ، من مسجد تم بناؤه في سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨)



(شكل ٢٢) صفحة سورة الفاتحة،في مصحف السلطان الأشرف شعبان ، بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة . مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٢٢) كوب من الخزف المملوكي ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٢) سلطانية من الفخار المطلى المملوكي . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤ م) .



(شكل ٤٥) تركيبة من الخشب من مسجد الامام الحسين بالقاهرة ، مصر ، أواخر القرن ٦ هـ (١٢) .



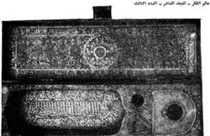
(شكل ٢٦) ابريق من النحاس مكفت بالفضة ، ايران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



(شكل ٢٧) محراب من الخزف ذى البريق المعدنى ، محفوظ بمتحف الدولة ، فى برلين . ايران ، مؤرخ فى شهر صفر سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٦)



(شكل ٢٨) سطح كرسي من النحاس المكفت بالفضة ، عليه اسم السلطان الناصر محمد بن قلاون ، وتوقيع الفنان محمد بن سنقر . مصر مؤرخ ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .



(شكل ٢٩) مقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب ، عليها اسم السلطان المنصور محمد ، مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٣٠) نسيج من الحرير بخيوط مذهبة ، محفوظ بقصر فيشيو ، بمدينة فيرونا . ايران ، القرن ٨هـ(١٤) .



(شكل ٢١) شمعدان من النحاس ، عليه اسم السلطان الأشرف قايتباي . مصر مؤرخ في شهر رمضان سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .



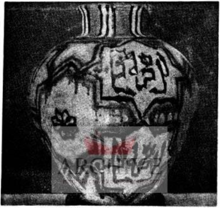
(شكل ٣٢) رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب عليها اسم السلطان كتبغا المنصوري. مصر، قبل سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤)



(شكل ٢٤) نسيج من الصوف من نوع الفيوم ، مصر ،القرن ٤ هـ (١٠) .



(شكل ٢٥) نسيج من الصوف من نوع الفيوم ، مصر ،القرن ٤ هـ (١٠) .



(شكل ٣٦) قدر من الخزف من نوع الفيوم . مصر ، أواخر القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٣٧) نسيج مطرز مملوكي ، مصر ، القرن ٨هـ (١٤).



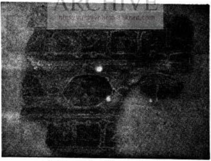
(شكل ٢٨) سجادة من نوع اصفهان ، ايران ، اواخر ١٠ هـ (١٦) .



(شكل ٣٩) نسيج مطبوع بالذهب . اليمن ، أوائل القرن) هـ (١٠) .



(شكل ٤٠) نسيج من الصوف من نوع الفيوم ، مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



(شكل ٤١) قطعة من النسيج الفاطمي ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٤٢) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(الشكل ٤٢) صحن من الخزف ذي البريق المعدني مصري ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٤٤) صحن من الخزف ذي البريق المعدني ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١م) .



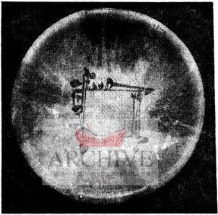
(شكل ٥) صحن من الخزف ذي البريق المعدني ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٤٦) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٤٧) صحن من الخزف ذي البريق المعدني . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٤٨) ابريق من الخزف ، ايران ، القرن) هـ (١٠) .



(شكل ٩) سجادة من نوع هولباين . آسيا الصغرى ، القرن ١٠ هـ (١٦) .



(شكل ٥٠) نسيج بخيوط من الفضة . سوريا ، القرن ١٠ هـ (١٦) .



(شكل ٥١) نسيج حرير مملوكي بتشاريات صينية ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



(شكل ٥٢) لوحة مثمنة من فسيفساء الرخام تقلد الاختام الصينية ، مصر القرن ٨ هـ (١٤)



(شكل ٥٢) بلاطة من الخزف المملوكي عليها توقيع الخزاف غيبي . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



(شكل ٥٤) سجادة صلاة من الحرير بخيوط معدنية . ايران ، أواخر القرن ١٠ هـ (١٦) .



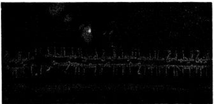
(شكل ٥٥) نسيج من الحرير باسم القائد بختجين محفوظ بمتحف اللوفر في باريس ، ايران ، توفي القائد بختجين في سنة ٣٤٩ هـ (٩٦١)



(شكل ٥٦) نسيج باسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



(شكل ٥٧) منديل باسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



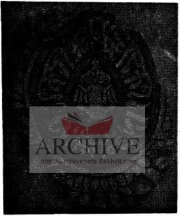
(شكل ٥٨) نسيج باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بامرالله، مصر ، اوائل القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٥٩) نسيج باسم الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام دين الله ، مصر ، أوائل القرن ٦ هـ (١٢) .



(شكل ٦٠) نسيج حرير مملوكي باسم الملك الناصر ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦١) نسيج من الحرير المملوكي عليه كتابة زخرفية ورنك نسر براسين . مصر ، اوائل القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦٢) نسيج من الحرير المملوكي بكتابة نسخية وزخارف في مربعات ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤ م) .



(شكل ٦٢) نسيج من الحرير المملوكي باسم الملك الاشرف ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦٤) بلاطة من الخزف المملوكي عبارة عن خرطوش السلطان الأشرف قايتباي . مصر ، القرن ٩ هـ (١٥ م) .



(شكل ٦٥) لوحة من الجص عليها صورة سيدة واسم المصور مطع ، من حفائر سامرا . العراق ، القرن ٣ هـ (٩)



(شكل ٦٦) صحن من الخزف عليه اسم الخزاف سهيل ، ايران ، اوائل القرن) هـ (١٠) .



(شكل ٦٧) صحن من الخزف ذي البريق المعدني ، عليه اسم الخزاف مسلم بن الدهان ، مصر ، أوائل القرن ٥ هـ (١١ م) .



(شكل ٦٨) سطل من البرونز مكفت بالفضة والنحاس ، باسم صاحبه عبد الرحمن بن عبدالله الرشيدي ، واسم الصانع محمد بن عبد الواحد ، ونقشه حاجب مسعود بن احمد في مدينة هراة ، افغانستان ، على القيض تاريخ سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣) .



(شكل ٦٩) شمعدان من النحاس مكفت بالفضة عليه اسم الصانع محمد بن فتوح الموصلي المطعم أجير الشجاع الموصلي النقاش، مصر ، القرن ٧ هـ (١٣).



(شكل ٧٠) مقلمة من النحاس المكفت بالفضة عليها توقيع شادى النقاش ، محفوظة فى متحف فرير جاليرى ، بمدينة واشنطن . ايران ، مؤرخ فى شهور سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠/١٢١١) .



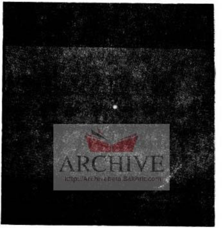
(شكل ٧١) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، باسم الماس حاجب ، وعلى القاعدة توقيع علي بن محمد امكي، مصر ، من مسجد تم بناؤه في سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠) .



(شكل ٧٢) نسيج من الساتان عليه اسم غلام شهرزاده، سابقا في مجموعة باريش واتسن ايران ، مؤرخ سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١)



(شكل ٧٢) نسيج من نوع الفيوم ، صنع في طراز الخاصة بطمود من كورة الفيوم ، مصر ، القرن ٤ هـ (١٠ م) .



(شكل ٧٤) شريط من النسيج الفاطمي عليه اسم الخليفة الطيع لله ، وصنع بطراز الخاصة بمصر ، على يد فائق مولى امير المؤمنين ، مصر ، حوالي سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢م).



(شكل ٧٥) صورة توضيحية من مخطوط مقامات الحريري للواسطي ، محفوظة في دار الكتب الأهلية ، في باريس . العراق ، مؤرخ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧) .



(شكل ٧٦) صورة من مخطوط الشاعر نظامي ، تصوير الفنان سلطان محمد ، محفوظ بالمتحف البريطاني ، في لندن . ايران ، مؤرخ ٩٤٩/٩٤٦ هـ (١٥٤٢/١٥٣٩) .

اراب جبلية تقفز تحت الخيول ، وتزخرف الارضية بين هذه الوحدات ، كلمات مفردة تتكرر بالخط الكوفى . وقد عهد الفنان الى كتابة هذه الكلمات فى الاتجاه العادى للكتابة، وذلك فى القسم الايمن من قطعة النسيج ، بينما كتبها فى القسم الايسر فى اتجاه عكسى مراعاة للتناسق الفنى . وكل ذلك امعانا فى تقوية التاثير الجمالى والزخرف .

* متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٩٧ ، ٢١×٢٥ سم * .

وعلى قطعة من النسيج من الصوف (شكل ٣٤) ينسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى ويؤرخ فى القرن ٤ هـ (١٠ م) ، تتالف الزخارف من سطرين من كتابة دعائية بالخط الكوفى ، يحدان شريطا به كلاب صغيرة بالوان متنوعة ، تجرى فى اتجاه واحد .

* متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٧٧ ، ١١٠×٧٠ سم * .

وتؤرخ فى القرن ٤ هـ (١٠ م) ، قطعة من نسيج الصوف (شكل ٣٥) تنسب هى الاخرى لاقليم الفيوم بمصر الوسطى ، عليها شريط عريض به رسوم طيور تذكرنا بالدجاج والحمام، ويظهر ان هذا الشريط كان يعلو سطر كتابة بالخط الكوفى وبالالوان ذاتها .

* متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٥٥٦ ، ٢٢×١٨ سم * .

والقدر من الخزف من نوع الفيوم (شكل ٣٦) ، يؤرخ فى أواخر القرن ٥ هـ (١١ م) ، وعليه مناطق نجمية الشكل ، تزخرف بعضها كلمات دعائية بالخط الكوفى تقرأ «بركة كاملة» .

* متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٨٠ ، ارتفاع ٢٩ سم * .

كما نجد مناطق بها كتابات دعائية بالخط النسخي على قطعة من النسخي (شكل ٣٧) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها شريط مطرز يوسطه كتابة دعائية بالخط النسخي ، تقرأ : « سعادة مؤيدة ونعمة مخلدة » . وتتكرر هذه الكتابة فى مناطق تربط بين وحدات زخرفية دقيقة.

* متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٨٥ ، ٤٠×٢٠ سم * .

ومثال آخر السجادة (شكل ٣٨) من نوع اصفهان من القرن ١٠ هـ (١٦ م) محبشة بخيوط معدنية وتتالف زخارف اطار السجادة من جامات ممتدة ، بها ابيات من الشعر ، باللغة الفارسية تربط بين الوحدات الزخرفية الاخرى . وفى وسط السجادة زخارف عربية من فروع واوراق رشيقة ومتناسقة .

* متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٧٦٤ ، ١٦٧×١٢٠ سم * .

• • •

وكثيرا ما يملأ الفنانون والخطاطون فى البلاد الاسلامية ، مساحات واشرطة بعبارات وكلمات ، او بحروف من شبه الكتابة لا رابط بينها ، ولا معنى لها سوى الغرض الزخرفى المحض .

ويزخرف قطعة النسيج (شكل ٣٩) وهى من صناعة اليمن فى بداية القرن ٤ هـ (١٠ م)، شريط عليه شبه كتابة بالخط الكوفى مطبوعة بالذهب .

* متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٧٠ ، ٤٤×٢٦ سم * .

وقطعة من نسيج الصوف (شكل ٤٠) وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى ، وتؤرخ بالقرن ٤ هـ (١٠ م) يزخرفها شريط عريض ، عليه صور سباع وعناصر زخرفية اخرى ويحده اطار به حروف من شبه كتابة.

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٩٠٥٠، ٢٦٤×١٢٠ سم *.

وشبه كتابة من الخط الكوفي، نراها تزخرف قطعة من النسيج (شكل ٤١) من صناعة مصر في القرن ٥ هـ (١١ م)، اى من العصر الفاطمي. وعلى الشريط الاوسط العريض مناطق تضم احداها ارنبا جبليا، والى اليمين جزء من منطقة اخرى من بقية رسم شجرة. وفي اعلى هذا الشريط، وايضا في اسفله سطر من شبه كتابة بحروف بالخط الكوفي.

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٤، ٢٦×٢٢ سم *.

وتوجد تحف كثيرة من الخزف من صناعة مصر في العصر الفاطمي، استعمل الخزافون الكتابة العربية بمهارة فائقة لزخرفتها في نفس اسلوب الزخارف المستعمل في الخزف ذي البريق المعدني.

والصحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٤٢) من صناعة مصر في القرن ٥ هـ (١١ م)، تزخرفه ثلاث اوراق نخيلية. وهو عنصر زخرفي شاع في العصر الفاطمي.

وبين هذه الاوراق الثلاث اشكال بيضوية لها طرف مدبب تضم شبه كتابة بالخط الكوفي على ارضية من فروع نباتية ملتفة.

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٦٩، قطر ٢٤ سم *.

والصحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٤٣) من القرن ٥ هـ (١١ م)، في الوسط رسم ارنب محفوظ بالابيض على ارضية بالبريق المعدني، وعلى الحافة زخرفة متكررة من حروف كبيرة بالخط الكوفي، لا معنى لها، ولا دلالة.

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٠٦، قطر ٢٧ سم *.

ونرى زخرفة مماثلة من ارنب جبلي محفوظ بالابيض على ارضية بالبريق المعدني، على صحن (شكل ٤٤) من القرن ٥ هـ (١١ م) ويحيط به شريط من شبه كتابة بحروف بالخط الكوفي.

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٦٧ قطر ٢٦ سم *.

والزخرفة بشبه كتابة، نراها ايضا على صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٤٥) من القرن ٥ هـ (١١ م) في شكل اشرطة تحيط برسم حيوان خرافي مجنح له راس نسر وجسم سبع (جريفون).

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٧، قطر ١٨ سم *.

وعلى صحن آخر من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٤٦) من صناعة مصر في القرن ٥ هـ (١١ م) نرى صورة طاووس، تحيط به حروف متكررة بالخط الكوفي.

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٩ قطر ٢٦ سم *.

وايضا من صناعة مصر في العصر الفاطمي صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٤٧) من القرن ٥ هـ (١١ م). عليه رسم شخص جالس يبدو انه قسم من مناظر في حفل طرب وشراب وعلى جانبيه دورقان للشراب ويمسك بيده كاسا ويحيط به شريط به شبه كتابة من حروف متكررة بالخط الكوفي.

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٥ قطر ٢٧ سم *.

ونلاحظ ان الكتابة العربية استعملت ايضا بنفس الاسلوب كعنصر زخرفي على التحف

الايرانية كما نراه على صحن من الخزف صناعة ايران (شكل ٤٨) من القرن ٤ هـ (١٠ م) . وفي وسط الصحن شكل مربع مرسوم بخطوط باللون الازرق الكوبالت ويضم شبه كتابة بالخط الكوفي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٣ قطر ١٨٫٢ سم » .

• • •

ولم يكن الخزافون وحدهم هم الذين اوحى اليهم العنصر الزخرفي للكتابة العربية بنماذج جديدة فنية ، بل ان التاثير الزخرفي للكتابة العربية قد تاثرت به صناعة المنسوجات والبسط والسجاد .

فاننا نرى في النوع المعروف بسجاد « هولباين » (شكل ٤٩) من صناعة آسيا الصغرى في القرن ١٠ هـ (١٦ م) ان الاطار مزخرف بنوع من شبه حروف كتابة كوفية متشابكة باللون الابيض . وهذا النوع من سجاد آسيا الصغرى نجده مرسوما في لوحات عدد من المصورين الايطاليين والالمان في القرنين ٩ هـ ، ١٠ هـ (١٥ /١٦ م) . ولا سيما في لوحات المصور هانس هولباين .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٦١٢ ٢٠٠×١٥٢ سم » .

وعلى قطعة من الديباج بخيوط من الفضة (شكل ٥٠) من صناعة سوريا في القرن ١٠ هـ (١٦ م) ، رسم الفنان أربعة عقود ، ترتكز على اعمدة ، تتدلى من كل عقد مشكاة تزخرفها شبه كتابة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٢٠٢١ ، ١١٥×٦٦ سم » .

• • •

كما عمل الفنانون في البلاد الاسلامية على تقليد العناصر الزخرفية الصينية ، التي كانوا يرونها على أنواع التحف الفنية والبورسيلان والسيلادون ، مما كان يستورد مباشرة من الصين الى مصر وبلاد الشرق الاوسط ، ولا سيما فيما بعد القرن ٧ هـ (١٣ م) ، وكان ينقل من الصين عبر طريق التجار القديم الى بلاد الشرق الاوسط ، حيث كان الفنانون يستوحون العناصر الزخرفية الصينية في اعمالهم الفنية .

ويبدو ان قطعة الديباج (شكل ٥١) من صناعة الصين في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، وتتالف الزخرفة من مراوح بشكل طبيعي واغصان مرسومة بشكل طبيعي ايضا بالاسلوب الصيني التقليدي . وتزخرف كل مروحة نخيلية شبه كتابة بحروف بزوايا قائمة لتقليد الكتابة الصينية وفي الوقت نفسه لكي تشبه الكتابة بالخط الكوفي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٧ ، ٤١×٢٩ سم » .

واستوحى الفنانون في البلاد الاسلامية ما رأوه من الاختام التجارية ، والكتابات الصينية فمزجوا بينها وبين زخارف ما انتجوه من تحف فنية بطريقة زخرفية محورة .

ومثال لذلك لوحة مثمنة الشكل من القسيفساء (شكل ٥٢) . من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتالف زخرفتها من كتابة عربية مكتوبة بطريقة زخرفية ، بزوايا قائمة تقليدا للاختام التجارية الصينية .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٢٠٩٧ ، ٥٤×٥٤ سم » .

ومثال آخر لهذا النوع من الكتابة الزخرفية ، نجده على بلاطة من الخزف (شكل ٥٣) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) . ملأ الفنان سطح هذه البلاطة بكتابات عربية ، للغرض الزخرفي المحض . فترى عليها في الوسط كتابة بالخط النسخي ،

تنتهي حروفها بأشكال مجدولة هندسية ، وتحيط بها على الحافة كتابة اخرى بالخط الكوفى الزخرف . وفى الاركان توقيع الخزاف المصرى المشهور « ابى بن التوريزى » وقد قصد فى أسلوب كتابته أن يقلد به توقيعات الخزافين الصينيين على الاختام التجارية وعلى منتجاتهم من البورسيلان والسيلادون، مما كان يستورد الى مصر .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٧٧ ، ٤٤×٤٤ سم » .

وعلى سجادة صلاة من الحرير (شكل ٥٤) من صناعة إيران فى القرن ١٠ هـ (١٦ م) نرى فى الركنين العلويين كتابة زخرفية لتقليد الكتابة الصينية وبينهما فى القسم العلوى من السجادة شريط من كتابة قرآنية منسوجة ، بالخط النسخي .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ١٢٦٨ » .
« متحف الجوزيرة بالقاهرة » ١٦٦×١٠٧ سم » .

●●●

ومن الطبيعى ان تضم الكتابات على التحف الفنية ، اسم صاحب التحفة او اسم من اقتناها ، مع التمنيات الطيبة والدعوات والبركات لصاحبها . ومن البديهى ايضا ان يذكر فى نصوص الكتابة اسم الفنان صانع التحفة ، وتاريخ صناعتها ، واسم البلد الذى صنعت فيه .

وتوجد قطعة من نسيج الحرير ، على سداة من الصوف (شكل ٥٥) من صناعة ايران عليها كتابة دعائية بأسلوب الخط الكوفى ، وتحمل اسم القائد الاعلى لخراسان « ابو منصور بختاجين » . ومن المعروف انه توفى سنة ٣٩٤ هـ (٩٦١ م) ، مما يؤرخ هذه القطعة من النسيج الى هذا العصر . وتزخرف هذه القطعة رسوم فيلة تحمل محفات .

« متحف اللوفر » فى باريس » ٥٤×٩٢ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٦) من صناعة مصر ، نرى عليها شريط به جامات متجاورة بكل منها صورة بطة ويحد هذا الشريط سطران من كتابة دعائية بالخط الكوفى ، باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، الذى تولى الحكم فى مصر فى اواخر القرن ٤ هـ (١٠ م) .

« متحف الفن الاسلامى » بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٥، ٣٥×٢٢ سم » .

وقطعة اخرى باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله هى عبارة عن منديل مربع من الحرير (شكل ٥٧) عليه زخرفة مطرزة من أسطر كتابة بالخط الكوفى تكرار اسم « العزيز بالله » . والاشرطة الزخرفية تحتوى على رسوم طيور تجرى متتابعة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٤ ، ١٠ × ١٠ سم » .

ومن القرن ٥ هـ (١١ م) قطعة من النسيج (شكل ٥٨) عليها سطران من كتابة دعائية بخط كوفى جميل باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله .

« متحف الفن الاسلامى » بالقاهرة رقم السجل ١٣١٧٤، ٥٢×١١٠ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٩) منسوجة بخيوط من الذهب شريط به جامات تضم طيورا ويحد الشريط على كل من جانبيه سطر كتابة كوفية دعائية باسم الخليفة الفاطمى « الامر بأحكام دين الله » ، الذى تولى الحكم فى مصر فى أوائل القرن ٦ هـ (١٢ م) . وتنتهى حروف الكتابة بمربعات بها عناصر زخرفية .

« متحف الفن الاسلامى » بالقاهرة رقم السجل ١٥٠١٩، ١٠٠×٤٠ سم » .

ومن القرن ٨ هـ (١٤ م) ، قطعة من

نسيج الحرير (شكل ٦٠) ، على الشريط الاوسط منها رسوم حيوانات ترى منها سبعا يفترس غزالا . والشريطان الاخران بهما كتابات دعائية باسم السلطان المملوكي « الناصر » .

* متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ٩٩٥١، ٥٢×٣٦ سم * .

وقطعة أخرى من نسيج الحرير (شكل ٦١) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، عليها ايضا كتابة دعائية باسم السلطان الناصر .

ونلاحظ ان الكتابة ، في القسم الايسر من قطعة النسيج تتجه اتجاها صحيحا ، بينما في القسم الايمن نرى أن الكتابة تتجه اتجاها عكسيا امعانا في ابراز التناسق الزخرفي ، وفي الوسط يوجد رنك به نسر ناشر جناحيه .

* متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ٢١٣٩، ١٤×١١ سم * .

وباسم احد سلاطين المماليك ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٢) من صناعة مصر، في القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها أشرطة بها كتابات دعائية بالخط النسخي .

●●●

* متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ١٢٦٦٧/١ ، ١٢×١٤ سم * .

وعصر المماليك أيضا ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٣) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها أشرطة زخرفية بها كتابات دعائية باسم السلطان الاشرف ، وتتابع هذه الاشرطة مع أشرطة اخرى بها رسوم غزلان .

* متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٥٥٥٤، ٣٥×٢٢٫٥ سم * .

والبلاطة من الخزف (شكل ٦٤) من صناعة مصر وهي عبارة عن « خرطوش » يحمل اسم السلطان الاشرف « قايتباى »

وقد تولى الحكم في مصر في النصف الثاني من القرن ٩ هـ (١٥م) .

* متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ٣٢٦٥، قطر ٢٠ سم * .

ونجد توقيعات واسماء الفنانين على التحف الفنية ، منذ بداية العصر الاسلامي .

فنرى على اجزاء من اعمدة القصور من مدينة سامرا صورا متنوعة على احداها (شكل ٦٥) صورة سيدة يعلوها توقيع الفنان « مقلح » مكتوب بحروف بالخط الكوفي البسيطة .

* ارنست هرتسفلد : التصاوير من مدينة سامرا ، ١٩٢٧، اللوحة ٦٧ * .

والزخرفة الوحيدة على صحن من الخزف (شكل ٦٦) من صناعة ايران في القرن ٤ هـ (١٠ م) ، عبارة عن اسم الفنان « سهيل » مكتوب بالخط الكوفي البسيط .

* متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٥، قطر ٢٢ سم * .

وعلى صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٦٧) نرى في الوسط رسم حيوان خرافي مجنح « جريفون » يتدلى من من فمه فرع نباتي . وعلى الحافة جامات بها زخارف عربية ، تتخللها مجموعات متماثلة من أوراق نباتية ملتوية ومدببة الاطراف ، والى جانب احداها توقيع الخزاف الشهير « مسلم بن الدهان » ، الذي اشتهر بصناعة الخزف ذي البريق المعدني في مصر اوائل القرن ٥ هـ (١١م) .

* متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٠، قطر ٢٤ سم * .

ويوجد سطل من البرونز مكفت بالفضة والنحاس الاحمر (شكل ٦٨) . عليه أشرطة

زخرفية ، عليها مناظر تمثل حياة الترف والطرب والموسيقى في القصور . والاشرطة الزخرفية تتابع معها ثلاثة اسطر كتابة ، الاوسط منها بالخط الكوفي والآخران بالخط النسخي . ويقرأ من هذه الكتابات ان السطل صنع بناء على طلب من عبد الرحمن بن عبد الله ، من عامل صانع النحاس محمد بن عبد الواحد . وتنص الكتابة على ان زخارف التكفيت من عمل مسعود بن احمد ، بمدينة هراة في افغانستان ، وعلى المقبض تاريخ سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م)

* متحف الهرميتاج ، في لينينجراد - ارتفاع ١٩ سم *.

من نفس الاسلوب شمعدان من النحاس مكفت بالفضة ، نرى منه تفاصيل في (شكل ٦٩) . ويؤرخ هذا الشمعدان بالنصف الثاني من القرن ٧ هـ (١٣م) . ونرى عليه اشرطة زخرفية بها مناظر تمثل الحياة في البلاط ، وفي الوسط جامة تضم صورة صياد يركب على جواد ، يتعقبه دب . وبين ارجل الجواد كلب صيد وارنب جبلي . والجامات الزخرفية تقطع سطر كتابة وتقسمه الى مناطق تملأها كتابات بالخط النسخي او بالخط الكوفي الزخرفي المجدول . وهناك سطر كتابة آخر تنص على الشمعدان صنعه الحاج اسماعيل ، وزخرفه محمد بن فتوح الموصلي ، أجير الشجاع الموصلي .

* متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢١ ارتفاع ٢٤ سم وقطر القاعدة ٣١٫٥ سم * .

والمقلمة من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٧٠) عليها كتابات بالخط النسخي . وعلى القسم الاسفل ، كما نرى في الصورة ، كتابة بالخط الكوفي تنص على ان المقلمة صنعها الكتبي شادي في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠) .

* متحف فرير جاليري في واشنطن طول ٣١٫٥سم *.

والمشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، المتعددة الالوان (شكل ٧١) عليها كتابة بالخط النسخي ، تنص على انها صنعت لمسجد اقامه الماس احد افراد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد بني هذا المسجد في سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . وعلى قاعدة المشكاة ، بالخط النسخي ايضا توقيع الصانع علي بن محمد امكي .

* متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٢١٥٤ ارتفاع ٣٣ سم قطر ٢٤ سم * .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٧٢) كتابة تنص على ان هذه القطعة نسجت للمكان المقدس ، وان ناسجها هو شولان شير زاده ، في سنة ٩٧٩هـ (١٥٧١) . واسفل الكتابة منظر لامير في حديقة ويركع امامه احد اتباعه .

* موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ١٠٢٩ * .

* مجموعة باريس واتسون سابقا طول ٢٢٫٤ سم * .

وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر ، قطعة من نسيج الصوف (شكل ٧٣) من القرن ٤هـ (١٠م) عليها كتابة تنص على انها نسجت في طراز الخاصة بمطمور من كورة الفيوم ، مما نلاحظ اثره في الاسلوب الريفي الجذاب في رسم الحيوانات والجمال على الشريط الزخرفي ، وفي اسلوب الكتابة اسفل ذلك ، وكل ذلك بالوان متعددة .

* متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٩٠٦١ ، ٧٢×٢٧ سم * .

وعلى قطعة من نسيج الكتان بخيوط ذهبية (شكل ٧٤) شريط زخرفي في الوسط ، عليه رسوم أنعام تجري في اتجاه واحد . ويحد هذا الشريط سطر كتابة ، تنص على

ان هذه القطعة نسجت فى طراز الخاصة بمصر للخليفة العباسي المطيع بالله ، تحت اشراف فايز مولى امير المؤمنين . والمعروف ان الخليفة المطيع بالله توفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤) .

« متحف الفن الاسلامي» بالقاهرة رقم السجل ١٠٨٢٧، ١٣٥×٢٨ سم » .

•••

واستعمل مصورو المنمنمات الكتابة العربية لزخرفة لوحاتهم . ومثال لذلك منمنمة (شكل ٧٥) من مخطوط مقامات الحريري ، وهو مؤرخ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧م) وقد كتبه الخطاط والمصور الشهير « الواسطي » . وتمثل هذه المنمنمة جماعة من الاشخاص يحتفلون بانقضاء شهر رمضان وبداية عيد الفطر . وهم ينفخون فى ابواق ويحملون رايات ، ويلوحون باعلام تزخرفها حروف كتابة بالخط الكوفي .

« دار الكتب الاهلية في باريس ، ٢٠٢×٢٨د٢٢ سم » .

وعلى منمنمة اخرى (شكل ٧٦) من مخطوط للمنظومات الخمسة للشاعر نظامي. وقد استعمل الفنان مناطق بها اشعار ليخلق التناسق فى التكوين الفني . وهذه المنمنمة من عمل المصور « سلطان محمد » احد تلاميذ المصور بهزاد . وهي تصور قصة من حياة السلطان السلجوقي سنجر ، عندما خرج مرة للقتال ، فاستوقفته امراة عجوز لتشكي له ان احد عساكره قد سرق منها حاجة ـ وقد اظهر السلطان امتعاضه لانها استوقفته لصغائر الامور اثناء خروجه للقتال ، فسألته العجوز ، كيف يستطيع ان يفتح بلادا اجنبية وهو يعجز عن حفظ النظام فى بلده ، وقد رسم المصور « سلطان محمد » هذه المنمنمة بمهارة فائقة ، واستطاع ان يخلق التناسق الجميل بين ابيات الشعر الفارسية التي كتبها بالخط العربي وبين مناظر القصة . وهذا المخطوط مؤرخ بين سنتي ٩٤٦/٩٤٩هـ (١٥٣٩/١٥٤٣) .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٨٩٩ » « المتحف البريطاني ، فى لندن » .

•••

وهكذا نرى ان **الكتابة العربية تستعمل** فى زخرفة التحف الفنية **وتزيينها فى جميع البلاد الاسلامية** ، ولا غرابة فى ذلك ، فان المسلمين فى انحاء العالم يحفظون القرآن الكريم بلغته العربية،كما كانت جميع الشعوب الاسلامية تكتب لغاتها بالحروف العربية ، ولو لم تكن اللغة العربية لغة بلادها . بل كما بقيت كتابة النصوص التاريخية تكتب على المباني والعمائر باللغة العربية الى عهد قريب فى كل هذه البلاد حتى ولو لم تكن لغة البلد هي العربية مثل ايران وتركيا .

* * *

بعض المراجـع

مصحف السلطان الاشرف شعبان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة .

يوسف احمد ، الخط الكوفي ، الرسالة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤ .

جاستون فييت ، القيمة الفنية للكتابة العربية ، مجلة الوقف ، الجزء الثاني من السنة الثالثة ـ المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٣٨ .

محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط ، تاريخ الخط العربي وادابه ، القاهرة ١٩٣٩ .

محمد غريب العربي ، الخط الديواني .. كيف ظهر ؟ ومجلة مدرسة تحسين الخطوط الملكية ، القاهرة ١٩٤٢ .

زكي محمد حسن ، الزخارف الكتابية في الفن الاسلامي ، مجلة الكتاب ، يناير ١٩٤٦ .

ابراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية . سلسلة « اقرأ » العدد ٥٣ ـ ابريل ١٩٤٧ .

م.س. ديماند ، الفنون الاسلامية ، الترجمة العربية لاحمد محمد عيسى ، راجعها احمد فكري ، القاهرة ١٩٥٤ .

محمد مصطفى ، الكتابة العربية عنصر زخرفي مجلة « المجلة » العدد الثاني ، القاهرة فبراير ١٩٥٧ .

محمد مصطفى ، روائع من التحف الاسلامية ، من محاضرات المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية (بغداد ١٨ ـ ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧) . فصلة من كتاب جامعة الدول العربية عن المؤتمر ـ القاهرة ١٩٥٩ .

قاسم محمد الخطاط ، قواعد الخط العربي ، بخط قاسم محمد الخطاط ، بغداد ١٩٦١ .

محمد مصطفى ، متحف الفن الاسلامي ، دليل موجز ، القاهرة ١٩٦٢ .

عبد الرحمن زكي ، القاهرة ، تاريخها وآثارها ، القاهرة ١٩٦٦ .

ناجي زين الدين المصرف ، بدائع الخط العربي ، بغداد ١٩٧٢ .

محمد أبو الفرج العش ، نشأة الخط العربي وتطوره ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، المجلد ٢٢ ، دمشق ١٩٧٢ .

محمود شكر الجبوري ، نشأة الخط العربي وتطوره ، بغداد ١٩٧٤ .

ثروت عكاشة ، فن الواسطي من خلال مقامات الحريري ، القاهرة ١٩٧٤ .

السيدة منى مصطفى النجمي ، فن الكتابة العربية ، القاهرة ١٩٧٥ .

Selected Bibliography

Periodicals :

Ars Islamica
Ars Orientalis
Kunst des Orients
Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. Katalogisierung der Orientalischen Handschriften in Deutschland.

— Moritz, B. Arabic Palaeography. Cairo 1905.

— Noldeke, Bergstrasser, Pretzl, Geschichte des Qorans.

— Gluck, Heinrich und Diez, Ernst, Die Kunst des Islam. Berlin 1925.

— Herzfeld, Ernst, Die Malereien von Samarra. Berlin 1927.

— Thomas W. Arnold and Adolf Grohmann, The Islamic Book, a Contribution to its Art History from the seventh to the eighteenth century. 1929.

— Kochlin, R. and Migeon, G., Cent Planches d'art musulman. Paris 1929.

— Wiet, Gaston, Lampes et Bouteilles en verre emaille. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Carie. Cairo 1929.

— Wiet, Gaston, Objets en Cuivre. Catalogur Generale du Musee de l'Art Arabe du Cairo. Cairo 1932.

— Weill, Jean David, Bois a Epigraphes. Catalogue Generale Du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1936.

— A Survey of Persian Art. ed. by Arthur Upham Pope. London,. New York 1938 ff.

— Abott, Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its Kur'anic Development, with a full description of the Kur'anci Manuscripts in the Oriental Institute. Chicago 1939.

— Wiet, Gaston, Steles Funeraires. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1939.

— Abott, Nabia, Arabic Paleography. Ars Islamica. Vol. VIII. 1941.

— Dimand, M.S., A Handbook of Muhammadan Art. New York 1944.

— Kuhnel, Ernst, Die osmanische Tughra. Kunst des Orients. Wiesbaden 1945.

صدر حديثاً

ديناميات التغير السياسي والاجتماعي في العالم الثالث

عرض وتحليل: محمد غانم الرميحي

الكتاب الذى بين أيدينا يلقى الضوء على ديناميات التحديث فى العالم الثالث من جهة التحديث السياسى والتغير الاجتماعى .

ويشترك فى الكتاب سبعة من المتخصصين يتناول كل منهم على حدة بلدا مختارا من اقطار العالم الثالث هى : الهند ، تشيلي ، المكسيك نيجيريا ، سوريا ، الصين الشعبية ، وقد قام محرر الكتاب David E. Schmitt اضافةالى تحرير الكتاب بكتابة مقدمته ، الطويلة نسبيا وخاتمته . **اما الكتاب الستة الاخرون فقد قام** كل منهم بتحليل ديناميات التحديث السياسى والاجتماعى فى القطر الذى كتب عنه .

DYNAMICS OF THE THIRD WORLD POLITICAL AND SOCIAL CHANGE
Editor : David E. Schmit. Published by : Winthrop Publishers, Inc. 1974.

David E. Schmitt, (Editor)), Dynamics of the Third World Political and Social Change, Winthrop Publishers, Inc. 1974.

في المقدمة يشير محرر الكتاب الى الاسباب التى دفعته هو وزملاؤه لتناول هذا الموضوع ، وبالتحديد اختيار هذه البلدان ، فهى تمثل عينة مختاره من بلدان العالم الثالث والتى تختلف فيها التجارب والاجتهادات السياسية والاجتماعية من تلك المنتمية لاتجاه الديمقراطيات الغربية حتى تلك التى تتبنى الماركسية اللينينية في معالجتها للتحديث السياسي والنمو الاجتماعي . كما ان تلك الاقطار تمثل محاور جغرافية متعددة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ويصر محرر الكتاب على القول ، في مقدمته ، بان الهدف من هذا الكتاب هو فقط ان يشكل مقدمه عامة لدراسة الموضوع من جوانبه المتعددة ، وانه ليس كتابا متخصصا ، فيكفيه ان يشوق القارىء ، على حد تعبيره ، لقراءة الكتاب والاطلاع على بعض المؤشرات الهامة ، الاجتماعية والسياسية في بعض اقطار العالم الثالث وهي تسير في ركب التغير . ويبرر اختيار هذه الدول دون غيرها بانها دول كبيرة ومهمة عدا سوريا فهي ، كما يدعى ، دولة صغيرة نسبيا ، ولكنها تتميز بتغيرات سياسية واجتماعية سريعة منذ الاستقلال ، وقد كتب الفصل الذي عالج الوضع في سوريا Alan R. Balbomi وهو يهودي يهتم بالصراع العربي الاسرائيلي ، وقد كتب قبل ذلك كتابا عن جماعات الضغط الامريكية الصهيونية . اما بقية الكتاب الاخرين فهم مجموعة من المتخصصين الامريكيين وينتمون الى عدة جامعات امريكية ، وتنحصر تخصصاتهم في العلوم السياسية او في الاقتصاد السياسي ، وهم مهتمون بالمناطق التى كتبوا عنها .

ويتناول الكتاب في جزء اساسي بعض جوانب العلاقات الدولية ، من حيث كشف علاقة بعض هذه الاقطار بالدول الكبرى الاوروبية او الشرقية .

ويهدف الكتاب الى تقديم فهم عام للقضايا الرئيسية التى تواجه العالم الثالث في سبيل تطوير نفسه ، وكشف الادوات والاستراتيجيات التى يستخدمها قادة العالم الثالث من اجل مواجهة وحل المشكلات . ويعرف الكتاب العالم الثالث تعريفا سلبيا فهو يشير الى ان العالم الثالث هو « افقر واقل تطورا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى » ويشير الكتاب الى ان معظم دول آسيا وافريقيا والشرق الاوسط هي من العالم الثالث . مع استثناء وهو استبعاد اليابان ، وهذا معقول واسرائيل (وهذا غريب) من اطار العالم الثالث * .

ويهتم الكتاب بالعالم الثالث من حيث علاقاته الدولية ، فيشير الى انه مهما بعدت هذه الاقطار عن الولايات المتحدة ومهما قلت مصالح الاخيرة فيها الا ان « امن المواطن الامريكي » وبالتالي امن الدول المتقدمه مرتبط بشكل أو باخر بمشكلات الدول في العالم الثالث وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

لقد تبنى الكتاب اطاراً ثلاثي الابعاد في التحليل النظري لمشكلات التغير السياسي والاجتماعي . وصفها على انها اما :

اولا : تغير تابع ـ اى ان التغيرات السياسية والاجتماعية هى نتيجة لعوامل اخرى يمر بها المجتمع كالتغيرات الاقتصادية مثلا .

ثانيا : متغير فاعل ـ اى التغيرات السياسية هى في حد ذاتها مؤثرة في العلاقات الاجتماعية السائدة في ذلك المجتمع .

ثالثا : هى متغير مستقل اى انها تتطور في المجتمع دون التفاعل بالعناصر الاخرى الاجتماعية او الاقتصادية .

---

* استبعاد اسرائيل من اطار العالم الثالث هى نظرة حرصت عليها معظم الكتابات الغربية وهى نظرة متحيزة وغير علمية .

في الحالة الاولى ينظر الى التغيرات السياسية والاجتماعية على انها تابع للبيئة المحلية وبالتالي تدخل في تكوينها النهائي عدة عناصر اقتصادية واجتماعية وسياسية ولكن كمايشدد الكتاب بانه **من التبسيط المخل النظر** الى التغيرات الحادثة في البنى السياسية والاجتماعية في دول العالم الثالث على انها فقط تابع لمتغيرات اخرى، **وان النظام السياسي هو** استجابة لما حوله .

والنظر الى التغير السياسي في هذه المجتمعات على انه متغير فاعل على اساس **ان الانظمة الاخرى في المجتمع مستجيبة(تابعة)** للتغير السياسي او مستجيبة للقرارات **والخطوات المتخذه** من الحكومة او القيادة السياسية يظهران النظام السياسي لسيطرة **كبيرة على المجتمع واذا** كانت هذه ظاهرة ملاحظة بوضوح في بعض البلاد كما تبين الكتاب عند دراسة نموذج الصين الشعبية **فان** اعتبارها تعميم تنقصه الدقة العلمية .

يبقى ركن الاطار الثالث الذي ينظر اليه الكاتب في تحليله النظري وهو التطور السياسي المستقل ، ولو اننا نجد صعوبة في ادماج هذا الركن مع الركنين السابقين في التحليل وهما التابع والفاعل . الا ان هذا الركن يفسره الكتاب بالقول **ان التطور السياسي او التدرج السياسي هو « الطريقة التي يزيد بها النظام المعنى قدرته على التعامل مع المتطلبات المتجددة للمجتمع ، ومع المجموعات الجديدة وتوسيع المشاركة السياسية »** . يبدو لنا هنا ان ذلك يدخل ايضا في اطار الفكرة القائلة بان التغيرات السياسية (تابعة) او مستجيبة للتطور في المجتمع . اي ان ذلك يعني خلق ورعاية لتأييد شعبي وبناء مؤسسات سياسية وادارية صالحة للعمل والاستجابة للحاجات الجديدة ، مثل احزاب سياسية ومؤسسات جماهيرية ... الخ .

ويذهب الكتاب الى تقسيم اشكال التطور السياسي الى قسمين رئيسيين :

الاول : **النمط الديمقراطي الغربي** ــ وهو من شقين :

اولا : كما هو موجود في الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض دول اوروبا الغربية ، والذي يفصل تقليديا بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية مع كل المؤسسات التابعة لهذا الشكل من التطور السياسي .

والشق الثاني وهو ، الشكل الاخر من التطور السياسي هو **نظام الحزب الواحد** كما يظهر في الاتحاد السوفيتي وبعض دول المنظومة الاشتراكية . ويؤكد الكتاب هنا ان كلا الشكلين يقومان ضمن اطار التطور السياسي في النمط الديمقراطي . وهذا يناقض كثيرا من الكتب المماثلة ، **والتي تنظر الى انظمة** الحزب الواحد على انها **تجميد سياسي** اكثر منها تطور . لذا **يضيف الكتاب القول** ان «كلا الشكلين المذكورين آنفا من التطور السياسي استطاعا ان ينما تماشيا مع التحديث والبقاء والتجديد » . **ويضيف الكتاب انه لا يمكن الافتراض بشكل تلقائي ان واحدا من هذين الشكلين في التطور السياسي هو افضل من الشكل الاخر ، او ان هذه المؤسسات هي الشكل الوحيد للتطور ، انما** يؤكد الكتاب ان هذين الشكلين ربما يكونان غير صالحين لعدد وفير من شعوب العالم الثالث **التي لها قيم ثقافية وانماط اجتماعية وظروف اقتصادية** لها خصوصياتها . ولكن الكتاب هنا يقع في ازدواجية غير مفهومة وغير مفسره تحيث انه يحصر التطور السياسي في قسمين يأتي مرة اخرى ليترك الكثير من الهوامش التي يمكن ان يدخل تحتها عدد لاحصر له من تجارب (التطور السياسي) ، فهو يضيف في هذا الخصوص انه لا يجب النظر الى ان الشعوب **المتقدمة هي الاكثر تقدما في مجال التطور**

السياسي ، لان التطور السياسي يشير الى طرق دائمة لاحتضان التغير الاجتماعي بسهولة ومتى ما اصبحت اقل قدرة على احتضان ومعالجة التغير ، تصبح غير ذات محتوى متطور . ويخرج من هذه المقدمة بتعريف شامل للتطور السياسي وهو « **مقدرة النظام السياسي على هضم التغير ومسايرة المهام المتطورة التابعة في المجتمع نتيجة عمليات التحديث** » .

بعد هذا التعريف الليبرالي الشامل يفاجئنا الكتاب بالقول ان هذا لايتم بالضرورة من خلال مؤسسات او نظام حكومي كامل ، انما قد يعتمد مثلا على نظام قبلي . ويبقى السؤال كيف يمكن ان يهضم حكم قبلي حاجات متجددة في مجتمع يسير في ركب التطور ؟ .

ثم يعرض الكتاب قضية هامة هي ميكانيكية العلاقة بين النظام السياسي في اي مجتمع وبين بيئته الاجتماعية والاقتصادية ، فيعتبر ان لا حكومة تستطيع ، وبشكل مطلق ، ان تتحكم في بيئتها ، وليست كثير من الحكومات في المقابل خاضعة بشكل مطلق لشعوبها ، انما هناك تبادل مستمر بين النظام السياسي مع مكوناته الاخرى ، كالنظام الاقتصادي والثقافي السائد في المجتمع وبين البيئة الاجتماعية والمصالح المتعددة لمجموعات الضغط ، ولكن مشكلات الحكومات في العالم الثالث هي مشكلات معقدة او ، على حد تعبير الكتاب ، « **ان حكومات العالم الثالث مبحرة في بحر مليء بالمشكلات التي لاتستطيع حلها** » ويفسر ذلك بأن هنالك قوى جديدة وقوى قديمة تتضارب مصالحها فتسبب هذا الاضطراب .

ثم يذهب الكتاب الى مناقشة اهم العوامل السياسية التي اثرت على الوضع السياسي الحالي في العالم الثالث ، وساهمت الى حد بعيد في اشاعة الاضطراب السياسي فيه فيشير الى :

١ ـ الاستعمار :

سيطرت شعوب اوربا على شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية لذلك فان الشعوب القبلية في افريقيا وجزء من آسيا ، والامبراطوريات التقليدية في آسيا قد تغيرت نتيجة لصراعها مع الامبريالية الغربية . لقد قدمت القوة الاستعمارية مفاهيما جديدة في التجارة وفي العلاقات الاجتماعية وفي التنظيم السياسي ، تأثرت على اثرها الشعوب التي لم تخضع طويلا للاستعمار الغربي ، وقد طالها ذلك التأثير الا ان « الطلب » على التغير قد ازداد بعد رحيل المستعمر مباشرة . ويضرب مثالا على ذلك في الصين وتايلاند . هنا يتجاهل الكتاب فكرة ترددت في الكتابات السياسية في العقدين الاخيرين وهي التبعية الاقتصادية او الاستعمار غير المباشر ، وفي هذا الخصوص يقرر الكتاب ان الاضطرابات السياسية دائما تلو التحرير . فالتاريخ السياسي لآسيا وافريقيا بعد الحرب مليء بالانقلابات والعصيانات ، ويناقش هذا الموضوع على انه متغير مستقل ليست له علاقة بالوضع الاستعماري او بالطبقات الحاكمة التي تركها الاستعمار المباشر بعد رحيله . وكان السبب عدم الاستقرار هو داخلي بحت نابع من حب المغامرة او عدم الوصول الى سن الرشد لهذه الشعوب . ويضيف مؤكدا فكرته انه بالرغم من ان الاستعمار بشكله القديم قد ترك او حاول ان يترك حكومات على النمط الديمقراطي الغربي ، الا ان الحكومات التسلطيه هي التي سادت في العالم الثالث ، نتيجة للاضطراب السياسي ، وهي القاعدة بدل ان تكون الاستثناء .

٢ ـ التغيرات الاقتصادية والتكنولجية :

التغيرات الاقتصادية تسرع في خطوات الحياة ، والاقتصاد المتطور يحتاج الى وسائل مواصلات سريعة لنقل العمال والمواد الخام الاولية والمصنعة من والى الاسواق والتغيرات

الاقتصادية ايضا تتبعها تغيرات فى نمط الحياة الاجتماعية مما يسبب ضغوطا على الحكومات من الشعب قد لا تستطيع هذه الحكومات ، لاسباب متعددة ، انجازها .

٣ — نمو المدينة :

ساعدت الزيادة فى السكان وتغير التكنيك الزراعى والرغبة فى حياة افضل على نمو المدينة وتضخمها ، وسكان المدينة يحتاجون الى خدمات حكومية اكثر من سكان الريف ، انهم يحتاجون الى طرق ومواصلات ومدارس ومحطات اطفاء والى مجموعة كبيرة اخرى من الخدمات . وسكان المدن اكثر استعدادا للانتظام فى اشكال سياسية تطالب باصلاحات او تتحدى النظام القائم .

٤ — ثورة الاتصالات العالمية :

مشكلات متعددة جلبتها معها ثورة الاتصالات العالمية فقد جاءت الثورة التكنولوجية بالتلفزة والسينما والصحافة والاذاعة والتى تحمل اخبارا عن المنتجات المادية للعالم من اكثر العواصم تطورا ، وهى تقدم صورة عما وصلت اليه الحياة البشرية ، فالغسالات الاتوماتيكية والطباخات على الغاز هى مجال لتحرر الناس الذين لا يزالون يغسلون على ضفاف الانهار او يطبخون على نار الحطب .

٥ — التغيرات الثقافية :

المعتقدات والقيم والافكار القديمة تتصادم مع القيم والافكار الحديثة التى تجعل المعتقدات القديمة والشعبية تضعف ، وكلما ضعفت هذه المعتقدات اصبح هناك فرصة اكبر للافادة من الوعى الجديد لدى الشعب ، ومن خلال السياسيين الطموحين والضباط لاظهار عدم قدرة الحكومة القائمة على الوفاء بطلبات الجماهير .

هذه النقاط الاساسية التى يعرضها الكتاب كاهم العوامل التى تؤثر فى المتغيرات السياسية فى دول العالم الثالث ولوانه يناقشها من وجهة نظر احادية فقط ، فهناك لاشك ايجابيات كثيرة للتغيرات الثقافية فى العالم الثالث لصالح التقدم .

ويتابع الكتاب بعد هذا ما اسماه **(الازمات ونسب التغير السياسى والاجتماعى)** فيعرض الى ان « الثورة » هى تغير اساسى وجذرى فى النظام القائم ، وتنتج الثورة من غربة مجموعة من الشرائح الاجتماعية عن المجتمع ورغبتهم للعمل معا نحو تحطيم « الامر القائم » السياسى والاجتماعى ، وتتصاعد احتمالات الثورة عندما تكون توقعات الناس مرتفعة نتيجة للاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى هذا الاطار يشير الكتاب ، ولو بطرف خفى ، الى انه كلما زادت الاصلاحات الاجتماعية والسياسية توقع الناس اكثر ، فاذا لم يتحقق ذلك فان الثورة قائمة . والدرس الواضح من ذلك كله ، كما يريد الكتاب ، ان يعلمنا هو انه يجب حساب الاصلاحات فى العالم الثالث حسابا دقيقا ..

النظام السياسى كنسق مستقل :

هل النظام السياسى يمكن ان يكون نسقا مستقلا فى التطور والتحديث السياسى وما هى الطرق والوسائل الكفيلة بجعل النظام السياسى هو قائد التحديث ؟ يعتقد الكتاب ان ذلك ممكن عن طريق احد العوامل التالية :ـ

١ — الشخصية العظيمة :

الشخصية القيادية المؤثرة والتى تظهر فى الازمات فى الدول التى لا تحظى بانظمة سياسية مؤسسية . لذلك فان ظهور هذه الشخصية قد يؤثر فى التحديث السياسى . وهذه الفكرة بالطبع فكرة مبالغ فيها ، لانه بدون ان تنضج الظروف الموضوعية فى المجتمع

يكون دور « الشخصية العظيمة » دورا غير ذي معنى .

٢ ـ البيروقراطية العامة :

وفي العالم الثالث لاتوجد او لايسمح **بوجود مؤسسات سياسية تنقد الحكومة القائمة** وموظفيها ، فالقيمة والفعالية العامة لم ترق الى التنظيم الحديث ، والولاء القبلي والعائلي ياخذ الاسبقية ، لذلك فالبيروقراطيون لهم الفاعلية الاكثر في هذه المجتمعات والسياسيون لهم وسائل فعالة للسيطرة على الموظفين العاملين غير الاكفاء ، لذلك فان التأثير **البيروقراطي يمكن ان يكون مؤثرا في التطور** السياسي .

٣ ـ الاحزاب السياسية :

لمعالجة المشكلة هناك آراء متعددة تطرح عادة منها **ان وجود احزاب** سياسية متماسكة وقوية كما في الصين والمكسيك ، يمثل الحزب فيها اداة الحاكم القوية يمكن ان يكون لهذا الحزب دور سياسي .

والدور السياسي للحزب هو معالجة ازمة المشاركة الناشئة عن التحديث . والحزب **هو الوسيلة الاساسية لتنظيمه والاشراف على** التوازن بين متطلبات المجتمع ككل وقدرة (الحكومة) على تلبية هذه المطالب . في العالم الثالث (يلاحظ الكتاب) انه لاتوجد احزاب ناطقة قوية . هناك مجموعات شخصية وشللية معتمدة على شخصية زعيم قوي وتابعة . وربما في التحليل الاخير نجد ان الكتاب قد ذهب الى تعميمات غير مستحبة علميا . فهناك احزاب في العالم الثالث كما هو في الهند ـ على سبيل المثال ـ وقد اثبتت **فاعليتها الديناميكية في اطار التحديث السياسي .**

٤ ـ الايديولجية :

الايديولجية هي « **نظام من الافكار يتمحور حول السياسات المحتاجة الى شرح او تبرير من خلال كلمات مكتوبة او مقالة ، وفي العالم الثالث تتمحور الايديولوجية حول الاستقلال القومي** » .

هكذا يلخص الكتاب مفهوم الايديولوجية كنسق مستقل ومؤثر في التحديث السياسي وربما يكون قد جانبه الصواب في هذا الاطار **وبخاصة فيما يخص العالم الثالث ، فقدلعبت** (الايديولوجية) وما زالت تلعب دورا حيويا في اطار التحديث والتقدم للدول وشعوب متعددة **في العالم الثالث . يعترف بها الكتاب في مكان** آخر عندما يتكلم عن **التعليم كطريقة للتثقيف** الايديولجي فهو يقول انه حتى العلوم البحتة **والرياضيات** تستخدم **الفكر السياسي .** فيقرر ان (التعليم واحد **من المجالات الهامة** التي يستطيع **القادة القوميون ان يبسطوا** سلطتهم من خلالها) .

٥ ـ التعليم :

يساعد على المساهمة في تثبيت النظام السياسي عندما يخطط له من اجل ذلك . **ولكن التعليم ، كما يقرر الكتاب ، سلاح ذو** حدين ، فمن جهة يمكن السيطرة عليه من خلال البرامج الموجهة في التعليم ، سواء كان تعليما عاما او جامعيا او مهنيا ، ولكنه من الجهة الاخرى يرفع درجة توقعات المتعلمين من **النظام السياسي السائد ويدفعهم الى تحديه .**

٦ ـ التطور الاقتصادي :

للتطور الاقتصادي مردود اكبر من مجرد اشباع الحاجات الانسانية ، ولكنه ايضا يعطي **خيارات متعددة للحراك والتطور الاجتماعي ،** لذا فان التطور الاقتصادي جزء اساسي في دعم او اعاقة التطور السياسي .

٧ – الجيش (العسكر) :

يمكن ان يكون الجيش مساعدا على التطور في العالم الثالث ، كما يمكن ان يكون معوقا للتطور والتحديث . وحتى الانقلابات العسكرية يمكن ان تأتي بعد تقدم اقتصادي وسياسي ، والجيش هو الطريقة الوحيدة والغالبة في العالم الثالث التي يمكن عن طريقها تحويل السلطة من الارستقراطية غير المعطاءة الى شرائح اجتماعية اخرى . والعسكر اكثر قدرة على انجاز التطور الاقتصادي من بعض المؤسسات الاخرى من خلال ما تعودوا عليه في تسلسل الاوامر التنفيذية – الضبط والربط – ويقوم الجيش في العالم الثالث بشكل الاسفنجة التي تمتص العاطلين عن العمل، وتوفر مصادر رزق لقطاع كبير من الشعب دون ان يكون بمقدور هذه القطاعات المشاركة الايجابية في الساحة السياسية .

وكثيرا ما تتم الانقلابات العسكرية لاسباب انانية عندما تغلق سبل الترقيات مثلا في وجوه الضباط الكبار، هذه الاسباب في العادة تتوخى اسبابا سياسية وتجيء في غمرة تدهور سياسي لان الانقلاب العسكري اقل احتمالا في اجواء حكم شعبي يحقق طلبات شعبه .

ولكن العسكريين لايستطيعون الاحتفاظ بالشعبية لوقت طويل ، لانهم غير قادرين على مواجهة الازمات المزمنة للتحديث . ويقدم الكتاب حولا لعلاج خطر الانقلابات وذلك عن طريق احالة الضباط الطموحين الى الاستيداع في وقت مبكر، وكذلك اجراء قفزات في الترقية للضباط الاخرين ، ونقل الضباط من مكان الى آخر حتى لايكون لهم استقرار دائم في مكان تثبت لهم فيه ولاءات ، واضفاء الشرف الاجتماعي على البعض بين وقت وآخر وربما اشراكهم في القرارات الممكنة فيما يلزمهم ضمن سياسة الحكومة . وربما ان افضل طريق لحفظ العسكر خارج التدخل في الحكم هو جعل المؤسسات السياسية قادرة على امتصاص التطور السياسي والاجتماعي . ويصف الكتاب اهم اسباب الانقلابات العسكرية وهي الازمات السياسة المزمنة والمظاهرات والاضرابات وعدم الاستقرار السياسي بوجه عام .

طرق التطور السياسي :

طرق التطور السياسي متعددة ، وكل طريق منها تؤدي غرضا او اغراضا ايجابية ، وقد يكون لها عناصر سلبية ، ولكن على كل قائد سياسي ان يتبع طريقة محددة وواضحة في التطور السياسي ، والايدخل في تخطيط غير مفهوم للجمهور، بعض الطرق السياسية صالحة للحكومات الشيوعيون ، فالاحزاب مثلا يمكن ان تستخدم في اية ايديولوجية سياسية.

ويعرف الكتاب مجموعة من الطرق المعروفة الان في العالم سواء المتقدم او في العالم الثالث منها :–

١ – الديموقراطية الليبرالية الغربية :

من مظاهرها حرية الانتخابات والتنافس غير المحدود بين الاحزاب لكسب الاصوات ، ولكن هل يمكن تطبيق ذلك في دول العالم الثالث أو اذا كانت الايدولوجية الغربية قد تنجح في الدول الغنية فهل يمكن ان تنجح كذلك في الدول الفقيرة ..؟ هذه الاسئلة يتركها الكتاب لدراسة النماذج ، واكبر نموذج في هذا الخصوص هو الهند .

٢ – الديموقراطية السياسية المحدودة :

يحدد الكتاب الهدف مما اسماه بالديمقراطية السياسية المحدودة بان تقوم قيادة قوية لاجراء اصلاحات هامة في المجتمع من خلال التغير الاجتماعي حتى تصل هذه الاصلاحات الى الديمقراطية اليبرالية ، والاصلاحات العامة تتجه الى التعليم العام ،

القضاء على الفقر ، الاصلاح الزراعي ... الخ ويقود الديمقراطية السياسية المحدودة حزب واحد في البلاد ، ويتجه هذا الحزب لاتاحة الفرصة لاحزاب اخرى ، بعد ان يكون قد انجز المهمات الاساسية المطلوبة .

٣ ـ السلطوية :

نظام حكم متسلط لا انتخابات حرة ، ولا حرية تعبير ، ولكنه يسمح فقط بمنظمات متعددة مثل المنظمات الدينية والمنظمات التجارية ، وربما منظمات عمالية في اضيق الحدود تاخذ هذه المنظمات حرية العمل ما دامت مستمدة من السلطة ومتعاونة معها . ومع ان السلطوية تعتمد على تعاون مجموعات اساسية في المجتمع ،الا ان سلطتها الاساسية مستمدة من (العسكر) او الشرطة . وهناك اتجاهان في السلطوية احدهما هو السلطوية اليمينية والثاني هو السلطوية اليسارية .

ا ـ السلطوية اليمينية :

تمتاز بانها تحدد التغيرات الاجتماعية وتتحكم فيها عن طريق عدم فسح المجال لمجموعات النخبة الجديدة والتحكم في نموها، كالابتعاد عن التصنيع وتحديد التعليم والاعتماد على مجموعات تقليدية في المجتمع كاصحاب الاراضي والجيش والمجموعات الدينية .وعادة في هذا النوع من السلطوية نجد ان المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) مضغوط عليها .

ب ـ السلطوية اليسارية :

تحطم المحتوى التقليدي للنظام السياسي ، وتقوم بتوزيع الاراضي لكسر الاحتكار السياسي لاصحاب الاراضي والاقطاعيات الكبيرة وتشجع المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) في مجالات تتوافق والاهداف العامة للسلطة .

٤ ـ النظام التعبوي (الشيوعي) :

الانظمة السياسية هنا ، كما يشير الكتاب تعتمد على القوة المطلقة ، على الاقل في المدى القريب ، ويضرب امثلة على ذلك كالصين الشعبية. والنظام التعبوي قد لايكون (شيوعيا) بالضرورة ـ كما يبدي الكتاب ـ فقد تتماثل مظاهر النظام التعبوي دون ان يكون ،بالضرورة معتنقا للفكر الماركسي ، ويتجه هذا النوع من الانظمة **ليس الى تعاون وحلول وسط بين فئات المجتمع المختلفة دائما ، وانما تبدأ الاصلاحات** من خلال اعلان حكومي ومصادر الاراضي الزراعية ببساطة **من ملاكها الكبار لتوزعها على** الفلاحين المعدمين ، وتؤمم المصانع دون ان يعوض اصحابها ، والمعارضون للثورة يمكن ان يطبق عليهم القصاص ويردعون عن طريق السجن او الابعاد خارج البلاد . ولكن حتى هذه الانظمة ـ كما يقول الكتاب ـ تحتاج الى دعم شعبي اذا اريد لها الحياة الطويلة ، والقادة عادة في مثل هذه الانظمة يهتمون بالدعم الشعبي ، لذلك تجدهم يسخرون بكثافة الايديولوجية المتوفرة لديهم للحصول على الدعم الجماهيري . وهذه الانظمة ليست كبقية انظمة العالم الثالث يمكن الاطاحة بها بسهولة ، فيقدر الكتاب انه لم يحصل ان اطيح بحكم شيوعي في العالم الثالث .

من التقسيمات التي تبناها الكتاب والتي عرضت في الانماط السابقة تبين لنا انها تقسيمات ، قد تكون عشوائية الى درجة كبيرة ، ويبدو التضارب واضحا في الحديث عن النظام (التعبوي) والذي انهى الكتاب تحليله حوله بالقول انه لا يمكن الاطاحة بها دون اعطاء تبرير كاف لذلك عدا وجود الايديولجية ، وفي رأينا ان المشاركة السياسية من قبل اكبر القطاعات هي التي تعتبر صمام الامان لمثل هذه الانظمة . كما انه لا يبدو فرق واضح بين السلطوية اليسارية واليمينية من حيث منظور التطور السياسي ، فالسلطوية هي سلطوية في البداية والنهاية واحتكار القرار

السياسى ، وعدم وجود المشاركة الشعبية الواسعة قائم فى الاثنين .

بعد هذه المقدمة النظرية يتناول الكتاب بالتفصيل ، **الاقطار التى تبناها كنموذج ، واحدا تلو الآخر ، الا انه نظرا لاختلاف الكتاب** الذين تناولوا هذه الاقطار واختلاف وجهات نظرهم السياسية والاجتماعية فاننا نلاحظ ان تحليلاتهم لا تتطابق تماما مع ماجاء فى الاطار النظرى للكتاب ، فبعضهم تناول الدولة التى يتحدث عنها من وجهة نظر متعاطفة (كما فى الهند) وبعضهم تناول الدولة التى يتحدث عنها من وجهة نظر (معادية) كما فى حالة سوريا **مثلا .**

ونحن هنا سوف نعرض لدولتين فقط من الدول الست التى جاءت دراستها فى الكتاب حتى نتبين بالتحديد مدى انطباق التوجيه النظرى على الواقع الملموس ، وقد اخذنا الهند وشيلى مثلين لهذا العرض .

الهنـد :

يصفها الكتاب بانها اكبر الدول الديمقراطية فى العالم ، وبالطبع فهو يشير هنا الى عدد السكان . ولكن ما هو الثمن المدفوع لهذا النوع من التطور السياسى على حساب التطور الاقتصادى والاجتماعى ، فى مجتمع كالهند متعدد التقسيمات اذ ينقسم الى طوائف دينية وطبقية ولغوية ، مغمور بالفقر والأمية ، ولماذا اختارت الهند هذا التطور السياسى وفضلته **على النمط الغربى الليبرالى ، ولماذا لم تتحول** البلاد الى شيوعية كما هى عليه الصين ، أو تحكم بالعسكر كما هى عليه نيجيريا مثلا ..؟

الاسباب التى يضعها الكتاب كعامل للتطور السياسى فى الهند هى ان الديمقراطية فى الهند ، بمعناها الليبرالى ، قد سبقت التطور الاقتصادى ، ومن هنا كان بقاؤها واستمرارها .

التركيب السياسى فى الهند استمد شرعيته قبل الاستقلال سنة ١٩٤٨ ، بزمن طويل وقبل ان يبدأ التطور الاقتصادى الحديث فى غزو الريف الهندى ، فقد لعب الاستعمار البريطانى فى حالة الهند دورا ايجابيا من حيث توحيدها ، اذ اهتم الاستعمار بالهند كوحدة وظهرت المواطنة لعموم الهند منذ منتصف القرن التاسع عشر . فقد بدأت بريطانيا تستجيب (بنصف قلب) لرغبات الهنود فى المشاركة السياسية ، وذلك من اجل البعد عن التقسيمات الادارية التقليدية . واشراك الهنود كشعب ، لا كطوائف فى السلطة ، وذلك ليسهل الاستقلال الاقتصادى لعموم الهنود من قبل السلطة الاستعمارية . **وشهدت الهند** فيما بين الحربين تطورا هاما هو اصدار قانون ١٩٣٥ للاصلاحات السياسية **وما سبق ذلك** من ربط الهند بشبكة **مواصلات ، بعد القضاء** على ثورة ١٨٥٧ التى قادها حكام الولايات المختلفة والمتنفذون من كبار الاستقراطية ونتيجة لها قامت بريطانيا بحملة واسعة من **اجل اضعاف سلطة هذه الطبقة، وهذه الخطوة** الأخيرة ساعدت بوجه آخر على ازالة عقبة **سياسية من وجه التطور الديمقراطى اللاحق.** وهذا هو عكس ما هو قائم فى امريكا اللاتينية حيث ساعد الاستعمار ، بشكل او باخر على ايجاد طبقة متنفذة وقوية عطلت فى وقت لاحق التطور الديمقراطى ، كما قامت بريطانيا فى الهند بتشجيع وتنمية طبقة وسطى ، هذه الطبقة وفرت لبريطانيا شريحة ادارية متوسطة وكبيرة العدد ساعدت بدورها على فرض **مفاهيم غربية فى المجتمع الهندى . هذه** الطبقة الوسطى المتعلمة فى الغرب او على الطريقة الغربية بدأت بدورها بالمطالبة

بالاصلاح على الطريقة الغربية ، في حين استمرت النخبة البريطانية ضد الوضع الاجتماعي السائد ، لتحرض امرا ضد امر ، ومسلما ضد هندوسي ، وطائفة ضد طائفة .

والمؤتمر الهندي الذي انشىء في سنة ١٨٨٥ كانت جذوره الاجتماعية من الطبقة الوسطى الادارية والمتعلمة سابقة الذكر ، وطالب هذا المؤتمر بتمثيل اكبر للهنود في الخدمة المدنية والمجلس التشريعي ، ثم بدأ يطالب بعد ذلك بالحريات الليبرالية والتمثيل الشعبي ، وتطور (المؤتمر) بعد ذلك الى ان حصل انشقاق في صفوفه بين (معتدلين) نادوا بالتطورية اي ان يشارك الهنود في الحكم بشكل تطوري ، (ومتطرفين) وهي صفة اطلقها عليهم البريطانيون . هؤلاء التجأوا الى الجماهير ورفعوا شعار المقاطعة في الاتجاه للوصول الى الحكم الذاتي ، وتجاوب البريطانيون مع هذه الفئة (ايضا بتصف قلب) بعد مذبحة رهيبة في سنة ١٩١٩ تركت ٣٧٩ هنديا قتيلا واكثر من ٢٠٠٠ جريح وتزعم المؤتمر في هذه الفترة المهاتما غاندي الذي اعلن بعد المجزرة ان (اي متعاون مع السلطة الاستعمارية هو مجرم) وفي بداية العشرينات بدأت قوة (الكونجرس) حزب المؤتمر تظهر بقوة من طريق فروعه المنتشرة في انحاء الهند ، وبدأت هذه الفروع تنتخب ممثليها في جو ديمقراطي ، ولان تشكيل المؤتمر قد اعتمد اساسا على مجموعات متفرقة من الشعب الهندي فقد جاء ممثلا للجماهير الهندية باختلاف قطاعاتها . بالطبع كانت هناك اتجاهات سياسية اخرى في الهند اهمها المسلمون الذين تكتلوا عن طريق انشاء (الرابطة الاسلامية) وهذه ايضا نبعت من الطبقة المتوسطة الا ان اهدافها الايديولوجية كانت مختلفة عن (المؤتمر) .

اذن فالطبقة الوسطى الهندية قد طلقت ما بين الحربين والى الابد كل ما يربطها بالامراء والاقطاعية والارستقراطية ، واختلفت التجربة مثلا عن شمال نيجيريا حيث تعاونت الطبقة الوسطى مع الزعماء التقليديين ضد الاستعمار ثم قفزت الثانية على السلطة لفترة ، فأصبحت العلاقة بين الطبقة الوسطى والطبقة الاستقراطية علاقة وثيقة .

التطور الاقتصادي في الهند :

الانجاز الاكبر للبريطانيين في الهند كان في الناحية السياسية ولم يكن في الناحية الاقتصادية ، فقد اعدوا المؤسسات وبنوا الهياكل التنظيمية والادارية ودربوا النخبة وسطروا معظم خطواتهم الاقتصادية لاحلال الاستقرار السياسي . وربما يكون الكتاب هنا ، قد تجاوز الواقع عندما افترض ان الاقتصاد الهندي لم يكن الا تبعة وخدمة للبريطانيين فقد كان هو الهدف ، وفي الطريق الى تحقيق ذلك الهدف ربما تم بناء المؤسسات الادارية .

التشرذم الثقافي :

يعتقد كثير من الدارسين ان التشرذم الثقافي هو سمة من سمات المجتمع الهندي ، فهناك تقسيمات طائفية وعرقية واجتماعية واقتصادية ، بل ان في الطائفة الواحدة مجموعة من التقسيمات الداخلية ، فالهندوس مثلا ، يقسمون انفسهم ، في داخل الطائفة ، الى عشرات الاقسام ، فهناك المحاربون والتجار والناس العاديون ... الخ وادنى مستوى اجتماعي هو لطائفة المنبوذين الذين يعتبر حتى الاختلاط بهم مجلبة للنحس والنجاسة . ولكن الملاحظ ان الدائرة الطائفية ليست مغلقة نهائيا ، فيمكن عن طريق الحصول على قوة سياسية او اقتصادية الصعود في السلم

الاجتماعى ، وبخاصة بعد أن سيطرت القوة الاستعمارية على الهند لعدة قرون ، واستطاعت بعض الفئات ، عن طريق الفرص الجديدة ، الانتقال من درجة أدنى فى السلم الاجتماعى الى درجة أعلى ، ولكن الصراع الاجتماعى / الطائفى قد اخر كثيرا الصراع الطبقى فى الهند ، فخلال الانتخابات الدورية غير مستغرب ان يستخدم السياسيون الشعارات الطائفية الاجتماعيةلجلب الانصار.

الا انه بسبب الانتشار الجغرافى للطوائف المختلفة من الصعب لتكوين التنظيمات السياسية على أساس طائفى / حزبى فقط . كما ان فى الشعب الهندى فوق ذلك تابعين لأكثر الديانات المعروفة فى العالم ولكن الاغلبية هم الهندوس (٨٥ ٪) والمسلمون الذين يشكلون اكبر الاقليات الدينية (١٠ ٪) تقريبا . وقد شكل المسلمون فى الهند عشية الاستقلال قضية سياسية هامة ، ففى بداية القرن ، ونتيجة للثقة المفقودة بين الهندوس والمسلمين ، اتجه المسلمون لحماية انفسهم بتشكيل (الرابطة الاسلامية) فى بداية الثلاثينات تحت قيادة محمد على جناح ، لم اصبحت الرابطة الاسلامية بعد ذلك رابطة جماهيرية نتيجة استغلال الخوف المتفشى بين المسلمين حول مستقبلهم ، وفى المقابل لم تكن هناك مؤسسات (دينية) هندوسية قوية (كما هو الحال بالنسبة للتنظيمات الدينية للمسلمين عن طريق العلماء مثلا او الكنيسة الكاثوليكية فى امريكا الجنوبية) كان يمكن ان تعمل ضد التحديث فى الهند . وقد حدث ذلك فى الدولة المسلمة الهندية (باكستان) لاحقا . وقد ساعد اختلاف اللغات والعنصر بشكل عجيب على ربط الشعب الهندى . فعندما قدم المستعمر لغته (الانجليزية) تغلبت على اللغات المحلية المتعددة ، ولكن هذه اللغة - حتى الان - يجيدها فقط قلة من المتعلمين والعاملين بالادارة .

وبالرغم من هذه الصعوبات، فقد استطاعت الدولة فى الهند ، ان تسير فى طريق التغير السياسى بطريقة ديمقراطية ليبرالية عن طريق حكومة مركزية مستقرة ونافذة ، يمكن لها ان تحقق .

١ - تشكيل الهوية القومية .

٢ - السلطة المركزية الخاضعة عن طريق اجراءات مؤسسية ومجلس تمثيلى .

٣ - ايجاد احزاب جماهيرية ممثلة لقطاعات مختلفة من الشعب بدلا من النبلاء المحليين والاستقراطيين .

٤ - الاقتراع العام .

<u>**التنظيم الحزبى والبرلمان :**</u>

فى الهند ، هناك على المستوى القومى ، برلمان مكون من مستويين الاول هو (مجلس الشعب Rajya Sabha)وهو الاكثر اهمية، ومنتخب على المستوى العام ، ورئيس الوزراء هو زعيم حزب الاغلبية فى هذا المجلس . اما المجلس الثانى فهو (المجلس الاعلى) (Lok Sabha) ، وهو يشبه مجلس اللوردات البريطانى ، واعضاؤه منتخبون من الحكومات المحلية للولايات . وعلى مستوى الولايات يوجد المجلس التشريعى للولاية وهو الاهم كما ان رئيس مجلس وزراء الولاية يختار من الاغلبية فى هذا المجلس والسلطة فى يد الوزارة على المستوى المحلى ، وهى ايضا فى يد الوزراء بشكل فعال على المستوى القومى وفيما عدا فترة قصيرة فى حياة الهند السياسية

بين ٦٩ ـ ٧١ ، لم يعد سقوط انديرا غاندى الاخير ، كان حزب المؤتمر هو صاحب الاغلبية على المستوى القومى فى مجلس الشعب . وكما هو فى البلاد الديمقراطية فان الكثير من الممثلين الشعبيين لهم حساسية خاصة تجاه مطالب ناخبيهم ، لان السياسيين فى الغالب ، يحكمون من خلال الخدمات التى يقدمونها لناخبيهم .

البيروقراطية :

تتحكم فى الادارة العامة فى الهند بيروقراطية موحدة على المستوى القومى او المحلى . كذلك هناك (حاكم) لكل ولاية تابع مباشرة « لرئيس الجمهورية » مهمته فى اوقات الازمات ان يكون (حاكم) الولاية هو ممثل السلطة المركزية فى مواجهة اية اضطرابات محلية .

الجيش والشرطة :

الكثير من الجيش والبوليس فى الهند معنى بتغيير السلطة ، ولكن القليل منهم يحاول ان يعمل شيئا باتجاه ذلك ، ولم تحدث فى الهند منذ الاستقلال اية محاولة انقلاب . وتقسم القيادات العسكرية فى الهند الى خمسة اقسام اقليمية ، وهذا التقسيم قلل من احتمال وجود قوة عسكرية موحدة فى الجيش ضد الحكومة . اما الشرطة فهى كالشرطة فى معظم اقطار العالم لا تتمتع باحترام شعبى لذلك فان علاقتهم بالشعب علاقة سلبية ، مما يقلل احتمال الثقة بهم .

الايديولوجية :

(لا تعتمد القيادة الهندية على ايديولوجية محددة خاصة بها كالايديولوجية الصهيونية فى اسرائيل مثلا . وتتبنى الحكومة الهندية شيئا من الاشتراكية الديمقراطية فى شكلها الفضفاض وتترك جانبا كبيرا للمشروع الخاص

وفى النهاية يناقش الكتاب سؤالا مهما هو : هل يمكن اعتبار الهند مثالا للديمقراطية الغربية فى العالم الثالث ..؟ الكتاب يجيب على هذا السؤال بنعم ، حتى لو كانت فقيرة ومتخلفة فهى تعتبر مثالا لبلدان العالم الثالث التى تبنت الديمقراطية الليبرالية كطريق لحل مشكلاتها السياسية والاجتماعية ولكن السؤال الذى يبقى مطروحا .. ما هو الثمن الاقتصادى الذى تدفعه الهند لذلك ...؟

لا يحاول الكتاب الاجابة على ذلك رغم اشارته للسؤال .

شيلى : التجربة وسقوط الديمقراطية

يناقش الكتاب مسيرة شيلى ـ التى اخترناها للعرض هنا ـ لانها تمثل « ظاهرة » لا فى العالم الثالث فحسب ، وانما فى العالم قاطبة حيث تحولت فى فترة وجيزة نسبيا وعن طريق الديمقراطية الليبرالية الى دولة تؤمن بالماركسية وتطبقها . فقد صوت فى سنة ١٩٧٠ اكثر من ٩٠ ٪ من الناخبين فى انتخابات حرة واختاروا « شيوعيا » من الحزب الاشتراكى رئيسا للجمهورية . كما ان شيلى تعتبر نموذجا من وجهة نظر اخرى ، فهى دولة من العالم الثالث تتفشى فيها الاحتكارات الراسمالية .

وتشيلى ، كغيرها من بلدان العالم الثالث ، « النامية » لها علاقات وطيدة بالامبريالية العالمية ـ حيث شعرت الاحتكارات الاقتصادية مثل (شركة التلجراف العالمية) مع بعض الوكالات الرسمية الامريكية بخطورة تطور وضع شيلى وحرمان الاحتكارات من اوضاعها المميزة ، فكان ان عملت على خلق مصاعب اقتصادية وسياسية نجحت فى اسقاط النظام المنتخب وبشكل دموى وعن طريق العسكر . وبذلك سقطت تجربة كان العالم الثالث يعلق عليها الآمال .

يناقش الكتاب في موضوع تشيلي هذا السؤال : كيف يمكن لبلد مثل تشيلي له خبرة طويلة في الديمقراطية الليبرالية — ودخل سكانها في المتوسط اكثر من دخل ٩٠ ٪ من اقطار العالم الثالث ان تتجه الى الطريق « الجذري للتغير » في انتخابات ديمقراطية حرة ؟ وكانت النظرة حتى ذلك الوقت انه لا يمكن لشعب حر ومن خلال الانتخابات الحرة أن يتجه بوعي ارادي الى اعتماد الماركسية اللينينية كطريق للخلاص ، على أساس ان تلك الديمقراطية الليبرالية هي نهاية الطريق وفي حدود لعبها يمكن أن يحدث التطوير السياسي المنشود .

ويجيب الكتاب على ذلك السؤال بتحليل للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتطورها في العقود الاخيرة . فيعرض الكتاب الى انه بعد الحرب العالمية الثانية بدا ان النظام السياسي الشيلي لا يقدر على مواجهة الطلبات الاجتماعية والاقتصادية المستجدة . وفي خلال الستينات كانت قدرة النظام الشيلي على عدم الوفاء بالطلب الاجتماعي المرتفع ظاهرة ملحوظة ، لدرجة ان كل العناصر القيادية في تشيلي ، بتعدد مشاربها السياسية ، كانت تطالب بالتغيير .

لذلك فان وصول سلفادور الليندى الى سدة الرئاسة في سنة ١٩٧٠ هو تعبير عن المعاناة السياسية والاقتصادية ، ولكن هل ترك حتى ينفذ برنامجه الذى وافق عليه الشعب الشيلي ؟ بالطبع لا . فقد استطاعت القوى المضادة — عن طريق الاتفاق مع بعض الاجهزة الامريكية والعسكرية الاطاحة بحكم الليندى في ١١ سبتمبر ١٩٧٣ ، فاطيح بالشرعية السياسية في اهم تجربة في العالم الثالث .

اهمية التجربة التشيلية :

يعرض الكتاب الى ان اهمية التجربة الشيلية هي الدروس التى يجب ان تستقى منها ، وهي ان وصول الليندى الى السلطة كان نتيجة طبيعية لعدم قدرة الأنظمة التقليدية على الاستجابة للمطالبات « الشرعية » للجماهير ، مما حدا بالشيليين الى المطالبة بالتغيير حتى لو كان الى اقصى اليسار والشيوعية . لم بدأ الكتاب ، في هذا الموضوع بمناقشة العوامل الاقتصادية والسياسية التى ادت الى ذلك كله .

يشير الكتاب الى ان عدد سكان تشيلي هو عشرة ملايين نسمة ، قسم كبير من هؤلاء السكان يعيشون في المدن — التى تكتظ المهاجرين المتعطلين — معتمدين على اقتصاد متخلف ونايم ، لقد حظيت شيلي بفترة طويلة من الاستقرار السياسي الليبرالي — فاستقلالها عن الاستعمار الامريكي في أوائل القرن التاسع عشر (١٨١٧) لم يكن من خلال صراع مع الاستعمار من قبل قوى محلية لها مصلحة في التطوير ، وقد خرج الاستعمار تاركا التركيبة القديمة التي اعتمد عليها، .هم كبار الاقطاعيين والمضاربين الباحثين عن الفضة او الذهب واصحاب الاقطاعيات الكبيرة تركهم في سدة الحكم ، وتحول الاستعمار المباشر الى استعمار غير مباشر (اقتصادى) تتحكم فيه قلة أرستقراطية كانت اصلا متعاونة مع الاستعمار ومن خلال حكم ليبرالي مقنن استمر الاستنزاف الاقتصادي ، وقدرت الاستثمارات الامريكية في تشيلي في نهاية الستينات (١٩٦٨) بحوالى بليون دولار .

كما ان اكثر من ثلث ما تستورده تشيلي من الخارج يأتى من الولايات المتحدة الامريكية

وربع البضائع المستوردة يأتي من ثلاث دول غربية هي بريطانيا ـ المانيا ـ وفرنسا . واكثر من ثلاثة ارباع ما تصدره تشيلي يذهب الى الولايات المتحدة وغرب أوروبا . كما تعتمد تشيلي في تسليحها على الولايات المتحدة ضمن برنامج ضخم من المعونة العسكرية . وكان الطابع الليبرالي الظاهري في الاقتصاد والسياسة في الحقيقة استنزافا لمصادر تشيلي بالرغم من انها تبدو أوروبية الطابع (افكارا وممارسات سياسية)، الا انها كانت مستنزفة لتمتع فيها القلة بكل الامتيازات ولتحرم الاغلبية منها .

التحديث الاجتماعي والاقتصادي

تضاعف عدد سكان تشيلي في الستين سنة الاولى من هذا القرن من ٣ ملايين نسمة الى ٧ر٤ مليون نسمة ، ومن المتوقع ان يتضاعف في نهاية القرن ليصل الى حوالي ١٧ مليون نسمة . اما المدينة التشيلية فان التضخم السكاني كان اكثر وضوحا فيها من الريف ، حيث كان في سنة ١٩٠٠ نحو ١٢ ٪ من السكان يعيشون في ثلاث مدن بكل منها ٥٠٫٠٠٠ نسمة واكثر . وقفز في سنة ١٩٤٠ الى ١٨ ٪ يعيشون في ست مدن بكل منها ٥٠٫٠٠٠ نسمة او اكثر من السكان ، وفي سنة ١٩٧٠ كان هناك حوالي ٢٥ مدينة في تشيلي في الواحدة منها اكثر من ٥٠٫٠٠٠ نسمة ، وسكانها يمثلون حوالي ٥٠ ٪ من مجموع سكان تشيلي .

التطور الاقتصادي

تعد تشيلي مع بعض بلدان امريكا اللاتينية كالارجنتين وفنزويلا والارجواي من الدول المتقدمة في امريكا اللاتينية ـ وامريكا اللاتينية هي اكثر بلدان العالم الثالث تقدما ، وتعتمد تشيلي تاريخيا على الزراعة ، ومنذ سنة ١٨٠٠ بدأت تعتمد على صناعة التنجيم ، وهي الآن اكبر قطاع في الاقتصاد القومي في البلاد .

وبالرغم من ان العاملين في الزراعة يشكلون ٢٨ ٪ من المشتغلين اقتصاديا الا ان هذا القطاع لا يساهم بأكثر من ١٠ ٪ من الناتج القومي ، ومنذ القرن التاسع عشر لم تهتم الحكومات المتعاقبة في تشيلي بالزراعة . لذلك ساءت الاحوال في الريف، وبخاصة في السنوات الاخيرة، واصبحت البطالة في هذا القطاع تقذف الى المدينة بمجموعات كبيرة من العاطلين بصورة شبه مستمرة ، ولم تعد تشيلي تستطيع تغذية أهلها ، لذلك استخدمت اموال تشيلي في شراء الطعام من الخارج بينما ارض تشيلي الخصبة غير مستغلة .

وتمركز الارض في يد القلة جعل منها احتكارا ، ففي اواسط الستينات بين ان ٧ ٪ من الملاك يملكون اكثر من ٨٠ ٪ من الارض الخصبة ، وان ١٠ ٪ من الملاك يملكون اكثر من ٩٠ ٪ من الارض الصالحة للزراعة، وهذه الارض تملك من اجل المضاربة او تعزيز الواقع الاجتماعي للملاك ، ولكنها بالتأكيد لا تستخدم في الانتاج . فمعظم ملاك الارض هم ملاك غائبون لهم مصالح تجارية في المدينة، لذا فان تركز الارض في يد قلة كانت له نتيجتان رئيسيتان ، فقد كانت اولا من اسباب نقص المواد الغذائية ، وثانيا في اعطاء قلة من الملاك قوة سياسية جبارة ضد الكثير من الفلاحين .

والنشاط الاقتصادي الثاني في تشيلي هو الصناعة المنجمية ، وكما هي الزراعة ، كان لهذه الصناعة نتيجة لتطور طويل ، سلبيات

على المجتمع الشيلي اكثر من ايجابياتها في المجال السياسي والاقتصادي. فمنذ بداية القرن التاسع عشر ـ بدأ البحث من معدني الفضة والنحاس ـ وكانت المصدر الاول للعملات الصعبة ، ومنذ الحرب العالمية الثانية مثلت الصناعة المنجمية من ٧٥ ـ ٨٠ ٪ من الدخل الحكومي وكونت ٢٥ ٪ من الميزانية الحكومية بعد الحرب الثانية .

ولان المناجم وصناعة التنجيم قد طورت وملكت من قبل راس المال الاجنبي حيث الارباح تذهب الى بلدان راس المال ، فان هذه الصناعة ساعدت بشكل قليل بقية القطاعات الصناعية . واحيانا فان الاموال قد امتصت من القطاعات الاقتصادية الاخرى الى هذا القطاع مما شكل عدم توازن اساسي في الاقتصاد الشيلي ، والى وقت قريب . فان الضرائب المفروضة على هذا القطاع كانت اسمية .

ونظرا لهذا كله فقد كان الاقتصاد الشيلي في دائرة الركود في الغالب والانتعاش القليل احيانا .

وبالرغم من عدم وجود ارقام محددة حول توزيع الدخل ، بين كل القوى الاجتماعية (عدا المالكين) ، في العقدين الاخيرين ، فقد قدر أن ٨٠ ٪ من الشعب يحصلون فقط على ٢٥ ٪ من الدخل القومي في أواسط الستينات

التركيب الطبقي :

من المتعارف عليه ان هناك ثلاث درجات طبقية : الطبقة العليا ، الطبقة الوسطى (او الموظفون) ، الطبقة الدنيا ، وقد سيطرت الارستقراطية التشيلية على حياة الدولة في النشاطات السياسية وهي القلة القليلة بينما نجد في اواسط الستينات ان ١٢ ٪ من العمال فقط كانوا منظمين ، سياسيا او نقابيا ، في الوقت الذي ذكر فيه احصاء سنة ١٩٦٠ ان ٨٠ ٪ من النشطين اقتصاديا يمكن تصنيفهم كعمال .

غير ان هذه الصورة قد تغيرت في العقد الاخير بشكل جذري ، حيث وجهت جهود تنظيمية كبيرة الى قطاع عمال المدن وعمال الريف من قبل التنظيمات السياسية الوسطى واليسارية .

الاحزاب السياسية :

في تشيلي كانت الاحزاب السياسية مؤسسة حقيقية ، ويبدو ان الحكومة الحالية تفكر في تكوين حزب حكومي واحد ، وينظر الكتاب في تطور الاحزاب خاصة نحو احزاب اليسار منذ الاربعينات وخلال الخمسينات والستينات لم تطور القيادة في تلك احزاب ، ويعزو ذلك الى ان تطور الاحزاب الى اليسار والقيادات الجذرية هنا هو نتاج الوضع الاقتصادي وعدم المشاركة السياسية الواسعة .

التغيرات الاخيرة في تشيلي :

يعزو الكتاب التغيرات الاخيرة الجذرية (وصول حكومة لها توجه جذري) الى سدة الحكم ، وعن طريق انتخابات ليبرالية حرة ، الى التراكمات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في العقدين الاخيرين (الخمسينات والستينات) والى عدم استطاعة النظام السياسي السابق حل هذه التراكمات بسبب طبيعته المنغلقة ، كما ان مجموعة من العناصر الأخرى منها القرارات التي اتخذتها قيادات الاحزاب الوطنية التشيلية للنزول الى الريف مما سبب تزايدا في الاضرابات السياسية

والتوقف عن العمل . ولم يكن هناك متنفس للمجموعات الجديدة فى خلال الحياة السياسية كما ان وجود الحريات العامة والحريات الصحفية فى حملات الانتخابات المتعددة أسرع فى تكون الوعى السياسى لدى عامة الشعب . كل هذا جعل من عدم الرضا عن الوضع القائم حقيقة يلمسها الناس يوميا مما دفعهم الى التغيير .

خلاصة :

من الخطوط العريضة التى بدأها الكتاب ، كمجمل نظرى للمشكلات السياسية التى تواجه العالم الثالث واقتراح حلول لها ، يبدو لنا ان الكتاب الذى بين يدينا بجميع مساهميه تقريبا قد نظروا الى هذه المشكلات من منظور غربى ـ أى من خلال التجارب التى مرت بها الامم الغربية ـ لذا جاءت تحليلاتهم وتوقعاتهم مجملة لهذه النظرية دون اعتبار عميق لدرجة أصبح علماء السياسة والاجتماع فى العالم يأخذونها بعين الاعتبار الآن وهى علاقة التبعية الاقتصادية بين العالمين النامى من جهة والمتطور من جهة أخرى ، والتى فى حد ذاتها اما انها أفشلت تجارب سياسية نابعة من خصوصيات بعض بلدان العالم الثالث ، أو ركزت تجارب هشة بتثبيت مصالح العالم المتقدم فى دول ومجموعات تصدير الخامات الاولية تحت شعارات متعددة .

ويعنى فى النهاية ان هذا الكتاب يستحق القراءة ولو من أجل معرفة كيف يفكر الاكاديميون الغربيون تجاه مشكلات العالم الثالث السياسية .

* * *